اللواء الركن المتقاعد
أ. د. ياسين سويد

موسوعة

تاريخ لبنان

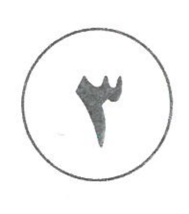
التاريخ السياسي والعسكري

الإمارة الشهابية (2)



اللواء الركن المتقاعد

أ. د. ياسين سويد



المقاطعات اللبنانية

في إطار بلاد الشام

التاريخ السياسي والعسكري

الإمارة الشهابيّة -٢-

NOBILIS

2004

إسم المجموعة : المقاطعات اللبنانية في إطار بلاد الشام

إسم الكتاب : - الإمارة الشهابية -٢-

المؤلّف : اللواء الركن المتقاعد أ. د. ياسين سويد

قياس الكتاب : 17 × 24

عدد الصفحات : 456 صفحة

مكان النشر : بيروت

دار النشر والتوزيع : دار نوبِليس

تلفاكس : 961-1-583475

تلفون : 961-1-581121 / 961-3-581121

الطبعة الأولى : 2004

الفهرس

فهرس الجزء الثالث
الإمارة الشهابية - ٢ -
الباب الثاني (تابع)

الفصل الخامس
معارك الأمير بشير الثاني الكبير - ١ -
معاركه قبل بدء الحكم المصري لبلاد الشام
(١٧٩٠ - ١٨٣١)

الفصل السادس

معارك الأمير بشير الثاني الكبير - ٢ -

الوضع العسكري العام

عشية الحملة المصرية على بلاد الشام

الفصل السابع

معارك الأمير بشير الثاني الكبير - ٣ -

معاركه في ظل الحكم المصري لبلاد الشام

(١٨٣١ - ١٨٤٠)

الفصل الثامن

مجتمع الإمارة الشهابية

في عهد الأمير بشير الثاني الكبير

الفصل التاسع

الأمير بشير الثالث

آخر الأمراء في آخر إمارة (١٨٤٠ - ١٨٤٢)

الباب الثالث

المقاطعات اللبنانية الأخرى

فهرس الخارطات والصور والوثائق

١ - فهرس الخارطات:

٢ - فهرس الصور:

فهرس الوثائق
الجزء -٣-

المصادر: **الصفحة**

- Archives Nationales - Paris (Archives des affaires étrangères, AE, dossier Cote B1 - 1017 et Archives de la Marine, dossier Cote B7 - 218).
- Bibliotèque Nationale de Paris, Pavillon Archives, (Département des manuscrits, dossier cote FR 20.983 fol. 89 - 100).

الباب الثاني (تابع)

الفصل الخـــامس

معارك الأمير بشير الثاني الكبير

- ١ -

معاركه قبل بدء الحكم المصري لبلاد الشام (١٧٩٠ - ١٨٣١)

قضى الأمير بشير طوال فترة حكمه التي بلغت خمسين عاماً ونيفاً، (١٧٨٨ - ١٨٤٠) في صراع مسلح مستمر مع خصومه ومنافسيه على الإمارة من الأمراء الشهابيين والزعماء المحليين من جهة، ومع بعض الولاة، والفئات المناوئة، ضمن تحالفاته العسكرية، من جهة أخرى، فما استقر له الحكم فترة إلا وبرز خصم عكّر عليه صفو ذلك الاستقرار، وسنحاول، في هذا الفصل، شرح أهم معارك الأمير، في الفترة الأولى والأهم من فترات حكمه، وهي تلك التي قضاها في الإمارة قبل تولي المصريين حكم بلاد الشام، أي منذ عام ١٧٩٠ وحتى عام ١٨٣٠.

أولاً - الثورة على الأمير، وقتاله ضد الأميرين حيدر ملحم ووقعدان محمد (الشهابيين) وأنصارهما من أهل البلاد (١٧٩٠ - ١٧٩١):

ظنّ الأمير بشير أنه، بموت الأمير يوسف، سوف يستقر له الحكم في البلاد، فقسا على أهلها وزاد عليهم الضرائب حتى ضجّ الناس منه وبدأوا

يعدّون العدّة للثورة عليه، وكان على رأس الثائرين الأميران حيدر ملحم (أخو الأمير يوسف) وقعدان ابن الأمير محمد ملحم (ابن أخي الأمير يوسف)[1]، وأنصارهما من النكديين واللمعيين وأهالي المتن والغرب والجرد والشحار ودير القمر[2]، وكان مع الأمير أنصاره وهم من أهل الشوف ووادي التيم، كما كان معه، من عسكر الجزار، جيش من الأرناؤوط والمغاربة والدالاتية والهوارة[3]، وقد جرت بين الأمير والثوار من أهل البلاد عدّة معارك أهمها:

١ – وقعة السعديات (حزيران ١٧٩٠):

كان الأمير بشير قد استعان الجزار طالباً منه إمداده بالجند لإخماد الثورة في البلاد، فأمده بألف من الأرناؤوط، بقيادة «الشلق عثمان»، عسكروا في حرش بيروت، وكتب إلى المتسلمين الذين هم من قبله على مدن الساحل كي «يكونوا مؤازري الأمير بشير في ما يلزمه»، كما كتب إلى متسلم دمشق كي «يجهز عسكراً لمساعدة الأمير بشير»، ثم أرسل بدوره فرقة من جنده بإمرة الأمير أسعد حاكم حاصبيا الذي نزل بها في البقاع[4] بانتظار أوامر الأمير الذي أرسل لمساعدته أخاه الأمير حسناً، هذا بالإضافة إلى من كان مع الأمير بشير من أهل البلاد ومن جند المغاربة، وكانوا ثلاثماية[5].

ولكن الثورة التي عمّت البلاد بأسرها أخافت الأمير فقرّر مغادرة عاصمته في دير القمر واللجوء إلى صيدا التي كان أهلها موالين للجزار حليفه، فانسحب بمن كان معه من الجند، من الدير إلى صيدا، ثم استدعى إليه جند الجزار من الأرناؤوط الذي كان معسكراً بحرش بيروت.

وفيما كان عسكر الأرناؤوط، ومعظمه من المشاة، ينتقل من بيروت إلى صيدا، داهمه عند السعديات، كمين من آل نكد، انقض على جند الجزار

فباغته وهو مرهق وقد أتعبه المسير، فقتل منه نحو مايتي جندي، وفرّ الباقون نحو صيدا.

في الواقع، لم تكن هنالك، في السعديات، معركة بالمعنى العسكري، وإنما كانت كميناً أتقن النكديون تنفيذه فأوقعوا بعسكر الجزار خسائر كبيرة.

٢ – وقعتا الشويفات والحرش (تموز ١٧٩٠):

خطة الجزار:

لم يكن الجزار ليرضى أن يفتك بجنده، على هذا النحو، فقرّر أن يؤدب «العصاة»، لذا، أصدر أوامره إلى الأمير بشير كي ينتقل، ومن معه من جند الأرناؤوط والمغاربة والدالاتية والهوارة، إلى حرش بيروت، مستخدماً طريق الساحل، ثم يتوجّه بعدها إلى المتن لإخماد الثورة وتأديب العصاة، على أن يلاقيه، من البقاع، الأميران أسعد وحسن (الشهابيان) بمن معهما من جند الجزار، فينكبا على المتن من الشرق، ويصبح المتن هكذا بين فكي كماشة، فكّها الأعلى جيش الأميرين أسعد وحسن وفكّها الأسفل جيش الأمير بشير، وكان جيش الأمير بشير قد بلغ نحو ألفي راجل وخمسماية خيّال[6]، بينما بلغ جيش الأميرين أسعد وحسن نحو ألفي مقاتل من عسكر الجزار.

خطة الثوار:

أما الثوار فقد قرّروا شلّ خطة الجزار بمهاجمة جيشه في كل من البقاع والساحل، فأوكلوا إلى أهل الشحار والغربين الأعلى والأسفل مهاجمة جيش الأمير بشير، كما أوكلوا إلى أهل المتن «توجيه عسكر منهم إلى العبادية لقتال العسكر المقيم في البقاع»[7].

وقعتا الشويفات والحرش:

كان الأمير بشير قد سار من صيدا ومعه عسكر الأرناؤوط والهوارة ومايتان من خيّالة الدالاتية، وما أن وصل إلى صحراء الشويفات حتى انقضّ عليه أهل الشحار والغربين، ودارت بين الفريقين معركة شرسة انتهت بهزيمة الثوار ومقتل نحو عشرين منهم، وتابع الأمير بشير السير بجنده حتى وصل إلى حرش بيروت فعسكر هناك، ثم أرسل الأمير حيدر أحمد(٨) بعسكر من الأرناؤوط فأحرق اللويزة والشياح وعاد إلى المعسكر، ولكن الثوار من أهل الغرب عادوا فنظموا صفوفهم ووافتهم نجدة من أهل المتن، ثم انقضّوا جميعاً على معسكر الأمير في الحرش ودارت بين الفريقين معركة انهزم عسكر الأمير من الدالاتية في بدئها، إلا أن الأمير عاد فجمع عسكره وهاجم الثوار فهزمهم وقتل نحو ثلاثين منهم، وفرّ الباقون إلى بلدة الشويفات(٩)، كما لجأ قسم منهم إلى دار الأمير حيدر (ملحم) في بلدة بعبدا.

٣ – وقعة بعبدا (١٥ آب ١٧٩٠):

انتقل الأمير بشير، بعد وقعة الحرش، بجيشه إلى رأس بيروت، ثم قرّر مهاجمة بعبدا حيث لجأ الثوار، فجهّز لذلك، من جيشه، فرقتين:

- الأولى، مؤلفة من ألف ومايتي جندي من الأرناؤوط، مهمتها مداهمة بعبدا والقضاء على الثوار فيها.

- الثانية، ومهمتها منع وصول أي مدد لثوار بعبدا من بلدة الشويفات.

المعركة:

وصلت الفرقة الأولى إلى مداخل بعبدا عند الغلس (قبل انبلاج الفجر)، فحاصرت دار الأمير حيدر حيث تمركز نحو سبعين من الثوار من أهالي بعبدا والجبل.

ويبدو أن خطة الأرناؤوط لم تكن احتلال الدار والقضاء على من فيها، لذا تمترس الثوار في الدار ونشب القتال بين الفريقين دون أن يحرز كل منهما أي تقدم، وقد بدا واضحاً أن المحاصَرين يعمدون، في قتالهم، إلى إلهاء المهاجمين ريثما يصلهم مدد منتظر.

وبالفعل، ما أن كاد الفجر ينبلج حتى كان الثوار يتقدمون نحو بعبدا من عدّة محاور:

- محور المتن – وادي البرزة – بعبدا.
- محور الغرب الأعلى – بعبدا (شرقاً).
- محور الشويفات – بعبدا (جنوباً وغرباً).

وقد صدّت الفرقة الأولى الثوار المتقدمين على المحورين الأولين (من المتن والغرب الأعلى) كما صدت المخافر المتقدمة للفرقة الثانية الفرسان المتقدمين على المحور الثالث (من الشويفات) بقيادة الأمير قعدان، ولكن الأمير قعدان عاد فهاجم هذه المخافر فهزمها، واستطاع بذلك أن يخترق خط الحماية المتقدم لقوات الأرناؤوط من الجهة الجنوبية، حيث أصبحت قواته وجهاً لوجه مع الفرقة الأولى التي تحاصر بعبدا، والتي كانت تعتمد، من الجهة الجنوبية، على حماية الفرقة الثانية لها، إذ كان على هذه الأخيرة أن تمنع وصول أي امداد للثوار المحاصرين من جهة الشويفات. وما أن رأى الجند المحاصِرون للثوار في بعبدا مخافر الحماية والرصد تنهار أمام هجمات الأمير

وقعتا الشويفات والحرش:

كان الأمير بشير قد سار من صيدا ومعه عسكر الأرناؤوط والهوارة ومايتان من خيّالة الدالاتية، وما أن وصل إلى صحراء الشويفات حتى انقضّ عليه أهل الشحار والغربين، ودارت بين الفريقين معركة شرسة انتهت بهزيمة الثوار ومقتل نحو عشرين منهم، وتابع الأمير بشير السير بجنده حتى وصل إلى حرش بيروت فعسكر هناك، ثم أرسل الأمير حيدر أحمد[٨] بعسكر من الأرناؤوط فأحرق اللويزة والشياح وعاد إلى المعسكر، ولكن الثوار من أهل الغرب عادوا فنظموا صفوفهم ووافتهم نجدة من أهل المتن، ثم انقضّوا جميعاً على معسكر الأمير في الحرش ودارت بين الفريقين معركة انهزم عسكر الأمير من الدالاتية في بدئها، إلا أن الأمير عاد فجمع عسكره وهاجم الثوار فهزمهم وقتل نحو ثلاثين منهم، وفرّ الباقون إلى بلدة الشويفات[٩]، كما لجأ قسم منهم إلى دار الأمير حيدر (ملحم) في بلدة بعبدا.

٣ – وقعة بعبدا (١٥ آب ١٧٩٠):

انتقل الأمير بشير، بعد وقعة الحرش، بجيشه إلى رأس بيروت، ثم قرّر مهاجمة بعبدا حيث لجأ الثوار، فجهّز لذلك، من جيشه، فرقتين:

– الأولى، مؤلفة من ألف ومايتي جندي من الأرناؤوط، مهمتها مداهمة بعبدا والقضاء على الثوار فيها.

– الثانية، ومهمتها منع وصول أي مدد لثوار بعبدا من بلدة الشويفات.

المعركة:

وصلت الفرقة الأولى إلى مداخل بعبدا عند الغلس (قبل انبلاج الفجر)، فحاصرت دار الأمير حيدر حيث تمركز نحو سبعين من الثوار من أهالي بعبدا والجبل.

ويبدو أن خطة الأرناؤوط لم تكن احتلال الدار والقضاء على من فيها، لذا تمترس الثوار في الدار ونشب القتال بين الفريقين دون أن يحرز كل منهما أي تقدم، وقد بدا واضحاً أن المحاصَرين يعمدون، في قتالهم، إلى إلهاء المهاجمين ريثما يصلهم مدد منتظر.

وبالفعل، ما أن كاد الفجر ينبلج حتى كان الثوار يتقدمون نحو بعبدا من عدّة محاور:

- محور المتن – وادي البيرزة – بعبدا.
- محور الغرب الأعلى – بعبدا (شرقاً).
- محور الشويفات – بعبدا (جنوباً وغرباً).

وقد صدّت الفرقة الأولى الثوار المتقدمين على المحورين الأولين (من المتن والغرب الأعلى) كما صدت المخافر المتقدمة للفرقة الثانية الفرسان المتقدمين على المحور الثالث (من الشويفات) بقيادة الأمير قعدان، ولكن الأمير قعدان عاد فهاجم هذه المخافر فهزمها، واستطاع بذلك أن يخترق خط الحماية المتقدم لقوات الأرناؤوط من الجهة الجنوبية، حيث أصبحت قواته وجهاً لوجه مع الفرقة الأولى التي تحاصر بعبدا، والتي كانت تعتمد، من الجهة الجنوبية، على حماية الفرقة الثانية لها، إذ كان على هذه الأخيرة أن تمنع وصول أي امداد للثوار المحاصرين من جهة الشويفات. وما أن رأى الجند المحاصِرون للثوار في بعبدا مخافر الحماية والرصد تنهار أمام هجمات الأمير

قعدان حتى أسقط في يدهم فأخذوا يهربون بدورهم، فانقضّ عليهم المحاصَرون من الداخل وأخذوا يطاردونهم «وكانت النساء تدخل بين القوم حاملة الماء للرجال وترمي الأرناؤوط بالحجارة»(١٠)، وقد فتك الثوار بالأرناؤوط المنهزمين وطاردوهم حتى الشياح، وكانوا يذبحونهم «كالغنم» ويقطعونهم «تقطيع لحم على وضم»(١١)، وقد قتل من الأرناؤوط في هذه الوقعة ما يزيد على الماية(١٢) وقيل أربعماية(١٣).

وكان موسم الحج قد دنا، فدعا الجزار إليه جنده الذين هم بتصرف الأميرين أسعد وحسن في البقاع، فسار الأمير حسن بالجند إلى صيدا، أما الأمير أسعد فعاد إلى حاصبيا، وأما الأمير بشير، فقد خشي أن يقطع عليه أهل البلاد الطريق إلى صيدا عند بلدة الدامور فسارع، بمن معه من الجند (وكانوا ألفين وخمسماية)، عائداً إلى صيدا حيث تبلغ أوامر الجزار بانتظاره فيها حتى عودته من الحج، فبقي هناك(١٤)، بينما عاد الأميران حيدر ملحم وقعدان إلى دير القمر واستقرا بها رافضين، مع وجهاء البلاد وزعمائها، تسليم حكم الإمارة إلى الأمير بشير.

٤ – وقعة حاصبيا (تشرين الثاني ١٧٩٠):

لم يأخذ الجزار، بعد عودته من الحج، بعرائض الاحتجاج والرفض التي رفعها إليه الأميران حيدر ملحم وقعدان وغيرهما من مناصب الشوف وأعيانه، والتي يرفضون فيها تولية الأمير بشير عليهم ويطالبون بتولية الأميرين حيدر ملحم وقعدان، بل انه، خلافاً لذلك، أصرّ على أن يمنح خلعة الولاية للأمير بشير، وأن يرسله إلى الشوف مصحوباً بجيش يوطد بواسطته حكمه.

توجّه الأمير بشير بهذا الجيش إلى حاصبيا حيث استقبله فيها حاكمها الأمير أسعد ووافاه إليها أخوه الأمير حسن، فأبقى الأرناؤوط مع الأمير أسعد بحاصبيا وتابع سيره، مع من تبقى من الجيش، وبصحبته أخوه الأمير حسن، إلى صيدا، ومنها إلى علمان، ثغر الشوف على الساحل.

ولكن، ما أن علم أهل البلاد بقدوم الأمير بشير وبصحبته جيش من عسكر الجزار إلى علمان، وبقدوم عسكر من الأرناؤوط إلى حاصبيا، حتى قرّروا مقاومته، مبتدئين بطرد الأرناؤوط من هذه البلدة، وبالفعل، فقد سار عسكر من أهل الشوف إلى حاصبيا لطرد عسكر الجزار منها، ودار بين الفريقين قتال انتهى بهزيمة عسكر الجزار من الأرناؤوط ولجوئهم إلى سرايا البلدة حيث تحصنوا فيها، فحاصرهم جند الشوف بخمسماية منهم وعاد الباقون إلى ديارهم، وما أن علم الأمير بشير بما حلّ بجند الجزار في حاصبيا حتى هبّ لنجدتهم بمن معه من جند، فوصل إلى نواحي حاصبيا بعد مسيرة ثلاثة أيام، فالتقاه جند الشوف الذين يحاصرون السراي، ودارت بين الأمير وجنده وبين الشوفيين معركة انتهت بهزيمة الأمير وجنده واندحارهم نحو «خان حاصبيا»، وألهبت الشوفيين حماسة الانتصار وأنستهم مهمتهم في حصار السراي ومن فيها من الأرناؤوط من جند الجزار، فتركوا مراكزهم واندفعوا يطاردون جند الأمير نحو الخان، وسنحت الفرصة للأرناؤوط المحاصَرين فانطلقوا من السراي في أثر الشوفيين يُعملون السلاح في ظهورهم، بينما ارتد الأمير بثلة مختارة من خيّالته على الشوفيين فهجم عليهم واضعاً إياهم بين فكي الكماشة، هو وجنده من الجنوب وعسكر الأرناؤوط من الشمال، ففتك بهم فتكاً ذريعاً، وقتل منهم نحو ١١٨ رجلاً، ودخل الأمير حاصبيا فأحرق بيوت خصومه فيها، ثم عاد إلى الشوف سالكاً طريق صيدا -

اقليم الخروب، وكان لديه نحو ١٢ ألف مقاتل من «دالاتيه وهوارة وأرناؤوط وسكمان ومغاربة»[١٥]، فتمركز بقسم من جيشه بعانوت بينما وزّع باقي الجيش بين شحيم وداريا، أما الأميران حيدر ملحم وقعدان فقد غادرا دير القمر مع أنصارهما، «وأقاما بعسكر البلاد» في بعقلين وعينبال[١٦]، وأخذ كل من الفريقين يستعد للمعركة الحاسمة.

٥ – المناوشات على محور شحيم – داريا – عينبال

(كانون الأول ١٧٩٠ - آذار ١٧٩١):

استمرت المناوشات بين الأمير بشير وعسكر الدولة - عسكر الجزار - من جهة، وبين خصومه من أهالي البلاد أنصار الأميرين حيدر ملحم وقعدان من جهة أخرى، نحو ثلاثة أشهر، وهي التي حدّدت مصير الأمير في تلك المرحلة، فقد كان هو يطمح في الوصول إلى عاصمة الإمارة «دير القمر» ليوطد حكمه فيها، بينما كان خصومه يمنعونه من ذلك مؤكدين، بالقتال، رفضهم له أميراً عليهم، ولو كان تعيينه قد تمّ من الجزار نفسه، وفيما يلي أهم ما حصل من مناوشات:

- ***وقعة نهر الحمّام الأولى (٢٧ كانون الأول ١٧٩٠):***

قرّر الأمير بشير التوجّه إلى دير القمر لتسلم الإمارة، فجمع جيشه وسار به حتى وصل إلى «نهر الحمّام» فالتقاه الأميران حيدر ملحم وقعدان بعسكرهما من أهل البلاد، ودار بين الفريقين قتال استمر من الفجر حتى المساء دون أن يسفر عن نتيجة حاسمة، إذ عاد كل من الفريقين إلى مواقعه، بعد أن خسر الأمير ٨ قتلى وخسر أهل البلاد قتيلاً واحداً[١٧].

- ***وقعة «غريفة» الأولى (٥ كانون الثاني ١٧٩١):***

وحاول الأمير من جديد التقدم نحو دير القمر، فسار بجيشه حتى وصل إلى بلدة «غريفة» فلقيه الأميران حيدر وقعدان بعسكرهما، ودار بين الفريقين قتال انتهى بهزيمة الأميرين ودخل المغاربة من جند الأمير البلدة، إلا أن الأميرين عادا فهاجما البلدة وطردا المغاربة منها حيث لجأوا إلى التل المحاذي لها، وفي هذه الأثناء أعدّ الأمير هجوماً معاكساً شنّه بخيالته على البلدة، واستمر القتال فيها طوال اليوم بكامله وحتى المساء، حيث تمكّن الأمير بشير من دخول البلدة وهزيمة خصومه ومطاردتهم حتى حدود النهر المحاذي لها، وقد خسر في هذه الوقعة نحو خمسين رجلاً، بينما خسر الأميران حيدر وقعدان سبعة وعشرين رجلاً، ولم تكن هذه الوقعة حاسمة إذ عاد كل من الفريقين إلى مواقعه السابقة[١٨].

- ***وقعة الجاهلية (٥ كانون الثاني ١٧٩١):***

في الوقت الذي كان القتال دائراً في «غريفة» بين جند الأمير بشير من المغاربة وجند الأميرين حيدر ملحم وقعدان من أهل البلاد، كان هناك قتال آخر يدور بين «النكديين» من أهل البلاد و«الأرناؤوط» من جند الأمير، في «الجاهلية»، وقد أسفر هذا القتال عن هزيمة الأرناؤوط[١٩].

- ***وقعة «نهر الحمّام» الثانية (١٦ كانون الثاني ١٧٩١):***

وقد انهزم في هذه الوقعة عسكر الأميرين حيدر ملحم وقعدان وقتل من عسكرهما ستة رجال[٢٠].

- ***وقعة «غريفة» الثانية (٧ شباط ١٧٩١):***

عاد الأمير بشير لاحتلال بلدة غريفة من جديد، فتصدى له أهل البلاد من أنصار الأميرين حيدر وقعدان، ودار بين الفريقين قتال لم يؤدِّ إلى نتائج

حاسمة، وفي الوقت ذاته، داهمت فرقة من عسكر الجزار بلدة «المزرعة» فنهبتها، وسبت نساءها وأولادها، وعادت إلى مراكزها بعانوت[21].

- *وقعة «غريفة» الثالثة (١٠ شباط ١٧٩١):*

وعاد الأمير، للمرة الثالثة، لاحتلال «غريفة»، فنشب بين جنده وجند الأميرين (حيدر وقعدان) قتال شديد انتهى باحتلال الأمير للبلدة بعد هزيمة خصومه فيها، وأقدم جند الأمير من عسكر الجزار على حرق البلدة بعد نهبها، وبلغ ذلك جند الأميرين المتمركزين في عينبال، فهموا لاسترجاع البلدة فوراً، وتمّ لهم ذلك بعد قتال شرس بينهم وبين جند الأمير بشير انتهى بهزيمة جند الأمير، وقد عاد بعدها كل فريق إلى موقعه الذي كان فيه قبل هذه الوقعة[22].

- *وقعة شحيم (٢٥ شباط ١٧٩١):*

بعد هذه المناوشات المتتالية وغير الحاسمة، قرّر الأميران حيدر ملحم وقعدان مهاجمة عسكر الأمير بشير في بلدة «شحيم»، وأعدوا لذلك حملة مؤلفة من خمسماية رجل من رجالهم المختارين، وكانت مهمة هؤلاء مداهمة عسكر الدالاتية المتمركزة في البلدة بقيادة «القره محمد» وقتل أكبر عدد من جنده والاستيلاء على ما أمكن من الأسلاب والغنائم، وكانت الحملة بقيادة رجل يدعى «حنا بيدر» من قرية «كرخا» بأقليم الخروب[23].

وصلت الحملة إلى شحيم ليلاً، فباغتت الدالاتية وهم نيام وفاجأتهم بإطلاق النار عليهم من كل جانب، فدبّ الذعر في صفوفهم وخرجوا من البلدة منهزمين نحو عانوت، بينما لحق بهم الجند المهاجمون فأعملوا فيهم سيوفهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وغنموا منهم نحو ماية وستة من الجياد وكثيراً من الأسلحة والأمتعة[24].

- *وقعة عانوت (٩ آذار ١٧٩١):*

دهم رجال الأميرين حيدر وقعدان عانوت ليلاً وكانت مقراً لقيادة الأمير نفسه[25]، فدار بين الفريقين قتال استمر حتى الفجر وانتهى بلا نتائج حاسمة، وعاد رجال الأميرين من حيث أتوا بعد أن خسروا ثمانية منهم[26].

- *وقعة عينبال (١٢ اذار ١٧٩١):*

وصلت إلى الأمير، في اليوم التالي لوقعة عانوت (١٠ آذار)، نجدة من البقاع قوامها ألف وأربعماية خيّال بقيادة المنلا إسماعيل الذي لام القره محمد، قائد موقع شحيم، وقائد فرقة الدالاتية، على عدم تقدمه إلى دير القمر واحتلالها طوال هذه المدة، وهكذا، فقد أدخل المنلا اسماعيل في روع الأمير بشير أن بإمكانه التقدم لاحتلال عاصمة إمارته والاستقرار فيها.

وفي صباح ١٢ آذار زحف الجيش بأكمله، نحو عينبال، وعلى رأسه المنلا اسماعيل الذي واجه بقواته قوات الأميرين حيدر وقعدان في عينبال فهزمهما بعد قتال شديد، وظل يطاردهما خارج البلدة حتى وصل إلى مرج بعقلين، وساء القره محمد أن يتم النصر على يد المنلا اسماعيل، فتخلف عن القتال وترك المنلا اسماعيل يواجه، لوحده، قوة من جند الأميرين قوامها ثلاثماية من خيرة المقاتلين من أهل البلاد بقيادة الشيخ جهجاه العماد، وفاجأ الشيخ جهجاه المنلا اسماعيل على حين غرّة، وقد تخلف القره محمد عن مساندته، فانكفأ بجنده، نحو عانوت، وما أن رآه الجند المنهزم من عينبال يتراجع حتى ارتدّ عليه مقاتلاً، ولم يتوقف المنلا اسماعيل بجيشه إلا بظاهر عانوت حيث هاجمه جيش الأميرين ليلاً، فدخل المنلا اسماعيل بجيشه البلدة، وجرى بين الجيشين داخل البلدة قتال استمر حتى الفجر، رجع بعده جيش الأميرين إلى عينبال بعد أن مني بخسائر فادحة[27].

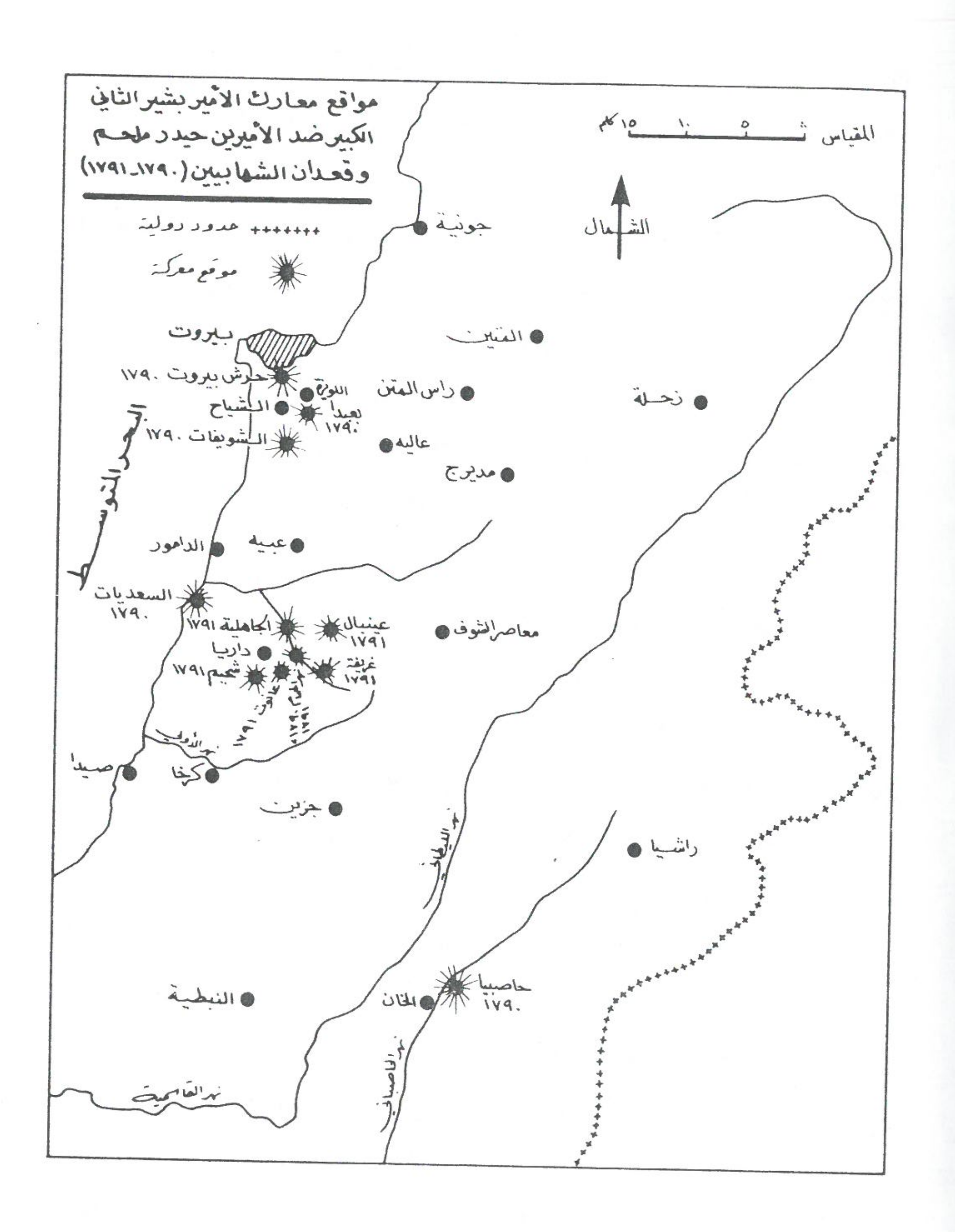
عودة الأمير بعسكره إلى صيدا (٢٣ آذار ١٧٩١) واستتباب الحكم للأميرين حيدر ملحم وقعدان:

بعد كل هذه المناوشات، تأكّد للأمير بشير وقادته من عسكر الجزار أنه يصعب عليهم إخماد الثورة والتغلب على الأميرين حيدر ملحم وقعدان وأنصارهما من أهل البلاد، وانه يكاد يستحيل على الأمير الوصول إلى دير القمر وتسلم مقاليد الحكم في الإمارة، فكتبوا إلى الجزار يبلغونه بذلك فأمر الجزار الأمير بشير بالعودة بجيشه إلى صيدا ومنها إلى عكا، ثم أمر بأن يقيم الأمير بشيراً مع عياله في صيدا، وأن يقيم أخوه الأخير حسن مع عياله في بيروت، وأن تصرف النفقات اللازمة لهما ولعيالهما.

أما الأميران حيدر ملحم وقعدان، فما أن علما برحيل الأمير بشير وعسكر الجزار من البلاد حتى عادا إلى دير القمر وتسلما الحكم فيها، وأخذا يتصرفان تصرف الحاكم الشرعي للبلاد، حيث كانا يجمعان الأموال الأميرية ويؤديانها للدولة حسب الأصول، مما حدا بالجزار إلى أن خلع عليهما إمارة الشوف «لأنه وجدهم صدقوا في إيراد المال الذي تعهدوا به»[٢٨]، وهكذا، أصبح الأميران حيدر ملحم وقعدان الحاكمين الشرعيين لإمارة الشوف، وأضحى الأمير بشير خارج حلبة الحكم ولو إلى حين[٢٩].

ثانياً – قتال الأمير لاستعادة الإمارة (١٧٩٣):

استمر الأميران حيدر ملحم وقعدان في حكم إمارة الشوف حتى مطلع عام ١٧٩٣ حيث عجزا بعدها عن إدارة البلاد وجباية الأموال، فرغبا في تولية أولاد الأمير يوسف (حسين وسعد الدين وسليم) على البلاد (وكانوا قد تولّوا



حكم بلاد جبيل)، وذلك خوفاً من أن يعمد الجزار إلى تولية حليفه القديم الأمير بشير بدلاً منهما، وبالفعل، فقد تمكّنا من تدبير خلعة الإمارة على الشوف لأولاد الأمير يوسف، وذلك بواسطة مدبرهم جرجس باز الذي كان على علاقة طيبة بالجزار، وفي ٢٢ آذار (١٧٩٣) أرسل والي عكا خلع الولاية إلى أولاد الأمير يوسف لكي يتولوا إمارة الشوف بدلاً من الأميرين حيدر ملحم وقعدان[٣٠]، وقد استقر أكبرهما، وهو الأمير حسين، بدير القمر عاصمة الإمارة، بينما بقي أخوه الأمير سعد الدين في جبيل.

ولكن الحكم لم يستتب لأولاد الأمير يوسف، إذ لقي توليهم الإمارة معارضة قوية من أغلبية أهل البلاد، مما جعل رأي هذه الأغلبية يتفق على إعادة الأمير بشير إلى الحكم، وبالفعل، فقد اجتمع مناصب البلاد وأعيانها و«كتبوا إلى الجزار يلتمسون منه الولاية له - أي للأمير بشير - فأجابهم وأنعم عليه بولاية البلاد»[٣١]، وكان ذلك في شهر أيلول من العام نفسه ١٧٩٣[٣٢]. وقد زوده الجزار بجيش بلغ نحو ألف مقاتل[٣٣] بقيادة المنلا اسماعيل، وسار الأمير إلى الشوف وبصحبته عدد من أنصاره وعلى رأسهم أخوه الأمير حسن والشيخ بشير جنبلاط، فتجمع لديه، في طريقه إلى الشوف، نحو ستة آلاف مقاتل[٣٤]، أما الأميران حسين يوسف وقعدان محمد، اللذان كانا بدير القمر، فقد غادراها إلى بعقلين، ومعهما جيش من أنصارهما من أهل البلاد، وذلك فور علمهما بقدوم الأمير بشير إلى الشوف.

إنطلق الأمير بشير بجيشه من صيدا باتجاه الشوف، فوصل إلى عانوت حيث عسكر فيها، وأرسل أخاه الأمير حسناً والشيخ بشير[٣٥] جنبلاط ومعهما المنلا اسماعيل بألف من عسكر الجزار إلى المختارة لاحتلالها والإقامة فيها، ورصد أحوال البلاد حتى وصوله إلى دير القمر.

١ - وقعة المختارة (تشرين أول ١٧٩٣):

علم الأميران حسين يوسف وقعدان محمد، وهما في بعقلين، بوصول جيش الأمير بشير إلى المختارة، فحشدا لمهاجمته في البلدة جيشاً من ألف مقاتل من رجالهما من آل عماد وآل نكد، ودهم هذا الجيش المختارة ليلاً على حين غرة، ونشب بين الفريقين قتال استمر زهاء ثلاث ساعات وأسفر عن هزيمة جيش الأميرين حسين وقعدان، حيث كانت فلول هذا الجيش تفرّ عند الفجر، مذعورة، من وجه جنود المنلا اسماعيل الذي طاردها حتى مرج بعقلين، وقد عزا بعض المؤرخين هزيمة الأمراء في هذه الوقعة إلى «خيانة» في صفوف آل عماد[٣٦].

٢ - وقعة خان الكحالة (٥ كانون الأول ١٧٩٣):

إنتقل الأمير، بعد انتصاره في وقعة المختارة، من عانوت إلى السمقانية، ثم إلى كفر حمّل، فجاءه اللمعيون والعماديون وسائر الأعيان يقدمون الطاعة والخضوع، باستثناء آل نكد وبعض التلاحقة الذين، ما أن علموا بتقدم الأمير في بلاد الشوف، حتى استقر رأيهم على مغادرة البلاد، مع الأمراء حسين يوسف وحيدر ملحم وقعدان محمد، وجرجس باز مدبر أولاد الأمير يوسف، فغادروها جميعاً إلى جبيل حيث استقروا هناك[٣٧].

أما الأمير بشير فقد توجّه بجيشه إلى الغرب حيث مكث فترة في بلدة عاليه، وانتقل بعد ذلك منها إلى حرش بيروت حيث عسكر فيه، وأرسل حواليته إلى بلاد الشوف والمتن لجباية الضرائب وتأديب العصاة، فأطاعه الجميع ما عدا أهالي المتن الذين طردوا حوالية الأمير وأعلنوا العصيان، فتوجّه الأمير بنفسه على رأس جيشه لقتالهم، فتصدّى له عند «خان الكحالة» بعض

المسلحين من أهل المتن وأطلقوا النار على جنده، فهاجمهم وفرّقهم ودخل بجيشه بلدة «العبادية» التي انطلق منها العصاة، فنهبها وقتل الكثير من أهلها[٣٨]، ثم دخل بلدة رأس المتن فأخضع أهلها، ومكث في المتن فترة حيث جاءه الزعماء من آل أبي اللمع فقدّموا له الخضوع والطاعة، كما جاءه الأميران حيدر ملحم وقعدان وآل نكد، وقد تخلّوا جميعهم عن أولاد الأمير يوسف وانضموا إليه. وهكذا استتب الحكم للأمير في البلاد، «وخافت سطوته العباد»[٣٩].

إلا أن الوفاق بين الأمير والجزار لم يدم طويلاً، ففي شباط عام ١٧٩٤ تلقى الأمير أمراً من الجزار بالعودة مع الجيش إلى «حرش بيروت»، فعاد الأمير إلى الحرش وعسكر فيه، وفي هذه الأثناء، وصلت إلى الجزار شكاوى على الأمير، من قادة جيشه، بأنه – أي الأمير – لم يدفع لهم الرواتب رغم أنه جمع من البلاد مالاً وفيراً، فما كان من الجزار إلا أن أمر بإلقاء القبض على الأمير وأخيه حسن، وعلى الشيخ بشير جنبلاط وفارس ناصيف، وسوقهم جميعاً مخفورين إلى عكا، ثم أرسل إلى الأميرين حسين وسعد الدين ولدي الأمير يوسف خلعة الإمارة على الشوف فتقبلاها بسرور، (آذار ١٧٩٤)، وانتقل الأمير حسين إلى دير القمر بينما بقي الأمير سعد الدين في جبيل، واصطحب الأمير حسين مدبره جرجس باز، بينما اصطحب الأمير سعد الدين مدبره فرنسيس باز أخا جرجس باز[٤٠].

وما أن تسلم الأمير حسين يوسف حكم إمارة الشوف حتى بادر إلى القضاء على كل متحزب للأمير بشير، فقسا على العباد وطغى في البلاد، واعتزل كثير من أنصار الأمير بشير الحياة العامة وانزووا في دورهم بعيداً عن الحاكم الجديد، بينما ازداد أنصار الأمير حسين مغالاة في البطش والإرهاب

وطلب المزيد من المال، وهكذا لم تمضِ فترة وجيزة على حكم الأمير حسين حتى بدأت الشكاوى من ظلمه تصل إلى مسامع الجزار، ولاحت في البلاد بوادر العصيان، فبادر الجزار، فور علمه بذلك، إلى إطلاق سراح الأميرين بشير وحسن، والشيخ بشير جنبلاط، وخلع على الأمير بشير خلعة الإمارة من جديد (حزيران ١٧٩٥) وأرفقه بجيش من عنده وأمره بالتوجه إلى الشوف لتسلم الحكم فيه[٤١].

وما أن دخل الأمير وصحبه وعسكر الجزار بلاد الشوف، حتى فرّ الأمير حسين وحلفاؤه كالأمير قعدان والأمير سلمان سيد أحمد والشيخ حسن جنبلاط والمشايخ الكنكدية، ومدبره جرجس باز، إلى بلاد جبيل، بينما دخل الأمير بشير دير القمر وتسلم مقاليد الإمارة وبدأ يسعى لتوطيد حكمه في البلاد، ولكن خصومه من الأمراء الشهابيين (أولاد الأمير يوسف) وأنصارهم كانوا قد عقدوا العزم على الاستمرار في محاربته، بلا هوادة، حتى طرده من البلاد[٤٢].

ثالثاً – قتال الأمير لتوطيد حكمه في الإمارة (١٧٩٥ – ١٧٩٦):

١ - وقعة قب الياس (تموز ١٧٩٥) ومطاردة الأمير لأولاد الأمير يوسف:

لم يرضَ اللمعيون، أمراء المتن، بعودة الأمير بشير حاكماً على البلاد، فأوعزوا إلى أولاد الأمير يوسف بالعودة إلى الشوف وتعهدوا بمناصرتهم ومؤازرتهم في قتال الأمير بشير واستعادتهم للإمارة، وبالفعل، فقد لبّى كل من الأميرين حسين وسعد الدين ابني الأمير يوسف دعوتهما ونهضا برجالهما إلى «جديتا» بالبقاع، وفي هذه الأثناء، كان الأمير بشير قد علم بخطة اللمعيين هذه، فعزّز قلعة «قب الياس» بمئتين من رجاله بقيادة الأمير حيدر أحمد،

وأرسل إلى المتن الأمير حيدر ملحم لكي يقنع اللمعيين بالعودة عن مناصرتهم لأولاد الأمير يوسف والدخول في طاعته، وكان الأمير حيدر ملحم على علاقة طيبة باللمعيين فتمكن من استمالتهم إلى جانب الأمير بشير واقناعهم بالتخلي عن مناصرة أولاد الأمير يوسف.

ولكن ذلك لم يثن الأميرين حسين وسعد الدين، ابني الأمير يوسف، وحليفهما الأمير قعدان، عن مواصلة نضالهم ضد الأمير بشير، فصمّموا على مهاجمة جنده بقلعة «قب الياس» وحشدوا لذلك قوّة من ألف مقاتل وهاجموا القلعة، إلا أن رجال الأمير، بقيادة الأمير حيدر أحمد، صمدوا في القلعة وردّوا كل هجمات المهاجمين إلى أتمكن الأمير حيدر أحمد من الخروج من القلعة ومهاجمة رجال الأميرين، وجرى، خارج أسوار القلعة، قتال عنيف انتهى بهزيمة الأمراء المتحالفين حسين وسعد الدين وقعدان، وردّهم عن سوار القلعة بعد أن خسروا عدداً كبيراً من رجالهم، وكان من بين قتلاهم أحد أهم حلفائهم الشيخ نمر النكدي، وعاد الأمراء، بمن تبقى من رجالهم، إلى «جديتا».

وفي هذه الأثناء، وصلت قوّة من عسكر الجزار إلى الباروك لنجدة الأمير، فسار بها لمطاردة الأمراء المتحالفين، ونزل بالمغيثة فبوارش، ثم انتقل بجيشه إلى كسروان فإهدن فزغرتا، جادّاً في مطاردة خصومه الذين أمعنوا فراراً نحو طرابلس فعكار، ولم يثنه عن تعقبهم ومطاردتهم إلا رسالة تلقاها من الجزار في ٣٠ تموز تأمره بالعودة بالعسكر إلى البلاد، على أن يُبقي في جبيل أخاه الأمير حسناً متسلماً عليها من قبله[٤٣].

وصادف أن خلافاً وقع بين الأمير قعدان وابن عمه الأمير سلمان سيد أحمد والشيخ حسن جنبلاط من جهة، والمشايخ النكديين من جهة أخرى، وجميعهم من حلفاء الأميرين حسين وسعد الدين ابني الأمير يوسف، فانفصل

الأميران قعدان وسلمان والشيخ حسن جنبلاط عن الأميرين حسين وسعد الدين وتوجهوا إلى بسكنتا، واغتنم الأمير بشير هذه الفرصة فأوعز إلى الشيخ بشير جنبلاط الاتصال بهؤلاء واستمالتهم، فعاد الأميران قعدان وسلمان والشيخ حسن جنبلاط إلى الشوف وقدموا الخضوع والطاعة للأمير[٤٤].

٢ - وقعة عمشيت (كانون الأول) ١٧٩٥:

عاد خليل باشا العظم والي طرابلس من الحج فوجد أن الأمير حسناً قد استولى على جبيل متسلماً عليها من قبل الجزار، فولّى من قبله عليها الأمير سليماً ابن الأمير يوسف، وجهزه بجيش من رجال الضنيّة، بقيادة الشيخ عباس الرعد، ومن رجال عكار، بقيادة محمد بك الأسعد (أو المرعب)، ثم أمره بالتوجه إلى جبيل لاستعادتها من الأمير حسن.

وعلم الأمير بشير بذلك، فعزّز أخاه بالأمير حيدر أحمد والشيخ بشير جنبلاط، ومشايخ آل عماد، ورجالهم.

والتقى الجيشان في عمشيت في ٣٠ كانون الأول: عسكر الأمير حسن وهو مؤلف من نحو ألف خيّال وراجل من عسكر الجزار، ومن ألف من رجال البلاد، وعسكر الأمير سليم وهو مؤلف من نحو ستة آلاف مقاتل.

ودار القتال بين الفريقين، وكان قتالاً شديداً تكافأت فيه القوى، وقيل إن خيانة وقعت في صفوف جيش الأمير سليم أدّت إلى هزيمته هزيمة نكراء، فاندحر هو وجيشه وقتل من رجاله نحو ستين رجلاً. وقد ارتد الأمير سليم إثر هذه الهزيمة، بجيشه، إلى طرابلس، أما الأمير حسن فقد عاد إلى جبيل منتصراً[٤٥].

٣ - وقعة مندرة (أو المندارة) - (كانون الثاني ١٧٩٦):

لم يطق خليل باشا أن يهزم متسلمه على بلاد جبيل، الأمير سليم، أمام الأمير حسن أخي الأمير بشير، فكتب إلى والده عبدالله باشا العظم، والي دمشق، يستنجده، فرأى والده أن ينازل جندُ دمشق الأمير بشيراً وعسكر الجزار بالبقاع، وأن ينازل جندُ طرابلس الأمير حسناً ببلاد جبيل.

(١) السير للقتال:

معسكر دمشق - طرابلس

أ - الخطة:

تمّ الاتفاق بين عبدالله باشا وابنه خليل باشا على الخطة التالية:

- يتوجّه الأمير حسين يوسف إلى البقاع حيث يضع عبدالله باشا بتصرفه جيشاً من جند دمشق بقيادة المنلا اسماعيل، وتكون مهمة هذا الجيش مواجهة الأمير بشير وجند الجزار بالبقاع.

- تتوجه فرقة من جند طرابلس إلى بلاد جبيل وتكون مهمتها طرد الأمير حسن من تلك البلاد.

ب - التنفيذ:

- توجّه الأمير حسين ورجاله إلى البقاع عن طريق المتن بعد أن انضم إليهم عدد من أمراء المتن ورجالهم، فوصلوا إلى زحلة حيث التقوا بالمنلا اسماعيل وجيشه الآتي من دمشق، وساروا جميعاً إلى «المرج» حيث عسكروا هناك.

- توجّه الأمير عباس أسعد ومشايخ آل نكد إلى المتن لحشد المتنيين وتعبئتهم ضد الأمير بشير وحليفه الجزار.

- توجّهت فرقة من جند طرابلس إلى أميون لقتال الأمير حسن في بلاد جبيل.

معسكر الجزار - بشير:

أ - الخطة:

علم الأمير بشير بالحشد الذي تمّ في البقاع لقتاله فكتب إلى الجزار يستأمره فأمر الجزار بما يلي:

- ينتقل جند الجزار الموضوع بتصرف الأمير حسن في بلاد جبيل إلى البقاع لمواجهة جند دمشق(٤٦).

- ينضم إلى هذا الجيش رجال الأمير وأنصاره ويشكلون طليعة الجيش ومقدمته في سيره نحو العدو.

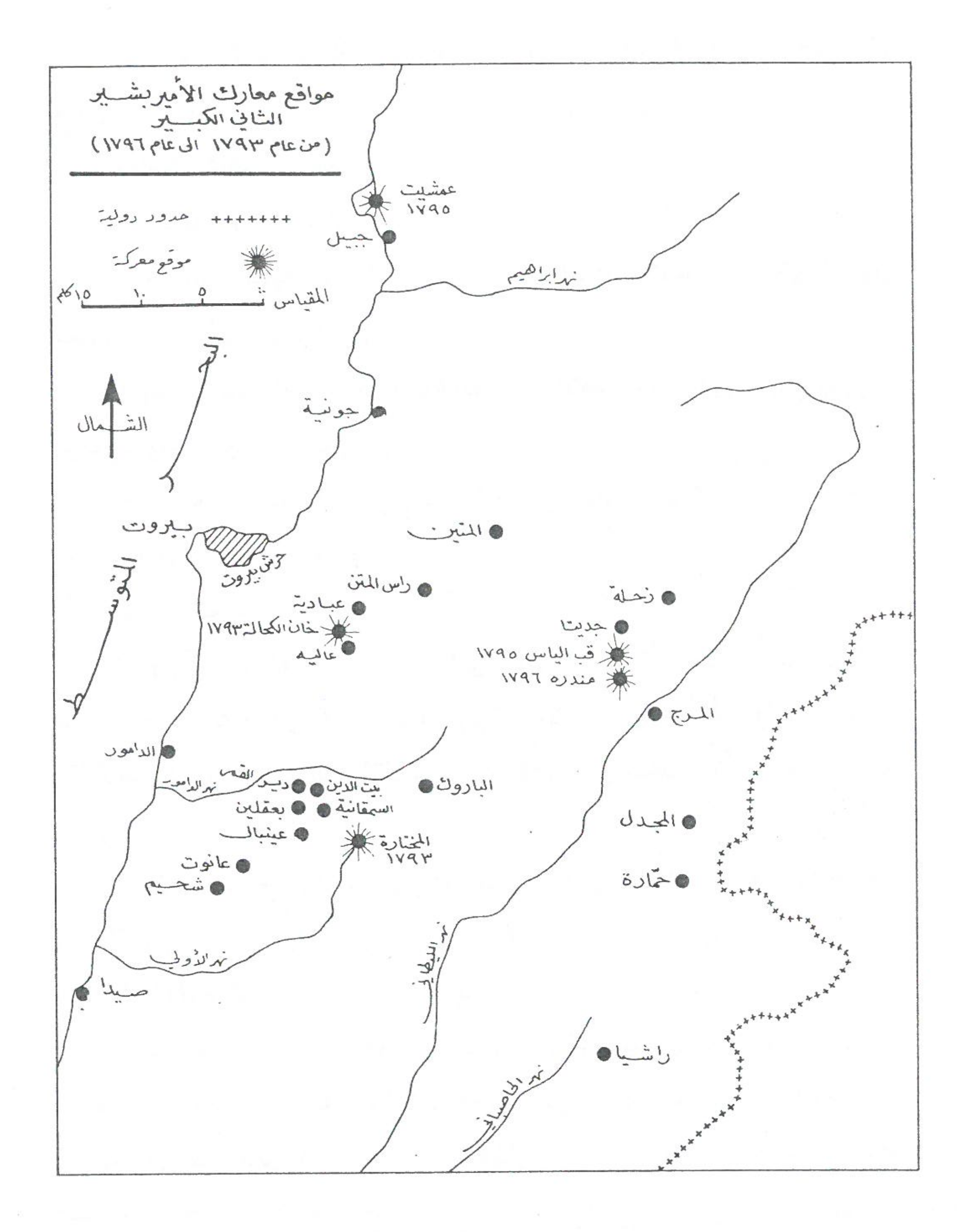
ب - التنفيذ:

- توجّه جند الجزار من جبيل إلى صيدا، ومنها إلى عنبال (أو عينبال) حيث انضم إليه رجال الأمير بشير بقيادة الأمير حيدر أحمد والشيخ بشير جنبلاط وشكّلوا طليعة هذا الجيش ومقدمته، وكان الجيش كلّه بقيادة الأمير حيدر.

- منعت الثلوج الكثيفة تقدم هذا الجيش عبر ظهر البيدر، فبات ليلته في «قب الياس».

(٢) المعركة:

- علم الأمير حسين يوسف بوصول جيش الأمير بشير إلى قب الياس فهبّ لملاقاته عند الصباح، وكان معظم جيش المنلا اسماعيل (حليفه الآتي من دمشق) من الخيّالة، فوصل هذا الجيش إلى مكان يقال له «مندرة» (أو المندارة) بجوار «قب الياس».



- ما أن علم الأمير حيدر بوصول جيش الأمير حسين والمنلا اسماعيل إلى مندرة حتى هبّ لملاقاته هناك.

- اشتبك الفريقان بالقتال وما لبث أن دارت الدائرة على جيش دمشق فانهزم وقتل منه «خلق كثير»[٤٧].

- طارد الأمير حيدر ورجاله وجند الجزار (من الهوارة) جند دمشق ورجال الأمير حسين، حتى وادي المجدل، وغنموا منهم غنائم كثيرة، ثم بات عسكر الأمير حيدر في المجدل وحمّاره.

- علم الأمراء (الأمير حسين وأمراء المتن) بهزيمة رجالهم وجند دمشق في هذه الوقعة، وكانوا في زحلة، ففرّوا منها إلى بعلبك ثم إلى دمشق، أما الأمير حيدر فتابع مطاردة الجند المنهزم حتى سهل الجديدة فقرية البترونه قرب الزبداني فأحرقها وعاد إلى «قب الياس».

- بات جيش الأمير حيدر ليلته في قب الياس ثم غادرها في صباح اليوم التالي عائداً إلى دير القمر.

- عندما علم عسكر طرابلس، الذي كان لا يزال في أميون، بالهزيمة التي حلّت بالأمير حسن وجيش دمشق لم يجرؤ على متابعة تقدمه نحو جبيل خوفاً من أن يصيبه ما أصاب جيش دمشق بالبقاع، فعاد أدراجه إلى طرابلس.

رابعاً - قتال الأمير للحفاظ على الإمارة، وسقوط الأمير (١٧٩٩):

كان الموقف الغامض والمتردّد الذي اتخذه الأمير بشير تجاه الغزو الفرنسي لبلاد الشام وحصار عكا (آذار ١٧٩٩)، وتمنّعه عن تلبية طلب الجزار، والي عكا، لمساعدته في ردّ هذا الغزو، سبباً كافياً لغضب الجزار عليه وبدء الحرب ضده[٤٩]، ولم يشفع بالأمير موقفه الحذر من بونابرت وعدم

استجابته لطلب القائد الفرنسي بالمساعدة، فمال الجزار إلى الخصوم التقليديين للأمير، أولاد الأمير يوسف، وقربهم منه مظهراً نحوهم العطف والتشجيع، حتى ذكر الشدياق أن الجزار غضب على الأمير «وولى عوضه أولاد الأمير يوسف لأنه اتهمه بالاتحاد مع الفرنسوية»[٥٠]. إلا أنه - أي الجزار - عاد «فراق خاطره على الأمير» عندما علم بتمنعه عن مساعدة بونابرت[٥١]، ولكن الحقيقة أن الجزار ظل يضمر الشر للأمير معتبراً أن واجبه يقضي عليه، كتابع له، أن يمدّ يد المساعدة إليه في حربه المصيرية مع الفرنسيين، ومعتبراً أن موقفه الحيادي بينه وبين بونابرت، وتذرعه بعدم تمكنه من السيطرة على أهالي البلاد وسوقهم للحرب إلى جانب الدولة، هو تقصير كبير منه إن لم يكن خيانة واضحة، وهكذا فإنه، رغم عذره له «بعدم إرسال نجدة إليه»[٥٢]، حفظ له، في قرارة نفسه، موقفه هذا، وآثر الانتظار حتى تنتهي حربه مع الفرنسيين، كي يصفي حسابه مع الأمير.

وأحسّ الأمير بشير بموقف الجزار منه، فلم يتوانَ عن السعي لدى الباب العالي، ولدى قائد الأسطول البريطاني، السير «سدني سمث»، لكي يحسّن موقف الجزار منه ونظرته إليه، فاغتنم فرصة وجود يوسف باشا ضيا، الصدر الأعظم، بحماه، وأرسل إليه كل ما يحتاجه من ذخيرة «بماية ألف قرش»[٥٣]، فرضي الصدر الأعظم على الأمير وأرسل إليه الخلع «وأنعم عليه بحكم جبل الدروز ووادي التيم وبعلبك وبلاد المتاولة والبقاع وبلاد جبيل يكونوا مالكات له لا يرجعوا لتحت يد الدولة، ولا يكون إلى الباشوات عليه تسلط بل أموال الميرية تنورد منه إلى الخزينة العامرة كما كانت في زمان ابن معن»[٥٤].

إلا أن ذلك زاد من حفيظة الجزار على الأمير وجعله يقرّر التخلص منه نهائياً رغم توسط السير «سدني سمث» وتدخله مع الجزار لمصلحة الأمير.

في هذه الأثناء، استغل خصوم الأمير في البلاد غضب الجزار عليه وابتعاده عنه ورغبته في الانتقام منه وإبعاده عن الحكم حين تحين الفرصة لذلك، فبدأوا ينظمون صفوفهم ويعدّون أنفسهم لمحاربة الأمير، وكان اليزبكيون على رأس هؤلاء الخصوم.

وقعة الخزيرات (تشرين الأول ١٧٩٩):

ما أن عاد الفرنسيون عن حصار عكا خائبين، حتى تنفس الجزار الصعداء وتفرغ للتخلص من خصومه في البلاد، وعلى رأسهم الأمير.

(١) التعبئة والسير للقتال:

أ - الجزار وحلفاؤه:

اتحد اليزبكيون مع الأمير قاسم أمير حاصبيا وآل عماد في الشوف، واتصلوا جميعهم بالجزار يطلبون منه نجدة عسكرية لمحاربة الأمير بشير وطرده من البلاد، فأنجدهم الجزار بجيش أرسله إلى «خان حاصبيا» حيث احتشد الجميع وساروا إلى البقاع لقتال الأمير.

ب - الأمير وحلفاؤه:

علم الأمير بذلك فكتب إلى عبدالله باشا والي دمشق يستنجده، وكان الصدر الأعظم قد أوصاه بالأمير خيراً، فأرسل إليه مايتي فارس، ثم كتب الأمير إلى أخيه الأمير حسن ببلاد جبيل أن يجمع ما لديه من رجال من كسروان وبلاد جبيل ويسرع لنجدته، فجاءه أخوه بعدد كبير من رجال تلك البلاد، أما هو فجمع رجاله من أهل الشوف وسار بهم إلى الباروك الذي عيّنه مكاناً للحشد والتعبئة.

وما أن أتمّ الأمير تعبئة قواته في الباروك، حتى أمر الشيخ حسن جنبلاط بقيادة فرقة من الجند والتوجّه بها إلى البقاع لمقاتلة العدو المحتشد هناك،

فنزل الشيخ حسن بجنده في صغبين على أن يبدأ قتاله في اليوم التالي ضد اليزبكيين وحلفائهم.

(٢) المعركة:

علم اليزبكيون بقدوم جيش الأمير لمقاتلتهم وبمبيته في صغبين، فتوجهوا للقائه، كما تحرك جيش الأمير للقاء جيش اليزبكيين، والتقى الفريقان في «الخريزات» ودار بينهما قتال عنيف لم يأت بالنصر لأي منهما، رغم العدد الكبير من القتلى في صفوفهما، فعاد كل من الفريقين إلى مراكزه على أمل أن يستجمع قواه وينظم صفوفه ويعود للقتال من جديد.

واغتنم الأمير فرصة التوقّف عن القتال فأسرع في طلب النجدة من عبدالله باشا والي دمشق الذي أنجده بألف خيال[٥٥] أو ينوف[٥٦]، بقيادة المنلا اسماعيل، باعتبار أن الأمير بشيراً «قايم بأمر الدولة العلية، ورجل صار من رجال الدولة»[٥٧]، فسار المنلا اسماعيل بجيشه إلى البقاع، وما أن وصل إلى «قب الياس» حتى أرسل إلى قادة جند الجزار يأمرهم بالرجوع عن مقاومة الأمير بشير «فامتثلوا أمره ورجعوا إلى حاصبيا»[٥٨]، وذلك لأنه «كبير في الوجاق»[٥٩]، ثم سار المنلا اسماعيل بجيشه إلى الخيرزات حيث لقيه الشيخ بشير جنبلاط «بالعلائف» وسارا معاً إلى حاصبيا ففرّ منها حاكمها الأمير قاسم وآل عماد إلى مرجعيون ثم إلى عكا، أما المنلا اسماعيل فقد عاد بجيشه إلى البقاع، وبقي الشيخ بشير بحاصبيا.

سقوط الأمير (١٧٩٩):

كان ذلك، ولا بد، كافياً لأن يزيد من حنق الجزار وغضبه على الأمير بشير، فأصدر أوامره، فوراً، بخلعه عن الإمارة وتولية ابني الأمير يوسف،

حسين وسعد الدين، مكانه، دون أن يلتفت إلى أوامر الصدر الأعظم بصدد تولية الأمير بشير، أو أن يعيرها أدنى اهتمامه، ولم يكتف بذلك، بل جهّز جيشاً من عشرة آلاف مقاتل (٦ آلاف خيّال و٤ آلاف راجل) وسلم قيادته إلى الأميرين المذكورين، وأمرهما بطرد الأمير بشير من البلاد، فسار الأمير حسين ومعه مدبره جرجس باز على رأس الخيّالة إلى البقاع، وسار الأمير سعد الدين ومدبره عبد الأحد باز ومعهما آل نكد وآل عماد إلى الشوف، فنزلوا بعانوت في اقليم الخروب.

وما أن علم الأمير بشير بتعبئة الجزار ضدّه وإرساله جيشاً لمقاتلته حتى سعى إلى تعبئة مضادة من أهل البلاد، فبعث الأمير حيدر أحمد إلى غريفة ومعه الشيخ حسن جنبلاط ورجاله، وبعث رسولاً إلى دمشق مصحوباً بكتاب إلى واليها يستنجده، وطلب إلى المنلا اسماعيل أن يحضر من البقاع إلى الشوف، ولكن خيبة أمله كانت كبيرة عندما رأى أهل البلاد ينفضّون عنه ولا يلبون نداءه، وعندما رفض المنلا اسماعيل الانصياع لأوامره وغادر البقاع إلى الزبداني، وعندما رأى اليزبكيين وحلفاءهم من أهل البلاد يلتفون حول الأميرين حسين وسعد الدين، بينما يبتعد عنه حلفاؤه ويقعدون عن مؤازرته خوفاً من الجزار، فقرّر مغادرة البلاد، والتجأ إلى صديقه السير «سدني سمث» الذي رحّب به، ثم أرسل إليه مركباً أقله من طرابلس إلى غزة لمواجهة الصدر الأعظم، وكان ذلك في أواخر كانون الأول عام ١٧٩٩[٦٠]، وفي هذه الأثناء، كان الأمير حسين يستقر بدير القمر، كما استقر الأمير سعد الدين بجبيل، وبدأ الأميران الأخوان سعيهما الحثيث لتوطيد حكمهما في كل من إمارة الشوف وبلاد جبيل.

خامساً - قتال الأمير لاستعادة الإمارة (١٨٠٠ - ١٨٠٣):

بقي الأمير، فترة من الزمن، في عريش مصر، بضيافة صديقه الأميرال الانكليزي «سمث» قابل، في خلالها، الصدر الأعظم، واستجاربه، وطلب مساعدته لاستعادة حكمه لإمارة الشوف[٦١]، وفي هذه الأثناء، كان أخوه الأمير حسن قد لجأ إلى حليف له بعكار هو علي بك الأسعد، فأجاره وأقام الأمير حسن بضيافته، مع حاشيته ورجاله.

وفي أواخر كانون الثاني عام ١٨٠٠ غادر الأمير العريش، باتجاه الاسكندرية، في مركب خصه به الأميرال «سمث»، وما أن وصل إلى مياهها، في مطلع شهر آذار[٦٢]، حتى علم بنبأ هزيمة الصدر الأعظم أمام الفرنسيين في معركة بالاسكندرية، فأسقط في يده، وعزم على العودة، خائباً، إلى طرابلس بسوريا.

وصل الأمير إلى طرابلس في منتصف شهر أيار حيث استقبله أخوه الأمير حسن وأنصاره عند نهر البارد، وساروا جميعاً إلى بلاد الحصن بعكار لينزلوا في ضيافة حليفهم علي بك الأسعد، وفي هذه الأثناء، وصلت الأنباء من الشوف والمتن أن الثورة بدأت تعم هذه البلاد ضد الأميرين الحاكمين بسبب ظلمهما وتعنتهما وقساوتهما في جمع الضرائب، وان أعيان البلاد بدأوا يطالبون بعودة الأمير بشير إلى الحكم، وبالفعل، فقد ألّف وفد من ثلاثماية من أهالي الشوف والمتن جاؤوا إلى عكار يطالبون الأمير بالعودة إلى الإمارة، وأبدى الأمير استعداده التام لذلك، وبدأت بذلك معركته الضارية لاستعادة الإمارة من جديد[٦٣].

١ - وقعة نهر الحمّام (أول تشرين الثاني ١٨٠٠):

وصل الأمير بشير إلى كسروان في الخامس من تشرين الأول، وأرسل فور وصوله، إلى أعيان البلاد ومناصبها، يعلمهم بقدومه، فاجتمع حوله الرجال

والأنصار، وشاع خبر عودته في بلاد الشوف والمتن وجبل لبنان، فابتهج الناس واستعدوا لتأييده ومناصرته، ولما علم الأميران حسين وسعد الدين بذلك، ورأيا التفاف أهل البلاد حول الأمير وتخليهم عنهما، اتصلا بالجزار يطلبان منه عسكراً لمقاومة الأمير القادم لاستعادة الإمارة، رغماً عنهما وعنه، فأرسل الجزار إليهما ألفين من الأرناؤوط ووعدهما بالمزيد من الجند.

ووصل الأمير إلى المتن في آخر تشرين الأول، فجاء أهل المتن جميعاً، وآل نكد، وأغلبية الأمراء اللمعيين، يقدمون له الخضوع والطاعة ويبدون استعدادهم للقتال إلى جانبه[٦٤]. ثم توجّه، في مطلع تشرين الثاني، إلى حمانا، ومنها إلى الشوف، حيث نزل ببعقلين، بالقرب من دير القمر[٦٥].

في هذه الأثناء، وصل جرجس باز، مدبر الأمير حسين، من صيدا، إلى دير القمر، ومعه جيش الأرناؤوط الذي أرسله الجزار، بصحبته، إلى الأمير حسين (٢٠٠٠ جندي)، وبدأ الأمير حسين بتحصين دير القمر وإعدادها دفاعياً كي يتمكن من مقاومة أي هجوم يقوم به الأمير بشير.

وعلم الشيخ بشير جنبلاط، وكان ببعقلين، بتوجه جيش الجزار الذي كان متمركزاً بالبقاع، نحو الشوف، لمناصرة الأمير حسين، وأن هذا الجيش قد وصل إلى صيدا، وهو يستعد للتقدم نحو الشوف عن طريق اقليم الخروب، فأعدّ لمواجهته نحو خمسماية من خيرة رجاله وانتقل بهم سريعاً نحو اقليم الخروب لملاقاة جيش الجزار هذا، فالتقى الفريقان عند «نهر الحمّام»، ودار بينهما قتال أسفر عن هزيمة جيش الجزار وإيقاع عدد كبير من القتلى في صفوفه، وظل الشيخ بشير يطارد فلول الجيش المنهزم حتى عين مزبود، وبينما كان جند الجزار يعودون إلى صيدا منهزمين، كان الشيخ بشير يعود بجنده إلى بعقلين، وقد كسب الكثير من خيل الجزار وسلاحه[٦٦].

٢ - وقعة الشويفات (١٦ تشرين الثاني ١٨٠٠):

بعد وقعة نهر الحمّام وهزيمة جند الجزار على يد الشيخ بشير، أسقط في يد الأمير حسين بدير القمر، ورأى أنه من الصعب عليه مقاومة الأمير بشير ومعه أهل البلاد جميعاً، وتدخل أعيان البلاد لإتمام الوفاق بين الأمير بشير والأميرين حسين وسعد الدين، وتمّ الاتفاق بين الفريقين على أن يتولّى الأمير بشير إمارة الشوف بينما يتولّى الأميران حسين وسعد الدين بلاد جبيل، وغادر، بناءً لذلك، الأمير حسين ورجاله، دير القمر إلى ساحل بيروت، بينما دخلها الأمير بشير ورجاله.

أ - *حشد القوى*:

ولكن هذا الاتفاق لم يرق لجرجس باز، مدبر الأمير حسين، فما أن وصل إلى حرش بيروت حتى اتصل بنفسه، بالجزار، وطلب منه جنداً لمحاربة الأمير بشير، فأرسل إليه الجزار نحو ألفين من خيّالة الأرناؤوط والهوارة والدالاتية، فاجتمع لديه من جند الجزار نحو أربعة آلاف مقاتل، وأصبح عدد جيش جرجس باز، بالإضافة إلى أنصار الأميرين من أهل البلاد، نحو ستة الاف مقاتل[٦٧].

وعلم الأمير بشير بنكوث جرجس باز في عهده، فأمر الشيخ بشيراً وآل عماد بأن يبقوا بدير القمر لحمايتها، ثم سار هو وأخوه وأنصارهما إلى الغرب حيث تمكن من تعبئة نحو ألف مقاتل من أهالي الغربين (الأعلى والأسفل) والشحار، ثم توجّه إلى عاريا، على حدود المتن، فتمكن من تعبئة نحو ألفي مقاتل من أهالي المتن والجرد، وهكذا أصبح لدى الأمير نحو ثلاثة آلاف مقاتل من أهالي البلاد[٦٨].

ب - *المعركة*:

بدأت المعركة بهجوم شنّه عسكر الجزار بقيادة جرجس باز، على ساحل بيروت حتى برج البراجنة، (١٤ تشرين الثاني) فأحرق الساحل كله، ثم انتقل إلى الشويفات (١٦ تشرين الثاني) فأقام حول البلدة حصاراً شديداً بنحو ثلاثة آلاف مقاتل، ثم أخذ يهاجم أحياء البلدة واحداً بعد الآخر، فهاجم «حارة العمروسية» بعسكر من الأرناؤوط، ثم هاجم «حارة القبة» بعسكر من الهوارة، وتمكّن جند الأمير بقيادة أخيه الأمير حسن، ومعهم أهالي البلدة، وكانوا جميعاً نحو ألف مقاتل، من صد الهوارة الذين هاجموا حارة «القبة»، وقتل قائدهم وهو آغا من «آل الطوير»، كما تمكّنوا من محاصرة الأرناؤوط وحشرهم حتى فتكوا بهم وقتلوا منهم نحو ماية رجل[٦٩]، وفرّ الباقون إلى حرش بيروت.

٣ - وقعة ضهور بعبدا (١٦ تشرين الثاني ١٨٠٠):

بينما كان القتال دائراً بين جند الأمير بشير، بقيادة أخيه الأمير حسن، وجند الأمير حسين بقيادة جرجس باز، في الشويفات، كان الأمير بشير يتوجّه بالمقاتلين الذين التحقوا به من المتن والجرد، نحو ساحة المعركة في الشويفات، إلا أنه، ما أن وصل إلى «ضهور بعبدا» حتى كانت فلول جيش الجزار تعود أدراجها منهزمة، وصادف أن خيّالة (الدالاتية) من عسكر الجزار كانوا، في طريق عودتهم من القتال، قد وصلوا إلى تلك الضهور، فما أن رآهم رجال الأمير الذين يرافقونه من أهل المتن والجرد، وكانوا متعبين ومرهقين من المسير، حتى فرّوا من وجوههم بلا قتال، فطمع الدالاتية بهم، وجدّوا في أثرهم حتى لحقوا بهم فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ولم يبق، في ساحة القتال، سوى الأمير وبعض أتباعه المقربين، وبعض آل عبد الملك والشيخ جهجاه

العماد، وقد قاوم الأمير وأتباعه مقاومة باسلة، وكان «القره محمد» على رأس خيالة الدالاتية الذين فتكوا برجال الأمير وقتلوا منهم نحو عشرين رجلاً، وانهزم الأمير ومن تبقى من أتباعه، وأولاد عمّه، إلى وادي شحرور، ثم إلى عاريا، بينما عاد «القره محمد» بخيّالته إلى حرش بيروت[٧٠].

٤ - وقعة بعبدا - الكحالة (١٨ تشرين الثاني ١٨٠٠):

لم يتوانَ جند الجزار، في أثناء عودتهم من وقعتي الشويفات وضهور بعبدا، عن إحراق كل ما مرّوا به من قرى، بل وقتل كل من صادفوه من أهالي تلك القرى، في طريقهم إلى حرش بيروت، حتى انهم «أحرقوا بعض أماكن من بعبدا والحدث وأخذوا حريم وقتلوا عجايز وأولاد فجمع معهم أربعة وخمسين رأس أرسلوها إلى عكا»[٧١]، وفي اليوم الثالث (أي في ١٨ تشرين) وصل جند الجزار إلى مكان فوق بعبدا يسمى «أرض القفل»[٧٢]، فلقيهم الأمير بألف وخمسماية من رجاله من المتن والجرد، وما أن بدأ القتال بين الفريقين حتى انهزم جند الأمير نحو الوادي وقتل من رجاله أربعة، وانهزم الأمير إلى عاريا، فلحق به جند الجزار حيث تمكنوا من قتل حليفه الشيخ جهجاه العماد، ثم طرده من البلدة وإحراقها.

وعلم الشيخ بشير بهزيمة الأمير فجاء في أثره ومعه نحو ثلاثماية مقاتل من آل تلحوق وآل نكد، وفاجأوا جند الجزار في الكحالة، حيث نشب بين الفريقين قتال استمر نحو ساعة من الزمن، استطاع الشيخ بشير ورجاله، بعدها، إلحاق الهزيمة بجند الجزار الذين انكفأوا إلى «أرض القفل»، ولحق الشيخ بشير ورجاله بهم إلى أرض القفل فانهزموا باتجاه ساحل بيروت، بعد أن خسروا نحو عشرين قتيلاً، ثم عاد الشيخ بشير ورجاله إلى العبادية[٧٣].

الصلح:

يئس جرجس باز من إمكان إنهاء الأمير بشير، فأرسل من يتوسط لديه، على أن يعودوا إلى الاتفاق الذي سبق أن جرى بين الأمير بشير وبين الأميرين حسين وسعد الدين، وقد استجاب الأمير بشير للوساطة، وتمّ من جديد لقاء الأمراء بشير وحسن وحسين وسعد الدين «وتصافوا في بعضهم وتوجّهوا الجميع إلى دير القمر»[٧٤]، وحلّ الوئام بين الأمير بشير وجرجس باز، أما الجزار، فلما تحقّق من اتفاق الأمراء الشهابيين فيما بينهم، أخذ جنده من صيدا وفرّقه في حصن ايالته، «وبقي ينتظر لهم الفرصات»[٧٥].

٥ - وقعة خان مراد (١٨٠١):

طمع الأمير عباس أسعد بالإمارة، فتحالف مع اليزبكيين وعلى رأسهم الشيخ فارس العماد وأقاربه، وكتبوا إلى الجزار يطلبون منه إمارة الشوف للأمير عباس، فأجابهم إلى طلبهم، ووجّه إليه خلعة الإمارة مع جند من عنده، وكتب إلى سليمان باشا والي صيدا أن يكون قائداً للجند ويضع نفسه بتصرف الأمير الجديد.

وعلم الأمير بشير بالأمر فجمع حوله أقرباءه من الأمراء الشهابيين، كالأمير سلمان سيد أحمد، والأمير قعدان محمد، والشيخ بشير جنبلاط وآل نكد، وجرجس باز مدبر الأمير حسين يوسف، ورجالهم، وقرّر محاربة الأمير عباس أسعد.

نهض الأمير عباس بالجند من صيدا إلى عانوت، وتوجّه منها إلى دير القمر، حيث وافاه فيها الشيخ فارس العماد الذي أتى برجاله من البقاع إلى دير القمر عن طريق الباروك.

وما أن علم أنصار الأمير بشير وحلفاؤه بقدوم الأمير عباس، على رأس جيش من جند الجزار، ودخوله دير القمر، حتى بدأوا يهربون من وجهه، فقد فرّ الأميران سلمان وقعدان إلى عبيه، ثم فرّ الأمير سلمان وبعض الجنبلاطية والنكدية إلى جبيل، حيث لجأوا إلى الأميرين حسين وسعد الدين، كما فرّ الأمير قعدان والشيخ بشير جنبلاط إلى المتن، وأما الأمير بشير فقد انتقل من صليما بالمتن، إلى جبيل.

وقرّر الأمير عباس مطاردة الأمراء الفارين، فغادر دير القمر باتجاه جبيل، وطلب الأمير بشير، في هذه الأثناء، إلى الأمير قعدان والشيخ بشير، أن يتربصا في جرود المتن، ويراقبا الأمير عباس، حتى إذا ما غادر دير القمر، هبا فوراً لاحتلالها والتمركز فيها، وأرسلا جندا لقطع الطريق على جند الجزار عند نهر الكلب كي لا يعود من جبيل.

وهكذا كان، فما أن ترك الأمير عباس دير القمر حتى احتلها الأمير قعدان والشيخ بشير ورجالهما، وتبعهما الأمير بشير إليها، أما الأمير عباس فقد ندم على تركه عاصمة الإمارة وحاول العودة إليها فلم يستطع، فانصرف إلى الباروك، ومنها إلى البقاع، وكتب إلى أخيه الأمير حسن أن يوافيه بالجند إلى هناك.

ومن البقاع، انتقل الأمير عباس بجنده نحو المتن، بينما توجّه الأمير بشير والشيخ بشير وجرجس باز ورجالهم من دير القمر إلى البقاع لمواجهة الأمير عباس، وفي «خان مراد»، بالقرب من «المغيثة»، التقى الفريقان في معركة دامت نحو ساعتين ونصف الساعة، إذ هاجم جند الجزار (الذين كانوا بقيادة الأمير عباس) رجال الأمير الذين تمترسوا في أرض صعبة، ولما لم يتمكن جند الجزار من زحزحة رجال الأمير من مواقعهم، شنّ الأمير بخيالته هجوماً على

جند الجزار مفاجئاً إياهم، فانهزموا أمامه، ولحق بهم، بينما ظلّوا منهزمين متقهقرين وهو يطاردهم هم حتى بلغوا «مكسه» ثم «المرج»، وقد قتل منهم نحو ثلاثين رجلاً، وعاد الأمير برجاله إلى حمانا ظافراً منتصرا[٧٦].

عودة الأمير إلى الحكم:

كانت هذه الوقعة آخر وقعة بين الأمير بشير والجزار[٧٧]، إذ انه، بعد أن وجد الجزار أن لا مناص من إعادة الأمير بشير إلى الإمارة، وفي العام ١٨٠٣، استجاب للوساطات المتعددة التي طلبت منه إعادة الأمير إلى الحكم، فأرسل إليه خلعة الولاية على البلاد «مستثنياً اقليم جزين وبرجا»[٧٨]، وهكذا عاد الأمير، من جديد، وبعد مشقات كثيرة، إلى حكم إمارة الشوف، وفي عام ١٨٠٤ توفي الجزار، فاستراح الأمير من عبودية رزح تحت نيرها طوال مدة ولاية الجزار في عكا، ثم أرسل كتاب تهنئة إلى الوالي الجديد سليمان باشا الذي أقرّه على إمارة الشوف.

سادساً - قتال الأمير ضمن تحالفاته الداخلية (١٨١٠):

١ - *عزمه على القتال ضد الوهابيين (تموز ١٨١٠):*

حاول الوهابيون بقيادة الأمير عبدالله بن سعود، أمير الحجاز، التقدم في بلاد الشام، ودخلوا حوران، فخرج الكنج يوسف (يوسف باشا)، والي دمشق، إلى صحراء المزاريب، ليصدهم، وطلب مساعدة حليفه سليمان باشا والي عكا، الذي أرسل بدوره إلى الأمير بشير كي يجهّز جيشاً وينهض لمساعدة والي دمشق. وبالفعل، جهّز الأمير بشير جيشاً من خمسة عشر ألف مقاتل[٧٩]، وسار بهم إلى طبريا لمساعدة والي دمشق، وكان سليمان باشا والي عكا قد

سبقه إليها، إلا أنه وصل بعد أن كان الوهابيون قد عادوا أدراجهم[٨٠]، وكان هذا العمل بمثابة تجربة لقوة الأمير وسرعته في التعبئة والحشد خارج حدود إمارته، مما أثّر كثيراً، كما سنرى فيما بعد، في تحالفاته خارج حدود هذه الإمارة[٨١].

٢ - قتاله ضد يوسف باشا والي دمشق - وقعة دمشق (أول آب ١٨١٠):

ويظهر أن سليمان باشا كان قد تلقى فرماناً سلطانياً بتوليته على دمشق بعد عزل يوسف باشا عنها، فأسرّ إلى الأمير بشير، وهما في طبريا، بهذا الفرمان، وطلب مساعدته[٨٢]، فوافق الأمير على ذلك، بعد أن استشار أعيان البلاد فوافقوا، وكان الأمير يكنّ عداءً كبيراً ليوسف باشا[٨٣] وقرّرا معاً، سليمان باشا والأمير، مهاجمة دمشق وخلع يوسف باشا عنها تنفيذاً لفرمان السلطان[٨٤]، وبدأ كل منهما يعدّ العدّة للهجوم المرتقب.

أ - التعبئة:

عاد الأمير إلى مرجعيون، وأرسل منها رسلاً إلى جميع أنحاء البلاد يطلب من كل متخلف الحضور، ثم كتب إلى أبناء عمّه من الأمراء الشهابيين كي يتوجهوا إلى مختلف المقاطعات ويجمعوا الجند ويرسلوهم إليه مع السلاح والذخائر، كما كتب إلى الشيخ بشير جنبلاط، وكان لا يزال في الشوف، أن يحضر إليه برجاله، فحضر.

أما سليمان باشا فإنه قطع الطريق إلى دمشق كي يمنع تسرب الأخبار إليها، ثم أرسل إلى حلفائه في المناطق الشمالية، في حماة وطرابلس وبقية مناطق الشمال، كي يوافوه بالجند، ثم طلب من المنلا اسماعيل، وهو كبير قادة عساكر السلطنة في بلاد الشام، وصاحب حماه، أن يأمر قادة الجيش

التابع ليوسف باشا بعدم تنفيذ أوامره، بناءً للفرمان السلطاني الذي ينتزع منه الولاية.

ب - السير للقتال:

انتقل سليمان باشا بجيشه من طبريا إلى خان حاصبيا، حيث التقى بالأمير وجيشه، وسارا معاً إلى ضهر الأحمر ثم إلى قطنا، على بعد أميال من دمشق.

وعلم يوسف باشا باستعداد سليمان باشا والأمير بشير للهجوم على دمشق[٨٥]، وكان لا يزال في صحراء المزاريب، فعاد مسرعاً بجيشه إلى دمشق، واحتمى بالمدينة وأخذ يستعد للدفاع عنها.

ج - الاستعداد للقتال:

قرّر يوسف باشا الدفاع عن المدينة، فوزّع جيشه على حصونها وقلاعها، ونصب فيها المتاريس وحفر الخنادق وأقام وسائل الدفاع المختلفة، وقبع ينتظر الهجوم.

أما سليمان باشا، فقد أرسل إلى أعيان دمشق ومناصبها يبلغهم بالفرمان الذي تولّى بموجبه ولاية دمشق، وطلب منهم طرد يوسف باشا من المدينة.

بقي أعيان دمشق فترة من الزمن حائرين لا يدرون ماذا يفعلون، فهم بين مصدق للفرمان وناف له، وبين واثق من قوّة يوسف باشا ومشكّك بها، إلا أنهم كانوا يرون، بأم العين، ورود العساكر إلى معسكر سليمان باشا وحليفه الشهابي من كل حدب وصوب، فتأكّدوا من هزيمة يوسف باشا، إلا أنهم طلبوا مهلة ثلاثة أيام لعلهم، في خلالها، يتمكنون من إقناع يوسف باشا بالتخلي عن الولاية بسلام. والتقى أعيان دمشق بيوسف باشا وقصّوا عليه ما شاهدوه من قوّة المهاجمين وكثرة عددهم، ونصحوه بالتخلي عن الحكم، إلا أنه أصرّ على

المقاومة، وحاصر في المدينة وفي القلعة بعد أن تجهز بمختلف أنواع آلات الحصار.

في هذه الأثناء، وبعد أن مضت المهلة المحدّدة (وهي ٣ أيام)، تقدم سليمان باشا وحليفه الأمير بجيشهما من قطنا إلى الجديدة وداريا، وهما قريتان قريبتان جداً من دمشق.

د - القتال:

أرسل يوسف باشا فرقة من جنده لمواجهة المهاجمين خارج دمشق، ودار بين الفريقين، على أرض الجديدة وداريا، قتال عنيف استمر أكثر من ثلاث ساعات كاد جند يوسف باشا في خلالها أن ينهزم، مما اضطر هذا الأخير لأن يخرج بكامل جيشه من دمشق ويشن على سليمان باشا وحليفه هجوماً جبهياً شاملاً، إلا أن قوات سليمان باشا وحليفه تمكنت من صدّ هذا الهجوم، بل أجبرت جيش يوسف باشا على التقهقر والتراجع إلى داخل مدينة دمشق، بعد أن كبدته خسار فادحة بالأرواح والمعدات، أما سليمان باشا والأمير فباتا ليلتهما تلك في الجديدة.

إنصرف يوسف باشا لإعادة تنظيم جيشه داخل المدينة، وأعطى الأوامر لقادته كي يستعدوا لهجوم ليلي يشنونه على العدو خارج دمشق، في الجديدة، فوصل ذلك إلى مسامع سليمان باشا والأمير اللذين أخذا يعدان العدّة لتلقي الهجوم، حيث رتّب الأمير جيشه في ثلاث فرق من الخيّالة وزّع عليها مهمات المراقبة والترصّد طوال الليل[٨٦]، إلا أن الهجوم، تلك الليلة، لم يتم، بل ما تمّ هو عكس ذلك، إذ هاجم قادة جيش يوسف باشا خزنة الولاية فنهبوها، بينما فرّ يوسف باشا، مع رهط من رجاله المخلصين، إلى اللاذقية[٧٨]، ومنها إلى مصر، ويقال إن كتاباً قد وصل، في تلك الليلة، من المنلا اسماعيل إلى قادة جيش يوسف

باشا، يأمرهم فيه بعدم طاعته وبالخضوع للفرمان الذي يولّي سليمان باشا على دمشق، ففعل القادة ما فعلوه بيوسف باشا[٨٨].

وفي صباح اليوم التالي، علم سليمان باشا والأمير بما حصل داخل دمشق، فدخلا المدينة بجندهما ظافرين منتصرين، ونشرا في أرجائها الأمن والنظام[٨٩].

هـ - ترتيبات إدارية بعد احتلال دمشق:

بعد أن استقر الأمر لسليمان باشا في ولاية دمشق، أعاد تنظيم الإدارة في بلاد الشام على الشكل التالي:

- عيّن مصطفى بربر متسلماً على طرابلس (دون القلعة).
- وعيّن المنلا اسماعيل على حماة وحمص والبلدان التابعة لهما.
- وعيّن حسين آغا، متسلم بيروت، متسلماً على اللاذقية.
- وأعاد الأمير جهجاه الحرفوش حاكماً على بعلبك.
- وولّى الأمير قاسماً، ابن الأمير بشير، على بلاد جبيل، كما ولّى ابنه الأمير خليلاً على البقاع[٩٠].

والجدير بالذكر أن سليمان باشا قد أصبح، بعد توليته على دمشق، والياً على الولايات الثلاث: عكا ودمشق وطرابلس، و«صار بيده جميع المعروف الآن بولاية سوريا»[٩١].

سابعاً - قتال الأمير لإخماد الثورات في بلاده (١٨٢١):

١ - *ثورة المتن وكسروان - عامية انطلياس، واعتزال الأمير الحكم ثم عودته إليه (١٨٢١):*

توفي سليمان باشا والي دمشق وعكا وطرابلس عام ١٨١٩، فخلفه على دمشق درويش باشا وعلى عكا وطرابلس عبدالله باشا الذي بدأ يثقل كاهل

الأمير بطلبه الضرائب والأموال الأميرية مضاعفة وقبل مواعيدها، مما أثار أهالي المتن وكسروان، وكانت هاتان الإقطاعتان بتسلم الأمير منذ عهد سليمان باشا، فبادر أهالي المتن إلى الاجتماع للتشاور في الأمر، وأرسلوا إلى أهالي كسروان للتضامن معهم فلبّى أهل كسروان الدعوة، ثم كتبوا إلى باقي الإقطاعات في بلاد الأمير فجاءهم ممثلون عنها جميعها ما عدا الشوف والأقاليم، وفي آذار عام ١٨٢١ احتشدت الجماهير في انطلياس، وبلغ عدد المحتشدين نحو ستة عشر ألف رجل[٩٢] من مختلف أرجاء البلاد من نصارى ودروز، فأقسم الجميع اليمين على أن لا يدفعوا للدولة إلا مالاً واحداً وفي أوانه، ثم عيّنوا مندوباً عن كل قرية وأرسلوا رسلاً إلى الوالي ينبئونه بقرارهم، فأجابهم إلى طلبهم، إلا أنه ظل مصراً على أن يقدم الأمير المال المطلوب منه، ورأى الأمير أن في ذلك تعجيزاً له فآثر الاستقالة، وكتب إلى الوالي كتاب الاستقالة فقبلها الوالي وعيّن بدلاً منه الأميرين حسن علي وسلمان سيد أحمد، وبعث إليهما خلع الإمارة، وقد أرسل الباشا سلاحداره، مع جند من عكا، إلى نهر الأولي قرب صيدا، كي يتولّى تقديم الخلع للأميرين، وبتاريخ ٢٨ آذار ١٨٢١ لبس الأميران خلع الإمارة وعادا ليحكما البلاد من عاصمتها دير القمر[٩٣].

أما الأمير بشير فقد غادر البلاد إلى حوران حيث مكث فيها فترة من الزمن، ثم عاد إلى بلاد جبيل ومنها إلى جزين حيث استقر به المقام، وأخذ يتوسط والي عكا للعودة إلى الإمارة[٩٤].

وفي هذه الأثناء، كان الأميران حسن علي وسلمان سيد أحمد قد أثقلا، بدورهما، كاهل الأهالي بالضرائب والأموال، فثار الناس عليهما ورفضوا دفع الضرائب[٩٥]، وطردوا جباتهما من المتن وكسروان، وأخذ أعيان البلاد يفدون من جديد على الأمير بشير في جزين يطلبون منه العودة إلى الإمارة[٩٦].

ولما رأى عبدالله باشا عجز الأميرين عن جمع الأموال المطلوبة من البلاد، وأحسّ بالتفاف الناس من جديد حول الأمير بشير، وكانت محاولات التوسط بينه وبين الأمير لم تزل قائمة، والرسائل بينه وبين الأمير لم تنقطع، كتب إلى الأمير يبلغه صفو خاطره عليه وعزمه على أن يوجّه إليه «ولاية الشوف وكسروان وبلاد جبيل»، ليحقق ما «عجز الأمير حسن والأمير سلمان»[٩٧] عن تحقيقه.

ولما علم الأميران حسن وسلمان بذلك أرسلا من قبلهما رسلاً لمصالحة الأمير بشير، وتمّ اجتماع الأمراء الثلاثة وأهل البلاد في عامية جرت في «السمقانية» في حزيران من العام نفسه ١٨٢١، حيث تنازل الأميران للأمير بشير عن الحكم، باختيار أعيان البلاد جميعاً[٩٨]، ووجّه عبدالله باشا عندئذ خلعة الإمارة للأمير بشير، مصحوبة بكتاب منه مضمونه أن الوالي قد فوّض الأمير «الولاية مدة حياته»[٩٩].

٢ - ثورة بلاد جبيل والبترون وكسروان - عامية لحفد، ووقعتا لحفد وعمشيت (آب ١٨٢١)[١٠٠]:

عاد الأمير يثقل كاهل الأهلين بالضرائب من جديد، فأثار ذلك عليه النقمة تكراراً، واستغل الأميران حسن وسلمان، وكانا في بلاد جبيل، هذه النقمة، فحرّضا الأهالي عليه، وتمكنا، بالتالي، من أن يعبئا ضدّه الرأي العام في كل من بلاد جبيل والبترون وكسروان، فأخذ الأهالي يطردون جباة الأمير من بلادهم، وعقدوا عامية جديدة في «لحفد» اجتمع فيها معظم أهالي تلك البلاد، وقرّروا عدم دفع الميرة إلى الأمير ومقاومته بالسلاح إن هو أصر على أخذها.

أ - السير للقتال:

وعلم الأمير بالأمر، فسار إليهم على رأس نحو خمسماية رجل: ثلاثماية راجل ومايتي خيال[١٠١]، واصطحب معه ابنه الأمير خليلاً والمشايخ: حسن جنبلاط، وأبو سلمى العماد، وناصيف أبو نكد، وابراهيم تلحوق، وشبلي عبد الملك[١٠٢]، وكان يعتزم مفاوضة المتمردين بالحسنى أملاً بإقناعهم بدفع المال المترتب عليهم[١٠٣]. وسلك الأمير طريق الساحل من نهر الكلب إلى نهر ابراهيم فعمشيت فغرفين (شرق عمشيت)، وعندما وصل إليها جاءته أنباء بأن الأهالي قد تجمعوا في قرية «شامات» وعزموا على مقاومته ومنعه من متابعة السير، فكتب إلى الشيخ بشير جنبلاط أن يوافيه إلى «لحفد» بالرجال، وتابع هو ومن معه سيرهم حتى وصل إلى أرض «لحفد»، فعكسر قرب نبع ماء بجوار القرية.

ب - المفاوضات:

أما الأهالي، فعندما علموا بتقدم الأمير نحوهم، قرّروا مجابهته، فاجتمع أهالي البترون وبلاد جبيل بعض أهالي كسروان في قرية «حاقل»، واجتمع أهالي جبة بشري في قرية «إهمج»، واجتمع المتاولة في «رام مشمش»، واستعدوا جميعاً للقتال، إلا أنهم عيّنوا، في الوقت نفسه، وكلاء يمثلونهم في التفاوض مع الأمير، إلا أن المفاوضات لم تسفر عن نتيجة، ذلك أنهم أرادوا أن يفرضوا على الأمير شروطاً لا يمكنه قبولها، ومنها أن «كلمن يكون حاكماً لا يكون حكمه من يد الدولة»[١٠٤]، هذا بالإضافة إلى شروط أخرى تتعلق بدفع أموال الميرة، وقد رفض الأمير شروطهم جميعها، واعداً إياهم أن «لا يطلب منهم إلا كما أخذ من بلاد الشوف والمتن»[١٠٥]، إلا أنهم رفضوا بدورهم ذلك، وكان الأميران حسن وسلمان يحثانهم على رفض أي اتفاق مع الأمير، وكان الأمير على يقين من

ذلك، لذا، قرّر أن يتساهل في مفاوضاته معهم، وأرسل من يقول لهم إن الأمير «قد ارتضى أن لا يأخذ منهم سوى مال واحد وانه يقوم من تلك البلاد ويرجع إلى بلاد الشوف، وهم يجمعوا ما بقي من الميري ويوردوها له من دون حوالي ولا لزز في الطلب»[١٠٦] إلا أنه فوجيء، قبل عودة رسله، أن نحو ألفين من الثوار قد احتلوا «الشير» المشرف على معسكره[١٠٧]، وبدأوا يطلقون الرصاص على رجاله.

ج - المعركة:

وأصر الأمير على أن لا يرد على النار بالمثل، وأوعز إلى رجاله بالمسالمة، رغبة منه في انتظار المدد الآتي مع الشيخ بشير جنبلاط، وحاول الأمير خليل والشيخ ناصيف الصعود إلى «الشير» ومقاتلة الثوار، إلا أن الأمير منعهم من ذلك قائلاً «إنهم قليلو العدد والطريق إليهم لا يسع اثنان يمران فيه سوية، وقد حرّرت للشيخ بشير جنبلاط وللشيخ حمود أبي نكد أن يحضرا لعندي بالرجال... وحرّرت لرؤساء الديانة أن ينصحوا الرعية عن المخاطرة بأنفسهم، فيلزم أن نأخذ الأمور بطولة البال حتى ننظر ما يجدّ علينا»[١٠٨].

ولكن الثوار المتمركزين على «الشير» لم يتوقفوا عن رمي معسكر الأمير برصاصهم، حتى أصابوا خيمته وقتلوا أحد خدمه بينما كان يقدم الماء له[١٠٩]، مما أثار الأمير خليلاً والشيخ ناصيف (أبي نكد) فلم يعودا يصغيان لأوامر الأمير بل تسلقا برجالهما الشير، وتبعهما رجال الأمير وقادتهم من الأمراء والمشايخ، ودار بين الفريقين قتال مرير وصفه الشهابي بقوله: «وعندما صعدوا - أي رجال الأمير - إلى ظهر الشير ابتدى القتل في ذلك العسكر - أي الثوار -، والبعض ارتموا من ظهر الشير إلى أسفل فماتوا، والبعض (تم) قتلهم ذبحاً من عسكر الأمير، وطردوهم مسير ساعة، ولما غربت الشمس رجع عسكر

الأمير منصوراً وتشتت أولئك الرجال في تلك الوادي»[١١٠] وقد قتل من الثوار «ما ينوف عن الماية والخمسين من دون المجاريح»[١١١]، بينما لم يقتل من رجال الأمير سوى «ستة رجال وأربع روس خيل وبعض المجاريح»[١١٢].

والجدير بالذكر أن الأمير بقي، في أثناء القتال، في مكانه «وإنما عسكره هجم على تلك العساكر من دون أمره»[١١٣].

وبعد هذه الوقعة، جمع الأمير عسكره وسار إلى «لحفد» حيث بات فيها ليلته، وجاءه متاولة البلاد خاضعين، ثم سار في اليوم التالي إلى عمشيت.

ويظهر أن الثوار ظنوا أن مسير الأمير من لحفد إلى عمشيت كان نتيجة خوف منهم، فعزموا على مطاردته إليها، ولحقوه برجالهم، ولما أدرك الأمير ذلك، وضع الخطة التالية:

- أمر رجاله بأن يقيموا المتاريس حول كنيسة البلدة، وهي واقعة في رأس القرية ومشرفة على الطريق الموصلة إليها.
- أمر عشرين من خيّالته بمواجهة الثوار، على أن يشتبكوا معهم بالقتال ثم ينسحبوا من أمامهم رويداً رويداً حتى يصلوا بهم إلى أمام المتاريس التي تصليهم عندئذ بوابل نيرانها.

وبالفعل قام خيّالة الأمير بالمهمة وطبّقوا الخطة المتّفق عليها، إلا أن الثوار لم يلحقوا بالخيّالة المنسحبين نحو كنيسة البلدة، فأفشلوا بذلك خطة الأمير[١١٤] الذي انتقل بجيشه صباحاً إلى «جبيل» فأقام فيها.

وفي هذه الأثناء، وصل الشيخ بشير جنبلاط إلى جبيل ومعه أكثر من ألفي مقاتل، وكان قد كمن له مسلحون من كسروان في الطريق عند نهر الكلب وهاجموه فصدهم ونهب رجاله بلدتي الزوق وصربا[١١٥]، فاجتمع لدى الأمير نحو ٣ آلاف مقاتل سار بهم، في أيلول (١٨٢١)، من جبيل إلى البترون فالكورة

فإهدن فبشري، حيث أتاه زعماء تلك البلاد يقدمون له الخضوع والطاعة، بينما فرّ الأميران سلمان وحسن إلى بعلبك[١١٦].

د - استنتاج:

إذا أردنا أن نكون واقعيين في تحليل ثورة الإقطاعات المسيحية الثلاث «بلاد جبيل والبترون وكسروان»، أو ما سمي «بعامية النصارى»[١١٧] أو «عامية لحفد»، فلا بد من الاعتراف بأن هذه الثورة أو العامية قد اتخذت طابعاً طائفياً محضاً، بل ربما كانت أول حرب حقيقية بين الموارنة والدروز سبقت أحداث عامي ١٨٤٣ و١٨٦٠ الطائفية، ولم يمنع ذلك اشتراك المتاولة في هذه الثورة، كما لم يمنع ذلك «مارونية» الأمير بشير نفسه.

وهناك إشارات عديدة تؤكد هذا الواقع يمكن إيجازها بما يلي:

- لقد سميت هذه العامية «بعامية النصارى» لأن المشتركين فيها كانوا سكان الإقطاعات الثلاث (بلاد جبيل والبترون وكسروان) وهم نصارى بأغلبيتهم، وموارنة على وجه التحديد[١١٨].
- إن اشتراك المتاولة بهذه العامية لم يكن اشتراكاً فعلياً، إذ انهم لم يشتركوا في القتال، كما انهم لم يلبثوا أن انفصلوا عن أبناء مناطقهم من الموارنة، فور علمهم بهزيمتهم، وكانوا أول من قدّم الطاعة والخضوع للأمير، يقول المؤرخ الشدياق في ذلك: «وأما المتاولة المجتمعون في رام مشمش، فلما رأوا انهزام عامية النصارى، ضعفت عزائمهم، وأظهروا أن حضورهم كان لأجل الدخول في خاطر الأمير، فحضر بعضهم إلى الأمير يعتذرون ويؤدون له الطاعة فأطلق لهم الآمان وطيّب قلوبهم ونهض إلى لحفد»[١١٩].

يضاف إلى ذلك ما ورد في مذكرات رستم باز من أن الأمير بشيراً أخذ «يعيب المتاولي عن العامية»[١٢٠]. ويشرح المحقق الدكتور أسد رستم كلمة

(يعيب) فيقول: «عاب، بمعنى: خان، ترك مبدأه، انفصل عن حزبه»[١٢١]، أي أن الأمير «خوّن» المتاولة لانفصالهم عن «حزبهم» أو «طائفتهم».

– لقد لعب الرهبان الموارنة دوراً كبيراً في تسعير الثورة على الأمير، سواء في عامية انطلياس أو في عامية لحفد، فالمطران يوسف اسطفان هو الذي أعدّ عامية لحفد، وأسهم مع الرهبان التابعين له في إنجاحها، ويُذكر أن خوري المتن ضبط في جونية يحرض الناس على الالتحاق بعامية لحفد، وقد نفذ الشيخ بشير جنبلاط حكم الإعدام بحقّه فور أن ضبطه متلبساً بهذا العمل[١٢٢].

– إن دروز الشوف والأقاليم جميعهم وقفوا إلى جانب الأمير، كما ان أحزاب الشوف جميعها «الجنبلاطية واليزبكية والنكدية»، وعائلات الشوف جميعها «آل جنبلاط وعماد ونكد وتلحوق وعبد الملك، وغير هؤلاء من العائلات الدرزية» لم يتخلوا عن الأمير في معركته ضد «عامية النصارى» متجاوزين بذلك خلافاتهم وحزبياتهم.

– لقد حاول الأميران حسن وسلمان تجنيد مقاتلين من المناطق الدرزية ضد الأمير فباءت كل محاولاتهم بالفشل، كما ان الأمير حسناً حاول اقناع مشايخ الغرب من آل تلحوق بالالتحاق بالثورة والانضمام إلى الثوار ضد الأمير إلا أنه لم يفلح في ذلك، والسبب هو أن آل تلحوق لم يرضوا بأن يحاربوا أبناء طائفتهم من دروز الشوف والأقاليم، المحالفين جميعهم للأمير بشير، ولم يتورعوا عن مجابهته بالقول إنه «سيكون من الإهانة لموقعهم الإجتماعي وكذلك لديانتهم أن ينضموا إلى حركة تتألف من الفلاحين المسيحيين»[١٢٣]. ويذكر المؤرخ الشدياق أنه، هو نفسه، الذي كلّف من قبل الأمير حسن القيام بالمحاولة، وأن المشايخ التلاحقة رفضوا ذلك قائلين: «إنا لا ننقاد إلى عامية نصارى ذلك البلاد فإنه شينٌ علينا»[١٢٤].

– يظهر أن الطبقية الإجتماعية لعبت دوراً كبيراً في تشكيل كل من المعسكرين المتواجهين، فبينما نرى غالبية معسكر «عامية لحفد» من «الفلاحين المسيحيين» من أهالي الإقطاعات المسيحية الثلاث، حيث يتبين أن تأثير الأعيان المقاطعجيين في هذه الثورة يكاد يكون معدوماً، بحيث لا نرى من المشايخ والأمراء فيها إلا النفر القليل (الأميرين حسن وسلمان اللذين استغلاّ هذه الثورة دون أن يكونا وراء اشتعالها)[١٢٥]، نرى، بعكس ذلك، أمراء الدروز ومشايخهم وأعيان الشوف والأقاليم يشتركون، إلى جانب الأمير، في حربه ضد «عامية النصارى» هذه.

ومن هنا، نجد أن المعركة اتخذت طابعاً مهماً ومصيرياً، فبينما نرى أهل البلاد الثائرين على الأمير يحشدون ضدّه، في العامية، كل قواهم (١٣ ألفاً كما ذكر مشاقه)[١٢٦]، حتى ضرب المثل بذلك الحشد للقوى الذي حصل في هذه العامية فقيل «أكثر عدداً من أولئك الذين اشتركوا في عامية لحفد»[١٢٧]، نرى الأمير بشيراً، بدوره، يعبئ كل قواته للقتال، فيطلب من الشيخ بشير وجميع مشايخ البلاد «أن يحضروا برجالهم إليه»[١٢٨]، ومع ذلك، فهو لم يتخلَّ عن سياسته السلمية تجاه الثوار، وظل مصراً، حتى آخر لحظة، على عدم مواجهة العنف بالعنف ضدهم، لولا أن خرج الأمر عن يده عندما تحدى الثوار قادة الأمير ورجاله وبادروهم بإطلاق النار على معسكر الأمير وإصابة بعضهم فيه، كما مرّ معنا.

نستنتج من ذلك أن الأمير كان يشعر، ولا شك – وهو الذي ولد وترعرع على المذهب الماروني، وتمسك بديانته طوال حياته، رغم أنه لم يكن، لأسباب محض سياسية، يجهر بهذه الديانة بسلوكه في الحكم خصوصاً – أن سنده الحقيقي في حكمه هم أولئك الذين ثاروا عليه وأعلنوا الحرب ضدّه، وأنه لا بد،

لكي يستمر في الحكم، من إرضائهم والتحالف معهم، ذلك لأن ليس له، في الإمارة التي يتمتع بحكمها، وهي إمارة الشوف، أية جذور تتأصل بها أسرته الشهابية، كما ان ليس له فيها أية شعبية تحميه، بل إن عائلته غريبة عن الشوف بعيدة عن عائلاته الدرزية العريقة فيه، ولطالما وجد، هو وأسلافه من الشهابيين، في أهالي جبل لبنان وبلاد جبيل، ملاذاً وحمى وأنصاراً لهم في الملمات، لذلك، لا يمكننا أن نحمل محمل الجد القول بأن اعتماد الأمير، في مواجهته لثوار لحفد، وحل نزاعه معهم، على الأسلوب السياسي، قبل الأسلوب العسكري، كان ناتجاً عن خوف منه وضعف، وشكّ بقدرته على مواجهتهم عسكرياً، بل إننا لا نشك لحظة في أن اعتماد الأمير لذلك الأسلوب السياسي كان ناتجاً عن رغبة صادقة منه في إعادة الثوار إلى صفه وتحالفهم معه، ومن ثم انتصاره بهم، كما كان الأمر دائماً مع أسلافه من الأمراء الشهابيين بالنسبة إلى أهل هذه الإقطاعات، يؤكد ذلك أن الأمير لم يعمد، بعد انتصاره، إلى الانتقام الجماعي، فلم يهدم القرى ولم يحرق المنازل ولم يقطع البساتين، بل كان، مع أهل هذه البلاد، بعكس عادته في حالات مشابهة، حليماً كريماً متسامحاً[١٢٩].

ولا ينقص من قدر الأمير ومن هيبته وسلطانه كونه وجد صعوبة كبيرة في إخماد هذه الثورة، حتى انه كاد يفشل مراراً في ذلك[١٣٠]، وأنه، لولا حمية متأصلة في رجاله، وتفننه في حثهم على القتال[١٣١]، والنجدة الفورية الثمينة التي قدمها له الشيخ بشير، لما استطاع اخماد هذه الثورة في عقر دارها، حتى ان المفكر والرحالة الفرنسي «لامارتين» تعجب، بل اعتبر أن في الأمر معجزة، أن يتمكن الأمير بشير، بآلافه الثلاثة، من إخماد ثورة في ثلاث «مقاطعات» قوية هي بلاد جبيل والبترون وكسروان[١٣٢].

ثامناً - قتال الأمير ضمن تحالفاته الداخلية (١٨٢١ - ١٨٢٢): قتاله ضد درويش باشا والي دمشق

- بوادر النزاع المسلح بين الأمير بشير ودرويش باشا والي دمشق (١٨٢١):

ذكر «مارتان» (Martin) قنصل فرنسا بصيدا، في رسالة منه إلى البارون «باسكييه» (Pasquier) وزير الخارجية الفرنسية، بتاريخ ١٧ كانون الأول ١٨٢١، ما يلي:

«لأهالي الجبل أملاك في مقاطعة البقاع التي تبعد ١١ فرسخاً عن مدينة دمشق والتي تتبع بشالق هذه المدينة، وقد قام رجال الباشا - باشا دمشق - بالتضييق على أصحاب هذه الأملاك الذين قاموا، بدورهم، بطرد رجال الباشا بقوة السلاح. وما أن عاد الباشا من الحج بمكة وعلم بالأمر، حتى أقدم على توقيف كل من وجد في دمشق من أهالي هذا الجبل، وعلى هذا، قام الأمير بشير، بدوره، فأوقف كل من كان تابعاً لدمشق وموجوداً في الجبل.

«وهكذا، فقد أعلنت الحرب بين الأمير الشهابي وباشا دمشق، وهناك تأكيدات بأن باشا عكا دخل بين الطرفين كمصلح، إلا أن باشا دمشق رفض أية مصالحة وبدأ يستعد للحرب، وكذلك الأمير بشير»[١٣٣].

إذن، ما أن عاد الأمير بشير من إهدن إلى جبيل (تشرين الأول ١٨٢١)، حتى علم بأن «حسن باشا العبد»، متسلم البقاع من قبل درويش باشا والي دمشق، قد حاول التضييق على أصحاب القرى التي يملكها أتباعه في البقاع، ومعظمهم من رجال الشيخ بشير جنبلاط، فطرده هؤلاء من ديارهم بقوة السلاح، ولكنه أقدم على نهب «طروش» هذه القرى وسار بها إلى دمشق، ولما عاد درويش باشا من الحج أخبره متسلمه على البقاع بما جرى له ولرجاله،

فألقى القبض على أتباع الأمير المقيمين بدمشق، ثم عيّن «محمد آغا بوزو» متسلماً على البقاع بدلاً من حسن باشا العبد، وأرفقه بمايتي خيّال وأمره بالمسير إلى مقر عمله والانتقام من أصحاب تلك القرى.

علم الأمير بكل هذه الحوادث وهو في جبيل، فكتب إلى عبدالله باشا يخبره بما جرى في البقاع ويستأمره، فأمره باشا عكا بالعودة إلى بيت الدين وإرسال حملة إلى البقاع لتأديب متسلمها وطرده من البلاد، وبالفعل، فقد عاد الأمير لتوّه إلى بيت الدين، وأرسل ولده خليلاً بجيش من عنده إلى البقاع، فاحتلها بعد أن طرد منها متسلمها ورجاله، ونهب القرى التابعة لولاية دمشق فيها، ثم أعاد أصحاب القرى من أتباع الأمير إلى قراهم بعد أن كانوا قد هجروها خوفاً من بطش المتسلم ورجاله، ثم ألقى الأمير القبض على كل من وجده في إمارته من أتباع والي دمشق[١٣٤].

وبدأت بوادر الصراع المسلح بين الأمير والوالي تتضح معالمها وتزداد وضوحاً يوماً بعد يوم، ودخل أطراف عديدون محاولين إصلاح ذات البين بين الفريقين، وعرض الأمير شروطه للصلح وهي:

أولاً: رفع المصادرة عن القرى التي سبق أن صادرها والي دمشق السابق الكنج يوسف باشا مدعياً أنها تخصه، وهي في الواقع ملك آل جنبلاط.

ثانياً: أن يخضع حاكم البقاع الذي يعينه والي دمشق، للأمير، ويرفع الضرائب الزائدة عن رعاياه في البقاع.

ثالثاً: أن يحكم وادي التيم (الأعلى والأسفل) حاكم من آل شهاب يختاره الأمير.

رابعاً: أن يحكم بلاد بعلبك حاكم من آل حرفوش يختاره الأمير[١٣٥].

وتمّت الموافقة المبدئية من الطرفين على هذه الأسس، وطلب باشا دمشق من الأمير أن يرسل له «عرض حال» يتضمن مطالبه هذه ليوافق عليها، ثم أصدر أوامره بإطلاق سراح من كان محتجزاً عنده من رعايا الأمير، كما أصدر الأمير أوامره بإطلاق سراح من كان محتجزاً عنده من رعايا الباشا، وكان على الأمير أن يعرض الاتفاق على عبدالله باشا لينال موافقته قبل أن يتّخذ هو قراراً بشأنه، ولكن باشا عكا رفض هذا الاتفاق رفضاً باتاً بحجة أنه لا يرضى بأن يرسل الأمير «عرض حال» إلى دمشق، ثم أصدر أوامره إلى الأمير كي يستعد للقتال.

١ - وقعة راشيا الأولى (شباط ١٨٢٢):

قرّر عبدالله باشا أن يبدأ المواجهة العسكرية ضد درويش باشا، بوادي التيم، حيث نصّب والي دمشق، في كل من راشيا وحاصبيا، أمراء من حلفائه وأنصاره، وكان الأمير منصور الشهابي حاكماً على راشيا من قبل ذلك الوالي، فقرّر باشا عكا أن يبدأ مواجهته، ضد والي دمشق، بطرد هذا الأمير، وعهد إلى الأمير بشير بتنفيذ المهمة.

أ - التحشد للقتال:

(١) معسكر الأمير بشير:

- جهّز الأمير قوّة من ألف مقاتل من رجال الشوف بقيادة الأمير أفندي ومعه الشيخ قاسم بشير جنبلاط والشيخ حمود النكدي (على رأس جماعة من المناصف)، وأمرهم بأن يسلكوا طريق جزين - مرجعيون.
- جهّز عبدالله باشا والي عكا قوّة من ٥٥٠ خيّالاً من جنده من الأرناؤوط (١٠٠ خيّال بقيادة محمد آغا نعمان)، والهوارة (٢٠٠ خيّال بقيادة أبو زيد

آغا)، والدالاتية (٢٥٠ خيّالاً بقيادة نعمان آغا وابراهيم آغا)، وأمرهم بالتوجّه إلى مرجعيون لملاقاة جند الأمير هناك.

- التقت القوتان بمرجعيون، واتجهتا معاً، بقيادة الأمير أفندي، إلى راشيا، وعسكرتا في القرى المحيطة بها.

(٢) معسكر الأمير منصور:

- توجّه الأمير منصور من دمشق إلى راشيا ومعه ٤٠٠ مقاتل.
- جهّز درويش باشا فرقة من ٥٠٠ مقاتل وضعها بقيادة الأمير فارس سيد أحمد، يساعده أخوه الأمير سلمان، وأرسلهما لمعاونة الأمير منصور، بعد أو ولّى الأمير فارساً على حاصبيا[١٣٦].
- كان إلى جانب الأمير منصور، في حربه هذه، بعض اليزبكيين الذين انحازوا إلى والي دمشق ضد الأمير بشير، وعلى رأسهم الشيخ ناصر الدين العماد.

ب - المهمة:

حدّد عبدالله باشا هذه المهمة في الأمر الذي وجّهه إلى قادة الجند الذين أرسلهم لمعاونة الأمير أفندي بمهمته (السردار محمد آغا نعمان. وأبو زيد آغا، ونعمان آغا) وذلك بتاريخ ٥ جمادى الثانية ١٢٣٧هـ الموافق لـ٢٨ شباط ١٨٢٢م، وقد جاء فيه ما يلي: «تذهبوا لعند ولدنا الأمير أفندي الشهابي زيد مجده، وتفهموه أن سعادة أفندينا ولي النعم أمر بالركوب على ريشيا، وحالاً تقدموا أنتم وبقية عسكرنا المنصور مع الأمير أفندي المومى إليه وتضربوا ريشيا بفرد رأس، ولا تتأخروا عن التوجّه ولا ساعة الفرد، نؤكد عليكم»[١٣٧].

ج - المعركة:

- تقدمت قوات الأمير أفندي باتجاه راشيا، فخرجت إليها قوات الأمير منصور، والتقى الفريقان خارج البلدة في معركة ضارية انهزم، خلالها، الأمير

أفندي ورجاله، وقد تعقبتهم قوات الأمير منصور والشيخ ناصر الدين العماد، إلا أن الأمير أفندي عاد فنظّم صفوفه وكرّ من جديد على الأمير منصور ورجاله، فهزمهم وظل يطاردهم إلى أن دخلوا البلدة وتحصّنوا بها. وقد قتل من رجال الأمير منصور ١٨ رجلاً وأسر عشرون، كما غنم الأمير أفندي ٤٧ رأساً من الخيل[١٣٨]، وذكر بعض المؤرخين أن قتلى جيش الأمير منصور كانوا ١٢ رجلاً وقتلى جيش الأمير أفندي ستة رجال[١٣٩].

٢ - وقعة راشيا الثانية (آذار ١٨٢٢):

لم تكن وقعة راشيا الأولى حاسمة بين الفريقين، بل لم تكن أكثر من مناوشات تمهيدية للمعركة الفاصلة، وعلى هذا، فقد تابع الخصمان استعدادهما للمعارك القادمة.

أ - التحشد للقتال:

(١) معسكر الأمير بشير:

- أعلن الأمير بشير التعبئة في بلاده، فجمع نحو ألفين من المقاتلين قادهم بنفسه وسار بهم، ومعه أبناء عمّه من الأمراء الشهابيين، إلى جزين، فحاصبيا، فراشيا، فوصل وعسكر بجنده بالقرب من معسكر الأمير أفندي، حول راشيا.
- في هذه الأثناء، التحق به الحاج موسى الحاسي قائد جند الهوارة الذي كان متمركزاً عند جسر بنات يعقوب، ومعه ٣٠٠ خيّال، وذلك بعد أن تلقى أمراً من عبدالله باشا والي عكا بالالتحاق بالأمير[١٤٠].
- وصل الأمير بجنده إلى بيت لهيا، وقد اجتمع لديه، في ساحة القتال، نحو أربعة آلاف رجل من أهل البلاد، بالإضافة إلى نحو ألفين من جند عبدالله باشا، فكان مجموع ما حشده الأمير بشير، في هذه الوقعة، من الجند، نحو ستة آلاف.

(٢) *معسكر الأمير منصور:*

- كان الأمير منصور قد حشد، في الوقعة الأولى وبعدها، نحو ألف مقاتل، كما قدمنا، ثم وصل لراشيا عسكر من دمشق بقيادة ابراهيم آغا قبودجي باشا «وتكامل عسكر الدولة الذي في راشيا نحو ألفين خيّال وزلم»[١٤١].

وقد ذكر الشدياق أن درويش باشا حشد لهذه الوقعة ٣ آلاف مقاتل مقابل ٥ آلاف حشدهم عبدالله باشا من «عسكر عكا والبلاد»[١٤٢].

ب - المهمة:

حدّد عبدالله باشا مهمة جيش الأمير في الأمر الذي وجّهه إليه بتاريخ ٦ جماد الثاني ١٢٣٧هـ (الموافق لأول آذار ١٨٢٢م) وجاء فيه ما يلي:

«فالآن حيث أنه صار وقمتم فصار مقتضى وصولكم لراشيا ونجاز المادة - أي المهمة - وما عاد موافق رجوعكم... بادروا بأخذها وتشتيت شمل الموجودين بها... وبحوله تعالى وقوته، بعد أخذكم المحل، تركزوا أنتم - أي الأمير - في راشيا، وتوجهوا العساكر حالاً في أثر عسكر الشام وأثر الأمير منصور، ويلحقهم في الطعن والضرب والنكال حتى يقلطوهم حدود مقاطعة راشيا لجهة الشام، ويرجعوا وأنتم تبقوا في راشيا. لا تركبوا مع العسكر في أثر عسكر الشام بل ابقوا في راشيا لحين نوجّه لكم منا تعريف...»[١٤٣]، وهكذا، فقد حدّد عبدالله باشا مهمة الأمير، في هذه المرحلة بإخراج عسكر دمشق من راشيا ومطاردته حتى حدود وادي التيم لجهة دمشق.

ج - المعركة:

- وزّع الأمير جنده إلى فرقتين:

الأولى: جند عكا، وقد أمرهم بالتمركز على تلة مقابل راشيا، بالقرب منها، وإلى الشمال، وتدعى «الظهر الأحمر»، وكانوا بقيادة الأمير خليل ابن الأمير بشير.

الثانية: جند البلاد، وقد أمرهم بالتمركز على جبل مقابل «للظهر الأحمر» ولراشيا معاً، وكانوا بقيادة الأمير بشير نفسه.

المرحلة الأولى: القتال

- بدأ جند دمشق القتال بأن خرج من راشيا نحو أربعماية خيّال متّجهين نحو السهل الذي هو في أسفل البلدة (راشيا)، فتصدى لهم جند عكا، من الهوارة، الذين نزلوا، بقيادة الأمير خليل نفسه، ومعه الشيخ حمود والشيخ ناصيف النكديين، ونزل معهم نحو خمسماية من أهل البلاد.

- ما أن بدأ القتال بين الفريقين حتى هزم جند دمشق وعلى رأسهم قائد الدالاتية، الذي انهزم وفرسانه دون أن يتقدم أحد من جند دمشق لنجدته، وطارده الهوارة، وقتلوا من جنده خمسة عشر رجلاً وغنموا ٣٤ رأساً من الخيل، أما هو ورجاله فقد هربوا إلى أسفل البلدة وتحصّنوا في إحدى القلاع الصخرية.

- ما أن رأى الأميران منصور وسلمان والشيخ ناصر العماد جند الدالاتية الدمشقيين منهزمين وجند عكا يطاردونهم، وكانوا، مع رجالهم، في أسفل البلدة، حتى تصدوا لجند عكا وخاضوا معهم قتالاً عنيفاً تمكنوا في نهايته من إجبارهم على الكف عن مطاردة الدالاتية والإنكفاء إلى المواقع التي أتوا منها، بينما عاد جند دمشق والأمير منصور إلى مواقعهم.

- خرج رهط من الأرناؤوط من راشيا وهاجم قرية بيت كيفا الواقعة قرب راشيا وإلى الجنوب، فأحرقها ولكنه لم يتمكن من احتلالها، وتصدى لهذا الرهط جند الأمير فهزموه وقتلوا منه ستة رجال، «ولولا زود الثلوج والوحول لكانوا تملكوا راشيا بتلك الليلة»[١٤٤]. وقد عاد جند الأمير، بعد ذلك، إلى مواقعهم.

المرحلة الثانية: الحصار

- لم يكن بإمكان الأمير أن يحتل راشيا بالنظر إلى كثرة الثلوج التي تسد جميع المسالك الموصلة إليها، فآثر أن يشدّد الحصار على البلدة، ووزّع، لهذه الغاية، قواته، على الشكل التالي:

- أرسل الشيخ بشير جنبلاط بألف نفر من رجال الشوف إلى قرية كفرقوق الواقعة شمال شرقي راشيا، وأمره بأن يقطع الطريق المؤدية إلى راشيا من كفرقوق.

- وزّع باقي جنده أرهاطاً، وأمر كل رهط بالتمركز في نقطة من النقاط حول البلدة، حتى أكمل حصارها وتطويقها.

- عندما رأى جند دمشق المتحصن بالبلدة أنه غير قادر على متابعة القتال، وأنه غير قادر كذلك على رفع الحصار عن البلدة، عمد إلى المفاوضة، فأرسل السر عسكر ابراهيم آغا قبودجي باشا، وكان داخل البلدة مع جنده، إلى الأمير يطلب منه الأمان، ويطلب رفع الحصار عن البلدة كي يتمكن جند دمشق أن يتركوها للأمير ويعودوا إلى دمشق بسلام.

- في هذه الأثناء، وبعد أن وافق الأمير على إخراج جند دمشق من البلدة، خشي الأمراء منصور وسلمان وفارس، ومعهم الشيخ ناصر الدين العماد، أن يغتنم الأمير بشير هذه الفرصة فيلقي القبض عليهم، فهربوا من البلدة ليلاً عن طريق «عقبة الفرس» المؤدي إلى إقليم البلان فقطنا، وقد اضطروا إلى السير مشياً إذ لم يتمكنوا من أخذ خيولهم معهم، مما جعلهم يعانون الكثير من المشقة بسبب الوحول والثلوج[١٤٥].

المرحلة الثالثة: الاحتلال

- في الصباح، ارتحل جند الشام كافة من راشيا إلى دمشق عن طريق كفرقوق، تاركين البلدة للأمير بشير ورجاله، وقد اجتمع السر عسكر ابراهيم آغا بالشيخ بشير في كفرقوق، وتابع وجنده سيرهم نحو دمشق.

- ودخل الأمير بشير وجنده، بعد ذلك، راشيا، فصرف أعيان البلاد إلى ديارهم، ولم يبقَ معه في وادي التيم سوى أولاد عمّه والمشايخ الجنبلاطيين والشيخ حمود نكد، ثم كتب إلى عبدالله باشا يبشره بالنصر، فأرسل باشا عكا للأمير ولقادة الجيش تهاني ومكافآت ثمينة[١٤٦]، وعاد الأمير بعدها إلى مقرّه ببيت الدين.

٣ - وقعة المزة (٢٧ أيار ١٨٢٢):

ازدادت العلاقات توتراً بين عبدالله باشا والي عكا ودرويش باشا والي دمشق، بعد وقعة راشيا وهزيمة درويش باشا في هذه الوقعة، فعاد كل من الفريقين يستعد لجولة جديدة من القتال، لذا، أرسل عبدالله باشا إلى الأمير بشير يأمره بإعداد رجاله للإشتراك في الحرب المقبلة ضد والي دمشق[١٤٧]، ولما علم درويش باشا بذلك حاول تحييد الأمير، فأرسل إليه من ينبئه أن الباب العالي قد أصدر فرماناً بتوليته - أي درويش باشا - على ولاية عكا وطرابلس بالإضافة إلى ولاية دمشق، ويطلب منه أن يلتزم جانب الحياد في حرب الولاة، وأن لا ينحاز إلى جانب عبدالله باشا[١٤٨]، وما أن تلقى الأمير كتاب درويش باشا حتى أحاله بدوره إلى عبدالله باشا للإطلاع وإبداء الرأي فيه، فكان جواب عبدالله باشا إصراراً منه على موقفه تجاه درويش باشا وتكراراً لطلبه من الأمير بشير أن يستعد للقتال[١٤٩].

وقرّر الأمير أن يتوجّه إلى عكا لمقابلة الوالي ومحاولة إقناعه بالتخلي عن موقفه العدائي تجاه والي دمشق، وبأن مهاجمته لدمشق التي تعتبر «باب الكعبة» سوف تؤدي إلى غضب الدولة عليه، ولكن عبدالله باشا أصرّ على موقفه، ويقال إنه أطلع الأمير على فرمان مزور بتوليته على دمشق مما جعل الأمير يوافق والي عكا على رأيه وينحاز إلى جانبه[١٥٠].

أ - التحشد للقتال:

(١) معسكر والي عكا:

غادر الأمير عكا وتوجّه لتوّه إلى حيث عسكر ابنه الأمير خليل بجيشه عند جسر بنات يعقوب، فجمع ذلك الجيش وتوجّه به إلى قرية «نعران» فقرية «القنيطرة» ثم «سعسع»، حيث كان جند والي عكا بقيادة ابراهيم آغا كردي بانتظاره، فانضم الجميع، جند البلاد وجند الوالي، إلى الأمير الذي تولى قيادتهم، وكان يعاونه في قيادة جند البلاد كل من ولده الأمير خليل والشيخ بشير جنبلاط، وقد بلغ عدد هؤلاء نحو ستة آلاف مقاتل، حسب رواية القنصل الفرنسي بصيدا، الذي يذكر أن «الأمير بشيراً والشيخ بشير جنبلاط قد جمعا نحو ستة آلاف رجل وسارا على رأسهم لمحاربة جند باشا دمشق الذي يراوح عددهم بين ٣ و٤ آلاف رجل»[١٥١].

(٢) معسكر والي دمشق:

إنضم إلى هذا المعسكر خصوم الأمير بشير من أهل البلاد مثل الحزب اليزبكي (الشيخ علي العماد وأبناء عمه الشيخ أمين والشيخ خطار قاسم العماد، وأنصارهم)، والأميرين حسن وسلمان الشهابيين، وبعض مشايخ آل تلحوق وآل عبد الملك[١٥٢]، وقد تجمع لدى باشا دمشق من هؤلاء وأنصارهم، ومن جند دمشق، ما بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف مقاتل، كما قدمنا[١٥٣].

ب - السير للقتال:

إنتقل الأمير بكامل جيشه إلى بلدة «الجديدة» أو «جديدة عرطوز» وهي على مسير ساعتين من دمشق، ثم تابع سيره إلى قرية «كوكب» فقرية «المعضمية»، على مقربة من دمشق جنوباً بغرب، وعسكر في هذه القرية استعداداً للتقدم نحو دمشق.

وما إن بدت طلائع جيش الأمير على مشارف المدينة حتى تحرك جيش دمشق وخرج من المدينة لملاقاته، فعكسر في «المزة» على مسافة قليلة من معسكر الأمير الشهابي.

ج - المعركة:

بدأ القتال صباح يوم الأحد في ٦ رمضان ١٢٣٧هـ (الموافق لـ٢٧ أيار ١٨٢٢م)[١٥٤]، وذلك عندما انتخب الأمير من جيشه نحو ألفي مقاتل من الخيّالة والمشاة «من أهالي الشوف ورجال بيت أبو نكد والبعض من أهالي المتن، ومن عسكر عبدالله باشا الدالاتية والهوارة»[١٥٥] بقيادة الأمير خليل وقادة الدالاتية (السر عسكر ابراهيم آغا الكردي ومعاونوه)، والهوارة (أبو زيد آغا وموسى آغا الحاسي)، وسار بهم إلى قرية المزة حيث ضرب حصاراً حولها.

خطة الأمير:

بعد أن أتم الأمير حصار المزة اعتمد الخطة التالية:

- القيام بمناورة تضليلية من على الهضبة المشرفة على المزة من الجهة الغربية.
- والقيام بالهجوم الرئيسي على القرية من الجهة الجنوبية.

ولتنفيذ الخطة، قسم الأمير جيشه فرقتين:

- الأولى، بقيادة ابنه الأمير خليل، ومهمتها تنفيذ المناورة التضليلية.

- الثانية، بقيادته هو نفسه، ومهمتها تنفيذ الهجوم الرئيسي على المزة.

وتنفذ الخطة على مرحلتين: الأولى، المناورة التضليلية، والثانية، الهجوم الرئيسي.

خطة جيش دمشق:

أما جيش دمشق فقد عسكر خارج دمشق وفي سهل متسع أمام قرية المزة، وقد قسّم باشا دمشق جيشه فرقتين:

- فرقة الخيّالة والمدفعيّة، وقد تمركزت خارج القرية وفي السهل، المدافع في المقدمة، وخلفها الخيّالة.
- فرقة المشاة، وقد تمركزت خلف أسوار القرية المطلة على السهل.

تنفيذ الخطة:

- أرسل الأمير ابنه خليلاً على رأس فرقة من خيّالة الأرناؤوط، ومعه الشيخ حمود والشيخ ناصيف النكديان، فتمركز على جبل يشرف على المزة من الجهة الغربية، ثم شن، انطلاقاً من مركزه هذا، هجوماً على القرية، ودار بين الفريقين قتال عنيف استعمل فيه المدافعون، من داخل أسوار القرية وخارجها، كل أنواع الأسلحة من «مدافع وبنادق وزنبركات» فقتل مقدم الأرناؤوط وانهزم جند الأمير خليل فعادوا إلى مواقعهم.
- في هذه الأثناء، كان الأمير بشير يقوم، على رأس فرقة مختارة من المشاة قوامها ألف نفر، بهجوم جنبي انطلق به من الجنوب باتجاه أسوار القرية، فتسلق رجاله تلك الأسوار تحت وابل من الرصاص (وهي مبنية من الطين) فهدموها وأضرموا النار في بيوت القرية، ودخل الأمير وجنده القرية حيث جرى بينهم وبين المدافعين قتال بالسلاح الأبيض وتبادل الرصاص من مسافات قريبة، حتى انهارت مقاومة المدافعين فقتل من قتل وفرّ من استطاع إلى الفرار سبيلاً[١٥٦].

رواية الشدياق:

يروي الشدياق أنه، حين دنا مشاة الأمير من متاريس جند دمشق المدافعين عن القرية، وكان هؤلاء من اليزبكيين من رجال الشيخ ناصر الدين العماد، طلبوا من هؤلاء الجند أن يسمحوا لهم بدخول القرية لأنهم أصحاب قادمون إليهم «فصدقهم الشيخ ناصر الدين وانخدع لظنه أنهم جماعة اليزبكية» وأمر جنده وجند دمشق بأن يسمحوا لهم بالدخول، ولكن، ما كاد مشاة الأمير يدخلون بهذه الحيلة إلى القرية، حتى انقضوا على متاريس الجند الدمشقيين والجند اليزبكيين وأخذوا يطلقون الرصاص عليهم، فأزاحوهم من مواقعهم وهزموهم[١٥٧]. إلا أننا لا نستطيع أن نؤكد هذه الرواية أو ننفيها باعتبار أن الشاهد الوحيد عليها هو الشدياق نفسه الذي كان في المعسكر المعادي للأمير، بينما كان المؤرخ الشهابي في معسكر الأمير، وفي كل حال، فإننا لا نستطيع أن ننفي احتمال الانحياز لدى كل من المؤرخين.

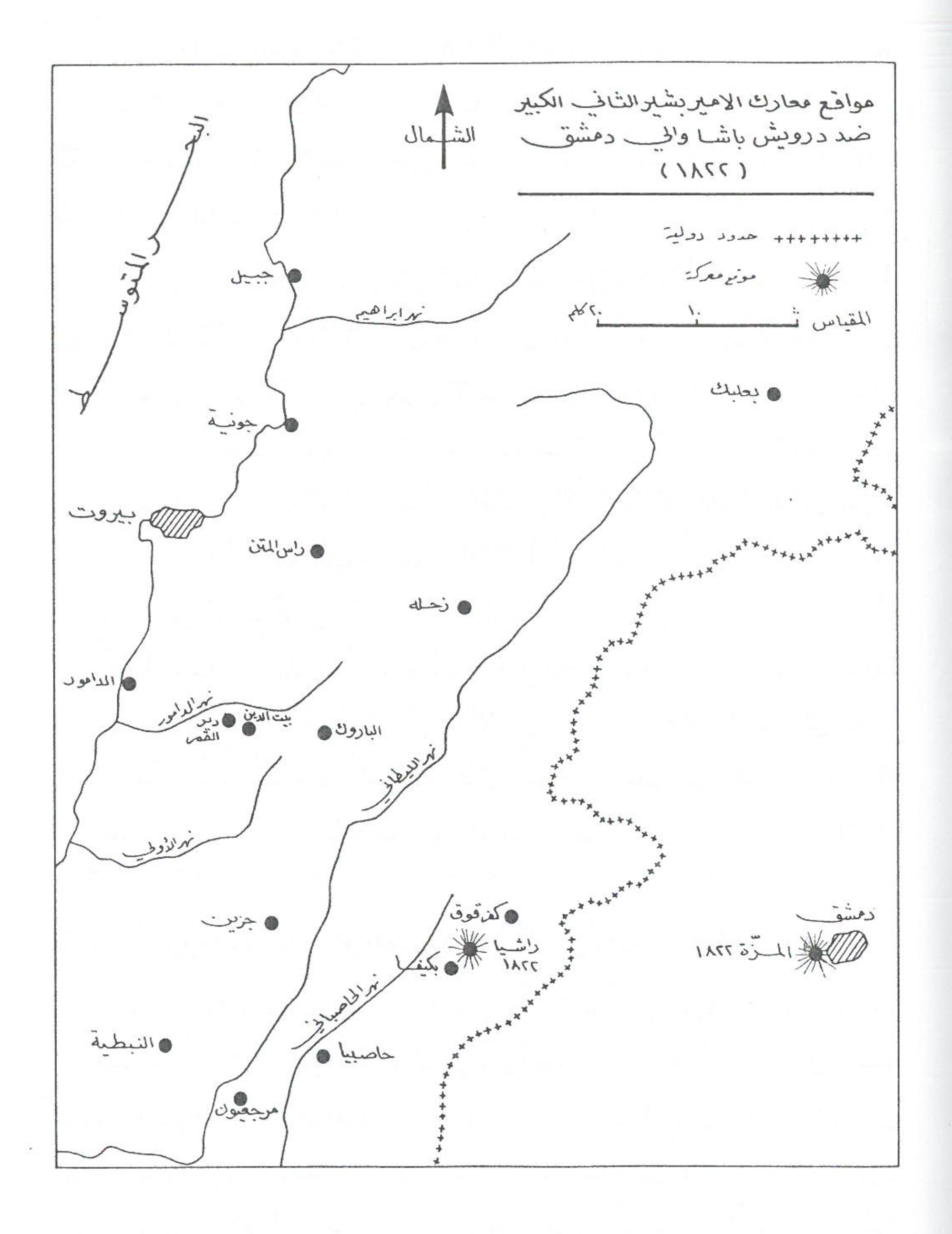
نتيجة المعركة:

إتفق المؤرخان، الشدياق والشهابي، على الإقرار بضخامة الخسارة التي وقعت بالجند الدمشقي وحلفائهم في هذه الوقعة، فبينما نرى الشدياق يصف هذه الوقعة بقوله: «فما كنت ترى إلا سيوفاً تلمع وعيوناً تهمع وأجساماً تقطع، وازدحمت الفرسان على معابر المياه فانطرحوا صرعى وسدت في وجوههم أبواب النجاة وتشتت الرجّالة بين الأشجار فمنعتهم الوحول عن الخلاص والفرار فأدركهم القوم الظافرون وجرعوهم كأس المنون»[١٥٨]، ويذكر أنه قتل في هذه الوقعة من الجند الدمشقيين وحلفائهم «نحو مايتين وعشرين رجلاً ما عدا الغرقى» وأسر «نحو خمسماية رجل، وأسر الشيخ حسين تلحوق جريحاً مهشماً»، وأما من بقي من جند دمشق في المزة «فسلّم بعض وقتل بعض»، كما

يذكر أن عدد الأسرى من جند دمشق كان ١٢٠ أسيراً، من أصل خمسماية، وقد أرسلهم الأمير إلى عكا، أما الباقون فكانوا من حلفاء درويش باشا من رجال الأمراء الشهابيين والحزب اليزبكي، وقد أطلق الأمير سراحهم[١٥٩].

أما الشهابي فيذكر أن عدد القتلى من جند دمشق وحلفائهم كان «ينوف عن المايتين وخمسين نفر» وأن الأسرى كانوا «نحو خمسمئة أسير»، أما باقي جند دمشق فقد ذهب «بين مهزوم ومجروح»، واستولى الأمير على «وطاقهم والجبخانا والمدافع والزمبركات وجميع الخيل والسياس»، كما يذكر، في مكان آخر، أن عدد الأسرى من جند دمشق كان «ثلاث مية وأربعة وسبعين نفر» من أصل خمسماية، وقد أرسلهم الأمير إلى عكا «وأما المأسورين الذين من جبل الدروز الذين كانوا صحبة الأمير حسن والأمير سلمان والشيخ علي عماد أطلق سبيلهم»[١٦٠]، ولكن الشهابي يعود فيستطرد في مكان آخر فيقول إنه «بقي جملة ناس، بعد أيام، تتباين غرقاً في نهر بردى من عساكر الشام، حتى بلغ ما ينوف عن ألف نفس ما بين أسير وقتيل»[١٦١]، وقد عاد الأمير، بعد هذه الوقعة، إلى المعضمية فعسكر فيها.

بعد هذه الوقعة[١٦٢]، كان لا بد أن يتدخل الباب العالي ليضع حداً لتصرف والي عكا وحليفه الشهابي، خصوصاً أنه اتهم هذا الوالي بتزوير فرمان بتسلمه ولاية دمشق، فكلف مصطفى باشا والي حلب أن يسير بجيشه لنجدة درويش باشا والي دمشق، وكان هذا الأخير قد سحب ما تبقى له من جند وأدخلهم المدينة وأقفل أبوابها عليه وعليهم، فما ان علم بقدوم والي حلب لنجدته حتى استعاد معنوياته وأرسل أعيان دمشق إلى حمص لملاقاة والي حلب والاحتفاء به، وما أن وصل مصطفى باشا إلى حمص حتى أمر جميع مناصب الشوف وأعيانه وأمرائه وشيوخه أن يدخلوا في طاعة الأميرين سلمان وحسن



الشهابيين، حليفي والي دمشق، ولما وصل إلى دمشق أصدر أمراً إلى الأمير بشير أن يخضع بدوره لأوامر الدولة ويعود بجيشه إلى بلاده، فأذعن الأمير ونهض حالاً بالجند إلى «خان الشيخ» فقرية «مجدل شمس» فإلى «جسر بنات يعقوب» ثم إلى «بيت الدين».

وما أن استقر الأمر لدرويش باشا، وتسلم من مصطفى باشا والي حلب، الفرمان السلطاني بتوليته على عكا وطرابلس بالإضافة إلى دمشق، حتى أصدر، بدوره، أمراً «بيلوردي» بعزل الأمير بشير عن إمارة الجبل وبلاد جبيل، إذ أنه بعد أن «تحقق لدينا خيانته من عدم مجاوبته لنا بعدم الإطاعة لأوامر الدولة العلية... وتأكّد عندنا عصاوته، اقتضى الآن أننا قد رفعنا يده من التزام الجبل وجبيل»[١٦٣]، ثم أتبعه، بعد ذلك، بأمر «بيلوردي» آخر، عيّن بموجبه الأمير عباس أسعد أميراً على «جبل الدروز وكسروان وبلاد جبيل»، وقد وقّع درويش باشا هذا «البيلوردي» بإمضاء «الحاج محمد درويش والي الشام وصيدا وطرابلس شام وأمير الحاج»[١٦٤]. وأما الأمير بشير، فقد غادر البلاد إلى مصر في آب من العام نفسه (١٨٢٢)، ويذكر القنصل الفرنسي في طرابلس انه غادرها على متن سفينة أقلته من بيروت إلى مصر[١٦٥].

تاسعاً - حرب البشيرين، أو الصراع الدامي على زعامة الإمارة (١٨٢٥):

قبل أن نتحدث عن حرب البشيرين، لا بد من التوقف أمام ظاهرة أحدهما الشيخ بشير جنبلاط، والتأمل فيها بعمق، فقد كان هذا الرجل زعيماً حقيقياً للشوف، تنبع زعامته من أصالة متجذرة في أعماق الجبل تمتد إلى عهد المعني الكبير، حليف جدّه على باشا جنبلاط والي حلب في مطلع القرن السابع عشر، بالإضافة إلى ما كان يتمتع به من شخصية فذّة تفرض نفسها

على العامة دونما تكلف، لذا، فقد نما لدى هذا الشيخ شعور بديهي بحقّه في زعامة البلاد حقاً لا ينازعه فيه أحد، بل وربما باستحقاقه لإمارتها أكثر من استحقاق أي زعيم آخر سواه، خصوصاً إذا كان شهابياً طارئاً لا تربطه بالناس والشعب في الإمارة إلا رابطة النسب البعيد، نسبٍ يتصل بالرحم، وزاد على ذلك أن افترق عن الناس والشعب في تلك الإمارة «بصده عن الدروز جانباً وميله بكليته إلى النصارى حتى ترك دينه الإسلامي الذي ولد فيه وشب عليه واعتز به مارقاً منه إلى الدين المسيحي»[١٦٦]. ويتابع «أبو شقرا» وهو أحد مؤرخي تلك الفترة، وما بعدها، معبراً، بسذاجة متناهية، عن التأثير السيئ الذي تركه تغيير الأمير لدينه، في صفوف الشعب في الجبل، وهو ما يوضح، بما لا شك فيه ولا لبس، أحد أهم أسباب الصراع بين البشيرين، فيقول: «وما ذلك لجزمه بصحة هذا وفساد ذاك، لأنه لم يكن ذا معارف وفيرة يتبين بها هذا الأمر، بل كان مجرد تنصره نكاية بالدروز واعلانا بالبغض لهم والابتعاد عنهم والحب لغيرهم والقرب من ذلك الغير. ولم يكن في سياسته تلك من بأس فيما لو راعينا مشاربه ومقاصده، فقد ازدادت بذلك أمة عيسى به ثقة واليه إركاناً وله طاعة وانقياداً، ثم إنه، بعد ارتداده، جمع كبار الشهابيين إلى نديه (أي مجلسه)، وأبان لهم جلية قصده عن التنصر مقترحاً عليهم أن يقتدوا به ويحذوا حذوه، وقد أوضح لهم عن الفوائد التي تنجم لهم بتركهم الإسلام، وعما يترتب لهم بتنصرهم من النجاح والفلاح وتعزّز الدولة وبسطة الجاه والسؤدد، ولم يزل في اغوائهم وتغريرهم حتى حملهم على الردة وأصبحوا للديانة المسيحية معتنقين. ولم يلبث هذا الداء أن سرت عدواه إلى الأمراء اللمعيين سادة المتن الذين كانوا دروزاً فحذوا حذو آل شهاب بالمروق إلى الديانة المسيحية أيضاً»[١٦٧].

الشهابيين، حليفي والي دمشق، ولما وصل إلى دمشق أصدر أمراً إلى الأمير بشير أن يخضع بدوره لأوامر الدولة ويعود بجيشه إلى بلاده، فأذعن الأمير ونهض حالاً بالجند إلى «خان الشيخ» فقرية «مجدل شمس» فإلى «جسر بنات يعقوب» ثم إلى «بيت الدين».

وما أن استقر الأمر لدرويش باشا، وتسلم من مصطفى باشا والي حلب، الفرمان السلطاني بتوليته على عكا وطرابلس بالإضافة إلى دمشق، حتى أصدر، بدوره، أمراً «بيلوردي» بعزل الأمير بشير عن إمارة الجبل وبلاد جبيل، إذ أنه بعد أن «تحقق لدينا خيانته من عدم مجاوبته لنا بعدم الإطاعة لأوامر الدولة العلية... وتأكّد عندنا عصاوته، اقتضى الآن أننا قد رفعنا يده من التزام الجبل وجبيل»[١٦٣]، ثم أتبعه، بعد ذلك، بأمر «بيلوردي» آخر، عيّن بموجبه الأمير عباس أسعد أميراً على «جبل الدروز وكسروان وبلاد جبيل»، وقد وقّع درويش باشا هذا «البيلوردي» بإمضاء «الحاج محمد درويش والي الشام وصيدا وطرابلس شام وأمير الحاج»[١٦٤]، وأما الأمير بشير، فقد غادر البلاد إلى مصر في آب من العام نفسه (١٨٢٢)، ويذكر القنصل الفرنسي في طرابلس انه غادرها على متن سفينة أقلته من بيروت إلى مصر[١٦٥].

تاسعاً - حرب البشيرين، أو الصراع الدامي على زعامة الإمارة (١٨٢٥):

قبل أن نتحدث عن حرب البشيرين، لا بد من التوقف أمام ظاهرة أحدهما الشيخ بشير جنبلاط، والتأمل فيها بعمق، فقد كان هذا الرجل زعيماً حقيقياً للشوف، تنبع زعامته من أصالة متجذرة في أعماق الجبل تمتد إلى عهد المعني الكبير، حليف جدّه علي باشا جنبلاط والي حلب في مطلع القرن السابع عشر، بالإضافة إلى ما كان يتمتع به من شخصية فذّة تفرض نفسها

على العامة دونما تكلف، لذا، فقد نما لدى هذا الشيخ شعور بديهي بحقّه في زعامة البلاد حقاً لا ينازعه فيه أحد، بل وربما باستحقاقه لإمارتها أكثر من استحقاق أي زعيم آخر سواه، خصوصاً إذا كان شهابياً طارئاً لا تربطه بالناس والشعب في الإمارة إلا رابطة النسب البعيد، نسبٍ يتصل بالرحم، وزاد على ذلك أن افترق عن الناس والشعب في تلك الإمارة «بصده عن الدروز جانباً وميله بكليته إلى النصارى حتى ترك دينه الإسلامي الذي ولد فيه وشب عليه واعتز به مارقاً منه إلى الدين المسيحي»[١٦٦]. ويتابع «أبو شقرا» وهو أحد مؤرخي تلك الفترة، وما بعدها، معبراً، بسذاجة متناهية، عن التأثير السيئ الذي تركه تغيير الأمير لدينه، في صفوف الشعب في الجبل، وهو ما يوضح، بما لا شك فيه ولا لبس، أحد أهم أسباب الصراع بين البشيرين، فيقول: «وما ذلك لجزمه بصحة هذا وفساد ذاك، لأنه لم يكن ذا معارف وفيرة يتبين بها هذا الأمر، بل كان مجرد تنصره نكاية بالدروز واعلانا بالبغض لهم والابتعاد عنهم والحب لغيرهم والقرب من ذلك الغير. ولم يكن في سياسته تلك من بأس فيما لو راعينا مشاربه ومقاصده، فقد ازدادت بذلك أمة عيسى به ثقة واليه إركاناً وله طاعة وانقياداً، ثم إنه، بعد ارتداده، جمع كبار الشهابيين إلى نديه (أي مجلسه)، وأبان لهم جلية قصده عن التنصر مقترحاً عليهم أن يقتدوا به ويحذوا حذوه، وقد أوضح لهم عن الفوائد التي تنجم لهم بتركهم الإسلام، وعما يترتب لهم بتنصرهم من النجاح والفلاح وتعزّز الدولة وبسطة الجاه والسؤدد، ولم يزل في اغوائهم وتغريرهم حتى حملهم على الردة وأصبحوا للديانة المسيحية معتنقين. ولم يلبث هذا الداء أن سرت عدواه إلى الأمراء اللمعيين سادة المتن الذين كانوا دروزاً فحذوا حذو آل شهاب بالمروق إلى الديانة المسيحية أيضاً»[١٦٧].

لقد كان الشيخ بشير جنبلاط، بزعامته الحقيقية في الشوف، يسهم في صنع أمراء هذه الإمارة، إن لم يكن يصنعها فعلاً، دون أن يكون له الحق بأن يطمح لاعتلاء سدة هذه الإمارة ذات يوم(١٦٨).

ولكن الزعيم الجنبلاطي لم يكن يجد غضاضة في أن يطمح إلى ما كان يطمح إليه أي أمير من الأمراء الشهابيين في بلاده، خصوصاً أنه كان، بزعامته وقوّة شخصيته، بالإضافة إلى ثروته وغناه، السند الحقيقي، والقوّة الحقيقيّة، لأي أمير حاكم في البلاد، كما انه استطاع، بدهائه السياسي، أن يجمع، تحت رايته، الفئتين المتنازعتين دائماً: الجنبلاطية واليزبكية، حتى أصبح الشوف برمته في قبضة يده. ويرى بعض مؤرخي تلك الفترة أنه كان يحلم فعلاً بتولي حكم إمارة الشوف، «ولعل بناءه جامع المختارة من الأمور الممهدة لذلك، وما هدم الأمير بشير ذلك الجامع إلا وهو يقصد إزالة ما كان يهيئه الشيخ بشير من الوسائل الممهدة للحكم»(١٦٩)، كما أنه كان يسعى دائماً إلى تقوية مركزه وزيادة منعته، ومن هذه المساعي «محاولته ضم اقليم البلان إلى الجبل وإلحاقه بالمناطق التي كان يتناولها حكمه... ثم إنه كان يرى أن تكتيل الدروز وجمعهم في منطقة واحدة من أوكد أسباب قوته، وأفعل الوسائل التي تظهره بمظهر الجبار، فضلاً عن كونها قوّة وعزّة للدروز أنفسهم، ولذا كان ينوي أن يأتي بدروز الجبل الأعلى بحلب فيسكنهم في سهل البقاع الذي كان ملكاً له، وان يأتي بدروز فلسطين فيسكنهم في اقليم جزين، وكان معظم هذا الاقليم ملكاً له أيضاً، فيتم بذلك انشاء منطقة درزية مجتمعة تمتد من البحر، شرقاً إلى جبل حوران، يكون هو المهيمن عليها، ويكون معظم سكانها جنوداً له»(١٧٠).

ولم يكن الأمير بشير يجهل ذلك، فإنه، بعد أن عاد من مصر إلى حكم الإمارة عام ١٨٢٣ (وقد عاد إليها بعد أن تمكن صديقه محمد علي باشا من

الحصول على عفو من السلطنة له ولحليفه عبدالله باشا والي عكا)، وبعد أن علم بالدور الذي لعبه الشيخ بشير في تنصيب الأمير عباس أسعد أميراً على البلاد بدلاً منه، قرّر القضاء على هذا المنافس الخطير، وبدأ، من ثَم، بإضعافه مالياً، فصار يطلب منه الضريبة تلو الضريبة، مبالغاً، عن عمد، في زيادة الضرائب وتكرارها على الزعيم الجنبلاطي.

وشعر الشيخ بشير بالتغير الذي طرأ على تصرف الأمير نحوه، خصوصاً أنه كان قد أسهم إسهاماً فعالاً في بسط سلطة الأمير عباس أسعد بل كاد يشاركه في الحكم، فأخذ يعدّ لأسوأ الأمور عدتها، ورغم ذلك، ظل يحاول أن يسترضي الأمير لعله يتجنب بذلك صداماً لا بد أن ينتهي بأحد الخصمين إلى الهلاك، ولكن الأمير كان قد حزم أمره، فلم ينفع معه أي استرضاء أو استعطاف، وكان قد سبق للأمير أن أضعف كل الأحزاب المناوئة مثل النكديين - على يد الجنبلاطيين والعماديين عام ١٧٩٧ - ثم العماديين - على يد الجنبلاطيين عام ١٨٠٨ - وأخيراً اليزبكيين - عام ١٨١٩ - فلم يبقَ أمامه إلا الحزب الجنبلاطي منافساً وحيداً(١٧١).

وبدأت الأمور تتضح أكثر للخصمين المتنافسين، فقد وصل كلاهما إلى نقطة اللارجوع، وأضحى الصدام بينهما حتمياً لا مفر منه، فأخذ كل منهما يعد للقتال عدته، ويحشد، للمعركة الفاصلة، حلفاءه وأنصاره، فاجتمع حول الشيخ بشير حلفاؤه من أعيان الشوف والمتن، وهم زعماء المعارضة من اللمعيين والارسلانيين والشهابيين وبعض النكديين، بالإضافة إلى رجال الحزب الجنبلاطي مثل بني هلال وبني معضاد وبني أبي الحسن وغيرهم، كما استطاع أن يستميل إليه - بالمال - رجال الحزب اليزبكي(١٧٢)، بينما التف حول الأمير حلفاؤه من آل نكد وأهل دير القمر وسكان اقطاعتي المناصف والشحار، وآل

حمادة في بعقلين وآل عبد الصمد وتلحوق وأتباعهم، «ويتخلل العسكرين جماعة من النصارى، إلا أنهم كانوا في جماعة الأمير بشير أكثر منهم في جماعة الشيخ»[١٧٣]، بالإضافة إلى حلفائه من الشهابيين واللمعيين، ورغم ذلك فإن الأمير لم يكن مطمئناً إلى قوته هذه تجاه قوة الشيخ بشير، فأرسل إلى حليفه عبدالله باشا يطلب منه نجدة فأرسل إليه نحو خمسماية جندي من خيّالة الأرناؤوط والإنكشارية والقبقول[١٧٤].

وذكر الشهابي[١٧٥] نص «بيلوردي» أرسله عبدالله باشا والي عكا إلى الأمير بشير، يذكر له فيه انه أصدر أمره بتعيين «سر عسكر من طرفنا وإرساله بجانب عساكر زلم وخيل كافية إلى جسر صيدا (الأولي) مع الزخاير والعليق والخيم والمهمات، وسر عسكرنا مأمور من طرفنا أن يكون تحت علمكم متى طلبتوه بالعساكر بالحال يوافي بهم إلى عندكم ويبادروا بإنفاذ كل ما تأمروا به» ثم يستطرد في مكان آخر من البيلوردي ذاته «وان بقيوا - أي جماعة الشيخ بشير جنبلاط - على غيهم وغرورهم، فعساكرنا بحوله تعالى مجمعة حاضرة في الجسر تحت طلبكم»[١٧٦].

وبالفعل، أرسل عبدالله باشا إلى صيدا، لمساعدة الأمير، العسكر والذخائر و«الجباخانات» و«مدافع طوب هاون»، حتى انه أقام «جسراً برياً» للإمدادات العسكرية بين صيدا ودير القمر، فسخّر «كل ما كان في بلاد المتاولة من جمال وكدش ودواب لأجل نقل الزخاير» بين البلدتين و«أرسل مدافع كبار وطوب هاون لأجل المختارة»[١٧٧]. وفي هذه الأثناء كان الأمير أمين ابن الأمير بشير بمصر يلتمس من عزيزها محمد علي باشا إرسال عسكر لمساعدة والده في حربه ضد الزعيم الجنبلاطي وأنصاره، فوعده عزيز مصر بمساعدته، وبأنه «أمر بتجهيز ستة آلاف من الفرسان والمشاة بقيادة طوسون يكن بك لهذه

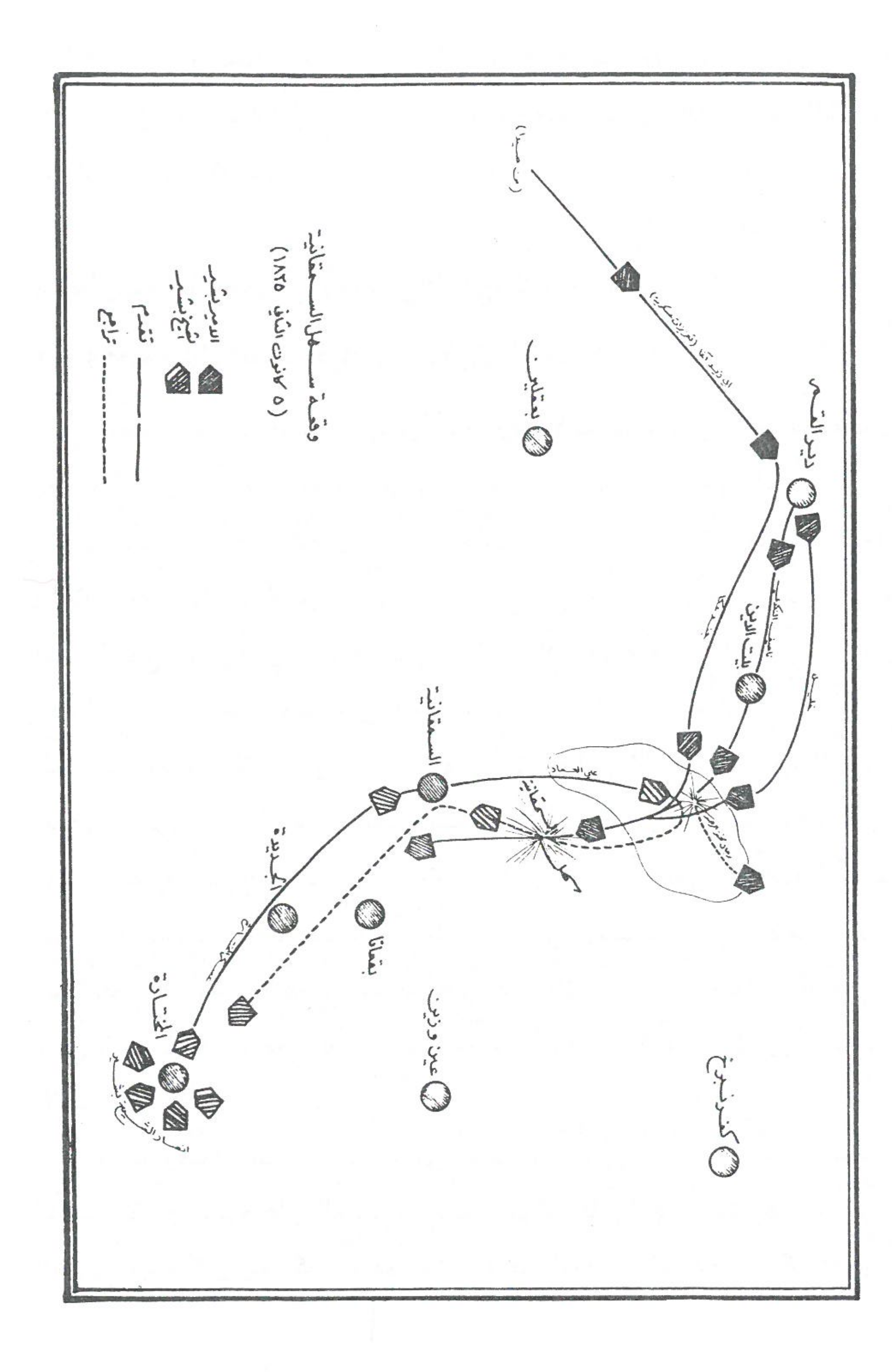
الغاية»[١٧٨]. كل هذه الاستعدادات العسكرية للأمير، تدل على مدى خطورة الثورة التي كان أعد لها الشيخ بشير جنبلاط، وعلى مدى تخوف الأمير الشهابي من نتائج هذه الثورة.

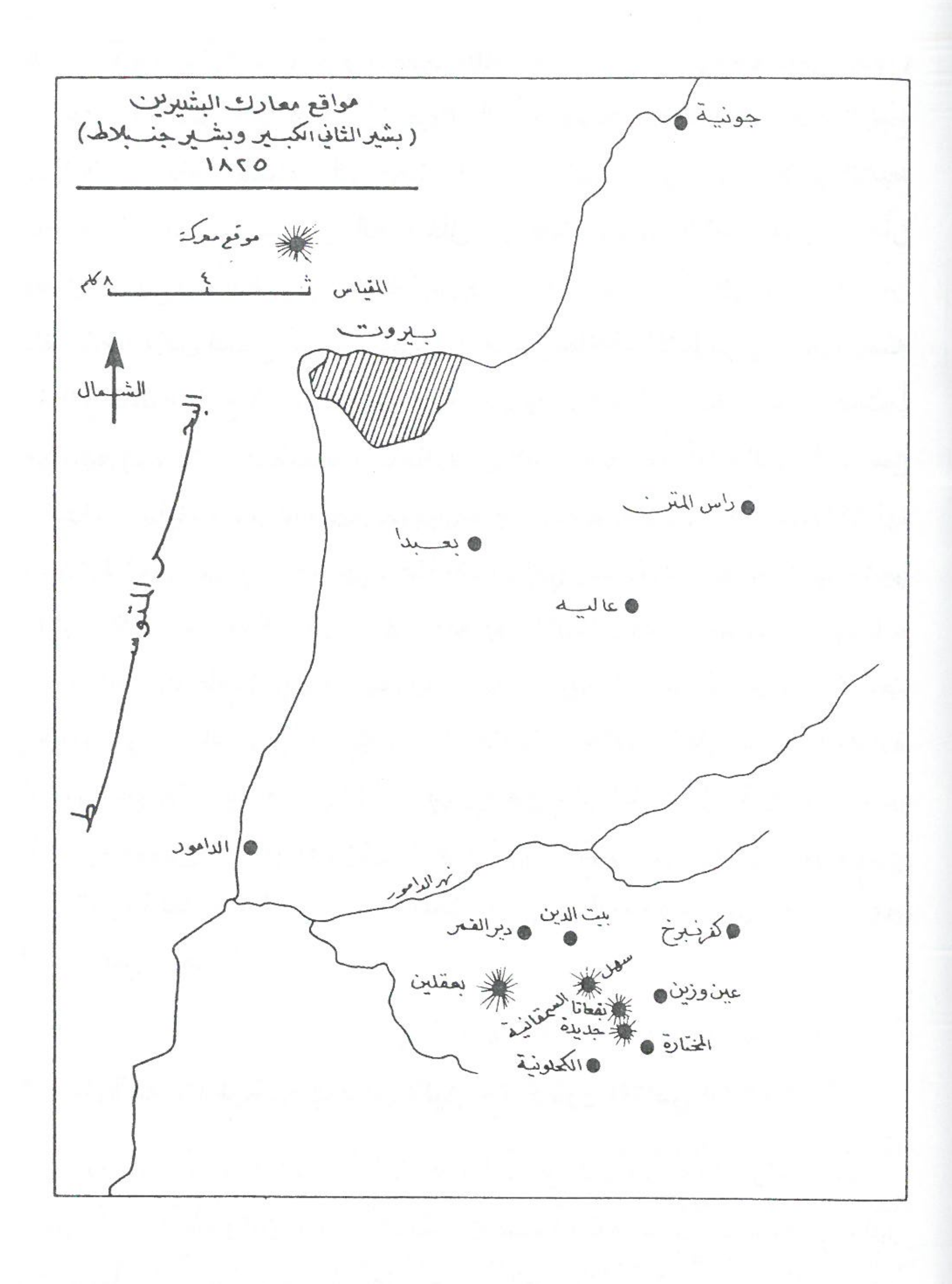
القتال بين البشيرين (كانون الثاني ١٨٢٥):

١ - وقعة سهل السمقانية (٥ كانون الثاني ١٨٢٥):

إحتشد أنصار الشيخ بشير في المختارة، وكانوا نحو اثني عشر ألف مقاتل بين خيّال وراجل، من الشهابيين (بقيادة الأمير سلمان وأخيه الأمير فارس والأمير عباس وأخيه الأمير حسن)، والعماديين (بقيادة الشيخ علي العماد وأولاد عمه)، والجنبلاطيين (بقيادة الشيخ علي جنبلاط وأخيه الشيخ قاسم ابني الشيخ حسن أخي الشيخ بشير)، والارسلانيين، وبعض اللمعيين من المتن (بقيادة أبناء الأمير نصر أبي اللمع)، وبعض النكديين (بقيادة الشيخ أسعد النكدي) ومع هؤلاء جميعاً رجالهم، وأكثر أهالي الشوف والغرب الأسفل، وبعض أهالي المتن[١٧٩]، وكان الشيخ بشير لا يزال في عكار، فأرسلوا إليه يطلبون منه الحضور إلى الشوف، وكان الأمير بشير قد بدأ يتلقى في هذه الأثناء، تعزيزات عسكرية من عبدالله باشا عن طريق صيدا - دير القمر، فقرّر المجتمعون في المختارة قطع الطريق على هذه التعزيزات وانتقلوا بقواتهم إلى سهل السمقانية ليمنعوا «عسكر الدولة» من التحشد في ذلك السهل لمساعدة الأمير[١٨٠].

وعند وصول عسكر المختارة إلى السمقانية، على بعد ميل واحد من عسكر الأمير، تقدم الشيخ على العماد برجاله وتمركز على الجبل المشرف على بيت الدين، حيث كان يتمركز مخفر من مخافر الرصد العائدة لعسكر الأمير،


وقعة سهل السمقانية
(٥ كانون الثاني ١٨٢٥)
تقدم
تراجع
دير القمر
بيت الدين
السمقانية
بعقلين
جديدة
بقعاتا
عين وزين
كفرنبرخ
المختارة


مواقع معارك البشيرين
(بشير الثاني الكبير وبشير جنبلاط)
١٨٢٥
موقع معركة
المقياس ٠ ٤ ٨ كلم
الشمال
بيروت
جونية
راس المتن
بعبدا
عاليه
البحر المتوسط
الدامور
نهر الدامور
بيت الدين
دير القمر
كفرنبرخ
سهل
بعقلين
نفعاتا
السمقانية
جديدة
عين وزين
المختارة
الكحلونية

فاصطدم رجال الشيخ علي بجند ذلك المخفر الذين انهزموا على الفور، فأنجدهم الأمير خليل بثلة من الخيّالة إلا أنه انهزم، بدوره، أمام رجال الشيخ علي الذين كادوا يصلون إلى قصر الأمير، عندها أمر الأمير بشير الشيخ ناصيف النكدي أن يقوم برجاله ورجال دير القمر لمساندة الأمير خليل، وما أن وصل الشيخ ناصيف إلى ساحة المعركة حتى استعر القتال من جديد بين الفريقين، وكان الشيخ علي قد تلقى إمداداً من حلفائه المتمركزين بالقرب منه في السمقانية، ومع ذلك، فقد بدأ رجاله ينهزمون أمام رجال الأمير، فالتجأ مشاتهم إلى سور محيط بخلوة للعقال قرب القرية، حيث بدأوا يطلقون النار من خلفها، بينما ظل الخيّالة منهم يقاتلون خارج سور هذه الخلوة، وفي هذه الأثناء، وصلت للأمير تعزيزات من جند عكا بقيادة أبي زيد آغا وبصحبة الأمير بشير ملحم، فدخلت المعركة على الفور، ولم يعد بإمكان عسكر المختارة، والحالة هذه، الصمود طويلاً، رغم انهم قاتلوا ببأس وضراوة لا مثيل لهما، وأصيب الشيخ علي العماد برصاصة في ذراعه، فتقهقر رجاله، وأخلى عسكر المختارة السمقانية، بينما ظل رجال الأمير يطاردونهم حتى أسفل القرية، وعاد عسكر المختارة منهزمين[١٨١]. وقد قتل في هذه الوقعة اثنان من رجال الأمير وجرح عشرة، كما قتل تسعة من عسكر المختارة وجرح أربعة وعشرون على رأسهم الشيخ علي العماد[١٨٢].

٢ - الوقعة الليلية في بعقلين (ليل ٢٥ كانون الثاني ١٨٢٥):

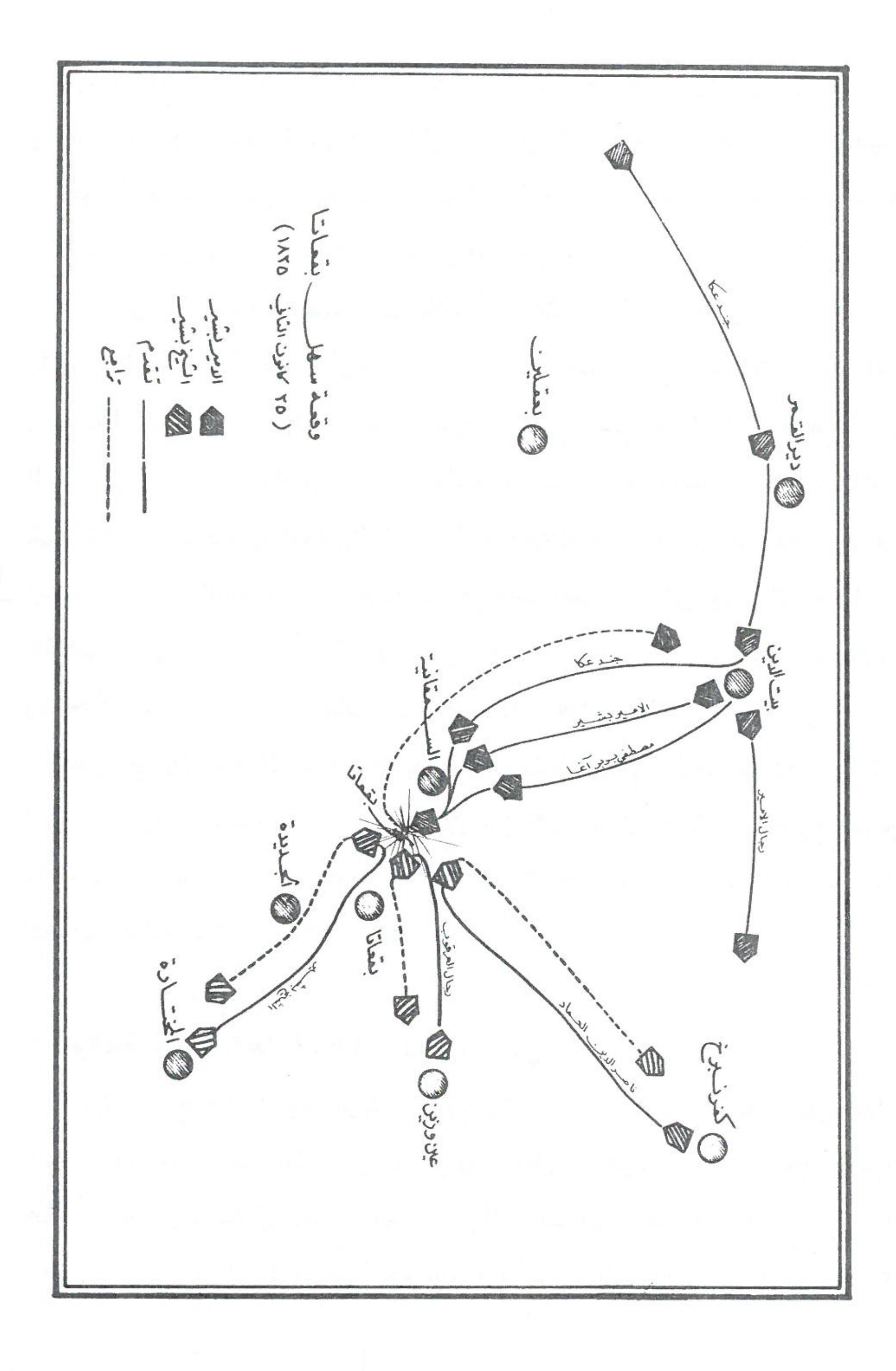
بعد وقعة سهل السمقانية، عاد الشيخ بشير من عكار، وأخذ يستعد للمعركة القادمة، وكان انتصار الأمير في هذه الوقعة سبباً لكي ينفضّ الكثير من أنصار الزعيم الجنبلاطي عنه «فحضر لعند الأمير كثير من رجال الشوف

والعرقوب، وحضر الأمير حيدر قايدبيه وصحبته ألفا رجل من رجال المتن، وحضر الأمير محمد الشهابي بأتباعه من طرف أخيه الأمير سعد الدين بحاصبيا، وحضر من عسكر الوزير نحو ثلاثة آلاف فرسان ومشاة من أكراد وأتراك وأرناؤوط ومغاربة وهوارة وطوبجية مع المدافع»[١٨٣].

وكان آل حمادة في بعقلين من أكثر أهل الشوف تأييداً للأمير، فقرّر الشيخ بشير مهاجمتهم في عقر دارهم، وأعدّ لذلك حملة من ألف مقاتل، وقيل ألف وخمسماية[١٨٤]، بين خيّال وراجل، بقيادة الشيخ علي جنبلاط، والشيخ أمين العماد، والأمير فارس الشهابي[١٨٥]، وأوفدها عند منتصف ليل ٢٥ كانون الثاني لمهاجمة آل حمادة في بعقلين[١٨٦]، فداهمتهم الحملة وهم في بيوتهم، وما أن أحس أهل دير القمر بإطلاق النار في جوارهم ببعقلين حتى نهدوا إلى مساندة حلفائهم فيها، وخرج الأمير خليل على رأس قوّة من رجاله لمجابهة الخصوم، وكانوا قد سيطروا على الموقف في البلدة فأحرقوا عدداً من منازل آل حمادة ومتاجرهم، ولكنهم فوجئوا بالأمير خليل ينقض عليهم بجنده، فذعروا ثم انهزموا «وولوا مدبرين»[١٨٧]، وقد قتل من المهاجمين ٤٩ قتيلاً وجرح منهم سبعة عشر، كما أسر بعضهم، بينما قتل من آل حمادة «سبعة رجال وبعض من الحريم والأولاد»[١٨٨].

٣ - وقعة سهل بقعاتا (٢٥ كانون الثاني ١٨٢٥):

في صباح هذا اليوم، نهض الشيخ بشير برجاله من المختارة إلى سهل «بقعاتا» وضهور «السمقانية»، وحضر إليه رجال العرقوب من جهة «عين وزين» «فملأوا السهل والتلال مسافة خمسة أميال تحت قيادة مشايخهم»[١٨٩]، بينما نهض الأمير برجاله، في صباح اليوم نفسه، قاصداً «السمقانية»، فبعث بشرذمة



من رجاله إلى «كفرنبرخ» كي يمنع الشيخ ناصر الدين العماد من الذهاب إلى المختارة لمساندة الشيخ بشير، وأرسل الأمير قسماً من رجاله إلى التلال المشرفة على المختارة لاستدراج الشيخ بشير للقتال، بينما بقي القسم الآخر معه في السمقانية. والتقى الفريقان في سهل «بقعاتا»، وكان عسكر الدولة (أو جند عكا) قد التحقوا بالأمير في هذا السهل، واصطفوا مع رجاله لقتال رجال الشيخ بشير، وكانوا نحو ثلاثة آلاف[١٩٠]، كما انضم إلى الأمير مصطفى بربر آغا بخيالته.

ودار القتال بين الفريقين في سهل «بقعاتا»، وكان الأمير يزج، في ساحة المعركة، برجاله ساعة يرى، وبالقدر الذي يرى فيه حاجة إلى ذلك، حتى زج بكل قواته في هذه المعركة، وقاتل الرجال قتالاً مريراً وشديداً، وشهدت ساحة القتال جولات لم تشهد مثلها من قبل بين الفريقين المتحاربين. فبينما كان مصطفى بربر آغا يقاتل، إلى جانب جند عكا، عقّال الدروز المتحصنين في قلعة صخرية بالقرب من السهل، كان الشيخ ناصر الدين العماد ينقض برجاله المائة على عسكر الأمير وجند عكا من ناحية، ويطبق عليهم رجال الأمير سلمان من ناحية أخرى، فيهزمونهم. وظل القتال مستعراً إلى ما قبل الغروب، حين رجع كل من الفريقين المتحاربين إلى مواقعه دون نتيجة حاسمة، وقد قتل من رجال الأمير خمسة عشر رجلاً[١٩١]، وقيل سبعة فقط[١٩٢]، كما قتل من رجال الشيخ بشير ٢٩ رجلاً[١٩٣]، وقيل ٥٧ أكثرهم من العقال[١٩٤]، جمع الأمير رؤوسهم وأرسلها إلى حليفه عبدالله باشا بعكا، وأُسر من رجال الشيخ بشير عدد كبير أطلق الأمير سراحهم فيما بعد.

ويذكر مشاقة، نقلاً عن عبدالله آغا شاناتا أحد قادة جند عكا لدى الأمير، أن هذا الأخير اقترح على الأمير أن «يسحب المدافع لضربهم - أي

لضرب أعدائه – فيهلكهم» فأجابه الأمير: «لو أمكنني دفعهم بدون جرح انسان لفعلت، لأنهم رعايا مساكين مسحوبين غصباً من مشايخهم، وما كفاهم التعطيل عن أعمال معيشتهم ووضعهم تحت الخطر بساحة الحرب حتى اني أهلكهم بيدي مع اني مأمور من الله ومن الدولة برعايتهم وصيانتهم، لذلك أعمل غاية جهدي بعدم الاسراف بسفك الدماء، ولذلك ترى انعامي على من يجلب أسيراً هو ضعف الذي يعطى لمن يحضر رأس قتيل تحرزاً من التفريط بالقتل»، ويستطرد المؤلف «وهذا الكلام تلقاه محرره من فم عبدالله آغا المذكور»[١٩٥]. وبالفعل، لم يعرف عن الأمير انه استعمل، في هذه الوقعة، المدفعية التي أرسلها له عبدالله باشا، إلا أن هذه الرأفة التي لم نعهدها في الأمير تجاه خصومه، لم تكن، في نظرنا، أكثر من سياسة حاذقة اتبعها الأمير للإبقاء على الصلة الضرورية واللازمة بين الحاكم والمحكوم، أو بين القيادة والقاعدة.

٤ - وقعة الجديدة (٣٠ كانون الثاني ١٨٢٥):

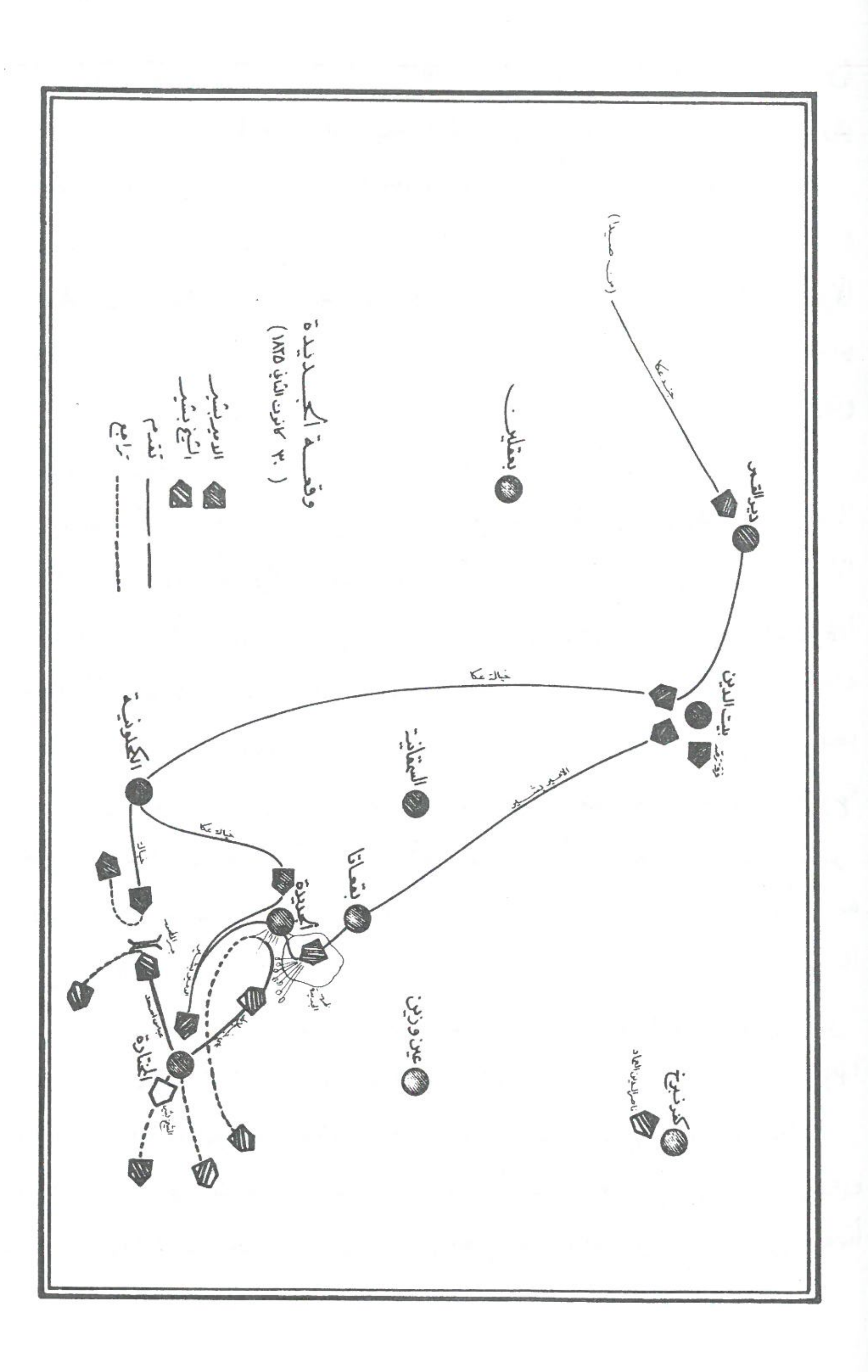
بعد وقعة سهل بقعاتا، قرّر الأمير متابعة القتال ضد الشيخ بشير حتى النهاية، كما قرّر مهاجمته في «المختارة» عاصمته، ومقر قيادته.

أ - السير للقتال:

(١) *معسكر الأمير*:

جمع الأمير قواته من جند عكا ورجال البلاد، وسار بهم نحو المختارة في فرقتين:

- **الأولى**: من خيّالة عكا، وسلكت طريق الكحلونية - الجديدة.
- **الثانية**: من رجال البلاد، بقيادة الأمير نفسه وسلكت طريق بقعاتا - الجديدة.



- أبقى الأمير، في بيت الدين، فرقة مهمتها الترصد للشيخ ناصر الدين العماد المتمركز برجاله في كفرنبرخ، بغية منعه من الانتقال إلى المختارة لمساندة الشيخ بشير.

(٢) معسكر الشيخ بشير:

في هذه الأثناء كان الشيخ بشير لا يزال يعيد تنظيم قواته دون أية فكرة مناورة.

ب - التمركز للقتال:

(١) معسكر الأمير:

وصل الأمير بقواته إلى الجديدة فأجرى تمركزها على الشكل التالي:

- تمركزت فرقة خيّالة عكا عند المدخل الغربي لقرية الجديدة.

- تمركز الأمير بفرقته من رجال البلاد على التل المقابل لبلدة المختارة، الواقع فوق قرية الجديدة، والمسمى «بظهر الجديدة».

(٢) معسكر الشيخ بشير:

ما أن رأى الشيخ بشير عسكر الأمير مقبلاً نحو الجديدة حتى أسرع متحركاً برجاله لملاقاتهم، ولكن الأمير كان قد أنهى تمركزه على «ظهر الجديدة»، وبدا مستعداً للقتال.

ج - القتال:

- أرسل الأمير بشير مفرزة من الخيّالة لاحتلال «جسر المطمور» على طريق الكحلونية - المختارة، لكي يؤمن العبور نحو المختارة ثم احتلالها، ثم تمركز، برجاله، على تلة «ظهر الجديدة» بانتظار تحرك رجال الشيخ بشير لمهاجمته.

- ما أن رأى الشيخ بشير خيّالة الأمير يتقدمون نحو الجسر، حتى أرسل الأمير عباس أسعد برجاله فاحتل الجسر ومنع خيّالة الأمير من الوصول إليه،

ثم أرسل الشيخ علي جنبلاط ومعه الأمراء الارسلانيون، ورجالهم، لكي يهاجموا تلة «ظهر الجديدة» ويزيحوا الأمير ورجاله عنها.

- لم تكن المعركة بين الأمير ورجاله، وبين الشيخ علي ورجاله، متكافئة، فبينما كان الشيخ علي ورجاله يسعون جاهدين كي يتسلقوا التلة لمحاربة رجال الأمير، كان رجال الأمير يشرفون عليهم من أعلى فيمنعونهم من التقدم إما برشقهم بالحجارة أو بدحرجة الصخور التي كانت تصيبهم فتصدهم، وتردهم على أعقابهم.

- وأسقط في يد الشيخ علي ورجاله، بعد محاولات عديدة، فارتدوا عن التلة، وطاردهم رجال الأمير الذين سقطوا عليهم من التلة، بينما فاجأتهم خيل الأرناؤوط من الجهة الغربية للقرية فسدت عليهم منافذ النجاة، وجرح قائدهم الشيخ علي جنبلاط جرحاً بليغاً، فلجأوا إلى داخل القرية، إلا أن رجال الأمير داهموهم فيها، وطردوهم منها، ففرّوا نحو المختارة منهزمين، وقد سقط منهم نحو أربعين قتيلاً وماية جريح[١٩٦]، بينما سقط من رجال الأمير نحو عشرة قتلى[١٩٧]، وقيل أربعة فقط، وعشرة جرحى[١٩٨].

ويذكر مشاقة أن الأمير نظر إلى «نساء الشوف هاربات في الجبال فخشي من دخول عسكر الأتراك واستباحة النساء... ونزل على جسر الجديدة ومنع العسكر عن عبوره بطلب المنكسرين احتساباً من الفضيحة»[١٩٩].

المطاردة وسقوط الشيخ بشير:

بعد هذه الوقعة انفضّ معظم أنصار الشيخ بشير، من رجال الشوف والأمراء اللمعيين والارسلانيين، عن الزعيم الجنبلاطي المنهزم، وتفرقوا في أنحاء البلاد، منهم من عاد إلى الأمير تائباً، ومنهم من فرّ لاجئاً إلى ديار

أخرى، أما الأمير فإنه دخل المختارة منتصراً، فهدم جامعها وصادر أملاك الشيخ بشير وأمواله وجعلها مضبوطة لجانب خزينة عكا، على أن تكون بتصرفه. وأما الشيخ بشير ورفيقاه الشيخان علي وأمين العماد، فقد فرّوا إلى حوران، إلا أن مصطفى باشا والي دمشق بادر إلى القبض عليهم فقتل الشيخ علياً وأرسل الشيخين بشيراً وأميناً إلى عبدالله باشا والي عكا، الذي قتلهما خنقاً بأمر من محمد علي باشا، بناء على التماس من الأمير بشير، وأما الأمراء الشهابيون سلمان وفارس وعباس وحسن، فقد فرّوا إلى حمص حيث قبض على الأمراء سلمان وفارس وعباس، وسلموا إلى الأمير بشير الذي سمل عيونهم وقطع ألسنتهم، وأما الأمير حسن فقد نجا من عقاب الأمير بفراره إلى مصر[٢٠٠].

وهكذا أخفقت الثورة التي اقضت مضجع الأمير وحلفائه في عكا ومصر، ولاقى قائد تلك الثورة، بإخفاقها، نهايته المفجعة المروعة.

لقد سقط الشيخ الجنبلاطي الكبير، وبسقوطه، استراح الأمير الشهابي الكبير، واستقر له الحكم في إمارة ربما لم يكن، في رأينا على الأقل، أحق بها من ذلك الزعيم الشوفي الأصيل الذي سقط.

عاشراً – قتال الأمير ضمن تحالفاته الداخلية (١٨٣١):

إسهامه في إخماد ثورة نابلس، وحصار سانور

إنتهت، بانتهاء الثورة الجنبلاطية، مآسي الأمير الشهابي، فانصرف إلى حكم البلاد بطمأنينة وهدوء. وبسط سلطانه ونفوذه على أرجائها بلا منازع، وتوطدت أواصر التحالف بينه وبين باشا عكا من جهة، وبينه وبين عزيز مصر

من جهة أخرى، فقد كان هذا الأخير يمهد لحملته التي سيقوم بها إلى بلاد الشام بصداقات وتحالفات يقيمها في أرجاء هذه البلاد.

وكانت الحروب التي خاضها الأمير الشهابي، والانتصارات التي أحرزها، سواء في قتاله ضد يوسف باشا، ثم درويش باشا، من ولاة الشام، وضد منافسيه على الإمارة في البلاد، وضد الثورة الجنبلاطية، كانت هذه الحروب والانتصارات قد نشرت اسمه ووطدت احترامه في بلاد الشام كلها، فأصبح مرهوب الجانب مقدراً ومهاباً، وذلك ما جعل الولاة أمثال محمد علي باشا وعبدالله باشا يتهافتون على مدّ يد الصداقة إليه والتحالف معه.

وفي عام ١٨٣٠ منح الباب العالي عبدالله باشا والي عكا ولاية القدس والخليل وبلاد نابلس، بعد أن انتزعها من والي دمشق لعجزه عن جمع الضرائب المترتبة للدولة عليها، وكانت تحكم بلاد نابلس عائلات ذات شأن مثل آل الجرار وآل طوقان، وكان آل الجرار أسياداً لمنطقة تضم عدّة قرى شمال نابلس، ومنها قرية فيها قلعة منيعة تدعى «سانور» وتقع في منتصف الطريق بين نابلس وجنين[٢٠١]، وقد حصن آل الجرار هذه القلعة وأقاموا عليها أسلحة ومدافعين من قبلهم.

حصار قلعة سانور (شباط - نيسان ١٨٣١):

ويظهر أن آل الجرار لم يبدوا ارتياحاً لتسلم عبدالله باشا الحكم في بلادهم، بل وشق بعضهم عصا الطاعة[٢٠٢]، فأمرهم بتسليمه قلعة سانور، إلا انهم رفضوا وتحصّنوا بالقلعة بعد أن أغلقوا أبوابها في وجه جنده. وأمر الوالي

جنده بالزحف على القلعة ومحاصرتها، كما وجّه إليها «المدافع والقنابر»، ولكن القلعة صمدت في وجه المحاصرين فلم تسقط.

وأرسل عبدالله باشا يطلب من حليفه الأمير بشير مؤازرته بالرجال لتعزيز حصار هذه القلعة، فقرّر الأمير ان يسير بنفسه إلى عكا، مع جيش من رجال الشوف، بقيادته وبصحبة ابنه الأمير خليل وحفيده الأمير محمود، وأن يكلف ابنه الأمير أميناً إدارة البلاد في أثناء غيابه.

ويذكر القنصل الفرنسي في بيروت «هنري غيز» في رسالة منه إلى الكونت سيباستياني وزير الخارجية الفرنسية، بتاريخ ٣١ كانون الأول ١٨٣٠، ان الأمير بشيراً شكل، في دير القمر «جيشاً صغيراً من نحو ٤٥٠٠ رجل، خيّالة ومشاة، على أهبة المسير»، وان الأمير قد تسلم، لقاء ذلك، من باشا عكا «مبلغ خمسين ألف فرنك» مع ضمانة من الباشا بأن يتحمل نفقات الجيش كاملة[٢٠٣].

والواقع انه، ما أن تلقى الأمير طلب الباشا، حتى أعلن التعبئة في بلاده، ثم طلب من كل إقطاعة ما يمكن أن يتوافر لديها من الرجال القادرين على حمل السلاح، على أن تعقد القيادة لأحد مشايخها، ويسير الجميع إلى مكان الالتئام ببيت الدين[٢٠٤]. وسار الأمير بجيشه، في أول شعبان (١٢٤٦هـ) الموافق لمنتصف كانون الثاني (١٨٣١م)[٢٠٥]، من الشوف إلى صيدا، حيث عسكر، عند جسر الأولي، لمدة ثلاثة أيام، تابع، بعدها، سيره إلى عكا، فاستقبله واليها، عند وصوله إليها مع جيشه «استقبالاً رسمياً بالعساكر والموسيقى، ونزل في قصر البهجة خارج عكا» بينما نزل عسكره في الخيام[٢٠٦]. وبعد محادثات مطولة بين الأمير والوالي، انتقل الأمير بجيشه إلى بلاد نابلس، فاتصل بقوات الوالي التي تحاصر القلعة، وتسلم قيادتها بالإضافة إلى قيادته قواته، ثم باشر بإعادة تنظيم الحصار.

وتجدّد القتال بين القوات المحاصِرة للقلعة والمتمردين المحاصَرين بداخلها، فضرب الأمير القلعة بالمدافع والقنابر «وكان يضرب في كل نهار ما ينوف عن المايتين وخمسين مدفع ونحو خمسين قنبرة، إلى أن هدم عالي أكثر أبراجها»[٢٠٧]، ثم أرسل الأمير مفرزة من رجاله لمنع أي مدد يمكن أن يصل من نابلس إلى المحاصَرين عن طريق مزار يقع بالقرب من القلعة فمنعوه.

واشتد الحصار على المتمردين، فشنّوا، ذات ليلة (٢٨ شعبان الموافق ١٠ شباط)[٢٠٨]، هجوماً على مدفعية الباشا التي يحميها ويقوم باستخدامها جنود من الأرناؤوط، فكادوا يستولون على تلك المدافع لولا أن أسرع الأمير إلى تحريك مفرزة من رجاله لنجدة الارناؤوط ومساندتهم، ودار بين المهاجمين والمدافعين، من الأرناؤوط وجند الأمير، حول المدافع، قتال عنيف استمر نحو ثماني ساعات، وانتهى بهزيمة المهاجمين وارتدادهم إلى داخل أسوار القلعة، بينما اقترب جند الأمير من تلك الأسوار وكادوا يتسلقونها، إلا ان نساء المتمردين أخذن يشعلن اللحف المبللة بالزيت ويرمينها من داخل الأسوار إلى خارجها، باتجاه المهاجمين من جند الأمير، فيكشفنهم لنيران المتمردين الذين ما فتئوا يرمونهم، على ضوء اللحف المشتعلة، حتى ردّوهم على أعقابهم بعد أن قتل منهم - أي من جند الأمير - أحد عشر رجلاً، وجرح أربعون[٢٠٩].

وقعة عجة:

واستمر الأمير يضرب القلعة بالمدافع والقنابر طوال ثلاثة أيام دون طائل، إذ انه، رغم ما تهدم من أبراجها وأسوارها، لم تفتر همّة المدافعين عنها ولم يتخاذلوا، فلم يستسلموا، بل انهم ازدادوا ضراوة واقتحاماً في دفاعهم عن القلعة، وساعدهم على ذلك مساندة النابلسيين لهم من خارج القلعة المحاصرة،

إذ عمد نحو ثلاثماية خيّال من النابلسيين، حلفاء آل الجرار، فنزلوا على ماء تقع بين قريتي عجة (وهي قرية تقع غرب سانور) والفندقومية (وهي قرية تقع جنوب غربي سانور وجنوب عجة)، وانضم إلى هؤلاء الخيّالة عدد آخر كبير من المقاتلين النابلسيين، فأضحوا «جيشاً وافراً»[٢١٠]، وكان جيش الأمير يرد هذه الماء ليستقي منها، رجالاً وخيلاً، فمنع النابلسيون الماء عن جند الأمير وقتلوا اثنين من خدم الأمير في اليوم الأول، ثم قتلوا واحداً من جنده في اليوم التالي؛ وفي ظهيرة اليوم نفسه، حاولت مفرزة من رجال الأمير ورود الماء إلا أن النابلسيين عادوا فمنعوهم عنها، فدار بين هذه المفرزة وبين النابلسيين قتال لم يلبث أن اتسع، إذ انضم إلى القتال بعض رجال الأمير، وحاول الأمير أن يمنع اتساع المعركة بمنع جنده من اللحاق بالمقاتلين «خشيةً من وقوع الفشل حيث مسير الناس بغير ترتيب للقتال»[٢١١] فلم يتمكن من ذلك، بل ما لبث أن انضم إلى المقاتلين: الشيخ ناصيف النكدي ومعه نحو مايتي رجل من دير القمر والمناصف، والشيخان حسين وفارس التلحوقيان، ومعهما نحو ماية رجل من رجالهما، وهجم هؤلاء جميعاً على النابلسيين المجتمعين في صحراء «عجة»، واستمر القتال بين الفريقين حتى انهزم النابلسيون فدخلوا القرية المذكورة، وتبعهم رجال الأمير وحاصروهم في القرية إلا أن النابلسيين تسللوا منها منهزمين، فأحرق رجال الأمير القرية وقبضوا على من كان بقي منهم فيها، ثم أخذوا يطاردون المنهزمين «وجعلوا يذبحونهم كالغنم، فقتل منهم ٦٩ رجلاً واعتقل ١٤ رجلاً بعضهم من مشايخ بني الجرار، وقتل من عسكر الأمير ١٤ رجلاً»[٢١٢].

سياسة الأرض المحروقة:

بعد هذا الانتصار في وقعة عجة، تابع رجال الأمير مطاردة المنهزمين في بلاد نابلس، إلى أن أدركوهم في قرية «كفر راعي» حيث تجدّد القتال بين

الفريقين خارج القرية، فانهزم النابلسيون إلى داخلها، فاقتحمها رجال الأمير وأحرقوها وقتلوا من النابلسيين ستة عشر رجلاً، إلا أن رجال الأمير التهوا عن القتال بنهب القرية، فارتد النابلسيون عليهم وهزموهم بعد أن قتلوا منهم سبعة عشر رجلاً[٢١٣].

في هذه الأثناء، كان الأمير خليل والشيخ ناصيف النكدي، مع جيش من جند الأمير، يجتاحان قرى نابلس ويحرقان كل قرية يصلان إليها، بينما يفر النابلسيون من أمامهم، ولم يلبث أن بدأ النابلسيون ييأسون من الانتصار على الأمير، فيستسلمون له، فئة بعد فئة.

سقوط القلعة:

وكان الحصار لا يزال قائماً على القلعة ومن فيها، وكاد يمرّ على هذا الحصار نحو ثلاثة أشهر، ورأى المحاصَرون ما جرى لحلفائهم الذين قاتلوا الأمير خارج أسوار القلعة وفي قرى نابلس، فأسقط في أيديهم، وتملكهم اليأس من متابعة الصمود، خصوصاً ان إحكام الحصار حول قلعتهم قد اشتد، فانقطع عنهم الزاد والماء، وكثر منهم القتلى والجرحى والمرضى، وهدمت كثير من متاريسهم ومنازلهم بفعل المدافع والقنابر» لأن القنبرة كانت في أي محل وقعت تخرق السطوح ولو كانت أقبية»[٢١٤]، ثم إن هزيمة حلفائهم في بلاد نابلس وفي جوار القلعة أفقدهم أي أمل بأي نوع من أنواع المساندة تأتيهم من خارج القلعة، فقرّروا الاستسلام، وعرضوا ذلك على الأمير شرط أن يخرجوا من القلعة، مع عيالهم ومتاعهم، سالمين، فضمن الأمير لهم ذلك، وبتاريخ ٢٣ شوال ١٢٤٦هـ (٦ نيسان ١٨٣١م) بدأ مقاتلو آل

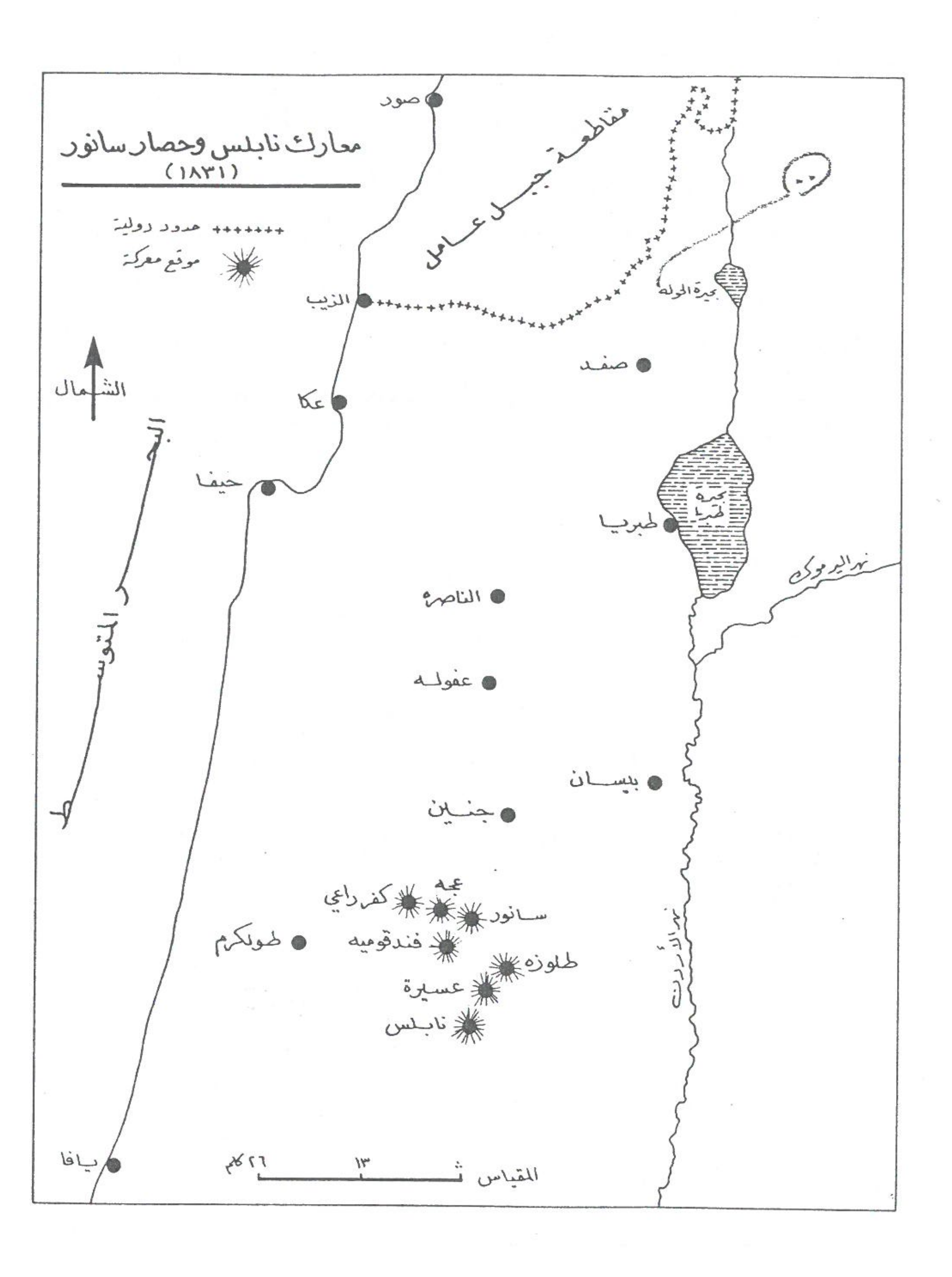
الجرار يخرجون من القلعة مع عيالهم وأمتعتهم، وقد اختاروا الإقامة في ثلاث قرى من بلاد نابلس هي «جبا وطلوزة وعصيرة»، وما أن فرغت القلعة من المقاتلين والأهالي حتى أمر الباشا بهدمها، فهدمت، ولم يبق منها «حجر على حجر، وقد استمر حصارها ثلاثة أشهر بكاملها، وكان داخل القلعة حين حصارها نحو ١٢٠٠ مقاتل، ولكن لم يخرج منها عند استسلام حاميتها سوى ٣٦٧ فقط، أما الباقون فقد قتلوا أو هربوا[٢١٥].

أما الباشا، فقد أرسل المكافآت للأمير وقادته، ثم ألبس مدافعه أثواباً من الجوخ الأحمر كأوسمة لهذه المدافع، وإشارة إلى أنها هي التي فتحت القلعة، ولما عرض الأمير على الباشا أن يعود بجيشه إلى عكا اعتذر الباشا عن قبول ذلك بحجة أن الطاعون قد تفشى في هذه المدينة، فعاد الأمير بجيشه إلى الشوف، وهو، في قرارة نفسه، غاضب بسبب ما أشاعه الباشا من أن فتح قلعة سانور قد تمّ بفضل مدافعه، أولاً[٢١٦]، ثم بسبب رفضه استقباله بعكا، بعد انتصاره، ثانياً.

وقد أورد الشهابي بيانات بأسماء الذين قتلوا وجرحوا من رجال الأمير في حرب نابلس هذه[٢١٧]، كما أورد بياناً بأسماء قرى نابلس التي اشترك رجالها في القتال داخل قلعة سانور[٢١٨].

وتحدّث «هنري غيز» قنصل فرنسا ببيروت، في رسالة منه إلى الكونت سيباستياني، وزير الخارجية الفرنسية، بتاريخ ٩ أيار ١٨٣١، عن حصار الأمير بشير لقلعة سانور واستسلام هذه القلعة فقال «أخيراً، استسلمت قلعة سانور لباشا عكا بواسطة الأمير بشير الذي ضمن للمحاصَرين تنفيذ الوعد الذي وعدهم به، فنالوا، فعلاً، العفو العام والشامل... والشرطان

الوحيدان اللذان اشترطهما الباشا لهذا العفو هما: إخلاء القلعة التي هدّمها هدماً تاماً، ودفع مبلغ ٧ آلاف كيس (أي ما يساوي ١,٢٠٠,٠٠٠ فرنك)... وقد عاد الأمير بشير إلى الجبل، ومنحه الباشا ألفي كيس تؤخذ من الميرة»[٢١٩]. كما تحدث، في الرسالة نفسها، عن تفشي الطاعون في عكا، فقال: «لقد ظهر الطاعون في عكا في الوقت الذي استسلمت فيه قلعة سانور، ويشاع أن الباشا تذرع بحجة الطاعون كي يتهرب من مكافأة قائد جيش الجبل، ولكن وجود الطاعون لم يعد أبداً مشكلة منذ أن تسبب في ضحايا عديدة»[٢٢٠].



حواشي الفصل الخامس

(١) الشدياق، أخبار الأعيان، ج ٢ : ٤٩ و ٥٠.

(٢) الشهابي، تاريخه، طبعة الجامعة اللبنانية، قسم ١ : ١٦٢ والشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٣٥٦.

(٣) وكان الجزار قد سبق أن أنجد الأمير بشيراً، في العام نفسه، بألف من عسكر الأرناؤوط (الشهابي، المصدر السابق، قسم ١ : ١٦١ - ١٦٢ والشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٣٥٥ - ٣٥٦).

(٤) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٣٥٥ وكانت ولايتا عكا ودمشق بيد الجزار في ذلك الحين.

(٥) الشهابي، المصدر السابق، قسم ١ : ١٦١.

(٦) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٣٥٧.

(٧) الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٣٥٦.

(٨) صاحب التاريخ المعروف. الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٣٥٦، والشهابي نفسه، قسم ١ : ١٦٢ حاشية (١) حيث ورد فيها «وفي اليوم السابع والعشرين من شهر تموز أرسل الأمير بشير ابن عمه الأمير حيدر أحمد والأرناؤوط أحرقوا قرية لويزة ثم ان الأرناؤوط أحرقوا الشياح وعادوا إلى الحرش».

(٩) الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٣٥٦ والشهابي، م. ن. قسم ١ : ١٦٢ حاشية (٢). وفي هذه الأثناء كان عسكر دمشق يهاجم زحلة وينهبها فقام الثوار من اللمعيين وأهالي المتن ومن أهالي البلاد وهاجموا العسكر الدمشقي عند بر الياس فهزموه واستولوا على غنائم كثيرة منه (الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٣٥٦ - ٣٥٧).

(١٠) الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٣٥٧ وقد أرخ الشدياق هذه الوقعة في ١٥ آب (م. ن. ص. ن.).

(١١) م. ن. ص. ن.

(١٢) الشهابي، المصدر السابق، قسم ١ : ١٦٣.

(١٣) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٣٥٧ ولم يذكر الشهابي عدد قتلى الثوار، أما الشدياق فذكر أن الثوار فقدوا في هذه الوقعة رجلين فقط (م. ن. ص. ن.).

(١٤) وقد انضم إليه في صيدا كل من أخيه الأمير حسن والأمير أسعد يونس والأمير حيدر أحمد والأمير مراد اللمعي والشيخ قاسم والشيخ خطار الجنبلاطيان (الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٣٥٨).

(١٥) الشهابي، المصدر السابق، قسم ١ : ١٦٧.

(١٦) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٣٥٨ - ٣٥٩ والشهابي، المصدر السابق، قسم ١ : ١٦٤ - ١٦٥، ويذكر الشدياق أن الجزار هو الذي أشار على الأمير بشير بسلوك طريق صيدا - اقليم الخروب، بدلاً من سلوك طريق البقاع - الشوف وذلك «لقرب الإمداد» من عاصمة الولاية عكا (الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٣٥٩).

(١٧) الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٣٥٩ والشهابي، المصدر السابق، قسم ١ : ١٦٥ وقد حدّد الشهابي هذه الوقعة في ٢٧ كانون الأول ١٧٩٠م (ص ١٦٥) أما الشدياق فقد حدّدها في أول عام ١٧٩١م (ص ٣٥٩).

(١٨) الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٣٥٩ والشهابي، م. ن. قسم ١ : ١٦٥.

(١٩) الشدياق، م. ن. ص. ن. والشهابي، م. ن. ص. ن.

(٢٠) الشدياق، م. ن. ص. ن. والشهابي، م. ن. ص. ن.

(٢١) الشدياق، م. ن. ص. ن. والشهابي، م. ن. قسم ١ : ١٦٦.

(٢٢) الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٣٦٠ والشهابي، م. ن. ص. ن.

(٢٣) الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٣٦٠

(٢٤) الشدياق، م. ن. ص. ن. والشهابي، م. ن. ص. ن.

(٢٥) الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٣٩٥.

(٢٦) الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٣٦٠ والشهابي، م. ن. ص. ن.

(٢٧) الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٣٦٠ - ٣٦١ ويذكر الشهابي أن هجوم جيش الأميرين على بلدة عانوت بعد هذه الوقعة قد جرى في ١٤ إذار وذلك بعد أن «رجع عسكر الدولة إلى عانوت ورجع الدروز إلى عنبال» (الشهابي، م. ن. قسم ١ : ١٦٦).

(٢٨) الشهابي، م. ن. قسم ١ : ١٦٨.

(٢٩) يعزو الشهابي (م. ن. قسم ١ : ١٧١) إلى الشيخ بشير جنبلاط فضل صمود الأميرين حيدر ملحم وقعدان في وجه الأمير بشير وعدم تمكن هذا الأخير من الوصول إلى دير القمر وتسلّم حكم الإمارة، فيذكر أن الشيخ قاسم جنبلاط والد الشيخ بشير انحاز إلى الأمير بشير في حربه ضد الأميرين حيدر ملحم وقعدان، فترك الشيخ بشير والده، وانحاز إلى الأميرين المذكورين «وهو الذي ثبت أهالي الشوف في عنبال، ولولا اتحاده مع الأمير حيدر والأمير قعدان، كان طلع الأمير بشير إلى الشوف وتسلم البلاد»، وانظر كذلك (الشهابي، م. ن. ص ١٦٦).

(٣٠) الشهابي، م. ن.، قسم ١ : ١٧٣ والشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٣٦٢.

(٣١) الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٣٦٣.

(٣٢) الشهابي، المصدر السابق، قسم ١ : ١٧٤.

(٣٣) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٣٦٣.

(٣٤) الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٣٦٤ وانظر كذلك الشهابي، المصدر السابق، قسم ١ : ١٧٥.

(٣٥) الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٣٦٣ وعند الشهابي، م. ن. قسم ١ : ١٧٤ «وحضر أخيه الأمير حسن والشيخ حسن جنبلاط بخيل الدالاتية مع المنلا اسماعيل إلى المختارة».

(٣٦) يقول الشهابي (م. ن.، قسم ١ : ١٧٥): «وكانوا بيت عماد خاينين»، ويذكر في نسخة ثانية (م. ن. ص. ن. حاشية ١): «وقيل إن بيت عماد كانوا خاينين».

(٣٧) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٣٦٤ والشهابي، المصدر السابق، قسم ١ : ١٧٥.

(٣٨) الشدياق، م. ن. ص. ن. والشهابي، م. ن. ص. ن.

(٣٩) الشهابي، م. ن. قسم ١ : ١٧٦.

(٤٠) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٣٦٥ والشهابي المصدر السابق، قسم ١ : ١٧٧.

(٤١) الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٣٦٦ والشهابي، م. ن. قسم ١ : ١٧٩. وفي هذا العام أيضاً (١٧٩٥م) زالت ولاية دمشق عن الجزار وولي مكانه عليها عبدالله باشا ابن محمد باشا العظم، وظل الجزار والياً على ولاية عكا فقط (الشهابي، م. ن. قسم ١ : ١٧٩).

(٤٢) الشدياق، م. ن. ص. ن. والشهابي، م. ن. ص. ن.

(٤٣) الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٣٦٦ - ٣٦٧ والشهابي، م. ن. قسم ١ : ١٧٩ - ١٨١.

(٤٤) الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٣٦٧ والشهابي، م. ن. قسم ١ : ١٨١.

(٤٥) قيل إن محمد بك الأسعد قد خان الأمير سليماً في هذه الوقعة، مما أدى إلى هزيمة هذا الأخير (الشهابي، م. ن. قسم ١ : ١٨٢) وانظر (الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٣٦٧).

(٤٦) يذكر الشدياق أن الأمير بشيراً التمس من الجزار «أن يأمر عسكره الذي هو في جبيل» لقتال جند دمشق بالبقاع، فأجابه لذلك (الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٣٦٧) ولكن الشهابي لا يذكر ذلك بل يقول «فأعرض الأمير بشير للجزار وحضر أمر إلى العسكر إلى جبيل انه يقوم إلى البقاع» (الشهابي م. ن. قسم ١ : ١٨٢) ويظهر أن كلاً من الأمير بشير والجزار لم يكونا على علم بقدوم فرقة من طرابلس إلى بلاد جبيل لقتال الأمير حسن، وإلا لما أخليت جبيل من العسكر الذي أرسل إلى البقاع.

(٤٧) الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٣٦٨، أما الشهابي فقال: «وراح منه جملة قتل» (الشهابي، م. ن. قسم ١ : ١٨٣) ولم يحدّد أي من المؤرخيّن، كما لم يحدّد سواهم من المؤرخين، عدد القتلى من الفريقين المتحاربين.

(٤٨) الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٣٦٧ - ٣٦٨ والشهابي، م. ن. قسم ١ : ١٨٢ - ١٨٣.

(٤٩) أنظر: الباب الثاني، الفصل الثاني، موقف الأمير بين الجزار وبونابرت: الحياد الإيجابي.

(٥٠) أحداث عام ١٧٩٨م (الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٣٦٨)، ولكن الشهابي لم يذكر ذلك.

(٥١) أحداث عام ١٧٩٩م (الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٣٦٩).

(٥٢) م. ن. ص. ن.

(٥٣) الشهابي، المصدر السابق، قسم ١ : ١٩٥.

(٥٤) م. ن. ص. ن.

(٥٥) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٣٧١.

(٥٦) الشهابي، المصدر السابق، قسم ١ : ١٩٦.

(٥٧) م. ن. ص. ن.

(٥٨) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٣٧١.

(٥٩) الشهابي، المصدر السابق، قسم ١ : ١٩٦.

(٦٠) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٣٧١ - ٣٧٣، والشهابي، المصدر السابق، قسم ١ : ١٩٧ - ٢٠٣.

(٦١) كان الصدر الأعظم مشغولاً في ذلك الحين بمحاربة الفرنسيين في مصر، ورغم انه أحسن استقبال الأمير، فقد وعده بأن يلبي طلبه حالما ينتهي من حربه ويعود إلى الآستانة.

(٦٢) كان مركبه قد تعرض لأخطار بحرية شديدة مما أخّر دخوله إلى مياه الإسكندرية لأكثر من شهر (من ٢٧ كانون الثاني حتى ٤ آذار)، أنظر: الشهابي، المصدر السابق، قسم ١ : ٢٠٤.

(٦٣) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٣٧٥ - ٣٧٦ والشهابي، المصدر السابق، قسم ١ : ٢٠٦.

(٦٤) يذكر الشهابي أن الأمير وصل إلى المتن في ٣٠ تشرين الأول، وان جميع أهل البلاد قدموا له الخضوع ما عدا آل عماد وبعض أمراء المتن الذين ظلوا على تحالفهم مع ابني الأمير يوسف (م. ن. قسم ١ : ٢٠٧).

(٦٥) في هذه الأثناء، تدخل الوسطاء لإجراء مصالحة بين الأمير وبين آل عماد، فتمت المصالحة ودخل العماديون في طاعة الأمير (الشهابي، م. ن. ص. ن.).

(٦٦) الشهابي، م. ن. قسم ١ : ٢٠٧ - ٢٠٨ والشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٣٧٦.

(٦٧) يذكر الشهابي (م. ن. قسم ١ : ٢٠٨) ان الجزار أرسل لجرجس باز ما «ينوف عن ألفين خيّال» ومنهم «جملة خيل هوارة مع الطوير»، ثم يقول: «واجتمع العسكر جميعه في ساحل بيروت وكان ينوف عن الستة آلاف». إلا أن الشدياق (م. ن. ج ٢ : ٣٧٦) يذكر أنه «وفي أثناء ذلك قدم أربعة الاف مقاتل من عساكر الجزار إلى حرش بيروت»، فإذا اعتبرنا أن عديد جند الجزار لدى جرجس باز هو أربعة آلاف، وأن مجموع ما تجمع لديه من جند هو ستة آلاف، فيكون قد تجمع لديه من أنصار الأميرين من أهل البلاد نحو ألفي مقاتل.

(٦٨) الشهابي، المصدر السابق، قسم ١ : ٢٠٨ والشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٣٧٦ - ٣٧٧.

(٦٩) الشهابي، م. ن. قسم ١ : ٢٠٨ - ٢٠٩، والشدياق، م. ن. ج ٢ : ٣٧٧.

(٧٠) الشهابي، م. ن. ص. ن. والشدياق، م. ن. ص. ن.

(٧١) الشهابي، م. ن. قسم ١ : ٢٠٩، وفي نسخة ثانية «أربعين رأس»، ومثله عند (الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٣٧٧).

(٧٢) الشدياق، م. ن. ص. ن. وعند الشهابي «درب السكة»، (م. ن. ص. ن.).

(٧٣) يذكر الشهابي (م. ن. قسم ١ : ٢٠٩) أنه، لولا أن يصدّ الأمير بشير جند الجزار بمن تبقى معه من رجال لكانوا دخلوا المتن، إلا أنه يذكر قبل ذلك أن رجال الشيخ بشير جنبلاط «لما وصلوا إلى الكحالة، صدموا الدولة، وصار الشر نحو ساعة وطلعت الزلم في الشحارة فرجع عسكر الدولة وتجمع في القفل بعدما فات عاريا» (م. ن. ص. ن.) ثم يتابع: «لولا الأمير بشير يصدهم فيمن تبقا معه كانوا دخلوا المتن».

يؤكد ما مرّ ذكره أن الفضل في عدم دخول جند الجزار إلى المتن، يعود، في المرتبة الأولى، إلى الشيخ بشير جنبلاط.

(٧٤) الشهابي، م. ن. قسم ١ : ٢١١. إلا أن مشاقة يذكر عكس ذلك فيقول إنه، عندما تبيّن للأمير بشير أنه يصعب عليه التغلّب على أولاد الأمير يوسف، أرسل سراً إلى الشيخ جرجس باز يعرض عليه المصالحة فوافق، وتمّ التفاهم على أن تسلم بلاد جبيل إلى أولاد الأمير يوسف ويبقى الشيخ عبد الأحد باز «كاخية» عندهم، وتسلم حكومة دير القمر إلى الأمير بشير ويبقى الشيخ جرجس باز «كاخية» عنده.

(مشاقة، منتخبات، ص ٣١ - ٣٢)، وانظر كذلك: (مشاقة، مشهد العيان، ص ٦٢).

(٧٥) أي بقي يتحين الفرص للإيقاع بهم (الشهابي، م. ن. ص. ن. والشدياق، م. ن. ج ٢ : ٣٧٨).

(٧٦) الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٣٧٨ – ٣٧٩، والترك، نقولا، ديوان المعلم نقولا الترك، ص ٢١٧.

وقد كتب الأمير عباس إلى الجزار يتّهم قادة الجند بأنهم ارتشوا من الأمير بشير وتقاعسوا عن القتال، كما كتب سليمان باشا قائد الجند إلى الجزار يشكو عدم دفع الأمير عباس لمرتبات الجند (الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٣٧٩).

(٧٧) - Chibli, une histoire du Liban, P. 218.

(٧٨) الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٣٨١.

(٧٩) الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٣٩٠ والشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٥٥٧، ورستم، بشير بين السلطان والعزيز، ص ٢٩.

ويذكر «مشاقة» أن الأمير أصدر أوامره «بأن كل أمير أو شيخ من العمال يأتي إليه مع جميع رجال بلاده حاملة السلاح من مسلم وشيعي ونصراني ودرزي، بأسرع ما يمكن، فحضر الجميع مع الأمير إلى طبريا، وحضر إليها سليمان باشا بعسكر وافر من ترك وأكراد وأرناؤوط ومغاربة وهوارة» (مشاقة، منتخبات، ص ٤٣).

(٨٠) يذكر رستم (المصدر السابق ص ٢٩) انه، عندما وصل يوسف باشا إلى ساحة القتال في المزاريب، بعساكره الوافرة، وأطلق مدافعه ارهاباً «خاف الوهابيون لقلة عددهم وتراجعوا إلى حدود البادية».

(٨١) الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٢٩٠ والشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٥٥٦ – ٥٥٧، ورستم المصدر السابق، ص ٢٩.

ويذكر نانتيه Nantet أن معركة (شرسة جداً) جرت بين الوهابيين والأمير عند طبريا عام ١٨٠٧ وأن الأمير انتصر في هذه المعركة بينما «فرّ الوهابيون ولم نعد نراهم أبداً». Nantet, Histoire du Liban P. 138

إلا أننا لم نجد ذكراً لهذه المعركة عند غير «نانتيه» من المؤرخين.

(٨٢) يرى بعض المؤرخين أن سليمان باشا كان قد قرّر سلفاً الهجوم على دمشق وخلع يوسف باشا عنها وقد اتفق مع الأمير بشير على ذلك، إلا أن وصول الفرمان السلطاني بتوليته على دمشق، في ذلك الوقت المناسب، جعل عمله مشروعاً، يقول أسد رستم بهذا الصدد: «وما أن علم سليمان باشا والأمير الشهابي بواقع الحال – أي بواقع عودة الوهابيين عن بلاد الشام – حتى قرّرا القيام إلى دمشق بعساكرهما واحتلالها وخلع الكنج يوسف من منصبه بالقوّة. ويقال إن الباب العالي كان قد ضجر من تسويفات الكنج يوسف ووعوده الفارغة فيما يتعلق بالوهابيين، فأصدر فرماناً عيّن بموجبه سليمان باشا والي صيدا والياً على دمشق وطرابلس أيضاً، وأن

سليمان هذا اطلع الأمير اللبناني على هذا الفرمان في طبرية طالباً معونته». (رستم، بشير بين السلطان والعزيز، ص ٢٩ – ٣٠) إلا أننا نعتقد أن ما قيل عن الفرمان صحيح، وأن سليمان باشا لم يقرر مهاجمة دمشق إلا بعد أن تلقى فرماناً بتوليته عليها.

(٨٣) كان يوسف باشا قد سبق أن أظهر العداء للأمير بأن أقال صديقه جهجاه الحرفوش من حكم بعلبك، ثم انتزع من دروز الشوف عدداً من القرى التي كانت لهم في البقاع، وطلب من وكيله على طرابلس، علي بك الأسعد، أن يفرض على الأمير ضريبة من الحنطة لكونه حاكماً لبلاد جبيل والبترون التابعة لطرابلس، وإلا فإنه سوف يحرم الأمير من حكمَ هذه البلاد، كل هذه الأمور أغضبت الأمير وجعلته يتحيّن الفرصة لكي ينتقم من والي دمشق، وقد أتته الفرصة السانحة بتحالفه مع سليمان باشا (رستم، المصدر السابق، ص ٢٩).

(٨٤) ويظهر أن يوسف باشا قد أوجس خيفة من سليمان باشا والأمير فما إن عاد الوهابيون إلى البادية حتى أسرع في الكتابة إليهما يبلغهما ذلك ويطلب منهما الانصراف شاكراً.

(٨٥) علم ذلك من بدوي من بني صخر سار إليه وأخبره بما يعدّ ضده (الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٣٥١ والشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٥٥٨).

(٨٦) الشهابي، م. ن. ص. ن.

(٨٧) رستم، المصدر السابق، ص ٣٠، وقال بعضهم: إلى مصر، فطرابلس (الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ ص ٣٩٢)، أما الشهابي فقال: «ولم يأمن على نفسه إلى أن خرج من الشام وسار في تلك البر والاكام» (الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٥٥٩).

(٨٨) الشدياق، ا لمصدر السابق، ج ٢ : ٣٩٢.

(٨٩) جاء في «تاريخ حوادث الشام ولبنان» للدمشقي ما يلي: «يوم السبت في ثلاثة وعشرين تموز (١٩١٠) دخل الباشا (سليمان) بموكب عظيم (دمشق). أول آلاي كان عسكر دروز وقايدهم الأمير بشير ابن قاسم شهاب وأخوه بشير جنبلاط وجماعته. نزلوا بالمرجة مع الأمير بشير حاكم الجبل، وأما الباشا فدخل السرايا...» (الدمشقي، ميخائيل، المصدر المذكور، ص ٤٦).

(٩٠) الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٥٥٩ – ٥٦٠ والشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٣٩٢ ورستم، المصدر السابق، ص ٣٠.

(٩١) مشاقة، منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب، ص ٤٤. وانظر، لهذه الوقعة بالذات:

- الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٣٩٠ – ٣٩٢.
- والشهابي، م. ن. قسم ٣ : ٥٥٧ – ٥٦٠.
- ورستم، م. ن. ص ٢٩ – ٣٠.

- ومشاقة، منتخبات، ص ٤٣ - ٤٤.
- ومشاقة، مشهد العيان، ص ٦٨ - ٦٩.
- والترك، ديوانه، ص ٢٤٨ - ٢٥٢.
- والمعلوف، دواني القطوف ص ٢٣١ - ٢٣٣. و
- Lammens, La Syrie, T. II p. 137.
- Nantet, Hstoire du Liban, p. 139.
- Thoumin, Histoire de Syrie, p. 279.
- Chibli, une histoire du Liban, p. 169.

ويذكر «بورون» أن الأمير بشيراً قسّم جيشه في هذه الوقعة إلى فرقتين: الأولى بقيادته، والثانية بقيادة الشيخ بشير جنبلاط، إلا أن أحداً من المؤرخين لم يؤيد هذه الرواية. (Bouron. Les Druzes, p. 169)

(٩٢) من تقرير لمارتان قنصل فرنسا بصيدا، عن أحداث البلاد في الفترة ما بين ٢٣ و٢٩ آذار ١٨٢١، وبتاريخ ٢٣ آذار، (Ismaïl, Documents, T. 3 P. 150)، ويذكر الشدياق (المصدر السابق، جـ ٢: ٤٠١) ان المطران يوسف اسطفان «رئيس مدرسة عين ورقة ومنشئها» هو الذي أعدّ عامية انطلياس ورتّب وكيلاً لكل قرية من القرى المشتركة فيها.

(٩٣) من التقرير المشار إليه أعلاه، وبتاريخ ٢٩ آذار، (Ismaïl, Op. cit. T.3 p. 152)

(٩٤) من تقرير القنصل نفسه عن أحداث البلاد في الفترة ما بين ١٤ أيار و٩ حزيران ١٨٢١ وبتاريخ ٢٤ أيار و٩ حزيران، (Ibid, pp. 162 - 163).

(٩٥) من التقرير المشار إليه أعلاه وبتاريخ ٣١ أيار، (Ibid, pp. 162).

(٩٦) من تقرير القنصل نفسه عن أحداث البلاد في الفترة ما بين ١٠ حزيران و٢ تموز ١٨٢١ وبتاريخ ١٢ و٢٣ حزيران، (Ibid, pp. 164 - 166).

(٩٧) الشدياق، أخبار الأعيان، ج ٢ : ٤٠٦.

(٩٨) من التقرير المشار إليه وبتاريخ ٢٣ و٢٨ حزيران (Ismaïl, Op. cit. T.3 pp. 166 - 167).

(٩٩) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٠٧ وانظر تقرير «مارتان» قنصل فرنسا بصيدا عن أحداث البلاد في الفترة ما بين ٦ و٢٨ تموز ١٨٢١، وبتاريخ ٢٨ تموز، (Ismaïl, Op. cit. T.3 p. 172). وانظر كذلك: مزهر، تاريخ لبنان العام، ج ١ : ٤٥٧ - ٤٥٨.

(١٠٠) ذكرها الشدياق في أحداث العام ١٨٢٠ (الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٤٠٨ - ٤٠٩) بينما ذكرها الشهابي (المصدر السابق، قسم ٣ : ٦٨٥) في شهر ذي القعدة عام ١٢٣٦هـ الموافق لشهر آب ١٨٢١م، والجدير بالذكر أن المؤرخ الشهابي قد حضر هذه الوقعة إلى جانب الأمير بشير. وذكرها مارتان قنصل فرنسا بصيدا، في أحداث عام ١٨٢١. (Ismaïl, Op. cit. T.3 p. 174)

(١٠١) الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٦٨٦، وقيل: جميعهم نحو ثلاثماية نفس (مشاقة، منتخبات، ص ٨٣ ومشهد العيان، ص ٧٨) إلا أننا نرجح قول الشهابي.

(١٠٢) الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٦٨٥، والشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٠٨، ومشاقة، منتخبات، ص ٨٣.

(١٠٣) مشاقة، منتخبات، ص ٨٣.

(١٠٤) الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٦٨٥.

(١٠٥) م. ن. ص. ن.

(١٠٦) م. ن. ص ٦٨٦.

(١٠٧) الشير: الهضبة الصخرية، ويذكر مشاقة أن عدد المقاتلين كان نحو ١٣ ألف رجل (منتخبات ص ٨٤) ولكننا نعتقد أن هذا العدد هو عدد المحتشدين في عامية لحفد وليس عدد المقاتلين.

(١٠٨) مشاقة، منتخبات، ص ٨٤.

(١٠٩) م. ن. ص. ن.

(١١٠) الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ ص ٦٨٦، ويذكر مشاقة أن الأمير خليلاً والشيخ ناصيف وجدا بين المسلحين «كهنة تحرضهم» (مشاقة، منتخبات، ص ٨٤).

(١١١) الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ ص ٦٨٦، ويذكر مشاقة عدد قتلى الثوار بالمئات (م. ن. ص ٨٤) بينما يذكر الشدياق ثمانين قتيلاً (المصدر السابق، ج ٢ : ٤٠٩).

(١١٢) الشهابي، م. ن. قسم ٣ ص ٦٨٦، ويذكر مشاقة أنه قتل في هذه الوقعة ١٢ رجلاً «من جماعة الشيخ ناصيف» (مشاقة، م. ن. ص ٨٤)، بينما يذكر الشدياق أن القتلى من رجال الأمير كانوا تسعة (المصدر السابق، ج ٢ : ٤٠٩).

(١١٣) الشهابي، م. ن. قسم ٣ : ٦٨٦.

(١١٤) م. ن. قسم ٣ : ٦٨٧.

(١١٥) باز، مذكرات رستم باز، ص ١٧.

(١١٦) الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٦٨٩ - ٦٩٠، والشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤١٠ - ٤١٢، وباز، المصدر السابق، ص ١٧ - ١٨، ويذكر الشهابي أن الأمير قسّم جيشه، في مسيره إلى الشمال، ثلاث فرق: الأولى بقيادة الشيخ بشير وسلكت طريق دير البنات، والثانية بقيادة اليزبكيين وسلكت طريق عمشيت، والثالثة بقيادة الأمير نفسه وسلكت طريق اده (الشهابي، م. ن. قسم ٣ : ٦٨٩).

(١١٧) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٠٨ - ٤٠٩.

(١١٨) - Touma, Paysans et institutions féodales, T.1 p. 129.

(١١٩) الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٤٠٩ و - Touma, Op. cit. T.1 p. 129 et,

- Chibli, Op. cit. p. 272.

(١٢٠) باز، المصدر السابق، ص ١٧.

(١٢١) م. ن. ص ١٢ حاشية ١.

(١٢٢) Touma, Op. cit. T.1 p. 130. وانظر أيضاً: مشاقة، منتخبات، ص ٨٤.

(١٢٣) - Touma, Op. cit. T.1 p. 130.

(١٢٤) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٠٩ - ٤١٠.

(١٢٥) - Touma, Op. cit. T.1 p. 130.

(١٢٦) مشاقة، منتخبات، ص ٨٤.

(١٢٧) - Touma, Op. cit. T.1 p. 130.

(١٢٨) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٠٨.

(١٢٩) - Touma, Op. cit. T.1 p .131.

(١٣٠) يذكر توما، معتمداً في مصادره على «الحتوني» أن جيش الأمير كاد يطوّق من قبل الثوار مراراً، وأنه اضطر أن ينسحب من تلال بلاد جبيل التي كان ينوي أن يضرب الثوار منها، وأنه، بعد وصول المدد إليه مع الشيخ بشير، عاد فنظّم قواته وخاض بها عدّة «معارك منتظمة» ضد الثوار، وان الأمير لم يتمكن من الانتصار على الثوار وإخماد الثورة إلا بعد عشرين يوماً، وأن نصره هذا لم يكن عسكرياً بحتاً، إذ لعبت سياسات الأمير واغراءاته والوعود التي قطعها لعدد كبير من المقاتلين، دوراً كبيراً في انتصاره، إذ انضم إليه كثير منهم قبل انتهاء المعارك (Touma, Op. cit. T.1 pp. 130 - 131).

ورغم اعتقادنا بصعوبة المعركة التي خاضها الأمير ضد الثوار الذين كانوا يفوقونه عدداً، إلا أن أحداً من المؤرخين، وخصوصاً معاصري الأمير منهم، مثل الشهابي ومشاقة وباز والشدياق، لم يذكر شيأً مما ذكره توما (نقلاً عن الحتوني) في هذا المجال.

(١٣١) يذكر الشهابي أن الأمير كان يمنح كل مقاتل من رجاله يقدم له رأس واحد من الثوار أو أسيراً منهم «خمسة وعشرين قرشاً»، إلا أنه كان يطلق الأسرى، بعد ذلك، وبعد أن يطمئنهم. (الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٦٨٧).

(١٣٢) - Lamartine, Voyage en Orient, vol 1 p. 212

ولا يغربن عن بالنا أن حكم هذه الإقطاعات - الخارجة عن إمارة الشوف والتابعة لباشوية طرابلس - قد آل إلى الأمير عن يد سليمان باشا، ثم عبدالله باشا، والي عكا وطرابلس..

(١٣٣) - Ismaïl, Documents, T.3 pp. 180 - 181

(١٣٤) الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٦٩٤ - ٦٩٧ والشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤١٣.

(١٣٥) الشهابي، م. ن. قسم ٣ : ٦٩٨ والشدياق، م. ن. ج ٢ : ٤١٣ - ٤١٤.

(١٣٦) الشهابي، م. ن. ص ٦٩٩، والشدياق، م. ن. ص ٤١٤.

(١٣٧) الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٧٠٠ ويؤكد هذا الأمر أن قائد القوة التي أرسلها الأمير لهذه المهمة كان الأمير أفندي وليس الأمير خليل كما ذكر الشدياق (المصدر السابق، ج٢ : ٤١٤).

(١٣٨) الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٧٠٠.

(١٣٩) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤١٥. كما يذكر الشدياق أن الفرقة التي أرسلت إلى راشيا بقيادة الأمير فارس سيد أحمد وأخيه سلمان لم تصل إلا بعد المعركة وبينما كان «العسكران راجعين عن الحرب إلى منازلهما» (الشدياق م. ن. ص ٤١٥).

(١٤٠) كما أوعز عبدالله باشا إلى متسلميه في تبنين وهونين أن يصادرا حيوانات النقل في البلاد ويستخدموها لنقل الشعير من صور (حيث أرسلها إليها من عكا بحراً) إلى خان حاصبيا، لكي توزّع على خيول جيش الأمير (الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٧٠١).

(١٤١) الشهابي، المصدر السابق، ص ٧٠٢.

(١٤٢) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤١٦، وانظر: رستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ١ : ٣٣.

(١٤٣) الشهابي، المصدر السابق، ص ٧٠١.

(١٤٤) الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٧٠٢، أما الشدياق، فيذكر انه بينما كان الأرناؤوط، وعددهم ١٥ نفراً، عائدين من مهمتهم «هجم عليهم ألف نفر من عسكر الأمير فقتلوا منهم نفرين، وانحدرت إليهم شرذمة من ريشيا فأنجدوهم، ثم عاد كلٌّ إلى مكانه» (الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤١٦) إلا أننا نرى في ذلك مبالغة غير مقبولة.

(١٤٥) يذكر الشدياق أن الأمير وافق على طلب السر عسكر بالأمان والصلح ولكن بشرط أن يتسلّم الأمراء (الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٤١٦) إلا أن ذلك لم يذكره الشهابي الذي قال: «فحين حضر ابراهيم الكردي رسول قبوجي باشا يطلب الأمان عدل الأمير عن حصارهم وارتضى أن يسيروا بطريقهم سالمين» (الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٧٠٣).

(١٤٦) أرسل والي عكا للأمير سيفا مرصعاً بالجواهر وخلعة فاخرة وشالاً من الكشمير وكتاب تهنئة، كما أرسل للأمير خليل خنجراً مذهباً مرصعاً وكتاب تهنئة، ولكل قائد من قادة الجند خلعة وشالاً وكتاب تهنئة (الشدياق، م. ن. ج ١ : ٤١٧)، وانظر كتاب التهنئة الذي وجهه الوالي للأمير عند (الشهابي، م. ن. ص ٧٠٦ - ٧٠٧).

(١٤٧) امتد الخلاف الحاصل بين والي عكا ووالي دمشق إلى أنصارهما في بلاد نابلس، فانقسم أهل تلك البلاد إلى فئتين: واحدة تعاضد والي عكا وأخرى تعاضد والي دمشق، وأرسل والي دمشق نائبه ڤيزو باشا على رأس جيش لمساعدة حلفائه في نابلس، كما أرسل والي عكا جيشاً من عنده لمساعدة أنصاره فيها، ثم كتب إلى الأمير بشير يأمره أن يجهز جيشاً من أهل الشوف بقيادة ابنه الأمير خليل كي يتوجّه إلى تلك البلاد لمعاونة جيشه في قتال ڤيزو باشا، وما أن تلقى الأمير بشير أمر عبدالله باشا حتى جهّز جيشاً وأوفده بقيادة ابنه خليل لهذه المهمة (الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٧١١ - ٧١٢، والشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤١٧ - ٤١٨).

(١٤٨) وقّع درويش باشا كتابه هذا بتوقيع «الحاج درويش باشا أمير الحاج والي الشام وصيدا ويافا وطرابلس شام» (الشهابي، م. ن. قسم ٣ : ٧١٣).

(١٤٩) وقّع عبدالله باشا كتابه للأمير بتوقيع «عبدالله باشا أمير الحاج والي الشام وصيدا ويافا وطرابلس شام» (الشهابي، م. ن. ص. ن.).

(١٥٠) راجع: رستم، المحفوظات الملكية المصرية، بيان بوقائع الشام، مجلد ١ : ٣٠ - ٣٢ وثيقة رقم ٩١ وهي رسالة إلى محمد علي باشا بتاريخ ١٣ شوال ١٢٣٧هـ الموافق لشهر تموز ١٨٢٢م، وقد جاء فيها شرح «للحادثة المشينة التي قام بها خائن العيش عبدالله باشا والي صيدا... ونشر هنا وهناك أخباراً كاذبة ومراسيم مزوّرة بأن الدولة العلية قد أنعمت عليه بولاية الشام وإمارة الحج بها وسنجقي القدس ونابلس واستطاع بذلك من إدخال الغفلة على بسطاء العقول وطوائف العربان والدروز وأضلعهم وأمالهم إلى جانبه وجعلهم يتبعونه...».

(١٥١) رسالة القنصل الفرنسي بصيدا «مارتان» Martin إلى الفيكونت دي مونتمورنسي Vicomte de Montmorency وزير الخارجية الفرنسية، بتاريخ ٤ آذار ١٨٢٢م (Ismaïl, Documents, T.3 p. 182) وانظر أيضاً: باز، مذكرات رستم باز، ص ١٩. وقدر مخايل مشاقة جيش الأمير في هذه الوقعة بـ١٦ ألف مقاتل: ٤ آلاف منهم من جند عكا بقيادة ابراهيم آغا الكردي، وكانوا على جسر بنات يعقوب، و١٢ ألفاً من رجال الجبل بقيادة أمرائهم ومشايخهم (مشاقة منتخبات، ص ٨٦).

(١٥٢) الشيخ حسين ابن الشيخ علي تلحوق والشيخ فاعور ابن الشيخ أبو طاهر عبد الملك، وكانا كلاهما من حلفاء الأمير إلا أنهما انحازا إلى جانب الشيخ علي العماد حليف الأميرين سلمان وحسن الشهابيين (الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٧١٤).

(١٥٣) كذلك ذكر الشهابي أن جيش دمشق كان ينوف عن الثلاثة آلاف مقاتل (الشهابي، م. ن. ص. ٧١٤) إلا أن رستم باز قدّر عديد جيش دمشق من الهوارة والأرناؤوط والدالاتية بـ١٥ ألف مقاتل. ويذكر باز أن الأمير لما رأى جيش دمشق بهذه الكثرة جمع قادته وقال لهم: «إن العدد كثير ونحن قليلون، ونحن غُرب وهم وطنيون، فالرأي عندي أن نكبسهم في الليل مثل ما فعل جدّي الأمير حيدر في عسكر أحمد باشا بو هرموش، حين وقعة عيندارة» فأعجبهم قوله، فقال لهم «قوموا اجمعوا رجالكم وأخبروهم بالأمر، وأعطوهم سر الليل، وزيدوهم جباخانة، ونشطوهم. ومتى مضى ساعتين من الليل، أطفوا النار ولا تبقوا ضو ولا أحد يرفع صوته. فيظن القوم أننا فزعنا ورحلنا عنهم فيناموا براحة بال، وقبل الضو بساعتين ضعوا السيف فيهم، فكونوا رجال متيقظين». فانصرفوا من عنده وتمّموا كل شيء... «ولما جاء الوقت هجموا على القوم... فانذعرت عساكر الشام وانوهلت... وما طلع النهار وإلا ولّت الأدبار تاركة قتلاها ومهماتها، فغنمتها رجال الأمير مع سلب القتلى». (باز، مذكرات رستم باز، ص ١٩ - ٢٠).

(١٥٤) ذكر ذلك الشهابي (م. ن. ص. ن.) وانظر، لتأكيد توافق التاريخين «الهجري والميلادي» اللواء محمد مختار باشا، التواريخ الهجرية، المجلد الثاني، ص ١٢٧٥. إلا أن الشدياق أرخ المعركة في ٢٦ أيار وجعلها ضمن أحداث العام ١٨٢١ (الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٤١٩)، خلافاً لرأي معظم المؤرخين وكذلك خلافاً لرسالة القنصل الفرنسي بصيدا، والرسالة الموجّهة إلى محمد علي باشا بشأن الفرمان المزور، والرسالتان مؤرختان ضمن أحداث العام ١٨٢٢ وقد سبق أن أشرنا إليهما.

(١٥٥) الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٧١٤.

(١٥٦) م. ن. قسم ٣ : ٧١٥، ومشاقة، منتخبات، ص ٨٧.

(١٥٧) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤١٩ - ٤٢٠.

(١٥٨) م. ن. ج ٢ : ٤٢٠.

(١٥٩) م. ن. ص. ن.

(١٦٠) الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٧١٥.

(١٦١) م. ن. ص. ن. ويذكر مشاقة أن عدد القتلى من جيش دمشق زاد على ١٢٠٠ قتيل، أما القتلى من جند عكا وجماعة الأمير فقد بلغ نحو أربعين قتيلاً (مشاقة، منتخبات، ص ٨٧).

(١٦٢) بعد انتهاء هذه الوقعة، أمر عبدالله باشا الأمير بشيراً أن يرسل قوة لقتال ڤيزو باشا قائد جند دمشق الموجود بحوران فأرسل الأمير ابنه خليلاً وبصحبته الشيخ علي جنبلاط والشيخ حمود النكدي وألف خيّال من جند عكا وجند البلاد، فوصل الأمير خليل بجيشه إلى قرية «مرجانة» وكان ڤيزو باشا قد تمترس بضاحيتها، ودارت بين الفريقين معركة انهزم على أثرها ڤيزو باشا وتشتّت جيشه، فالتجأ قسم منه إلى القرية وتاه القسم الآخر في البراري، وحاصر الأمير خليل القرية من الصباح إلى المساء حتى استسلم المحاصَرون فيها، واحتلها، بعد أن كبّد جند دمشق في هذه الوقعة ٢٥ قتيلاً و١١٥ أسيراً وغنم منهم ٣٠٠ رأس خيل (الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٧١٧، والشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٢١).

(١٦٣) الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٧٢٠.

(١٦٤) م. ن. قسم ٣ : ٧٢٢ - ٧٢٣.

(١٦٥) رسالة رينولت Raynault، قنصل فرنسا بطرابلس، إلى الفيكونت دي مونتمورنسي Vicomte de Montmorency وزير الخارجية الفرنسية، بتاريخ ١٢ آب ١٨٢٢. (Ismaïl, Op. cit. T.5 p. 43)

(١٦٦) هذا قول حرفي لأبو شقرا (الحركات في لبنان، ص ٨) إلا أن المعروف، والمؤكد، أن الأمير قاسم عمر، والد الأمير بشير (الثاني) قد تنصّر عام ١٧٦٤ أي قبل ولادة الأمير بشير، الذي ولد عام ١٧٦٧، وقد نصّره أبوه في السنة نفسها (حقي، مباحث، ج ١ : ٣٤٥).

(١٦٧) أبو شقرا، م. ن. ص. ن.

(١٦٨) سبق أن بيّنا، في مطلع هذا الباب، كيف تمّ تعيين أول شهابي أميراً على الشوف خلفاً للمعنيين، وكيف كان تدخل الباب العالي لفرض هذا الأمير، مع العلم أن الأسرة الشهابية لم يكن لها، قبل ذلك، أي وجود في إمارة الشوف.

(١٦٩) أبو شقرا، المصدر السابق، ص ١٥ حاشية ١.

(١٧٠) أبو شقرا، م. ن. ص. ن. حاشية ١، ويذكر مشاقة أن الشيخ بشيراً تظاهر بالإسلام وبنى جامعاً أمام قصره لهذا الغرض. (مشاقة، مشهد العيان، ص ٧٠ - ٧١).

(١٧١) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ١ : ٧ - ٨.

(١٧٢) يذكر الشهابي (المصدر السابق، قسم ٣ : ٧٥٧) ان الشيخ بشيراً دفع إلى بني يزبك مبلغ خمسين ألف قرش، كما وعد الشيخ علي العماد بإعطائه بعض قرى البقاع، إذا ما اتحدوا معه، فتخلى اليزبكيون، لقاء ذلك عن الأمير، واتحدوا مع الجنبلاطيين ضده. ولا ندري هل كان المؤرخ الشهابي، في هذا القول متحيّزاً لقريبه الأمير، أم لا.

(١٧٣) أبو شقرا، المصدر السابق، ص ١٣.

(١٧٤) أبو شقرا، م. ن. ص ١٢، وكانوا بقيادة أبي زيد آغا الانكشاري، وبربر آغا الأرناؤوطي.

(١٧٥) الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٧٥٨ - ٧٥٩.

(١٧٦) م. ن. ص ٧٥٩.

(١٧٧) م. ن. ص ٧٦٣.

(١٧٨) رستم، المحفوظات الملكية، المجلد الأول، ص ٦٤، وثيقة رقم ١٦٥ تاريخ ٢٤ جمادى الأولى ١٢٤٠هـ (كانون الأول ١٨٢٤م) ووثيقة رقم ١٦٦ تاريخ ٤ جمادى الآخرة ١٢٤٠هـ (كانون الثاني ١٨٢٥م)، وانظر أيضاً: مشاقة، منتخبات، ص ٩٨ - ٩٩، ويذكر الشهابي ٠ المصدر السابق، قسم ٣ : ٧٦٤) أن محمد علي باشا أمر فوراً بتجهيز عشرة آلاف مقاتل لمساعدة الأمير.

(١٧٩) مشاقة، منتخبات، ص ٩٨، والشهابي، م. ن. ص ٧٦١، والشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٣٠.

(١٨٠) في هذه الأثناء، كان الأمير يسعى لاستمالة خصومه إليه، فاستمال الشيخ حمود والشيخ ناصيف النكديين وبعض اليزبكيين من آل تلحوق وعبد الملك (مشاقة، منتخبات، ص ٩٩)، كما يذكر الشدياق أن «بعض ذوي الغايات» قد أشاعوا في البلاد «أن حركة المختارة هي لتسلط الدروز على النصارى، وكان ذلك لينفروا الناس عن الذهاب إلى المختارة» (الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٣٣).

(١٨١) يروي أبو شقرا (الحركات في لبنان، ص ١٣) هذه الوقعة بشكل آخر فيقول إن الدائرة دارت «على عسكر الأمير لما كثر فيه من القتل وفقد نخبة من فرسانه فركنوا إلى القهقرى مع محافظتهم على الدفاع وعدم إطفاء نيران القتال. وتقدم رجال الشيخ وما زالوا في تتبعهم إلى باحة مقاصف بيت الدين حيث دهمت جيوش الظلام فكانت حاجزاً بين جيوش المتقاتلين»، إلا أنه يعود فيقول (في الصفحة نفسها، حاشية ١): «روى لي السيد شاهين أبو علي معضاد أنه عندما بدأت المعركة امتد طرح الصوت إلى المتن فنفر الشيخ سلمان بحمد المغربي من كفرسلوان ومعه أربعة عشر رجلاً من ذويه، ونفر بنو هلال من قرنايل، وبنو معضاد من بزبدين، وبنو أبي الحسن من بتخنيه، مسرعين نحو المعركة لنجدة الشيخ بشير، ولكنهم لما

وصلوا كان رجال الأمير قد ظهروا على رجال الشيخ وجدّوا في مطاردتهم واللحاق بهم في منحدر سهل السمقانية نحو جديدة الشوف، يرسلون وراءهم الصياح العالي والحجارة الضخمة تتدحرج وتنقض عليهم في ذلك المنحدر». إلا أننا نجد عند «غيز» القنصل الفرنسي ببيروت في تلك الحقبة من الزمن، رواية أخرى، يقول «غيز»: «زحف الدروز ومعهم فريق من المسيحيين وعلى رأسهم الأمير عباس وبعض الأمراء الشهابيين، إلى قصر بيت الدين، مقر الأمير الكبير، وكان يمكنهم الاستيلاء عليه لو كانوا يعرفون اغتنام الفرصة والتضحية ببعض الرجال، إلا أنهم يفضلون دائماً الرمي من خلف صخرة أو شجرة، على أن يهاجموا عدوهم وجهاً لوجه،... وكان يمكن لهجوم أن يؤدي إلى سقوط قصر الأمير الذي لم يكن محمياً بأكثر من ٢٠٠ رجل، ولكن الباشا أسرع بإرسال النجدة إلى الأمير الذي شرح له وضعه، فوصلت نجدة الباشا في وقت واحد مع التعزيزات التي استقدمها الأمير من مختلف أنحاء البلاد، فطوقت هذه القوات الدروز وأوقعت ملحمة كبرى في صفوفهم حتى أبيد حزبهم عن بكرة أبيه، أما زعماؤهم الذين لم يقتلوا في المعركة، فقد ضربت أعناقهم في دمشق وعكا».

(Guys, Relation, T.2 pp. 125 - 126)

وفي رسالة منه، كقنصل لفرنسا ببيروت، إلى الكونت سيباستياني، وزير الخارجية الفرنسية، بتاريخ ٣١ كانون الأول ١٨٣١، يعترف «غيز» بأنه لولا مساعدة باشا عكا للأمير عام ١٨٢٥ لكان الدروز احتلوا دير القمر. (Ismaïl, Documents, T.5 p. 192). وانظر لهذه الوقعة: الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٧٦١ - ٧٦٢، والشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٣٢، ومشاقة، منتخبات، ص ٩٩ - ١٠٠.

(١٨٢) الشهابي المصدر السابق، قسم ٣ : ٧٦٢.

(١٨٣) مشاقة، منتخبات، ص ١٠٠.

(١٨٤) م. ن. ص. ن.

(١٨٥) الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٧٦٦ والشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٣٣.

(١٨٦) ذكر الشدياق أن هذه الوقعة جرت في ٢٥ كانون الثاني ١٨٢٥ (المصدر السابق، ج ٢ : ٤٣٣) وذكر الشهابي أنها جرت في ٢٧ منه (المصدر السابق، قسم ٣، ص ٧٦٥) كما ذكر أن الجنبلاطيين «كبسوا على عسكر الأمير الذي كان مقيم في قرية بعقلين، وكان ذلك في الساعة السادسة من الليل» (م.ن. ص ٧٦٦). بينما يذكر الشدياق أن الأمير فاعور الذي كان محافظاً على البلدة قد اختبأ في أثناء الهجوم خوفاً (الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٤٣٣).

(١٨٧) مشاقة، منتخبات، ص ١٠٠.

(١٨٨) الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٧٦٦.

(١٨٩) مشاقة، منتخبات، ص ١٠٠.

(١٩٠) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٣٤ والشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٧٦٦.

(١٩١) مشاقة، منتخبات، ص ١٠١.

(١٩٢) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٣٤.

(١٩٣) مشاقة، منتخبات، ص ١٠١.

(١٩٤) الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٧٦٦، وذكر الشدياق أن قتلى رجال الشيخ بشير كانوا ١٥ فقط (الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٣٤).

(١٩٥) مشاقة، منتخبات، ص ١٠١.

(١٩٦) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٣٤، والشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٧٦٧. وقد قضى الشيخ علي بعد هذه الوقعة متأثراً بجراحه في مغارة قرب قرية «عرنة» بالشوف.

(١٩٧) الشدياق، م. ن. ص. ن.

(١٩٨) الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣: ٧٦٧، وقدّر الشهابي خسائر الثوار في حرب البشيرين بمائة وخمسين قتيلاً وثلاثماية جريح، وخسائر رجال الأمير بثلاثة عشر قتيلاً، وخسائر جند عكا بثمانية قتلى وثلاثين جريحاً. (م. ن. قسم ٣ : ٧٦٩).

(١٩٩) مشاقة، منتخبات، ص ١٠١، وانظر: الشهابي، م. ن. قسم ٣: ٧٦٧.

(٢٠٠) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٣٤ - ٤٣٨، والشهابي، المصدر السابق، قسم٣ : ٧٧١ - ٧٧٧، ومشاقة، منتخبات، ص ١٠٢ - ١٠٣ وقد ذكر الشدياق أنه في عام ١٨٢٨ «كتب حنا بك البحري من مصر إلى الأمير يستعطفه برجوع الأمير حسن أسعد إلى داره آمناً فحضر إلى داره» (الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٤٠) وانظر، عن حرب البشيرين: رستم، المحفوظات الملكية، مجلد ١، ص ٦٤ - ٦٥، الوثائق ذات الأرقام التالية:

- وثيقة رقم ١٦٥، من محمد علي باشا إلى عبدالله باشا، وهي تتعلق بثورة الشيخ بشير وخروجه عن طاعة الأمير.

- وثيقة رقم ١٦٦، من محمد علي باشا إلى عبدالله باشا، وهي تتعلق باستعداد محمد علي لمساعدة الأمير عسكرياً.

- وثيقة رقم ١٦٧، من محمد علي باشا إلى عبدالله باشا، وهي تتعلق بالتعاون بين عبدالله باشا والأمير ضد ثورة الشيخ بشير.

- وثيقة رقم ١٦٨، من مجهول إلى محمد علي باشا، وهي تتعلق بتفاصيل الحرب بين الأمير والشيخ بشير.

- وثيقة رقم ١٦٩، من محمد علي باشا إلى عبدالله باشا، وهي تتعلق بهزيمة الشيخ بشير. ويذكر الأمير حيدر الشهابي في تاريخه أن الأمير بشيراً كافأ الذين حالفوه في قتاله ضد الزعيم الجنبلاطي، فأقطع ابنه الأمير خليل اقليمي جزين والتفاح، والشيخين محمود وناصيف النكديين مقاطعة الشوف، ومشايخ آل تلحوق الغرب التحتاني باستثناء قرية الشويفات، كما أنعم على غير هؤلاء ممن كانوا معه في حروبه ضد الشيخ بشير (الشهابي، م. ن. قسم ٣ : ٧٧٦).

(٢٠١) حوصرت هذه القلعة عام ١١٧٨هـ (١٧٦٤ - ١٧٦٥م) من قبل عثمان باشا الكرجي والي دمشق، وعام ١٢٠٩هـ (١٧٩٤ - ١٧٩٥م) من قبل أحمد باشا الجزار والي عكا، إلا أن أياً من الواليين لم يتمكن من الاستيلاء عليها نظراً لمناعتها وشدّة بأس المدافعين عنها، وقد بنى هذا الحصن جد آل جرّار الشيخ محمد، ثم حصّنه وعزّز بناءه الشيخ يوسف الجرّار الذي كتب على بوابة الحصن تاريخاً ببيتين من الشعر، هما:

كن رزيناً إذا أتتك الرزايـا ... وصبـوراً إذا أتتك مصيبـة

فالليالي من الزمان حبـالى ... مثقلات يلدن كل عجيبـة

(الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٨٠٠ - ٨٠١).

(٢٠٢) «كبس البعض منهم على متسلم عبد الله باشا في قرية جانـين» (الشهابي، م. ن. قسم ٣ : ٨٠١).

(٢٠٣) - Ismaïl, Documents, T.5 p. 191.

ولكن الشهابي يذكر أن الأمير سار إلى عكا بألفين من رجاله (م. ن. قسم ٣: ٨٠٢) وفي مكان آخر بألفين وخمسماية نفر «خيل وزلم» (م. ن. ص ٨٠٤)، ولكنه يذكر بعد ذلك أنه ما أن وصل الأمير إلى عكا حتى أرسل إلى ابنه أمين يطلب منه تعزيزات من الرجال «فاجتمع من الشوف وكسروان وغير أماكن نحو ألفين وتوجّه بهم الأمير عبدالله ابن أخو الأمير بشير» (م. ن. ص ٨٠٤)، أما مشاقة فيذكر رواية مطابقة لرواية القنصل الفرنسي، إذ يروي أن الأمير جمع جيشاً «دون الخمسة آلاف» منهم: ألف وخمسماية من خدامه بين خيّالة وراجل، وألف من خدام الشيخ ناصيف أبي نكد ورجال دير القمر، وألفان من حاصبيا وراشيا وبعض مشايخ الجبل. (مشاقة، منتخبات، ص ١٠٨).

(٢٠٤) الشهابي، م. ن. قسم ٣ : ٨٠٢.

(٢٠٥) الشهابي، م. ن. قسم ٣ : ٨٠٢ حاشية (٢). وقد وقع الشهابي في أخطاء ظاهرة في موافقته التواريخ الهجرية بالتواريخ الميلادية، منها أنه وافق ٢٨ رجب ١٢٤٦هـ بـ ١٣ كانون الأول ١٨٣٠م (م. ن. ص ٨٠٢) والصواب هو أن أول رجب ١٢٤٦هـ يوافق ١٦ كانون الأول ١٨٣٠م، فيكون، والحالة هذه، أول شعبان ١٢٤٦هـ، في حساب الأمير الشهابي، موافقاً للثالث من كانون الثاني ١٨٣١م، والصواب هو أنه موافق لـ١٥ كانون الثاني ١٨٣١م (مختار باشا، التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية، مجلد ٢ : ١٢٨٤).

(٢٠٦) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ١ : ٤٢ والشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٨٠٣.

(٢٠٧) الشهابي، م. ن. قسم ٣: ٨٠٤ والشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٤١.

(٢٠٨) الشهابي، م. ن. ص ٨٠٤ مع الإشارة إلى استمرار الخطأ عند الشهابي في مطابقة التواريخ الهجرية بالتواريخ الميلادية.

(٢٠٩) الشهابي، م. ن. ص ٨٠٤ والشدياق، م. ن. ج ٢ : ٤٤١.

(٢١٠) الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٤٤١.

(٢١١) الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٨٠٦.

(٢١٢) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٤٢. ويذكر رستم باز في مذكراته أنه كان بين القتلى من رجال الأمير شبلي ابن حسين حمادة، أخو علي بك حمادة، ومنذ ذلك الحين، كتب الأمير بشير إلى حسين حمادة «الأخ العزيز» (باز، مذكرات رستم باز، ص ٢٨).

(٢١٣) الشدياق، م. ن. ص. ن.

(٢١٤) الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٨٠٩.

(٢١٥) المعلوف، دواني القطوف، ص ٢٣٩.

(٢١٦) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٤٣.

(٢١٧) الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣: ٨١٣ - ٨١٦.

(٢١٨) الشهابي، م. ن. ص ٨١٦.

(٢١٩) - Ismaïl, Documents, T.5 p 192.

(٢٢٠) - Ibid, p. 193.

محمد علي باشا

(عن مطبوعة حجرية بلجيكية)

(Ismaïl5 Doc T5 p. 96)





سليمان باشا الفرنساوي

(المكتبة الوطنية بباريس)

(Ismaïl, Doc T5 p. 192)

الفصل السادس

معارك الأمير بشير الثاني الكبير

- ٢ -

الوضع العسكري العام
عشية الحملة المصرية على بلاد الشام

أولاً: معلومات عامة عن الجيش المصري في عهد محمد علي باشا:

كانت فترة الاحتلال الفرنسي البونابرتي لمصر (١٧٩٨ - ١٨٠١) زاخرة بالدروس والعبر، وقد استطاع محمد علي أن يستفيد منها في مختلف المجالات التي بنى عليها طموحه الكبير، وخصوصاً في المجال العسكري الذي أتاح له إنشاء جيش من أقوى الجيوش في هذه المنطقة، فكان هذا الجيش من أهم انجازات مؤسّس مصر الحديثة.

اكتشف محمد علي، في أثناء حربه ضد الوهابيين بالحجاز، وبعد انتصاره في هذه الحرب عام ١٨١٨، ضعف تنظيمه العسكري في جيش بني خليطاً من أجناس مختلفة مفككة وغير متماسكة، حيث كان مؤلفاً، بصورة خاصة «من مجندين نوبيين ومرتزقة يونانيين» يقودهم ضباط فرنسيون استوطنوا مصر بعد حملة نابليون، وهم من يسمون «بالمماليك الفرنج»[1]، فقرّر أن يستبدل، بهذا الجيش، آخر يتناسب وطموحه في التوسّع الإقليمي، واستعان، لذلك، بالخبراء والمدربين العسكريين الأوروبيين (النمساويين والإيطاليين والبروسيين) وخصوصاً الفرنسيين منهم - وقد أضحت فرنسا،

بعد خروجها من مصر، حليفة لمحمد علي وأكبر مشجعٍ له في طموحه -، فأنشأ، في القصبة، قرب أسوان، أول «مدرسة حربية» لإعداد الملاكات من الضباط المحترفين (من الأتراك والمماليك والشراكسة)، وعهد بها إلى ضابط فرنسي، برتبة كولونيل، يدعى «أوكتاف جوزف انتلم دي سيف Octave - Joseph - Anthelme de Sèves» وهو الذي اشتهر، في تاريخ حملة محمد علي على بلاد الشام، وبعد أن اعتنق الإسلام، باسم «الجنرال سليمان باشا»، وقد لعب سليمان باشا «الفرنساوي» هذا، دوراً مهماً في هذه الحملة جعله من قادتها البارزين[٢].

وكانت فرنسا، في عهد لويس الثامن عشر، تشجع محمد علي على الاستمرار في هذا التغيير النوعي في المجتمع والجيش بمصر، فزودته بأربعة آلاف بندقية «لسد حاجات المدرسة الحربية» بالإضافة إلى الخبراء العسكريين أمثال «جول بلانا» و«دومرغ» و«كادو» و«كيسون» و«راي» و«ديفونور» و«فاران»[٣]، ثم ساعدته على إنشاء مختلف المدارس العسكرية، بالإضافة إلى المدرسة الحربية الآنفة الذكر، فأنشا محمد علي مدرسة لإعداد الضباط والرتباء المشاة في دمياط (عام ١٨٢٢)، ثم أنشأ «المدرسة العسكرية العليا» في «الخانكة» (عام ١٨٢٣) وكانت على غرار كلية «سان سير» الحربية الفرنسية، وأنشأ بعدها مدرسة الأركان (١٨٢٥)، ثم مدرسة الموسيقى العسكرية (١٨٢٦) فمدرسة المدفعية (١٨٢٩) فمدرسة الفروسية (١٨٣١) وأخيراً مدرسة الهندسة (١٨٣٤)[٤].

وفيما كانت هذه المدارس العسكرية تخرّج الملاكات اللازمة، من ضباط ورتباء ومتخصصين، لإعداد جيش مصري متطور، كان محمد علي لا يفتأ يطوّر هذا الجيش كَمّاً ونوعاً، ويوفد بعثات عسكرية من الضباط

المتفوقين للتخصص في الخارج (فرنسا)، ثم يفرض الخدمة الإجبارية في البلاد لكي يرتقي بجيشه من ذلك الخليط غير المتناسق من الأجناس إلى نوع من الوحدة الوطنية المتماسكة في جيش مصر، وكان محمد علي يسعى، باستمرار، وبسرعة مذهلة، لكي يلحق بالتطور العسكري الأوروبي (الفرنسي خصوصاً) في التنظيم والتدريب والتقنية، معطياً، في سعيه هذا، أولوية خاصة للتدريب العسكري الحديث، ولسلاحي البحرية والمدفعية، وسلاح الخيّالة، وتتجاوب فرنسا معه في هذا الاتجاه فتوفد إليه، عام ١٨٢٤، بعثة عسكرية برئاسة الجنرال «بواييه Boyer» مهمتها تدريب جيش محمد علي «وإنشاء اسطول جديد له»[٥].

وظهر اهتمام محمد علي بالتدريب العسكري في الجيش وتشديده البالغ على ضرورة اتقان العلوم العسكرية ودراسة فن الحرب في كثيرٍ من المذكرات والتعاميم التي كان يصدرها وتعمّم على جيشه، ومنها تعميم على ضباط الجيش يبيّن شعوره بالإخفاق والأسى وخيبة الأمل من جرّاء النتائج المتدنية التي ظهرت في امتحانات تلامذة المدرسة الحربية لسلاحي المشاة والمدفعية، فقد كان يأمل أن يكون تلامذة السنة الثالثة، في هذه المدرسة، قد أتقنوا «التعاليم الخاصة بالمشاة والمدفعية» وتعلموا «الحساب ومجموعة المهندسين وأصول الهندسة والمثلثات المسطحة»، مما يجعلهم قادرين على «تخطيط البلدان واستطلاع أحوال الأراضي ورسم الخرائط والاستحكامات الخفيفة والقوية»، وكان يأمل كذلك أن يرى هؤلاء التلامذة قد برعوا «في هذه المواد نظرياً وعملياً حتى تكونت لديهم قدرة على تطبيق كل علم منها»، وأن يراهم يجيدون «علم المثلثات الفلكية وإنشاء الخرائط بالهندسة»، كما كان يرغب في أن ينقلوا إلى العربية بعض العلوم العسكرية الفرنسية «مما يفيد

مصلحتنا ويوافق أصولنا» كما كان يأمل أن يراهم وقد شرعوا «في دراسة فن الحرب»[٦].

ويذكر محمد علي، في التعيم نفسه، أنه كان يمنّي النفس بجهد أكبر من تلامذة السنة الثانية «ليلحقوا بتلامذة السنة الثالثة» وكذلك من تلامذة السنة الأولى ليبلغوا «مرتبة تلامذة السنة الثانية»، ثم يؤكّد أنه كان يمنّي النفس بهذا، إلا أن نتائج الامتحان التي عرضت عليه أظهرت له أن «تلامذة السنة الدراسية الأولى قد بلغ بهم الكسل مبلغاً أقعدهم عن الحضور وتلقّي الدروس في المدرسة فضلاً عن الجد والسعي»، لذا، فهو قد شعر «بخيبة الأمل في حزن مضاعف وتأثر كبير من فتور التلاميذ القدماء، ولا سيما من تواني القول آغاسيه - وهم ضباط مدربون - وكسل التلاميذ المستجدين»[٧].

ولم يكن الباشا ليكتفي بإظهار حزنه وخيبة أمله وأساه لذلك، بل كان يعمد إلى اتخاذ تدابير زجرية بحق الضباط المدربين، فيؤنب بعضهم، ويخفض رتبة آخرين، ويعاقب التلامذة الكسالى، ويعمد إلى مكافأة الضباط والتلامذة المجتهدين فيأمر بترقيتهم، ثم يقرّر، «أن تنظم جداول في أواخر كل شهر، يبيّن فيها مبلغ كل منكم من العلم والأخلاق، ثم تعرض هذه الجداول علينا لنعلم أحوالكم ونعامل كل واحد فيكم بما يليق بحاله، كما يجب عقد امتحان لكم جميعاً في كل ثلاثة أشهر مرة... وتعرض نتيجته علينا للإطلاع»[٨].

وظهر اهتمامه بسلاح المدفعية من سعيه المستمر لتطوير هذا السلاح، فهو يهتم بتزويد القطع المقاتلة (الألايات) بالمدافع، وبالملاكات المدربة على رمي المدفعية من ضباط ورتباء، وبتدريب رجال المدفعية على استعمال هذا السلاح تدريباً متقناً، كما يهتم بسد النقص الحاصل من عدم وجود العدد

الكافي من المدافع لجميع الألايات «بصنع مدافع من النحاس» في «الطوبخانة» بمصر، على أن يتم تنظيم لائحة «بالأدوات والمهمات التي لا بدّ من استيرادها من الخارج لأجل الطوبخانة» لكي يتم استيرادها من مصادرها[٩]، ثم يعود محمد علي فيؤكّد على ابنه ابراهيم ضرورة «بذل العناية بسبك المدافع في الطوبخانة والعمل على تكثيرها»[١٠]، وقد أشرف الكولونيل الفرنسي «راي» على تنظيم هذا السلاح كما أدخل تحسينات عديدة على مصانع الأسلحة بالقاهرة.

ولم يكتف محمد علي بتطوير هذا السلاح عددياً في جيشه، بل انه سعى إلى تطويره تقنياً، إذ أصرّ على شراء الآلات الحديثة المستعملة في الجيوش الأوروبية للتصويب المدفعي، فكتب إلى عميل له في أوروبا يدعى «الخواجة بوغوص» يذكره بأنه سبق أن طلب منه إرسال «بضعة آلاف» من آلة «كنر» المخترعة حديثاً في أوروبا، والتي «تجعل المدفع يرمي مقذوفة إلى المرمى، بل ويساعد في رمي المقذوف إلى مدى أبعد»، ثم يكرّر عليه «مشيئته» بإرسال الكمية المطلوبة من هذه الآلة[١١].

بالإضافة إلى ذلك، وإلى مدرسة المدفعية التي أنشأها عام ١٨٢٩، أقام محمد علي مصانع لصنع البنادق في مصر، ولهذا، فقد أمر، في أثناء حكمه لبلاد الشام، بقطع «كمية كافية من شجر الجوز لصنع عشرة آلاف بندقية» من اقليمي «بيلان» و«أدنة» ونقلها إلى مصر لهذا الغرض[١٢]، كما انه أمر بإنشاء مناجم في جبل الدروز[١٣] بغية استخراج الحديد منها[١٤] ونقله إلى مصر لاستعماله في صنع المدافع والبنادق[١٥].

وفيما يلي وصف لمصانع السلاح في مصر في هذه الفترة، وقد ورد هذا الوصف في تقرير رفعه أحد الخبراء المصريين المدعو «أدهم أفندي» بناء على طلب محمد علي، جاء في التقرير: «إن دار صنع المدافع في مصر

مؤسسة تحوي جميع الآلات والأدوات التي تقوم عليها هذه الصناعة... فمدافع الجيش التي تصنع في فرنسا يصنع مثلها في هذه المؤسسة أيضاً، وتقاس مدافعها بآلات التحقيق التي جلبت من فرنسا وتعدّ بعد ذلك للعمل وتحوز القبول... على أنه لا بدّ للمصلحة من جلب الكتب والرسوم التي تبحث في الاختراعات في حينها.

«وقد أنشئ مصنع البنادق في مصر على طراز مصانع البنادق في فرنسا، غير أن مصانع البنادق هناك قائمة على ضفاف الأنهر وتدار آلاتها بقوة انحدار الماء، الأمر الذي يسهّل لهم الاستعانة بالآلات على انجاز معظم الأعمال، أما مصانعنا فليس لنا سوى الدواب والعمال لتحريك الآلات»[١٦].

ولم يكن اهتمام محمد علي بسلاح الخيّالة أقل من اهتمامه بسلاح المدفعية، فبالإضافة إلى مدرسة الفروسية التي أنشأها عام ١٨٣١، نراه يهتم بشراء الخيول اللازمة لهذا السلاح من بلاد الشام، بل انه يوفد أحد رجاله «خصيصاً إلى بر الشام لابتياع الخيل، وأنه مستعد لدفع الثمن نقداً»[١٧]، ثم يهتم بشراء السلاح لخيّالته، فيكتب إلى عميله «بوغوص» كتاباً يشعره فيه بحاجته إلى «خمسة آلاف طبنجة بروحين وخمسة آلاف سيف لأجل آلايات الفرسان المنشأة»، ويطلب منه الإتصال بالجنرال «ليورون» الموجود بباريس كي يبتاع له هذه الكمية من الطبنجات والسيوف، كما يطلب منه أن يرسل، لأجل ذلك: «حوالة بمبلغ مائتي ألف فرنك إلى الجنرال المذكور، سلفة»[١٨]. ولا يتوقف اهتمامه بالخيّالة عند هذا الحد، بل يتعداه إلى الاهتمام بملابسهم فيقرّر استدعاء الجنرال «ليورون» من باريس «على أن يحضر معه ثلاثة ملابس من ملابس رتبة اليوزباشي لعساكر الفرسان الدراجون Dragon والهوسار Hussard والكويراسييه Cuirassier وملابس واحدة من هذه الأنواع الثلاثة

للجنود والضباط»[١٩]، كما يقرر استيراد الدروع للخيّالة من أوروبا ويرسل إلى ابنه ابراهيم باشا إشعاراً بذلك[٢٠]، وقد أشرف الضابط الفرنسي «بولان دي تارلييه» على تشكيل ألوية الخيّالة المصرية واختيار جنودها من عرب الصحراء وانتقاء خيولها من الشام وابتياع عتادها من فرنسا.

ولم يقتصر التدريب في جيش محمد علي على شؤون التعليم والقتال فحسب، بل كان يهتم، كذلك، بالمظهر الخارجي للوحدة مجتمعة كتمارين النظام المرصوص مثلاً، ونجد نماذج لهذا النوع من التدريب في الإفادات التي كان يرفعها قادة الوحدات إلى ابراهيم باشا قائد الجيش، وقد جاء في احداها، وهي مرفوعة من أيوب بك قائد الألاي الحادي عشر، أنه قام بتدريب الألاي على الحركات التالية:

«١) القيام والوقوف وتدوير الرأس يمنة ويسرة.

«٢) نصف دورة إلى اليمين وإلى الشمال ودورة من اليمين إلى الخلف.

«٣) تدريب الثلاثة واتصالهم من الإبط بصف واحد وإمساك السلاح في هذه الحالة.

«٤) تدوير الوجه يمنة ويسرة في أثناء حمل السلاح، وتدوير الوجه نصف دورة إلى اليمين وإلى الشمال ودورة من اليمين إلى الخلف»، ومثلها من أمير الألاي الثاني عشر[٢١]. وقد أشرفت البعثة الفرنسية برئاسة الجنرال بوايبه على تدريب المشاة فكان لها الفضل في تدريب المشاة المصريين على تمارين الرمي والقتال والنظام المرصوص.

وقد اهتم محمد علي بتعليم «الضباط العرب» من أبناء بلاد الشام، اهتماماً بالغاً، فبالإضافة إلى أنه أنشأ، في أثناء حكمه لهذه البلاد، مدرسة عسكرية في دمشق[٢٢]، وأنه درج كذلك، على إرسال تلامذة من هذه البلاد

إلى المدرسة الحربية بمصر[٢٣]، فقد اهتم ابنه ابراهيم باشا بتعليم هؤلاء الضباط مختلف العلوم العسكرية، وخصوصاً «الهندسة والمساحة وما شاكل ذلك من العلوم اللازمة لرجال المدفعية»[٢٤]، كما أنشأ مدارس «في جميع الأيالات» المنتشرة في بلاد الشام، وسن قوانين تقضي «بعدم ترقية ضباط الصف من رتبة أونباشي إلى رتبة يوزباشي، إلا بعد أن يتعلموا القراءة والكتابة، ومن ليس له قابلية للقراءة والكتابة عليه أن يتعلم صنعة من الصناعات»[٢٥].

ولم تكن سياسة الترقية في الجيش المصري تخرج عن هذه التي اتبعها ابراهيم باشا في بلاد الشام، فبالإضافة إلى أن الترقية في هذا الجيش كانت تتم وفقاً للمراكز الشاغرة، فإنها كانت تتم كذلك بالاختيار وفقاً لكفايات المرشحين في «الخط والكتابة»، حيث يختار من بينهم الأجود خطاً، وإذا تساوت الخطوط، كانت تجرى القرعة بين المتساوين لاختيار صاحب الحظ بالترقية، لذا، كان المرشحون يجهدون دوماً لتحسين خطوطهم والتمرس على الكتابة بخط جيّد كي ينالوا الترقية، كما كان يؤخذ سجل خدمات المرشح وحسن سلوكه بعين الاعتبار عند ترشيحه لها[٢٦]. إلا أن الباشا كان يعيب على المرشحين اعتناءهم بالخط والكتابة واهمالهم لباقي المواد التعليمية «مثل الإملاء والإنشاء» حتى إذا طولبوا «بكتابة ورقة بنظام آخر عجزوا عن تحريرها ويكون غرضهم فقط الحصول على الرتبة»، لذا، فقد قرّر أن يقوم بنفسه بإجراء امتحان للمرشحين في المستقبل فيكلف «كل واحد منهم بتحرير ورقة أخرى على نظام آخر»، ثم يوازن بينها وبين الخطوط المحفوظة لديه كي يتم الاختيار وفقاً للخط والمعرفة[٢٧]. وكانت تتم الترقية لرتبة «ميرالاي» وفقاً لاختيارٍ من بين المرشحين لهذه الرتبة يجريه مجلس يعقد

لهذه الغاية من كبار ضباط الجيش[٢٨]، أما ترقية تلامذة المدرسة الحربية وباقي المدارس العسكرية فكانت تتم وفقاً لنتائج امتحانات هؤلاء التلامذة[٢٩].

يتبيّن مما تقدم، أن محمد علي أعار جيشه اهتماماً بالغاً بالنظر إلى المهمات الخطيرة التي كان يعتزم تكليفه إيّاها، ساعياً، في هذا المجال، كل جهده، أن يستفيد من أحدث الخبرات العسكرية الأوروبية، فجاء هذا الجيش «منضبطاً على الطريقة الأوروبية، منشأ ومدرباً على أيدي مدربين فرنسيين، ومجهزاً تجهيزاً جيداً»[٣٠]، فكان «القوة الوحيدة المتعلمة والمسلحة تسليحاً جيداً في الامبراطورية العثمانية»[٣١]، وذلك لأن محمد علي «عرف كيف يدخل في هذا الجيش التقدم الذي حمله بونابرت إلى مصر، فأدخل في كل مكان منه الفنيين الأوروبيين، وخصوصاً الفرنسيين منهم، فكان الجيش بين أيديهم»[٣٢].

وقد اختلف المؤرخون في تحديد عديد الجيش المصري في عهد محمد علي، فذكر «كزاڤييه ريمون» أن عديد هذا الجيش بلغ، عشية الحملة على بلاد الشام، نحو ١٣٠ ألف جندي نظامي، أوفد محمد علي منهم، في عداد هذه الحملة، جيشاً يراوح عديده بين ٨٠ و٩٠ ألف رجل من الجند النظاميين (منهم ١٠ آلاف خيّال ومدفعية مؤلفة من نحو ١٦٠ قطعة) بالإضافة إلى نحو ٢٠ ألفاً من الجند غير النظاميين، فيكون مجموع الجيش الذي قاده ابراهيم باشا، في أثناء حروبه ببلاد الشام، نحو ١١٠ الاف رجل[٣٣]، بينما بقي في مصر نحو ٤٠ ألف رجل، وأسطول بحري مؤلف من ١٨ بارجة قتال و٦ فرقاطات كبيرة، و٢٠ سفينة (عمارة) خفيفة، وعدة سفن بخارية، وكانت جميعها مسلحة تسليحاً كاملاً، وعلى استعداد للقتال[٣٤].

إلاّ أنه لم يتبق من هذا الجيش في بلاد الشام، وبعد احصاء أجري في أيار عام ١٨٤٠، سوى ٦٦٢٤٠ جندياً نظامياً و٥٧٠٠ جندي غير نظامي، أي ما مجموعه ٧١٩٤٠ جندياً[٣٥].

وذكر الجنرال «ويغان» أن الجيش المصري في عهد محمد علي قد بلغ، عشية الحملة على بلاد الشام (أي عام ١٨٣١) نحو سبعين ألف رجل موزعين على ١٨ فوجاً (Régiment) من المشاة، و٨ أفواج خيّالة، وفوج مدفعية بالإضافة إلى سلاحي النقل والخدمات، كما ذكر أن محمد علي أوفد من هذا الجيش، في الحملة المذكورة، نحو ٢٥ ألف رجل (منهم نحو ٣ ألاف خيّال) موزّعين كما يلي:

- ٥ أفواج مشاة (الأفواج ٨ و١٠ و١٢ و١٣ وفوج الحرس).
- ٤ أفواج خيّالة (الأفواج ٣ و٥ و٦ و٧).
- ١ كتيبة مدفعية (مؤلفة من ٤٠ قطعة ميدان و٢٠ قطعة حصار – Pièce de siège – و١٠ هواوين.
- ٤٠٠ رجل من سلاح النقل، لجر المدافع.
- ١٢٠٠ من رجال البدو، وهم خيّالة مدّربون ومهرة.
- ١٠٠ جمل من كل فوج، وذلك لحمل المتاع والماء[٣٦].

واستطرد «ويغان» في مكان آخر، فذكر أنه، بعد سقوط عكا، أرسل محمد علي إلى ابنه ابراهيم ما تبقى في مصر من جند وذخائر، ولم يبق لديه إلا الضروري منهما، وقد أرسل إليه:

- ٣ أفواج مشاة جديدة (الأفواج ٥ و١٨ و٢٠).
- فوج الخيّالة الثامن.
- ٣٠٠٠ رجل من رجال البدو المجهزين بالخيل ولاسلاح[٣٧].

وانه، في شباط عام ١٨٣٢، كان لدى ابراهيم باشا نحو ٧ أفواج مشاة و٧ أفواج خيّالة، و٨٦ قطعة مدفعيّة (منها ٣٨ قطعة حصار) فكان بقيادته نحو ٤٠ ألف رجل[٣٨].

وقد أيّد هذه الرواية كثير من المؤرخين أمثال (جوبلان) ورستم[٣٩] مع الاختلاف في بعض التفاصيل، منها ما ذكره رستم من أن الأسطول المصري كان مؤلفاً عام ١٨٣١ من ٢٣ سفينة حربية، منها ٧ فرقاطات (Frégates) و ٦ قروبات (غرابات أو مراكب حراسة Corvettes) وثلاثة أباريق (مراكب صواري Goélettes) وسبع سفن مدفعية (Chaloupes Canonnières) وغيرها من النقالات الصغيرة[٤٠].

إلا أن القول الفصل في هذا الشأن يعود إلى محمد علي نفسه الذي صرّح، في مقابلة له مع القنصل الانكليزي العام بمصر في ٧ آذار عام ١٨٣٠، أنه يملك «جيشاً من ١٢٥ ألف مقاتل يستطيع أن يقف سداً بوجه الروس عند الآستانة وعلى حدود فارس»[٤١]. وكما اختلف المؤرخون في تحديد عديد الجيش المصري في عهد محمد علي، فقد اختلفوا كذلك في تحديد عديد الجيش المصري الذي قام بالحملة على بلاد الشام، فبالإضافة إلى ما ورد عن «كزافييه ريمون» (بين ٨٠ و٩٠ ألف جندي) و«ويغان» (نحو ٤٠ ألف جندي)، ذكر «جوبلان» أن ابراهيم باشا «مشى نحو عكا بـ٣٥ ألف جندي... مع الأسطول المصري»[٤٢]، وذكر لامنس أن الحملة المصرية على سوريا، بقيادة ابراهيم باشا، قد «تجاوزت الـ٣٠ ألف رجل»[٤٣]، وأضاف على ذلك قوله «وهذا هو التقدير الأكثر اعتدالاً»[٤٤]، ووافقة «بورون»[٤٥]، وكذلك «ديب»[٤٦]، على هذا التقدير.

ولكن «ميمو Mimaut» القنصل الفرنسي بالاسكندرية، ذكر، في رسالة منه بتاريخ ٢٤ تشرين الأول ١٨٣١، إلى الكونت سيباستياني وزير الخارجية

الفرنسية، أن الجيش المصري قد تحرّك نحو بلاد الشام في منتصف الشهر المذكور، وهو مؤلف من ١٥ ألفاً من المشاة، و٥ آلاف خيّال، ذهبوا بطريق البر، و٦ آلاف، ذهبوا بحراً، وان ابراهيم باشا، قائد هذا الجيش، قد أبحر على متن سفينة حربية بتاريخ ٤ تشرين الثاني، فوصل إلى يافا، وبصحبته فرقة بحرية صغيرة[٤٧].

وذكر مخايل مشاقة، وهو شاهد عيان لما حدث، أنه، عندما وصل إلى عكا «كان اثنان وعشرون مركباً حربياً محيطة بها، ثمانية من شمالها وثمانية من غربها وستة من جنوبها أمام برة الدبان، ومن البر مدافع وقنابر على تل الفخار وجميعها تضرب على عكا»[٤٨]، وانه عرف كلما أمكنه معرفته «حتى عدد العسكر بأنه ثمانية ألايات مشاة تبلغ أنفارها ثمانية عشر ألفاً وثمانية الايات خيل تبلغ رجالها أربعة آلاف، ويوجد نحو ألف فارس من عرب الهنادي، والمدافع مع القبوسات وهاون القنبرة ثلاثون (أ) وأربعون قطعة، ومطبعة حجر»[٤٩].

إلا أننا نرجح، أخيراً، ما ذكره «برتو Bertou» الذي كلفته الحكومة الفرنسية عام ١٨٤٠ القيام بمهمة تهدئة في بلادنا[٥٠]، خلال حرب ابراهيم باشا ضد الثوار السوريين وضد جيوش الحلفاء التي دخلت بلاد الشام لطرد المصريين منها، فكتب، في ١٢ تشرين الثاني من العام نفسه، إلى الكونت دي ڤالمي C. De Valmy رسالة جاء فيها: «كان الجيش المصري، في بدء الحملة، يعد ٥٠ ألف جندي، وها أنذا أقول لكم انه لم يبق منه سوى ٢٥ ألفاً»[٥١]، كما ذكر «برتو» في رسالة أخرى لغيزو Guizot رئيس مجلس الوزراء الفرنسي ووزير الخارجية الفرنسية، بتاريخ ٢٣ تشرين الثاني ١٨٤٠، أن ابراهيم باشا «جمع كل ما تبقى له من قوات في سوريا فبلغت ما يراوح بين ٢٥ و٣٠ ألف رجل»[٥٢].

ثانياً - ابراهيم باشا: قائد الحملة المصرية، وحاكم بلاد الشام (١٨٣١ - ١٨٤٠)

الابن الأكبر لمحمد علي باشا وقائد جيوشه[٥٣] وموضع ثقته في الشؤون العسكرية، ولد في الروملي[٥٤] عام ١٧٨٩، وانتقل منها إلى مصر مع أسرته وهو لا يزال طفلاً، فغيرت شمس مصر دمه «فجرى عربياً»[٥٥]، وانصرف، منذ شبابه، إلى العلوم العسكرية فاتقنها على يد الضباط الأوروبيين، وخصوصاً الفرنسيين منهم، الذين كانوا يعملون في مصر، في جيش والده، وما لبثت عبقريته العسكرية أن تجلت في مختلف الحروب التي خاضها قائداً للحملات التي قام بها ذلك الجيش، في كل من الجزيرة العربية واليمن واليونان، وأخيراً بلاد الشام.

لقد تسلم والده الحكم في مصر عام ١٨٠٥، أي بعد خروج الفرنسيين من مصر مباشرة، فبدأ يعدّ لنفسه جيشاً وطنياً عصرياً باشر بتنظيمه تنظيماً أوروبياً حديثاً يتلاءم مع طموحه في الحكم والتوسّع، وتوسم في ابنه البكر ابراهيم امارات النبوغ العسكري فوجهّه التوجيه الذي يتلاءم وهذا النبوغ، وهكذا فقد قاد ابراهيم أول جيش من جيوش والده، وهو في السابعة والعشرين من عمره، إلى الجزيرة العربية، في الحملة المصرية الثانية على الوهابيين بالحجاز، من عام ١٨١٦ إلى عام ١٨١٨، وكان يعاونه في القيادة ضابط فرنسي يرعى «فرانسوا ڤيسيير» F. Vaissière، وهو ضابط قديم في الجيش النابليوني، وقد جعله هذا الضابط «يكتشف فن الاستراتيجية العسكرية الحقيقية»[٥٦]، ولم تمر على الحملة سنتان حتى تمكنت «عبقرية ابراهيم» العسكرية، المتضافرة مع «التقنية» العسكرية للضابط الفرنسي «ڤيسيير» من القضاء على التمرد الوهابي[٥٧]، إذ إنه، في الخامس عشر من أيلول من العام

١٨١٨، استسلم عبدالله بن سعود إلى القائد المصري الذي عاد إلى القاهرة منتصراً، إلا أن نشوة النصر لم تجعله يغفل عن استدراك أمر مهم اكتشفه في حربه هذه، وهو الضرورة الملحة لتكوين «جيش نظامي دائم وحديث»[٥٨]، وعرض ابراهيم الأمر على والده فوافقه عليه، وعهد إلى الضابط الفرنسي، الكولونيل «سيف» أمر تكوين هذا الجيش، ومنذ ذلك الحين، أصبح الكولونيل الفرنسي «سيف» أو «الجنرال سليمان باشا» فيما بعد، الرفيق الدائم والمعاون المخلص للقائد ابراهيم باشا.

وفي عام ١٨١٩، قاد ابراهيم باشا حملة أخرى من جيوش والده إلى اليمن، ثم قاد حملة ثالثة إلى بلاد اليونان، في تموز عام ١٨٢٤، إذ أبحر إلى تلك البلاد، من الاسكندرية، على رأس أسطول بحري «مؤلف من ٦٣ مركباً عسكرياً ومئة زورق لنقل جيش قوامه ستون ألف رجل»[٥٩]، وعاونه في القيادة أركان مختلطة «نصفها أوروبي ونصفها الآخر شرقي»[٦٠] تتألف من ضباط متمرسين بالحرب ولامعين، فكان يقود، في الواقع، جيشاً مدرباً على القتال بأساليب أوروبية «نابليونية» استطاع أن يقضي على الثورة اليونانية في فترة قصيرة، رغم وجود خبراء ومتطوعين أوروبيين في صفوفها[٦١]. وكان انتصار ابراهيم باشا في حرب اليونان هذه، أو حرب «المورة» كما اشتهرت، سبباً في ذيوع صيته في كل من أوروبا وآسيا، حيث أصبحت الدول الأوروبية تحسب لجيش محمد علي حساباً، وأصبحت السلطنة العثمانية تخشى، كذلك، من طموحه وتوسعه على حسابها وحساب سلطتها وهيبتها.

وكانت آخر حروب ابراهيم باشا، وأهمها، حربه في بلاد الشام، فقد قاد حملته إلى هذه البلاد عام ١٨٣١ فحكمها نحو عشر سنوات، ثم خرج منها منهزماً على أيدي الدول الأوروبية المتحالفة مع الآستانة ضده، عام ١٨٤٠،

لينزوي، مع أبيه، ضمن حدود مصر، حتى عام ١٨٤٨، حيث قضى نحبه، وهو يناهز الستين عاماً.

شخصية ابراهيم باشا العسكرية:

أول سؤال يتبادر إلى الذهن، في هذا المجال هو:

هل كان ابراهيم باشا عبقرياً في الحرب حقاً؟ وأين تجلت عبقريته هذه؟

سوف نحاول أن نلم ببعض جوانب الشخصية العسكرية لابراهيم باشا، وذلك من خلال تقديمنا لبعض انجازاته في الحقل العسكري في حروب الشام، ومن خلال الوثائق التي بين أيدينا عن هذه الحروب، لعلّنا نتمكن من الإجابة، بقدر من الموضوعية، على هذا السؤال.

١ - قدر الموقف:

نستطيع القول إن ابراهيم باشا كان يجيد قدر الموقف العسكري، وذلك من خلال دراستنا لنماذج من تحليله لوضع العدو في القتال ولمناوراته الممكنة، بحيث يستخلص، من ذلك، مناورة العدو أو مناوراته المحتملة، مقرراً، بعد ذلك، خطة العمل التي يراها ملائمة لمواجهة هذا العدو.

مثال:

في مطلع كانون الثاني عام ١٨٣٢م (٢٧ رجب ١٢٤٧هـ)، كان ابراهيم يحاصر عكا بفرقة صغيرة من جيشه، بينما أرسل فرقة احتلت كلاً من صور وصيدا وبيروت وطرابلس على الساحل الشامي، وفرقة أخرى احتلت مدينة القدس في داخل فلسطين (كانون الأول ١٨٣١)، وكان عليه، كقائد متبصر بعيد النظر، أن يترصد رد فعل العدو وتحركاته، فكتب إلى والده، في التاريخ المشار إليه، تحليلاً عن امكانات المناورة لدى العدو، براً وبحراً، وعن خطة العمل التي

ابراهيم باشا

(عن مطبوعة حجرية بلجيكية)

(Ismaïl. Doc. T5 p. 160)



يراها ملائمة لمواجهة مناوراته المحتملة[٦٣]. ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن تحليل ابراهيم باشا هذا، والذي وضع منذ قرن ونصف من الزمن، يتفق، في جوهره، مع أحدث طريقة للتحليل التكتي «Méthode de Raisonnemment Tactique» عرفتها الجيوش الحديثة، مما يؤكّد أن هذا القائد العسكري كان في محيطه، وفي مجال الفن العسكري، متقدماً على عصره. وفيما يلي تطبيق لهذه النظرية:

ابراهيم باشا
(عن مطبوعة حجرية بلجيكية)
(Ismaïl. Doc. T5 p. 160)



يراها ملائمة لمواجهة مناوراته المحتملة[٦٢]. ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن تحليل ابراهيم باشا هذا، والذي وضع منذ قرن ونصف من الزمن، يتفق، في جوهره، مع أحدث طريقة للتحليل التكتي «Méthode de Raisonnemment Tactique» عرفتها الجيوش الحديثة، مما يؤكّد أن هذا القائد العسكري كان في محيطه، وفي مجال الفن العسكري، متقدماً على عصره. وفيما يلي تطبيق لهذه النظرية:

المناورات العدوة الممكنة	١ - التقدم براً (محور حلب - دمشق - عكا)	٢ - التقدم براً (محور حلب - جبل الدروز - عكا)	٣ - التقدم بحراً (أقرب ميناء تركي - حيفا)
تحليل السلوك المرتقب في كل منارة	- تناط المهمة بجيش والي حلب. - يحتاج لفترة ٥٠ يوماً للوصول إلى ميدان القتال بسبب بعده عنه من جهة، وبسبب رداءة الطقس والشتاء من جهة أخرى - مضطر لاجتياز جسري «بنات يعقوب» و«المجامع» للوصول إلى ميدان القتال، نظراً لصعوبة التقدم في أراض وعرة وموحلة بسبب السيول والأوحال الناتجة عن الأمطار، مما يجعل الطرق والمعابر في الجبال والأودية غير سالكة.	- تناط المهمة بجيش والي حلب. - يحتاج لفترة ٥٠ يوماً للوصول إلى ميدان القتال بسبب بعده عن الجبهة من جهة، وبسبب رداءة الطقس والشتاء من جهة أخرى. - مضطر لاجتياز طريق جبلي[1] يمر بجبل الدروز (أي جبل الشوف).	- تناط المهمة بالأسطول التركي الحربي - لا يستطيع هذا الأسطول الخروج إلى البحر المتوسط في الوقت الراهن بسبب الطقس. - ليس بإمكان هذا الأسطول أن ينقل أكثر من ستة آلاف رجل. - ليس بإمكانه أن يرسو في أي ميناء شامي إلا ميناء حيفا نظراً لعدم صلاحية موانئ البلاد الشامية لرسو الأساطيل الحربية. - لا يمكن استعمال سفن تجارية لنقل الجند إلى هذه الموانئ بسبب انتشار سفننا التي تقوم بأعمال القرصنة في عرض البحر والتي سوف تطارد السفن العدوة.
المناورات الصديقة المقابلة	- وضع قوتين للمدافعة عن الجسرين المذكورين، ومنع العدو من اجتيازها	- تكليف الأمير بشير وضع فصيلة من الجند لمنع الطرق الجبلية الوعرة ومنع العدو من التقدم على هذا المحور.	- أنظر المناورة العدوة المحتملة.

(١) لم يأت ابراهيم باشا على ذكر محور الساحل، وربما لأنه كان قد احتل صيدا وصور وبيروت وطرابلس، فاعتبر أن العدو لن يغامر في التقدم على هذا المحور بسبب المقاومة التي سيتعرض لها.

المناورة العدوة المحتملة	المناورة الصديقة المقابلة
- لا يمكن للآستانة أن تأتي بأي عمل براً كان أم بحراً، قبل الربيع.	- إعداد القوات للقتال والمدافعة. - إجراء جميع التصليحات وإتمام النواقص اللازمة في الأسطول المصري.
- يمكن للآستانة أن تعتمد، في الربيع، إحدى المناورتين البريتين المذكورتين، أو المناورة البحرية، أو مناورة بالبر والبحر معاً.	- منع الأسطول التركي من الرسو في أي ميناء من الموانئ في حال تقدمه نحوها. - منع «القوات البرية» التركية من تنفيذ أي هجوم على قواتنا وإلحاق الهزيمة بها.

٢ - دراسة الأرض:

كذلك كان ابراهيم باشا يهتم بدراسة الأرض التي يمكن أن تكون مسرحاً لعمليات قتالية، دفاعية كانت أم هجومية، وغالباً ما كان يربط هذه الدراسة للأرض بقدره للموقف العسكري العام في جبهة من جبهات القتال.

مثال:

في مطلع آذار عام ١٨٣٢م (٢٧ رمضان ١٢٤٧هـ)، كان ابراهيم باشا لا يزال يحاصر عكا التي لم تسقط بعد (سقطت في ١٠ آذار نفسه)، وكان عثمان باشا اللبيب، الذي عيّنته الدولة العثمانية، حديثاً، حاكماً على طرابلس، قد تمركز في اللاذقية وحلب وأخذ يزعج القوات المصرية المتمركزة قرب اللاذقية (وكانت بقيادة مصطفى بربر آغا الذي انحاز إلى المصريين)، فكتب والده يستطلعه الرأي في إمكان القضاء على عثمان باشا هذا[٦٣]، وفيما إذا كان ممكناً احتلال اللاذقية حيث يتمركز القائد العثماني، فكان جواب ابراهيم باشا لوالده جواباً مستفيضاً يوضح فيه

قدره للموقف العسكري العام على هذه الجبهة، ويعطي رأيه استناداً إلى ما استنتجه من قدر الموقف هذا، ومن دراسته للأرض بوجه عام، جاء في الجواب:

أ - قدر الموقف:

- اللاذقية بلدة مكشوفة من كل الجهات ومعرضة للأخطار.
- تبعد مسافة عشرة أيام عن القوات الصديقة المتمركزة في طرابلس.
- قريبة من حلب المركز الثاني للقوات العدوة، وعلى مسافة يومين أو ثلاثة، فقط، منها.

المناورة الصديقة الممكنة	١ - الهجوم على اللاذقية وطرد العدو منها ثم التراجع إلى نقاط الانطلاق في بقعة العمل الصديقة	٢ - الهجوم على اللاذقية وطرد العدو ومنها ثم التمركز فيها بصورة نهائية.
تحليل السلوك المرتقب في كل مناورة	ترك المدينة من جديد دون أية حماية مما يسهل عودة العدو إليها.	تعذر التمركز في المدينة بسبب قلة الذخائر وانشغال الجيش بحصار عكا. - عدم التمكن من إبقاء قوة صغيرة في المدينة بسبب صعوبة التذخير والتموين لبعد المسافة.
المناورة العدوة المقابلة	١ - قوات أخرى عدوة سوف تأتي من حلب (المركز الثاني للعدو) وتحتل اللاذقية ثانية.	٢ - سوف يستغل العدو كون المدينة مكشوفة من كل الجهات فيشن على قواتنا المتمركزة فيها حرب اشغال وانهاك.
المناورة الصديقة المحتملة	إتخاذ موقف الدفاع عن المراكز الحالية.	

قرار القائد:

اتخاذ موقف الدفاع عن الأيالة عند خط الدفاع الشمالي لها، وهو «النهر الذي يبدأ من سفح جبل الدروز بجوار قلعة طرابلس وينتهي بالساحل المستقيم أمام الدربند». وتبعاً لذلك، يتم تنفيذ ما يلي:

ب - دراسة الأرض:

- إن سلسلة الجبال الممتدة من شمال الخط المذكور أعلاه (خط الدفاع الشمالي) إلى شرقه، ومنه إلى الجنوب لغاية صيدا، خالية من الطرق والمسالك الصالحة للتحركات العسكرية.

- إن الخط الممتد من نبع نهر أبو ردان الواقع شرق أيالة صيدا والذي ينتهي عند حدود أيالة القدس، خال من المعابر والجسور الصالحة لنقل المدافع والمعدات الحربية الثقيلة، شتاء، باستثناء جسري بنات يعقوب والمجامع، إلا أنه توجد، صيفاً، عدة معابر «معدّيات» على النهر المذكور يمكن للعدو أن يستخدمها في تقدمه.

لذلك، وبعد الكشف الذي أجراه أحد مهندسي الجيش على مجرى النهر المذكور، وبعد استطلاع المعابر والمعديات على هذا النهر، وبعد استطلاع بقعة عمل الجيش في الأيالة، تبين أنه يمكن إقامة الانشاءات الدفاعية التالية:

براً:

- تحصين المعابر والمعديات الموجودة على النهر تحصيناً دفاعياً تاماً بحيث يصعب، بعدها، على الجيوش العدوة، اجتيازها.

- إنشاء الموانع والسدود على طريق طرابلس وفي الأماكن التي هي في غاية الوعورة والصعوبة من هذه الطريق.

- تركيز قوات عسكرية على هذه التحصينات والإنشاءات والموانع والسدود الدفاعية لصد العدو ومنعه من التقدم.

بحراً:

- تحصين قلاع صور وصيدا وبيروت وطرابلس وانشاء المعاقل والحصون والاستحكامات والطوابي في هذه القلاع.
- تحصين حيفا ومرفئها تحصيناً تاماً.

على أن يرافق ذلك عمليات عسكرية أخرى، ضمن الخطة الدفاعية المقرّرة مثل:

- تشديد الحصار على عكا «وضربها ضرباً يدك حصونها ويعفي آثارها».
- إعداد قوة كاملة العدد والعدّة، احتياطاً، للطوارئ[٦٤].

ج - قدر الموقف من جديد:

واستناداً إلى هذه المعطيات العسكرية والجغرافية (القدر المبدئي للموقف ودراسة أرض المعركة)، نرى القائد المصري يعود فيطرح من جديد، افتراضات لمناورات محتملة للعدو، ويجيب على هذه الافتراضات بخطط للعمل يقرّر القيام بها لمواجهة التحركات العدوة المفترضة، بحيث تكون كل خطة ملائمة لأي تحرك عدو مفترض.

المناورات العدوة المفترضة	١ - العدو يهاجم طرابلس	٢ - العدو يهاجم طرابلس ويشدّد الضغط على حاميتها	٣ - والي حلب يهاجم من حماه وحمص عن طريق جسر بنات يعقوب، ووالي دمشق عن طريق جسر المجامع، أو «أن كليهما حضر للاستيلاء على أحد الجسرين المذكورين، بينما يحاصر عثمان باشا طرابلس.
المناورات الصديقة المقابلة	تقوم حامية طرابلس المؤلفة من: ٤ أورط و٥ بلوكات مشاة وبلوك مدفعية. بالإضافة إلى قوة الأمير خليل الشهابي والشيخ عبد الهادي (تراح بين ١٥٠٠ و١٨٠٠ رجل) وبالإضافة إلى متطوعي نابلس والدروز، بالدفاع عن المدينة. - يقوم مصطفى بربر آغا بتجنيد كل من هو قادر على حمل السلاح من الأهالي (بضع مئات) كما يقوم بتحضير وإعداد ٦ مدافع. - يرسل إلى حامية طرابلس القدر الكافي من الخرطوش والفشك والبارود والقنابل والكلل.	- إذا لم تتمكن الحامية من صد الأعداء: - تتحصن في القلعة وتقوم بعملية مشاغلة للأعداء ريثما يتم تجهيز جيشين وسوقهما إلى طرابلس: - الأول من شرق جبل الدروز (الشوف) - والثاني عن طريق الساحل. حيث يتم بواسطتهما نطويق المهاجمين.	- إن نقل القوات من مكان تجمعها في فلسطين إلى أحد الجسرين لا يستغرق سوى ساعات. - إن نقل القوات من مكان تجمعها في الأيالة إلى طرابلس لا يستغرق أيضاً سوى ساعات. - باستطاعة حامية طرابلس أن تصمد في القلعة بين عشرين وثلاثين يوماً. - تقوم قواتنا في هذه الفترة بالالتفاف على العدو المفترض أن يظهر من الشرق فتطارده حتى حماة وحمص ثم تتوجه بعدها إلى طرابلس. - تقوم القوات نفسها بالالتفاف على قوات العدو المحاصرة لطرابلس من الخلف والجنب فتفاجئها وتبيدها وتفك الحصار عن المدينة. - إن وسائل دفاعنا الساحلية كافية لرد أي هجوم بحري تركي على حيفا وصور وصيدا وبيروت وطرابلس. **ملاحظة:** يجب تشديد الحصار على قلعة عكا، وبذل أقصى الجهد للاستيلاء عليها بأسرع وقت ممكن، كي يتفرغ الجيش لباقي مهماته[٦٥].

مثال آخر لدراسة الأرض

بعد أن احتل الجيش المصري بيروت، كتب «يوحنا بحري» مستشار ابراهيم باشا، إلى القيادة العامة بالقاهرة، تقريراً يصف فيه طبيعة الطريق بين صيدا وبيروت، وقد جاء في التقرير ما يلي:

- طريق صيدا - بيروت صالحة لتقدم الجند «السواري والبيادة».
- يوجد معابر ضيقة لا يمكن اجتيازها إلا «بنظام الصف المنفرد».
- «نصف الطريق المذكور أراض صخرية والنصف الآخر أراض رملية».
- «للوصول إلى باب مدينة بيروت، يجب اجتياز الجدول المار من البساتين»(٦٦).

٣ - دراسة العدو (من خلال المواقع التي تخلى عنها):

كان ابراهيم باشا يطلب من قادته تقديم تقارير عن الأهداف والمواقع العدوة التي يحتلونها، حيث يصفون، بإسهاب، تحصيناتها وانشاءاتها الدفاعية، والأسلحة التي تركها العدو فيها، مع قدر القوة التي كانت تدافع عنها، إذا أمكن، وذلك يساعده على معرفة قوة العدو ودرجة تسليحه ونمط دفاعه كي يتحسب له في معاركه المقبلة.

مثال:

في التقرير المشار إليه أعلاه، يصف «يوحنا بحري» وسائل الدفاع التي تركها الأتراك في بيروت بعد أن تخلوا عنها للجيش المصري، كما يصف الانشاءات الدفاعية في هذه المدينة، وقد جاء في التقرير ما يلي:

- للمدينة سور له أربعة أبواب «اثنان منهما كبيران والآخران صغيران».
- يمكن الدفاع عن المدينة من على هذه الجدران «بالبنادق».
- «بعض الجهات ليس فيها جدران، ويقوم مقام الجدران بيوت الأهالي».

- «يوجد خارج باب المدينة ثلاثة أبراج على بعد مرمى الرصاص من الباب المذكور» (أي الباب الذي يوصل إلى المدينة بعد اجتياز الجدول المار من البساتين).
- أما أبراج المدينة فهي التالية:

(١) برج القلعة. (٢) برج الكشاف. (٣) البرج الجديد. (٤) برج فاصل. (٥) برج كنينة. (٦) برج سانت اتيان (St-Etienne). (٧) برج الفخار. (٨) برج مينا. (٩ و١٠) برجان لم يذكر اسماهما. (١١) برج أبو هدير.

وتختلف هذه الأبراج من حيث الضخامة والمتانة والتسليح، وفيما يلي وصف لها:

(١) برج القلعة:

- «يقع في الجهة اليمنى من المدينة ويحكم على المدينة والبحر».
- **في هذا البرج:**
- ٩ مدافع من الحديد. (٤ من عيار اقتين و٢ من عيار اقة ونصف و٣ من عيار اقة).
- هاونان من الحديد، من عيار ٤ بوصات (4 pouces) من الطراز القديم.
- ٥ قنبرات و٢٥٠ قنبلة مختلفة القطر ومغلاقان وبريمتان ورافعتان.
- مياهه من مياه الأمطار فقط.

(٢) برج الكشاف:

- على يسار برج القلعة.

- في هذا البرج:
- ٦ مدافع من الحديد (٤ من عيار اقتين ونصف و١ من عيار اقة ونصف و١ من عيار اقة).
- ٧٦ كيساً من القنابل المخروطية و٥٦ قنبلة مختلفة القطر
- ١١ بريمة و٨ مغاليق وبرميل بارود.
- مدافع هذا البرج سيئة ولا يصلح منها إلا المدفع الصغير (عيار اقة).
- مياهه من مياه الأمطار فقط.
- في الطابق الأول من البرج طاقات تكفي لوضع أربعة مدافع.

(٣) البرج الجديد:

- على يسار برج الكشاف، وهو يحكم المدينة وأراضيها.
- **في هذا البرج:**
- ٤ مدافع (٢ من عيار اقتين ونصف و١ من عيار اقة ونصف و١ من عيار اقة) وزنبلكان (مدفعان صغيران)، و٣ زنبلكات قديمة.
- ٧٢ قنبلة من عيار ٢.
- مغلاقان وبريمتان و٣ روافع ونصف برميل من البارود.

(٤) برج فاضل:

- على يسار البرج الجديد.
- فيه محل لوضع مدفعين.

(٥) برج كنينة:

- على يسار برج فاصل.
- فيه مدفع من عيار أقة ونصف (غير صالح).

(٦) برج صانطيان (سانت اتيان):

- يقع فوق باب (سانت إتيان) على يسار برج كنينة.
- فيه مدفعان من الحديد من عيار اقة (غير صالحين).

(٧) برج الفخار:

- على يسار برج سانت إتيان.
- **في هذا البرج:**
- ٤ مدافع من عيار اقة.
- ٣٩ قنبلة وبريمتان ومغلاقان.

ويوجد بالقرب منه: - مدفع من عيار ٤ أقات.

(٨) برج مينا:

على يمين برج الفخار.

(٩) برج آخر (لم يذكر اسمه):

يصل (برج مينا) بالمدينة، وفيه:

- مدفعان من الحديد من عيار ٤ أقات.
- مدفعان من النحاس الأصفر من عيار ٥ أقات.
- ٤١٥ قنبلة مختلفة القطر.
- مقصان و٦ مغاليق و٦ روافع.
- مقدار قليل من القنابل المخروطية المختلفة و٢٥ صندوقاً من خرطوش البنادق (إلا أن الخرطوش قديم وغير صالح).

(١٠) برج آخر (لم يذكر اسمه):

فيه:

- مدفعان من الحديد، واحد من عيار أقة ونصف وواحد من عيار أقة.
- زنبلكان (مدفعان صغيران) غير صالحين.

(١١) برج أبو هدير:

- يقع في مرفأ المدينة، وهو برج صغير غير مسلح.

ويستطرد «يوحنا بحري»، فيتحدث عن القوة المصرية التي تمركزت في بيروت بعد احتلالها فيقول:

- «يوجد في جميع الأبراج المسلحة عساكر متحفظة من الألاي الثامن تحت قيادة الصاغقول آغا حسن أفندي وليس لهذه الأبراج طوبجية أصلاً».
- «إذا جهّزت المدينة بأنواع الأسلحة المختلفة تقاوم العدو وتصده كما ينبغي»[٦٧].

دراسة العدو (من خلال الاستعلام التكتي عنه):

لم يكن الاستعلام، في عهد ابراهيم باشا، معروفاً بالاسم، إلا أن القيادة المصرية في بلاد الشام أجادت هذا النوع من الاستخبار عن العدو، في المجال العسكري خصوصاً، فكان رجال ابراهيم باشا ينتشرون في ديار العدو ينقلون أخباره إلى القائد المصري مع الكثير من التفاصيل عن تحشدات الجيوش وتحركاتها واستعداداتها للحرب وحالتها النفسية وغير ذلك، مما يجعلنا نعتقد أن ابراهيم باشا قد عرف «الاستعلام التكتي عن العدو» بالممارسة، بل وأتقنه، دون أن يسميه بالاسم ذاته، ولم يكن ابراهيم باشا يهمل تقارير الاستعلام هذه، بل كان يعمد إلى درسها وتحليلها والتأكد من صحتها لكي يستنتج منها سلوكاً معيناً تجاه العدو في معاركه المقبلة معه.

وكانت كثير من الرسائل تحمل إليه أخبار العدو فيستفيد منها ثم يرفعها بدوره إلى القيادة العامة في مصر لكي تحللها بدورها وتستفيد منها، فهو يعلم، مثلاً، انه، في محرم عام ١٢٥٥هـ (آذار ١٨٣٩م) كان يوجد في ديار بكر من الجيش العثماني «٤ ألايات»، وفي أورفة «ألايان» من الجند النظامي و«ألايان» من الرديف، وفي سوه رك «ألايان»، وفي بيره جك «ألاي واحد»[٦٨] وألف جندي آخرين بقيادة اللواء اسماعيل باشا[٦٩]، وأن في أورفة نحو عشرين ألفاً[٧٠].

ولم يكن وجود عملاء ابراهيم باشا في ديار العثمانيين مقتصراً على العسكريين فقط، بل كان يستخدم، كذلك، التجار، في نقل أخبار الجيوش العثمانية وتحركاتها، فهو يعرف، من تجار قادمين من قيصرية، أن متصرف سنجقي انقره وكنغرى وصل، في صفر عام ١٢٥٥هـ (نيسان ١٨٣٩م) مع عساكر الرديف من تلك الجهات، إلى «دوللو» وهي «أقصى حدود جبل قوزان»، وأن «العساكر المجندة من الأناضول بطريق النفير العام، وصلت أيضاً، إلى الموضع المسمى بولدوريج الكائن قرب بركتلي معدن، ونصبت فيه الخيام»[٧١].

وكان هؤلاء يتسترون بمختلف الأعمال والمهن لكي يتمكنوا من جمع الأخبار عن العدو، فقد ورد في إحدى الرسائل ما يلي: «منذ أيام قدم رجل اسمه حسن آغا (من العشائر التابعة لمرعش) لقضاء مصلحة له... وفي تاريخ هذه العريضة، بينما كنت مشغولاً بجمع الدواب اللازمة للبقسماط من عشيرة بهادرلو، حضر إلى حسن آغا أحد رجال عشيرته فأخبره بما يأتي: قدم حافظ باشا وسليمان باشا إلى بسنة ولم يتركا في ملاطية والقضاءات التابعة لها أحداً من العساكر إلاّ وطلباه، كما طلبا جميع العشائر التابعة لمرعش»، كما أرفق بهذه الرسالة رسالة أخرى تذكر أنه «لم يبق في ملاطية أحد من العساكر سوى

المرضى، ويشيعون بأن جميع عساكرهم يبلغون ستين ألف جندي... ولا يعلم مبلغ هذه الإشاعة من الصحة»[٧٢].

وقد اجتمع لدى ابراهيم باشا من هذه الرسائل، وكثير غيرها، معلومات مكثفة عن التحركات العسكرية العدوة، وبعد أن درس هذه المعلومات وحللها، استنتج ما يلي «لقد اتضح لنا من الأنباء التي تلقيناها أن العثمانيين قد يتبعون، في حال الهجوم علينا، الخطة التالية: تسير فرقة منهم على حلب، وتقوم فرقة أخرى إلى عينتاب، وتتحرك فرقة من طريق مرعش، وتتوجه فرقة غيرها إلى كولك بوغاز»[٧٣]، ثم يستطرد في استنتاجه فيضع افتراضات محتملة لتحركات العدو ويضع، إزاء ذلك، خطة عمل مقابلة لكل تحرك محتمل[٧٤].

وكثيراً ما كان هؤلاء العملاء خبيرين بالشؤون العسكرية يستطيعون، من خلال الأنباء التي يستطلعونها، قدر قوة العدو وحجمه ونوع تحركاته، فقد ورد في رسالة من اللواء فرهاد بك إلى ابراهيم باشا «بيان أنباء أخرى أتى بها من طرف مرعش تابعنا المرسل إلى هناك». وقد جاء في هذا البيان أن مجموع الألايات العثمانية التي انتقلت بقيادة عزت محمد باشا من أنقرة إلى قيصرية (صفر ١٢٥٥هـ/ نيسان ١٨٣٩م) «قد يكون ثلاثين ألف رجل»، كما يذكر البيان «الخطة التي سيتبعونها في السير» مستنداً في ذلك إلى أقوال لم يذكر مصدرها، «يقولون أن عزت باشا سيأتي على رأس فرقة عن طريق مرعش، كما ان فرقة أخرى ستأتي عن طريق بيره جك، ويحدث الشخص القادم بأنهم لا ينوون المجيء إلى عينتاب وإنما ينزلون إلى حلب مباشرة»[٧٥]. ويلاحظ أن خطة سير القوات العثمانية، كما وردت في هذا البيان، لا تختلف كثيراً عن تصور ابراهيم باشا، الذي سبق ذكره، لحظة تحرك هذه القوات، والذي استنتجه من خلال المعلومات التي تلقاها عن العدو، رغم أن تصور ابراهيم

باشا هذا وضع في وقت (١٥ صفر ١٢٥٥هـ) لم تكن بعد قد وصلت فيه رسالة اللواء فرهاد بك إليه، (وقد أرّخت هذه الرسالة في ١٤ صفر ١٢٥٥هـ).

ويستطرد اللواء فرهاد بك، في رسالة أخرى منه إلى ابراهيم باشا، فيكتب إليه ما نقله «أحد الجواسيس» الذين أوفدهم إلى مراكز العثمانيين ليتقصوا «أخبار العساكر المرابطة على ضفة الفرات وأخبار بهسنة ومرعش»، ومما يذكره في هذه الرسالة: «أخبار العساكر المرابطة على ضفة النهر من هذه الناحية - قصّ علينا الجاسوس الذي أوفدناه إلى هناك أن عدد العساكر الذين عبروا النهر يتراوح بين ثمانية واثني عشر ألفاً، وأن مدافعهم نحو عشرة، وهم يعملون الآن على حفر الخنادق وإقامة المتاريس هناك»، هذا بالإضافة إلى أخبار أخرى عن تحرك العثمانيين في قطاعي بهسنة ومرعش[٧٦].

ويظهر أن اللواء فرهادبك كان يعتمد على الجواسيس إلى حد كبير في تقصي المعلومات عن العدو، فهو قد ذكر في رسالة تالية إلى ابراهيم باشا أن حافظ باشا قد عبر «نهر مراد» بالجيوش العثمانية «وقد تمكن الجاسوس الذي أوفدناه إلى هناك من التغلغل بين العساكر وشاهد حافظ باشا بأم عينه، وقد تحدث إليه بعض أعيان بيره جك، ويقول الجاسوس: إن عدد الجنود الذين عبروا النهر اثني عشر ألفاً وان معهم اثني عشر مدفعاً وانهم بادروا لدى خروجهم من القوارب إلى إقامة المتاريس قبل أن يأتوا بأي عمل آخر»[٧٧]، ولا غرو، فقد كان محمد علي يطلب من ابنه ابراهيم «إيفاد الجواسيس إلى الأناضول لاستقصاء أخبارها»[٧٨].

وكان مخبرو القائد المصري، المنتشرون في مختلف المواقع العسكرية العثمانية، يهتمون، إلى جانب تحركات الجيوش العثمانية وتنقلاتها، بالمستوى

العسكري التقني للعدو وبالحالة النفسية لجنده، فيذكر بعضهم أن «المدفعيين في الجيش العثماني ليس لهم خبرة كافية، في استعمال المدافع، وأن بعضهم لم يشاهدها قبلاً» كما يذكر «شكوى الجنود العثمانيين من قلة الأكل»(٧٩)، وكان هذا السبب، وحده، كافياً لكي يهرب الجنود العثمانيون من صفوف الجيش ويلجأوا إلى الجانب المصري، حتى أن بعضهم كان يقول علناً «لئن ألفينا المصريين فإننا لا نطلق عليهم الرصاص أبداً، بل نقوم كلنا ونلتحق بهم»(٨٠)، هذا بالإضافة إلى نقص في علف الخيول مما كان يؤدي إلى عجز الخيول العثمانية عن جر مدافع الجيش(٨١)، حتى ان هؤلاء المخبرين كانوا يتناولون أحياناً، حالة الطقس في المناطق التي يعملون بها، فيذكر أحدهم، وهو يعمل في منطقة مرعش، في شهر صفر ١٢٥٥هـ (نيسان ١٨٣٩م) أن «الجو هنا غير منتظم، لا يمضي يوم إلا ويسقط فيه المطر، حتى انه سقط يوم الخميس برد زنة حبة منه ثلاثين درهماً»(٨٢).

ولم تكن المعلومات التي يتلقاها ابراهيم باشا من مخبريه تتعلق بالشؤون العسكرية فقط، بل كثيراً ما كانت تتعداها إلى الشؤون السياسية، وكان القائد المصري يعمد إلى تحليل هذه المعلومات السياسية ويطلع منها باستنتاجات غالباً ما تكون صائبة، فها هو يرى، في إحدى رسائله لوالده «أن الموقف سيشتد حراجة، وأن الحرب ستنشب من جهات متعددة، وأن المصلحة تقضي بالمحافظة على العلاقات مع فرنسة وعدم تعريضها للضعف»(٨٣)، كما ان محمد علي لم يكن ليحرم ابنه من أية رؤية سياسية تتبدى له، ففي معرض علمه بالنشرات التي يوزعها الانكليز على أهالي الساحل الشامي يدعونهم فيها الثورة على الحكم المصري، أشار محمد علي على ابنه أن يرد على هذه الدعوة بفضح المؤامرات التي تدبرها الدول الأوروبية ضد الامبراطورية العثمانية،وذلك

بنشر نداء يذكر فيه «ان روسية وانكلترة، اتفقتا على تجزئة الدولة العثمانية بحيث تصبح الآستانة حصة روسية، وبر الشام نصيب انكلترا، وأن رجال الدولة الذين ذهبوا إلى أوروبة قبلوا الرشوة، وأن الواجب يقضي بالدفاع على كل من حملوا السلاح»(٨٤)، وقد صحّت رؤية محمد علي هذه وإن اختلفت بعض أدوار الممثلين الكبار، فدخلت فرنسا شريكاً مع انكلترا في تجزئة الأمبراطورية العثمانية، وبالتالي بلاد الشام.

وفي ما تبقى من الوثائق المعتمدة لدينا(٨٥)، عدد كبير من الرسائل والتقارير التي كانت تنقل إلى ابراهيم باشا أنباء عن العدو وتفصيلات عن تحركات جيوشه، مما لا يقبل أي شك في أن القائد العسكري المصري كان يعتمد «الاستعلام التكتي» عن العدو كأحد أهم مصادر معلوماته عنه، وأنه كان يهتم بما ينقل إليه من معلومات فيدرسه ويمحصه ويحلله، ثم يستنتج منه ما كان يتخذه وسيلة من وسائل انتصاره في حربه المصيرية ضد العثمانيين وحلفائهم.

ابراهيم باشا: صفاته القيادية وطموحه السياسي

١ - *صفاته القيادية*:

كان ابراهيم باشا قائداً عسكرياً موهوباً، أتقن الفن العسكري على أيدي ضباط أوروبيين مجربين، ثم مارس ما أتقنه نظرياً في ميادين القتال فنجح أيما نجاح، ولم يقصّر في استيعاب النظريات العسكرية التي كانت سائدة في عصره بل تعداها ففاق كثيراً من أبناء عصره في هذا الفن، وكان «شديد اليقظة كالصقر يدهش جنوده بسرعة تنقله بينهم، ينام نومهم ويأكل أكلهم ويجلس معهم ويصغي إلى أقوالهم فيبث في قلوبهم الشجاعة» كما كان «قوي

البنية صحيح العقل واسع الحيلة حازماً عادلاً شغوفاً كريماً»[٨٦]، وكان «صبوراً وحيوياً وصلباً» يتحلى بكل الصفات اللازمة للنجاح[٨٧]. وقد أطنب معاصره المؤرخ مخايل مشاقة في مدحه والإشادة به قائداً عسكرياً عبقرياً، خصوصاً بعد انتصاره في وقعة كوتاهية وأسره للصدر الأعظم، فقال عنه إنه «أعظم قائد في الناشئة الإسلامية بعد خالد بن الوليد» وإنه «نابليون العرب الأول في القرن التاسع عشر»[٨٨]. كما قال معاصره المؤرخ والدبلوماسي الفرنسي «هنري غيز» إن لامارتين قد تنبأ عندما قال: «كما ان الاسكندر قد احتل آسيا بثلاثين ألف جندي يوناني ومقدوني، وكما ان ابراهيم باشا قد قلب الامبراطورية التركية بنحو ٣٠ ألفاً إلى ٤٠ ألف صبي مصري يعرفون، فقط، كيف يلقمون السلاح ويمشون بانتظام، فإن مغامراً أوروبياً بنحو ٥٠ ألفاً إلى ٦٠ ألف جندي أوروبي، يستطيع، بسهولة، أن يقلب ابراهيم... إذا اتخذ من موارنة لبنان مرتكزاً لعملياته»[٨٩]، إلا أنه أضاف إلى ذلك قوله إن محمد علي «علّم جنوده على الطريقة الأوروبية، ودرّبهم على الاستعراضات الممتعة، والمناورات، وحتى الحروب الصغيرة التي كان يستحيل على الجيوش العادية أن تقوم بها، إذا لم يسمح تنظيمها بتنفيذ حركات إجمالية وآلاف التحركات التي ألفها تكتيكياً... ثم طفق بعد ذلك ينشئ السفن المسلحة وبوارج القتال»[٩٠]، مبدياً بقوله هذا، رأياً صريحاً في أن جيش محمد علي لم يكن قط جيش صبية «يعرفون فقط كيف يلقمون السلاح ويمشون بانتظام»، كما قال لامارتين.

أما ابراهيم باشا المقاتل، فقد عبّرت عن ذلك رسالة كتبها القائد نفسه إلى «سامي بك» أحد معاوني والده بمصر، بصدد نبأ استعفائه من الخدمة، «وكدر الجناب العالي من ذلك»، قال ابراهيم باشا في رسالته، بعد أن ذكر فيها أنه قدم استقالته طلباً للراحة، وذلك بعد أن استولى على حلب، وعلماً منه أن

الحرب ستنتهي بعد الاستيلاء على هذه المدينة: «ما دامت نيران الحرب مشتعلة وروح هذا الحقير خالدة في بدنه، لا يمكنني أن أتخلى عن الحرب، واعلم، علاوة عمّا تقدم، أنه، إذا صدرت إرادة سنية بكف يدي عن الحرب، فلا يسعني إلا أن آخذ بارودة في يدي وأجاهد كنفر من سائر الأنفار»[٩١].

هذا على الصعيد العسكري، أما على الصعيد الإداري، فقد نجح ابراهيم باشا في إدارته لبلاد الشام، وفشل في آن معاً، فهو نجح في إقامة حكم مبني على العدل والحزم والتسامح، «أما عن العدل، فحدّث عنه ولا حرج، فالشام لم تنل من العدل في أي عهد مضى منذ أيام عمر بن الخطاب، ما نالته في ظل العزيز»[٩٢]، إلا أن نظام حكم ابراهيم باشا، وإن كان «عادلاً وشريفاً» فقد كان «باعثاً قويا على كره الأمراء والمشايخ للمصريين، حيث كفّ يدهم وأوقف مطامعهم عند حدّ لا يمكنهم اجتيازه، وأمات استبدادهم بالشعب، وجعلهم أمام الشريعة سواء لا امتياز بينهم، ولا فرق بينهم وبين أفراد الرعية، فحنقوا على الدولة المصرية، وودوا إزالتها وإرجاع الحكومة التركية»[٩٣].

وكان ابراهيم باشا حازماً في حكمه لبلاد الشام، فمنع التعدي من أي نوع على أرواح الناس وأملاكهم، حتى ان رحالة أوروبياً قال: «في زمن ابراهيم باشا، تستطيع فتاة أن تتنزه من القدس إلى دمشق، وبيدها كيس من ذهب»[٩٤]، لذا، فإن «كل الناس، في هذه البلاد، يأسفون بشدّة على حكم محمد علي الذي كان أفضل بكثير، ومن كل ناحية، من حكم السلطان»[٩٥]، بينما ذكر السير شارل نابيير Sir Charles Napier، في رسالة منه إلى اللورد أيدمبورغ ما يلي: «إنني آسف بمرارة أن أعلن أن السوريين الذين انتزعوا من الطغيان المزعوم لنائب الملك - ابراهيم باشا-، قد وقعوا تحت طغيان أسوأ بعشرة آلاف مرة. لم أحزن على شيء في حياتي بقدر ما حزنت على أنني أسهمت في طرد باشا

مصر من سوريا، وساعدت الأتراك على أن يقيموا، بين مسيحيي لبنان... أسوأ حكم كريه وجد، وذلك لأن هذا الشعب هو اليوم مضطهد ألف مرة أكثر من أي وقت مضى»(٩٦)، حتى أن المستر وود، ترجمان السفارة الانكليزية بالقسطنطينية، والذي كان مكلفاً من قبل هذه السفارة إذكاء نار الثورة ضد ابراهيم باشا في بلاد الشام، لم ير بدأ من الاعتراف، في رسالة بعث بها إلى القنصل الانكليزي «كامبل» عام ١٨٣٦ «بأن الحكم المصري، رغم نواقصه، أفضل، بما لا يقدر، من الحكم العثماني» فقد كانت بلاد الشام تتمتع، في عهد ابراهيم باشا، «بأمان كامل» حسبما جاء في رسالته هذه(٩٧).

وقد عرف عهد ابراهيم باشا في بلاد الشام بالتسامح الديني(٩٨)، فأشاد نصارى حماة «بعدل الحكومة المصرية»(٩٩)، وأعار محمد علي أهمية كبرى لمعاملة نصارى الشام معاملة ترضيهم وتساويهم بباقي المواطنين، فسمح بترميم الكنائس المهدمة(١٠٠)، ومنع التعرض للمسيحيين الموارنة الذين أسلموا ثم ارتدوا إلى دينهم السابق(١٠١)، ودعا إلى حرية حج المسيحيين إلى الأراضي المقدسة، وأعفى أماكن العبادة المسيحية واليهودية من الضرائب، ورفع عن الحجاج رسوم المرور، فكانت تلك أول قرارات من هذا النوع يتخذها حاكم مسلم منذ رحيل الصليبيين عن هذه البلاد.

إلا أنه فشل في أمور أخرى كثيرة ومهمة، وكان فشله فيها سبباً في ميل الناس عنه وثورتهم عليه، مما أتاح المجال للدول الأوروبية المتحالفة مع الآستانة كي تهزمه هزيمة حاسمة وتطرده نهائياً من بلاد الشام، ومن أسباب فشله أنه استعان بالنصارى وسلّحهم لكي يسهموا معه في إخماد ثورة الدروز عليه، ثم أمر بجمع السلاح من النصارى والدروز معاً، وأرهق كواهل الأهلين بالضرائب التي «تجاوزت حدود استطاعتهم وتخطت امكانات البلاد

الاقتصادية»(١٠٢)، ففرض الضرائب على «الحيوانات والأشجار والمطاحن ودواليب معامل الحرير وكل ما هو منتج»(١٠٣)، ثم أمر بتجنيد أبناء البلاد للقتال إلى جانبه، أو لأعمال السخرة في «بناء التحصينات أو استخراج الفحم والحديد من قرنايل وصليما ونقلهما إلى جونيه وبيروت وعكا»(١٠٤)، كما أمر بتطبيق الخدمة الإجبارية على جميع الأهالي، مسلمين ونصارى. وقد اجتمعت هذه الأسباب كلها لتفسح في المجال أمام ثورة عارمة غذتها الدول الأجنبية، والآستانة، بالمال والسلاح، كي تطيح بحكم عزيز مصر في هذه البلاد، فكان لها ما أرادت، وانتهى حكم العزيز بأسوأ ما يمكن أن ينتهي إليه حكم.

٢ - *طموحه السياسي:*

يرى الكثير من المؤرخين أن ابراهيم باشا كان عربي النزعة والاتجاه السياسي، فهو الذي قال إنه «أتى مصر طفلاً، وإن شمسها غيّرت دمه فجرى عربياً»، وكان يطمح إلى تحرير البلاد العربية من الحكم العثماني ليقيم فيها «دولة عربية حرّة يدخل في كنفها كل ناطق بالضاد»(١٠٥)، وقد أشار، في رسالة منه إلى محمد باشا والي حلب، إشارة واضحة إلى أهدافه السياسية حين قال إنه يبغي من حربه «انتزاع بلاد العرب وما يجاورها وانقاذ الأمة المرحومة من المصائب التي ابتليت بها»(١٠٦)، كما ذكر في رسالة منه إلى والده أن حربه مع الأتراك هي «حرب القومية والعنصرية»، وانه يجب على المرء «أن يضحي حياته في سبيل قومه وعشيرته»(١٠٧)، وأكّد الذين رافقوا ابراهيم باشا في حملته أنه سئل، في أثناء حصاره على عكا، إلى أي مدى ستصل فتوحه؟ فأجاب: «إلى حدود البلاد التي لا يتكلم فيها الناس ويتفاهمون باللسان العربي»(١٠٨).

ويرى «العطار»، وكذلك «انطونيوس»، أن ابراهيم باشا كان «أكثر عروبة من أبيه»(١٠٩)، فهو قد «خرج عن تقاليد الادارة في مصر، فوافق على ترقية

البارزين من أبناء العرب إلى رتبة بكباشي»[١١٠]، كما انه كان يصرّ على أن يتلقى الضباط العرب مختلف العلوم العسكرية كالهندسة والمساحة وعلوم المدفعية وغيرها[١١١]، وذلك لأنه يراهم أكثر اخلاصاً «للجناب العالي» من «زملائهم الأتراك» لذا «فإنه يحبذ افساح المجال لترقية بعض العرب إلى رتبة بكباشي»[١١٢].

لم يعد هناك مجال للشك إذن في أن ابراهيم باشا كان يطمح لإقامة دولة عربية مستقلة عن الامبراطورية العثمانية، ولا غرابة في القول إن فرنسا كانت على علم بهذا الطموح بل كانت تشجعه، لأنه يضمن استمرار «النفوذ الفرنسي في المشرق»[١١٣]، وذلك بسبب روابط التحالف التي كانت تربطها بعزيز مصر، إذ كان هذا الطموح، ولا شك، هو طموح محمد علي نفسه[١١٤]، ولكن مصالح الدول الأوروبية جميعها، والمتحالفة مع الآستانة، كانت على نقيض مع هذا المشروع العربي التوحيدي، لذا، قاومته بقوة السلاح، وقضت عليه قبل أن يبصر النور، وكانت هذه هي المرة الأولى، في العصر الحديث، التي تظهر فيها فكرة القومية العربية واضحة، وتضحى، بعد ذلك، هدفاً يسعى العرب لأجل تحقيقه، ويقاومه الاستعمار الغربي بكل ما أوتي من وسائل.

ثالثاً - معلومات عن الجيش العثماني عشية الحملة المصرية على بلاد الشام

ذكر «هنري غيز» قنصل فرنسا ببيروت، في رسالة منه إلى «البارون دي داماس Baron de Damas» وزير الخارجية الفرنسية، بتاريخ ٢٩ تموز ١٨٢٦م، أنه نشر، في بيروت، «فرمان» سلطاني يقضي بإلغاء وحدات (اورطات) الجيش الانكشاري، وينشئ، بدلاً منها، ميليشيا نظامية «هي التي عرفت، في عهد السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧م) باسم: النظام الجديد»[١١٥]، وطبقاً

لهذا الفرمان، وجب على كل والٍ أن يجند، في ولايته وعلى حسابه، وحدة من أربعة الاف رجل، ينظّمون «وفقاً للأنظمة المقرّرة لهذه الغاية»[١١٦]، فما الذي جرى في الجيش العثماني عام ١٨٢٦، أي عشية «الحملة المصرية على بلاد الشام»؟.

في هذا العام، وبعد ثمانية عشر عاماً من حكمه، شعر السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩) بضعف جيشه وعدم فاعليته في الحروب التي خاضها، سواء ضد الامبراطورية الروسية (١٧٨٧ - ١٧٩٢)، أم ضد الثوار اليونانيين (١٨٢١ - ١٨٢٦)، حيث اضطر، لكي يقمع ثورة اليونانيين هذه، أن يستنجد بجيش أكثر تنظيماً وتدريباً وأحدث تسلحاً من جيشه، هو جيش والي مصر، محمد علي باشا، فأقدم السلطان، في هذا العام بالذات، (١٨٢٦) وبالتحديد في شهر حزيران منه، على خطوة خطيرة ومصيرية في تاريخ الامبراطورية العثمانية، فأصدر «فرماناً» بإلغاء الجيش الانكشاري واستبداله «بالنظام الجديد» الذي سبق أن أسّسه سلفه السلطان سليم الثالث (دون أن يتمكن هذا الأخير من تحديث الجيش الجديد وتطويره، وذلك بسبب عرقلة الجيش الانكشاري لأية خطوة تحديثية في الجيشين معاً، إذ رفض الانكشارية التعليم العسكري وحاربوا «النظام الجديد» بكل قوة، مما اضطر السلطان محمود المذكور لاتخاذ القرار الخطير بحل جيشهم).

وكان الجيش الانكشاري، رغم ما حلّ به من فساد، وما كان يقوم عليه من سوء تدريب وانتهازية ورشوة وفوضى وتدخل بشؤون الحكم، لا يزال القوة الضاربة المرهوبة الجانب في الامبراطورية العثمانية، فثار هذا الجيش على قرارات السلطان محمود ورفض تنفيذها محاولاً خلعه، مما اضطر السلطان لأن يقدم على عمل من أعمال العنف الدموي لا مثيل له في التاريخ، إذ استحصل

على فتوى شرعية بوجوب «افناء هذه الطائفة الباغية»[١١٧]، وفي خلال ساعات فقط، من تاريخ ١٦ حزيران ١٨٢٦، حصد، بمدفعيته وبرصاص الأهالي وجند الجيش الجديد، نحو عشرين ألفاً من الانكشارية، في العاصمة فقط[١١٨]، بينما «ذبح» معظمهم، في الوقت نفسه، في عواصم الولايات في مختلف أنحاء الامبراطورية[١١٩]، وقد سمّيت هذه الوقعة، في التاريخ العثماني، «بالواقعة الخيرية»[١٢٠]، إذ تفاءل العثمانيون بها، بسبب ما قاسوه من ظلم الإنكشارية وبغيهم.

إلا أن ما جرى، فعلاً، هو أن السلطان محمود الثاني قضى بعمله هذا على التنظيم العسكري القديم والوحيد في امبراطوريته دون أن يتمكن من خلق قوّة عسكرية جديدة تقف في وجه خصومه، وعلى الأخص، محمد علي باشا، الذي استغل فرصة ضعف الامبراطورية العثمانية، كي يضرب ضربته الكبرى في بلاد الشام، لذا، ما أن بدأت الدولة العثمانية الحرب مع محمد علي في سوريا حتى أخذت تشكّل، على عجل، جيشاً عديم التجانس، عديم التدريب والخبرة، بل هو «كأخلاط الزمر لا نظام له ولا دراية»[١٢١] وهو أمر يختلف اختلافاً كلياً عن الحالة التي كان عليها الجيش المصري المهاجم[١٢٢].

إضافة إلى ذلك، كان الجيش العثماني (النظام الجديد) في أول مراحل تنظيمه عند بدء الحملة المصرية، فقد تسلّم السلطان محمود الثاني هذا الجيش من مؤسّسه السلطان سليم الثالث (إذ إن السلطان مصطفى الرابع، الذي خلف هذا الأخير في السلطنة، لم يبق فيها أكثر من عام واحد: ١٨٠٧ - ١٨٠٨)، وهو بحالة من الفوضى والارتباك والضعف لا مثيل لها، فقرّر، كما سبق أن قدمنا، تنظيمه وتدريبه على الطراز الأوروبي الحديث، وعلى حساب الجيش العثماني القديم (الجيش الانكشاري) الذي حلّه ثم أفنى عناصره،

فتجمع لدى السلطان محمود، في أواخر العام ١٨٢٦، نحو عشرين ألف جندي تدرّبوا حسب الأنظمة الحديثة، إلا أنه تابع تنمية هذا الجيش وتدريبه خلال السنوات التالية، حتى بلغ عشية الحملة المصرية، نحو ستين ألفاً، منهم نحو ٤٥ ألف رجل مدربين حسب النظام الجديد، أما الباقون، وهم ١٥ ألفاً، فإنهم ظلوا متمسكين بالنظام القديم ولم يتمكنوا من التكيف مع التدريب الحديث للجيش[١٢٣]. ومع كل الجهود التي بذلها السلطان محمود لتدريب هذا الجيش وتطويره وتحديثه، فإنه لم يوفق في ذلك، فظل هذا الجيش بحاجة إلى «النظام والانضباط»[١٢٤] بالإضافة إلى التدريب الجيّد، كما ان جنده «استرسلوا في النهب والسلب»[١٢٥] دون أي رادع أو وازع، وهكذا، فقد وُجدت الدولة العثمانية عام ١٨٣١ وعشية الحملة المصرية على بلاد الشام، عاجزة عن الدفاع عن حدود سوريا بوجه الغازي الجديد، «فجيشها القديم قد قضي على نصفه، وجيشها الجديد لم يكوّن بعد»[١٢٦]، بل ان السير شارل نابيير ذهب إلى أبعد من ذلك حين قال إن الجيش العثماني «لم يشتبك مع ابراهيم باشا اشتباكاً حقيقياً واحداً، قط»[١٢٧].

لذلك، فإننا لن نفاجأ إذا علمنا أنه، في العام ١٨٣١، وعندما بدأ الهجوم المصري على الحدود الجنوبية لبلاد الشام، لم يكن في عكا، التي حاصرها ابراهيم باشا بعد فترة قصيرة من دخوله هذه البلاد، أكثر من ثلاثة آلاف، أو أربعة آلاف مقاتل، وعدد من المدافع، مع ما يكفي هذه البلدة من مياه ومؤونة وذخيرة لاحتمال حصار طويل[١٢٨]، كما ان الجيوش العثمانية التي احتشدت في قونية، عند السفح الشمالي لسلسلة جبال طوروس، وفي اضنه، جنوب سلسلة الجبال هذه، وذلك في مطلع أيار عام ١٨٣٢ لم تكن تزيد على الخمسة وأربعين ألفاً من «النظام الجديد»[١٢٩]،

مقابل جيش مصري متفوق في العدد والعدّة، وفي التدريب والتنظيم والتسليح والانضباط والقيادة.

وفيما يلي صورة رسمها أحد القادة المصريين لأحوال الجيش العثماني والإدارة العثمانية خلال الحرب المصرية العثمانية، وذلك في تقرير بعث به من مقرّه بحلب إلى ابراهيم باشا قائد الحملة، بتاريخ ٢٦ شوال ١٢٥٣هـ (كانون الثاني ١٨٣٨م)، قال هذا القائد (وهو محمد حاذق بك قائمقام في الألاي الثاني للمشاة المدفعيين بحلب)، ما خلاصته: «إن تجنيد الرديف - أي الاحتياط - جارٍ في ملاطية ومرعش وجهاتها، وإن من جُنّد قديماً دُرّب شهرين في خلال ثلاث سنوات، أما من جُنّد حديثاً فإنه لم يدرّب بعد، وإن ضباطهم لا خبرة لهم بالأصول العسكرية، وبالتالي فلا فرق بين رديف العدو وجنوده غير النظاميين»[١٣٠]، إلا أنه يستثني من ذلك جنود رديف «بوزاوق وقيصرية» وضباطهم فيقول عنهم إنهم «ملمون بالأصول العسكرية، وقد اعتُني بتعليمهم وتربيتهم»[١٣١]. ويقول عن تغذية الجند العثماني: «إن السلطات العسكرية تصرف إلى كل جندي مايتي درهم من الخبز كل يوم وستين درهماً من اللحم، وإن الخبز عجين أسود»[١٣٢].

أما عن الإدارة العثمانية، في زمن الحرب، في تلك الجهات، فيقول: «إن إدارتهم الملكية على وهن، فلا سائل ولا رقيب، وأموال الفقراء مطمع لكل من سنحت له فرصة للنهب، وليس للمتسلم ولا لغيره من الموظفين راتب شهري، فهم يصادرون الأموال ويبيعونها كيف شاؤوا»[١٣٣].

وهذا ما دفع، ولا شك، ابراهيم باشا، لكي يؤكد، في تقرير منه إلى والده، تفوقه الكاسح على عدوه، وقناعته التامة بانتصاره الحاسم عليه في هذه الحرب الطويلة، قال ابراهيم باشا ما معناه: «أنا لا أتردّد في القول إن مايتي

ألف وثلاثماية ألف من هكذا جند لا يقلقونني أبداً»[١٣٤]، وهذا ما جعل قائداً عسكرياً فذاً كالجنرال ويغان يعتبر، في حديثه عن وقعة حمص بين الجيشين: العثماني والمصري، أن «جيشين شرقيين، مجهزين، ويقاتلان على الطريقة الأوروبية، تواجها لأول مرة، فكان النصر للجيش الأكثر تنظيماً وانضباطاً في القتال، وخاصة لمن كانت قيادته متفوقة تفوقاً واضحاً. وبمعنى آخر، لقد انهار الجمود أمام الحركة»[١٣٥].

إلا أن كل شيء تبدّل من جديد، في الجيش العثماني، قبيل انتهاء الحرب، وفي مطلع حكم السلطان عبد المجيد الأول (١٨٣٩ - ١٨٦١) ابن السلطان محمود الثاني، الذي باشر، منذ تسلمه للسلطة، بوضع تنظيمات جديدة للإدارة والجيش في الدولة العثمانية، سميت «بالتنظيمات»، وقد أعلنت بمرسوم سلطاني عام ١٨٣٩ عرف باسم «منشور الكالخانة»، أو «الخط الهمايوني» أو «الخط الهمايوني الشريف»، ثم «التنظيمات الخيرية» التي أعلنت كذلك بمرسوم سلطاني عام ١٨٥٦، عقب حرب القرم، وفي عهد السلطان عبد المجيد نفسه[١٣٦].

حواشي الفصل السادس

(١) - Hajjar, J. L'Europe et les destinées du Proche Orient, p. 71.

وقد استمرت حرب محمد علي ضد الوهابيين سبع سنوات (١٨١١ - ١٨١٨) إذ أوفد الحملة الأولى ضدهم بقيادة ابنه طوسون عام ١٨١١ ثم أرسل الحملة الثانية بقيادة ابنه ابراهيم عام ١٨١٦. (Ibid, pp. 71-72)، وانظر: أنطونيوس، جورج، يقظة العرب، تعريب: ناصر الدين الأسد واحسان عباس ص ٨٢ - ٨٣.

(٢) كان «سيف» (Sèves) عسكرياً مغامراً وجريئاً، فقد اشترك في معركة «الطرف الاغر» ورافق الجنرال «غروشي» في آخر مراحل معركة «واترلو»، ثم ترك فرنسا، بعد انهيار الامبراطورية، ليلتحق بخدمة محمد علي باشا بمصر، عام ١٨١٩ (خوري واسماعيل، السياسة الدولية في الشرق العربي، ج ٢ : ٥٢ - ٥٣)، ولد في «ليون» بفرنسا عام ١٧٨٨ وتوفي في الاسكندرية بمصر عام ١٨٦٠، وقد اشترك في أهم المعارك التي خاضها ابراهيم باشا ببلاد الشام (١٨٣١ - ١٨٣٣) كما أسهم في صنع نصر معركة نزيب عام ١٨٣٩، وفي الدفاع عن بيروت ضد القصف البحري الذي تعرضت له من قبل الكومودور نابيير عام ١٨٤٠.

- (Ismaïl, Doc. diplomatiques et consulaires, T.5 p. 76 Note 1).

(٣) - Planat, Damergue, Cadot, Caisson, Rey, Gouthard-Duveneur et Varin (Hajjar, Op. cit. p. 73).

بالإضافة إلى ضباط من الجنسية الإيطالية «بولوغنيني» (Bolognini) والاسبانية «انطونيو دي سيفيرا». (Ibid), (Antonio de Seguerra) -

(٤) - Ibid.

(٥) خوري واسماعيل، المرجع السابق ج ٢ : ٥٤، وانظر: Hajjar, Op. cit. p. 77. ولا يجب أن يغرب عن بالنا أنه كان لفرنسا، من ضمن ذلك، أهداف سياسية مؤكدة، فقد كان الجنرال بوايه، رئيس البعثة، على صلة مستمرة بالجنرال «بليار» (Belliard) الذي خدم في مصر، في أثناء الحملة الفرنسية، فأصبح خبيراً بشؤونها، ثم ما لبث، بعد أن استقر به المقام بباريس، أن أصبح صلة الوصل بين الجنرال بوايه ووزارة الخارجية الفرنسية التي كانت «ترسل تعليماتها بواسطته إلى زميله بوايه» بينما كان هذا الأخير «يبعث بتقاريره عن محمد علي وسياسته» إلى وزارة الخارجية الفرنسية بباريس، «بواسطة بليار نفسه». (خوري واسماعيل، م. ن. ج ٢ : ٥٥ - ٥٦).

(٦) تعميم من محمد علي على ضباط الجيش، مؤرخ في ٢١ ربيع الآخر ١٢٤٣هـ (تشرين الثاني ١٨٢٧م) (رستم، المحفوظات الملكية المصرية، بيان بوثائق الشام، مجلد ١ : ٩٨ وثيقة رقم ٢٣٥).

(٧) الوثيقة نفسها (رستم، م. ن. مجلد ١ : ٩٨ - ٩٩).

(٨) الوثيقة نفسها (رستم، م. ن. مجلد ١ : ٩٨ - ٩٩).

(٩) وثيقة رقم ٢٦٠، رسالة من محمد علي باشا إلى ابنه ابراهيم باشا، مؤرخة في ٢٠ ربيع الآخر ١٢٤٤هـ (أول تشرين الثاني ١٨٢٨م)، (رستم، م. ن.، مجلد ١ : ١٠٧ - ١٠٨).

(١٠) الوثيقة نفسها (رستم، م. ن. مجلد ١ : ١٠٨) والطوبخانة: مصنع للمدافع.

(١١) الوثيقة رقم ٢٦١، رسالة من محمد علي باشا إلى الخواجة بوغوص، مؤرخة في ٢٩ ربيع الآخر ١٢٤٤هـ (تشرين الثاني ١٨٢٨م)، (رستم، م. ن. مجلد ١ : ١٠٨).

(١٢) وثيقة رقم ١٧٦٣، رسالة من محمد علي إلى ابنه ابراهيم مؤرخة في ١٤ ربيع الآخر ١٢٤٨هـ (أيلول ١٨٣٢م)، (رستم، م. ن. مجلد ٢ : ١٠٢).

(١٣) وثيقة رقم ٢٣٠٩، رسالة من محمد علي إلى ابنه ابراهيم، مؤرخة في ١٥ رجب ١٢٤٩هـ (أواخر تشرين الثاني ١٨٣٣م)، (رستم، م. ن. مجلد ٢ : ٣٧٥).

(١٤) وثيقة رقم ٢٤٠٣، رسالة من يوحنا بحري إلى سامي بك، مؤرخة في ٩ ذي الحجة ١٢٤٩هـ (نيسان ١٨٣٤م)، (رستم، م. ن. مجلد ٢ : ٣٩١).

(١٥) وثيقة رقم ٤٩٠٥، رسالة من ابراهيم باشا إلى ولده محمد علي، مؤرخة في ٢ ذي الحجة ١٢٥٢هـ (آذار ١٨٣٧م)، يذكر له فيها أن معدن الحديد الذي اكتشف باولاش بالقرب من بياس «يبعد عن البحر مسافة طويلة ويتعذر نقله على الدواب إلى الساحل»، أما الحديد الموجود في جبل الدروز فهو «أقرب لساحل البحر من الحديد الاولاشي» لذلك فهو يقترح «صهر الحديد الأول في مصر بدلاً من الثاني» (رستم، م. ن. مجلد ٣ : ٢٠٧).

(١٦) وثيقة رقم ٤٩١٩، رسالة من ابراهيم باشا لوالده محمد علي، مؤرخة في ١٧ ذي الحجة ١٢٥٢هـ (آذار ١٨٣٧م)، وقد تضمنت هذه الرسالة التقرير المشار إليه والذي جاء جواباً على طلب محمد علي من ابنه استيضاح الخبير المذكور «أدهم أفندي» عمّا إذا كانت مصلحة «المهمات الحربية» بمصر، تستطيع أن تقوم بالمهمات «التي سيتولاها اليوزباشيون المدفعيون الذين سيستقدمون من أوروبا لصنع المدافع والمهام الأخرى التي سيقومون بها». (رستم، م. ن. مجلد ٣ : ٢١٣ - ٢١٤).

(١٧) وثيقة رقم ٢٦٢، رسالة من محمد علي إلى رؤوف باشا والي دمشق، مؤرخة في غرة جمادى الآخرة عام ١٢٤٤هـ (كانون الأول ١٨٢٨م)، (رستم، م. ن. مجلد ١ : ١٠٨ - ١٠٩).

(١٨) وثيقة رقم ٢٦٧، رسالة من محمد علي إلى الخواجة بوغوص، مؤرخة في ٢١ رمضان ١٢٤٤هـ (أواخر آذار ١٨٢٩م)، (رستم، م. ن. مجلد ١ : ١١١)، أما الدراغون والهوسار والكويراسييه فهي من أسماء الخيالة أو الدارعين.

(٢٠) وثيقة رقم ١٦٤٣، رسالة من محمد علي باشا إلى ابنه ابراهيم، مؤرخة في ٢٨ ربيع الأول ١٢٤٨هـ (آب ١٨٣٢م)، (رستم، م. ن. مجلد ٢ : ٨٤).

(٢١) وثيقة رقم ١٥٦٩، إفادة مؤرخة في ١٨ ربيع الأول ١٢٤٨هـ (آب ١٨٣٢م)، (رستم، م. ن. مجلد ٢: ٧٣).

(٢٢) وثيقة رقم ٤٣١٥، (رستم، م. ن. مجلد ٣ : ٦٢).

(٢٣) أوفد عام ١٢٤٨هـ (١٨٣٢م) ستين تلميذاً من بر الشام إلى مصر للالتحاق بالمدرسة الحربية فيها (رستم، م. ن. مجلد ٢ : ٧١ وثيقة رقم ١٥٤٩).

(٢٤) وثيقة رقم ٤٣٦٣، رسالة من ابراهيم باشا إلى سامي بك، مؤرخة في غاية شعبان ١٢٥١هـ (كانون الأول ١٨٣٥م)، (رستم، م. ن. مجلد ٣ : ٧٣).

(٢٥) الوثيقة نفسها (رستم، م. ن. ص. ن). وانظر كذلك، الوثيقة رقم ٤٤٧٦ وهي رسالة من محمد علي إلى ابنه ابراهيم يوافقه فيها «على ترقية البارزين من أولاد العرب في القراءة والكتابة إلى رتبة يوزباشي»، رسالة مؤرخة في ٢٨ ذي القعدة ١٢٥١هـ (آذار ١٨٣٦م)، (رستم، م. ن. مجلد ٣ : ٩٧).

(٢٦) وثيقة رقم ٢٠٧، رسالة من محمد علي باشا إلى ناظر الجهادية، مؤرخة في ٤ ربيع الأول ١٢٤٢هـ (تشرين الأول ١٨٢٦م)، يذكر فيها أنه نظراً لوفاة «بكباشي الأورطة الثالثة بالألاي الثاني عشر، فقد اقتضى ترقية أحد الضباط من رتبة الصاغ قول أغاسي بكباشي، بدلاً من المتوفى»، وقد تمّ إرسال خطوط المرشحين لهذه الرتبة إلى رئيس رجال الجهادية الذي أرسلها بدوره إلى محمد علي «فاستحسن لدينا خط حمزة الصاغ قول آغاسي بالأورطة الثالثة والخمسين بالألاي الحادي عشر وخط الحاج مصطفى الصاغ قول آغاسي بالأورطة السابعة وأربعين، كما انه استحسن لدينا أيضاً سجل أخلاقهما»، وأجرى الباشا «القرعة» فكانت الترقية من نصيب «حمزة»، (رستم، م. ن. مجلد ١ : ٨٨).

(٢٧) الوثيقة نفسها (رستم، م. ن. مجلد ١ : ٨٨ - ٨٩).

(٢٨) وثيقة رقم ٢١٠، رسالة من محمد علي باشا إلى ناظر الجهادية، مؤرخة في ١٧ ربيع الآخر ١٢٤٢هـ (تشرين الأول ١٨٢٦م) يطلب فيها من ناظر الجهادية تشكيل مجلس من «الميرالايات»

لانتخاب «اميرالاي» من الجيش بدلاً من «سليمان بك، ميرالاي العساكر الجهادية الموجودة بكردفان» والمتوفي «بأجله المحتوم»، (رستم، م. ن. مجلد ١ : ٨٩).

(٢٩) وثيقة رقم ٢٣٥، تعميم محمد علي باشا على ضباط الجيش بصدد نتائج امتحانات المدرسة العسكرية (أنظر حاشية رقم ٦ لهذا الفصل)، حيث رقى التلامذة الناجحين في هذه المدرسة وفقاً لنتائجهم في الامتحانات (رستم، م. ن. مجلد ١ : ٩٨).

(٣٠) - Dib, l'église maronite, p. 222.

(٣١) - Thoumin, Histoire de Syrie, p. 280.

(٣٢) - Nantet, Histoire du Liban, p. 144.

(٣٣) - Xavier, Raymond, d'un feuilleton du Journal des Débats (Guys, Relations, T.2 p. 276).

بمن فيهم ولا شك رجال الأمير بشير البالغ عددهم نحو عشرة آلاف مقاتل، وكان يعاون ابراهيم باشا في قيادته لهذا الجيش وكرئيس لأركانه «الجنرال سليمان باشا الفرنساوي».

(٣٤) - X. Raymond, Ibid pp. 275 - 276.

هذا بالإضافة إلى الأسطول العثماني الذي سبق أن لجأ إلى مصر قبل الحملة على بلاد الشام.

(٣٥) X. Raymond, Ibid, p. 276, Note 1.

(٣٦) - Weygand, Maxime, Histoire militaire de Mahomet Ali et de ses fils vol 2 pp. 13 - 14.

وتسمية Régiment تعني «فوجا» وذلك في التسمية العربية الحالية وفقاً للقاموس العسكري الموحّد الصادر عن جامعة الدول العربية.

(٣٧) - Ibid, p. 32.

(٣٨) - Ibid, p. 20.

(٣٩) - Jouplain, La question du Liban, p. 173.

ورستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ١ : ٥٩.

(٤٠) رستم، م. ن. قسم ١ : ٦٠، وقد أشرف القائد الفرنسي «سيريزي Cérisy» على بناء هذا الأسطول. (Lammens, La Syrie, vol 2 p. 153 et Dib l'église maronite, vol. 2 p. 225).

(٤١) خوري واسماعيل، المرجع السابق، ج ٢ : ٨٠.

(٤٢) Jouplain, Op. cit. p. 174 -

(٤٣) Lammens, Op. cit. vol. 2 pp. 152 - 153 -

(٤٤) Ibid, p. 153, note 1 -

(٤٥) Bouron, Les Druzes, p. 175 -

(٤٦) Dib, Op. cit. vol 2 p. 223 -

(٤٧) Ibid -

(٤٨) مشاقة، منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب، ص ١١١.

(٤٩) مشاقة، م. ن. ص ١١٢، وانظر أيضاً: مشاقة، مشهد العيان، ص ١٠١ - ١٠٢.

(٥٠) «أنظر رسالة «تيير» Thiers وزير الخارجية الفرنسية إلى «برتو» بتاريخ ١٩ أيلول ١٨٤٠.

(Ismaïl, Documents, T.6 p. 265) -

(٥١) Ibid, pp. 286 - 287 -

(٥٢) Ibid, p. 290 -

(٥٣) دون أن نستثني ابنه «طوسون» الذي قاد الحملة الأولى ضد الوهابيين في الحجاز.

(٥٤) الروملي، أو بلاد الروم، اسم أطلقه الأتراك على الاقليم الذي يشمل تراقيا ومكدونيا بين البلقان والبحر الأسود وبحري مرمرة وإيجه وسلسلة جبال اليونان.

(٥٥) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم١ : ١٠٠.

(٥٦) Hajjar, Op. cit. p 72 -

(٥٧) Ibid -

(٥٨) Ibid -

(٥٩) Ibid, p. 77 -

(٦٠) Ibid -

(٦١) Ibid -

(٦٢) رستم، المحفوظات الملكية، وثيقة رقم ٤٠٩، مجلد ١ : ١٥٩ - ١٦٠.

(٦٣) رسالة من محمد علي إلى ابنه ابراهيم مؤرخة في ٢١ رمضان ١٢٤٧هـ (أواخر شباط ١٨٣٢م)، وثيقة رقم ٥٩٧، (رستم، م. ن. مجلد ١ : ٢١٨).

(٦٤) الوثيقة نفسها، رسالة من ابراهيم باشا إلى محمد علي، مؤرخة في ٢٧ رمضان ١٢٤٧هـ (مطلع آذار ١٨٣٢م)، (رستم، م. ن. مجلد ١ : ٢١٨ - ٢١٩).

(٦٥) الوثيقة نفسها، (رستم، م. ن. مجلد ١ : ٢٢٠ - ٢٢١).

(٦٦) وثيقة رقم ٤٣٤، تقرير يوحنا بحري إلى الباشمعاون بتاريخ ٨ شعبان ١٢٤٧هـ (كانون الثاني ١٨٣٢م)، (رستم، م. ن. مجلد ١ : ١٦٥).

(٦٧) الوثيقة نفسها، م. ن، مجلد ١ : ١٦٥ - ١٦٧.

(٦٨) رسالة مؤرخة في ١٨ محرم ١٢٥٥هـ (آذار ١٨٣٩م)، وثيقة رقم ٥٧٢٨ (رستم، م. ن. مجلد ٤ : ٩).

(٦٩) رسالة مؤرخة في ١٥ محرم ١٢٥٥هـ (آذار ١٨٣٩م)، الوثيقة نفسها (رستم، م. ن. ص. ن).

(٧٠) م. ن. ص. ن.

(٧١) رسالة من خورشيد باشا حكمدار أدنه إلى ابراهيم باشا بتاريخ ١٤ صفر ١٥٤٤هـ (٢٩ نيسان ١٨٣٩م)، وثيقة رقم ٥٧٦٣، (رستم، م. ن. مجلد ٤ : ٤٠).

(٧٢) رسالة من أحمد بك ريحانلو إلى ابراهيم باشا، مؤرخة في ١٥ صفر ١٢٥٥هـ (٣٠ نيسان ١٨٣٩م)، وثيقة رقم ٥٧٦٤، (رستم، م. ن. مجلد ٤ : ٤١).

(٧٣) رسالة من إبراهيم باشا إلى حسين باشا، بتاريخ ١٥ صفر ١٢٥٥هـ (نيسان ١٨٣٩م)، وثيقة رقم ٥٧٦٦، (رستم، م. ن. مجلد ٤ : ٤١).

(٧٤) يستحسن الرجوع إلى الرسالة نفسها، م. ن. : ص. ٤٢.

(٧٥) رسالة من اللواء فرهاد بك إلى السر عسكر ابراهيم باشا، بتاريخ ١٤ صفر ١٢٥٥هـ (نيسان ١٨٣٩م) وثيقة رقم ٥٧٦٦، (رستم، م. ن. مجلد ٤ : ٤٣).

(٧٦) رسالة من اللواء فرهاد بك إلى ابراهيم باشا بتاريخ ١٧ صفر ١٢٥٥هـ (أول أيار ١٨٣٩م)، وثيقة رقم ٥٧٧٣، (م. ن. مجلد ٤ : ٤٥).

(٧٧) رسالة من اللواء فرهاد بك إلى ابراهيم باشا بتاريخ ١٨ صفر ١٢٥٥هـ (أيار ١٨٣٩م)، وثيقة رقم ٥٧٧٦، (رستم، م. ن. مجلد ٤ : ٤٦).

(٧٨) رسالة من محمد علي إلى ابنه ابراهيم في جمادى الآخرة ١٢٥٦هـ (آب ١٨٤٠م) وثيقة رقم ٦٤٧٢، (رستم، م. ن. مجلد ٤ : ٤٣٩).

(٧٩) رسالة من محمد حاذق افندي إلى ابراهيم باشا بتاريخ ٢٧ صفر ١٢٥٥هـ (أيار ١٨٣٩م)، وثقة رقم ٥٨٠٤، (رستم، م. ن. مجلد ٤ : ٥٧).

(٨٠) رسالة من اللواء فرهاد بك إلى ابراهيم باشا بتاريخ ٢٧ صفر ١٢٥٥هـ (أيار ١٨٣٩م)، وثيقة رقم ٥٨٠٣، (رستم، م. ن. مجلد ٤ : ٥٧).

(٨١) الوثيقة نفسها، (م. ن. ص. ن.).

(٨٢) وثيقة رقم ٥٧٦٣، (رستم، م. ن. مجلد ٤ : ٤٣).

(٨٣) رسالة من ابراهيم باشا إلى والده محمد علي، بتاريخ ٢٥ جمادي الآخرة ١٢٥٦هـ (آب ١٨٤٠م)، وثيقة رقم ٦٤٦٨، (رستم، م. ن. مجلد ٤ : ٤٣٩).

(٨٤) رسالة من محمد علي إلى ابنه ابراهيم بتاريخ ٢٦ جمادي الآخرة ١٢٥٦هـ (آب ١٨٤٠م) وثيقة رقم ٦٤٧٠، (رستم، م. ن. مجلد ٤ : ٤٣٩).

(٨٥) رستم، المحفوظات الملكية المصرية، بيان بوثائق الشام، المجلد الرابع.

(٨٦) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ١ : ٦٠.

(٨٧) - Lammens, La Syrie, vol, 2 p. 152.

(٨٨) مشاقة، مشهد العيان، ص ١٠٩ وقد جرت وقعة كوتاهية عام ١٨٣٢.

(٨٩) - Guys, Henri, Relations, vol. 2 p. 204.

(٩٠) - Ibid, p. 211.

(٩١) رسالة من ابراهيم باشا إلى سامي بك بتاريخ ٣ ربيع الآخر ١٢٤٨هـ (آخر آب ١٨٣٢م)، وثيقة رقم ١٦٨٢، (رستم، المحفوظات، مجلد ٢ : ٩٠).

(٩٢) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ١ : ٩٨.

(٩٣) مشاقة، مشهد العيان، ص ١٠٣.

(٩٤) - Malherbe, L'Orient, T.2 p. 6.

(٩٥) - Ibid, p. 34.

(٩٦) - Ibid, p. 34 Note 1.

(٩٧) - Hajjar, Op. cit. pp. 150 - 151.

(٩٨) أنظر، رستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ١ : ٩٩ - ١٠٠.

(٩٩) وثيقة رقم ٥٧٢٤، رسالة من ابراهيم باشا إلى حسين باشا بتاريخ ١٠ محرم ١٢٥٥هـ (آذار ١٨٤٠م)، (رستم، المحفوظات، مجلد ٤ : ٨).

(١٠٠) رسالة من محمد علي إلى محمد شريف باشا يوافق فيها على ترميم كنيسة الكاثوليك في قرية الخربة التابعة لمرجعيون، بتاريخ ٢٦ ذي الحجة ١٢٥٢هـ (نيسان ١٨٣٧م) وثيقة رقم ٤٩٢٦، (رستم، م. ن. مجلد ٤ : ٢١٥).

(١٠١) «على أن يبرحوا الأقطار الشامية ولا يعودوا إليها، وذلك اجابة لالتماس قنصل فرنسا»، رسالة من محمد علي إلى ابنه ابراهيم، بتاريخ ١٤ شعبان ١٢٥٣هـ (تشرين الثاني ١٨٣٧م)، وثيقة رقم ٥١٥١، (رستم، م. ن. مجلد ٤ : ٢٨٨). ورسالته إلى ابراهيم بتاريخ ٢٣ شعبان ١٢٥٣ هـ (تشرين الثاني ١٨٣٧م)، وثيقة رقم ٥١٧٩، (رستم، م. ن. مجلد ٤ : ٢٩٥).

(١٠٢) خوري واسماعيل، المرجع السابق، ج ٢ : ٢٢١.

(١٠٣) م. ن. ج ٢ : ٢٢٢.

(١٠٤) م. ن. ص. ن.

(١٠٥) العطار، تاريخ سوريا، ص ١٩٢.

(١٠٦) رسالة مؤرخة في ٢٠ صفر ١٢٤٨هـ (تموز ١٨٣٢م)، وثيقة رقم ١٣٨٨، (رستم، المحفوظات، مجلد ٢ : ٤٨).

(١٠٧) رسالة مؤرخة في ٢٣ صفر ١٢٤٨هـ (تموز ١٨٣٢م)، وثيقة رقم ١٤١٥، (رستم، م. ن. مجلد ٢ : ٥٢).

(١٠٨) خوري واسماعيل، المرجع السابق، ج ٢ : ٦٠.

(١٠٩) العطار، المرجع السابق، ص ١٩٢، وانطونيوس، المرجع السابق، ص ٨٩ - ٩٠.

(١١٠) رستم، بشير بين سلطان العزيز، قسم ١ : ١٠٠ وانظر: رستم، المحفوظات، مجلد ٣ : ٦٧.

(١١١) رسالة من ابراهيم باشا إلى سامي بك بديوان والده بمصر، بتاريخ غاية شعبان ١٢٥١هـ (كانون الأول ١٨٣٥)، وثيقة رقم ٤٢٦٣، (رستم، المحفوظات، مجلد ٣ : ٧٣).

(١١٢) رسالة من ابراهيم باشا إلى محمد علي بتاريخ ٢٥ رجب ١٢٥٦هـ (أيلول ١٨٤٠م) وثيقة رقم ٦٥٤٤، (م. ن. مجلد ٤ : ٤٦٠).

(١١٣) Hajjar, Op. cit. p. 94. ولهذا السبب، وجدت فرنسا نفسها محرجة أمام حليفها محمد علي عندما ثار عليه أصدقاؤها الموارنة في الجبل، فراح عدد كبير من الفرنسيين المنتدبين في هذه البلاد أمثال «برتيه وبودان ودوڤال وجوانين» يجوبون البلاد داعين أهلها للكف عن الثورة والخلود إلى السكينة، كما انها، أي فرنسا، عارضت مشروع «بوريه» والأب اليسوعي «ريلو» بإنشاء دولة كاثوليكية في جبل لبنان (خوري واسماعيل، المرجع السابق، ج ٢ : ٢٢٧ - ٢٢٩).

(١١٤) أكّد الشاعر الفرنسي «لامارتين» عضو الجمعية الوطنية الفرنسية، في ذلك الحين، رغبة فرنسا في أن ترى «محمد علي باشا» يقوم ببناء امبراطورية عربية، إذ قال في خطاب ألقاه في الجمعية الوطنية بباريس في أول تموز عام ١٨٣٩: «أنظروا إلى باشا مصر يبعث البلاد العربية»، وبعد أن وصف محمد علي، في الخطاب نفسه، بأنه «رسول الحضارة إلى الشرق وسيد مصر وبلاد العرب وسوريا»، أعلن أمله في «أن الامبراطورية العربية ستقوم على أكمل وجه بالدور الذي فوتته تركيا على نفسها» (خوري واسماعيل، م. ن. ج ٢ : ١٦٠).

(١١٥) Ismaïl, Documents, T.5 p. 107 -

(١١٦) Ibid -

(١١٧) الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، ص ٨١.

(١١٨) م. ن. ص. ن. و

- Weygand, op. cit., vol. 2 p. 30.

(١١٩) Boulos, Jawad, Peuples et civilisations, T.5 p. 145 -

(١٢٠) الحصري، المرجع السابق، ص ٨١.

(١٢١) كرد علي، خطط الشام. ج ٣ : ٥١.

(١٢٢) أبو عز الدين، سليمان، ابراهيم باشا في سوريا، ص ٦٨.

(١٢٣) Weygand, Op. cit. vol. 2 p. 31 -

(١٢٤) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ١ : ٦١.

(١٢٥) رستم، م. ن. ص. ن. ويشير رستم إلى أن السلطان محموداً سلّم قيادة هذا الجيش إلى رجل «بدأ حياته حمّالاً فجاسوساً ثم أصبح جلاداً فضابطاً فقائداً» وهو «حسين باشا سر عسكر الجيش العثماني» (م. ن. ص. ن.)، بالإضافة إلى أنه حافظ على عقلية العسكري الانكشاري (Weygand, Op. cit. vol 2 p. 31).

(١٢٦) Thoumin, Histoire de Syrie, p. 280 -

(١٢٧) Xavier, Raymond, d'un feuilleton du Journal des débats (Guys, op. cit. T.2, p. 285) -

(١٢٨) أبو عز الدين، المرجع السابق، ص ٧١.

(١٢٩) Weygand, Op. cit. vol. 2 p. 32 -

ورستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ١ : ٦١.

(١٣٠) رستم، المحفوظات الملكية، وثيقة رقم ٥٢٦٣ مجلد ٣ : ٣١٦.

(١٣١) م. ن. ص ٣١٧.

(١٣٢) م. ن. ص ٣١٦.

(١٣٣) م. ن. ص ٣١٧.

(١٣٤) Weygand, Op. cit. col. 2 p. 43 -

(١٣٥) Ibid, p. 42 -

(١٣٦) الحصري، المصدر السابق، ص ٨٧ - ٨٨، والحكيم، سوريا والعهد العثماني، ص ١٩.

ويذكر «الحكيم» تفاصيل عن الأنظمة العسكرية في هذه التنظيمات، وخصوصاً تلك التي أعلنت عام ١٨٣٩، فيقول إن الجيش قد قسم إلى خمسة أقسام (أو مراكز) على رأس كل منها «مشير» وهي: جيش العاصمة، والجيش الخاص بالسلطان، ومركزهما الآستانة، وجيش الروملي، ومركزه مناستير. وجيش الأناضول، ومركزه طوقات. وجيش عربستان، في البلاد العربية، ومركزه دمشق.

والمرجع الأعلى لهذه الجيوش الخمسة هو قائد الجيش الأول (جيش العاصمة) ولقبه: السر عسكر. أما الرتب في هذه الجيوش فهي:

- مشير، فريق أول، فريق، أمير لواء، ميرالاي (عميد) قائمقام (عقيد) بكباشي (مقدم)، قول آغاسي (رائد) وفيها رتبتان: صاغ قول آغاسي وصول قول آغاسي، يوزباشي (نقيب) ملازم أول، ملازم، باش جاويش (معاون) جاويش (رقب) أونباشي (عريف).

واذا كان المشير هو قائد الجيش الأكبر، فيسمى «سر عسكر» ويكون نائباً عن القائد العام الذي هو السلطان. (الحكيم، م. ن. ص ٤٥ - ٤٦).

الفصل السابع

معارك الأمير بشير

- ٣ -

معاركه في ظل الحكم المصري لبلاد الشام
(١٨٣١ - ١٨٤٠)

شارك الأمير في معظم المعارك التي خاضها ابراهيم باشا في بلاد الشام، كما أسهم، إلى حدٍّ كبير، في مختلف العمليات العسكرية التي أجراها القائد المصري لإخماد الثورات في هذه البلاد، وسوف يقتصر بحثنا، في هذا الفصل، على معالجة الجانب المتعلق بدور الأمير في المعارك والعمليات المذكورة.

لقد بدأ ابراهيم باشا زحفه إلى بلاد الشام في تشرين الأول عام ١٨٣١، بـ: «خمسة ألايات من المشاة وألاي الحرس وأربعة ألايات من الخيّالة وأورطة من المدفعيين وأربعين مدفع ميدان وعشرين مدفع حصار وعشرة مدافع هاون وألف خيال من البدو»[١]، أي ما يساوي ٢٥ ألف مقاتل[٢]، على أن ينضم إلى الجيش، عند وصوله إلى عكا «عشرة آلاف مقاتل لبناني»[٣]، وقد قسّم جيشه هذا إلى قسمين: الأول، بقيادة اللواء ابراهيم يكن باشا (ابن أخت محمد علي باشا) ومهمته مهاجمة بلاد الشام براً، وعلى محور: العريش - خان يونس - غزة - يافا - حيفا. والثاني، بقيادته هو، ومهمته مهاجمة بلاد الشام بحراً، وعلى محور: الاسكندرية - يافا - حيفا؛ وبينما كان اللواء ابراهيم يكن يجتاز الحدود المصرية الشامية (٢٣ تشرين الأول) كانت سفن الأسطول المصري

تقل ابراهيم باشا، بجيشه ومدفعيته، باتجاه الساحل الشامي، واستطاع اللواء يكن اختراق الحدود البرية بسهولة محتلاً كل المدن التي مرّ بها في طريقه إلى حيفا، نقطة التئام الجيش بقسميه، كما استطاع ابراهيم باشا أن يبرّ بجيشه على ساحل يافا في ٨ تشرين الثاني (١٨٣١) دون أية مقاومة[٤]، متجهاً بعدها إلى حيفا، حيث بلغها في السابع عشر من الشهر نفسه.

وفي حيفا، اجتمع الجيش بكامله، فاتخذ ابراهيم باشا من المدينة قاعدة عسكرية انطلق منها لإكمال احتلاله لبلاد الشام، مبتدئاً بالمدينة الأكثر مناعة وتسليحاً وقوة دفاعية، وهي «عكا» مركز الولاية، حيث يتحصن حليفه السابق عبدالله باشا، فباشر بحصار هذه المدينة فور وصوله إلى أسوارها[٥].

١ - دور الأمير بشير في حصار عكا: (تشرين الثاني ١٨٣١ - أيار ١٨٣٢)

بدأ حصار ابراهيم باشا لعكا في ٢٠ تشرين الثاني (١٨٣١)، وكانت هذه المدينة الصغيرة التي لا يتجاوز عدد سكانها «بضعة آلاف»[٦] فقط، محمية بحامية صغيرة لا يتجاوز عديدها الثلاثة آلاف مقاتل[٧] إلا أنها كانت حصينة ومنيعة بأبراجها المسلحة وأسوارها العالية المحاطة من جهة البر بخنادق تمنع تقدم المشاة نحوها، مما جعلها صعبة على أي فاتح.

وكان ابراهيم باشا، في أثناء إقامته بحيفا استعداداً للانطلاق نحو عكا، قد اتصل بالأمير بشير وطلب منه الانضمام إليه[٨]، إلا أن الأمير تردّد في ذلك، متخذاً جانب الحذر على ما يبدو قبل الاقدام على خطوة مصيرية كهذه، وقد برّر تردّده تجاه ابراهيم باشا برغبته في أن «يركنّ الناس ويؤمنهم»، وذلك بعد أن «تواترت الأخبار بقدوم العساكر المنصورة» حيث «كاد يحصل الفساد

بين الناس»، ورغبته كذلك بسبر غور الناس ومدى قبولهم لهذا الأمر، أي أمر تحالفه مع القائد المصري «فظهر له أن الجميع قابلين الكلمة»، ولم يتورع الأمير عن أن يطلب من ابراهيم باشا «إصدار مرسوم شريف بحضوره» وذلك لأسباب ينقلها إليه شفاهاً[٩]، وأصدر ابراهيم باشا المرسوم وفقاً لطلب الأمير[١٠].

إلاّ أن كل هذه الأعذار لم تقنع سياسياً محنكاً مثل محمد علي، فما أن علم بتقاعس الأمير عن المثول أمام ولده وقائد جيشه ابراهيم باشا، حتى كتب إليه رسالة فيها من التهديد والوعيد ما كان كافياً لأن يحزم الأمير أمره ويحدد موقفه واضحاً بانحيازه إلى جانب عزيز مصر، فبعد أن أسف محمد علي، في رسالته، لتقاعس الأمير عن الاسراع لمعاونة ابنه ابراهيم في فلسطين، مستنتجاً أنه - أي الأمير - يرغب في أن يتخذ منه الموقف الذي سبق أن اتخذه من بونابرت، وذلك بأن يتحاشى الانضمام إليه إلا بعد سقوط عكا، وأن هذا الأمر «لا يحتاج إلى الكثير من الملاحظة وعميق التفكير»، وبعد أن أوضح محمد علي ذلك للأمير في رسالته، أنذره بأن «يتحول ما يكنه له من عظيم المحبة إلى ضده»، مؤملاً أن لا تصل رسالته إلى الأمير إلاّ ويكون قد حزم أمره وقرّر السفر إلى عكا، وإلاّ، فإنه يتوعده بأنه «إذا أحجم، بعد وصول هذا الكتاب إليه، عن الانضمام إلى ابراهيم باشا» فإنه سوف يجرد عليه «خمسة ألايات أو ستة تدك دياره دكاً، وتقطع دابر الدروز قطعاً»[١١]. ولكن ما ذكره مشاقة، معاصر الأمير، من أنه - أي الأمير - كان منحازاً، في الأصل، إلى محمد علي، وأنه حاول جاهداً اقناع عبدالله باشا، والي عكا، بذلك، إلا أنه لم يوفق[١٢]، كما أنه نصح الشيخ حسين عبد الهادي، من مشايخ نابلس، بالانصياع للقائد المصري والدخول في طاعته[١٣]، إن ذلك الأمر يجعلنا نميل إلى الاعتقاد أن الأمير، رغم

محالفته لمحمد علي وولائه له، كان حذراً في إظهار هذا الولاء والتحالف بالانضمام إليه قبل سقوط عكا بيديه[١٤].

ومهما يكن من أمر، فقد انصاع الأمير لأوامر محمد علي، إذ إنه ما أن تسلم رسالة التهديد الموجهة إليه والمرسوم الذي طلبه من ابراهيم باشا، حتى سلّم إدارة الإمارة إلى ابنه الأمير أمين، ثم سار «على رأس مئة فارس» إلى عكا، حيث وضع نفسه، وجيشه، بتصرف القائد المصري، فاستقبل بالموسيقى وإطلاق الرصاص، وبحفاوة منقطعة النظير[١٥]، ثم ما لبث الأمير أن تلقّى، من محمد علي، مرسوماً بتعيينه حاكماً على بر الشام على أن يحتفظ ابراهيم باشا بقيادة الجيوش فقط، ولكن الأمير اعتذر عن قبول هذا المنصب الرفيع. ويرى «جوريل Jorelle» القائم بأعمال القنصلية الفرنسية ببيروت، في رسالة منه إلى الكونت سيباستياني وزير الخارجية الفرنسية، بتاريخ ٧ شباط ١٨٣٢، ان ابراهيم باشا كان مخطئاً في اعتماده على الأمير بشير للحصول على ثقة أهل الجبل، فإن أهالي الجبل «قد ضاقوا ذرعاً، منذ وقت طويل، بنير هذه العائلة، وسيكونون مسرورين جداً إذا هم غيّروا أسيادهم، بأمل أن يحظوا بأسياد أقل جشعاً»[١٦].

ولم يكن للأمير بشير أي دور قتالي في حصار عكا، إلا أنه أسهم في المناورات الدبلوماسية التي جرت في أثناء الحصار بين ابراهيم باشا وعبدالله باشا والي عكا، فقد كتب محمد علي إلى ابنه ابراهيم يأمره بالإسراع في الاستيلاء على عكا ويذكره بأن «الحرب خدعة» وأنه يستحسن «أن يستدعي كتخدا عبدالله باشا إليه... ثم يتركه مع الأمير بشير ومصطفى آغا بربر لعلّهما يقنعانه بزخرف الكلام»[١٧]. وبالفعل، إنصاع ابراهيم باشا لأوامر أبيه، وطلب من كتخدا عبدالله باشا الحضور إليه،

فحضر، وجرت المفاوضات معه حسبما ورد في رسالة ابراهيم لوالده بهذا الصدد، على الشكل التالي:

أرسل ابراهيم باشا ساعياً من قبله يدعو معتمد (كتخدا) عبدالله باشا للمفاوضة، وقد استوقف الساعي تحت السور ثلاث ساعات إلى أن خرج المعتمد مع بعض رجاله، وبعد وصوله استقبل في خيمة الأمير بشير، ثم دخل، بصحبته، إلى خيمة القائد، وبعد أن تمّ التعارف بين الطرفين اللذين تبادلا بعض عبارات الود والمجاملة، أعلن ابراهيم باشا لمفاوضه أن أيالة صيدا قد ألحقت بمصر وطلب منه ابلاغ «أخيه الباشا» ذلك وأنه يقترح عليه إما أن يخرج من عكا ويذهب إلى مصر أو أن يلحق به للعمل معه «كأخ»، وله أن يختار أحد الحلين حقناً لدماء المسلمين، فأجابه المعتمد أنه سوف ينقل كلامه إلى الباشا ولكن «ليس في يدي من الأمر شيء، ولا يسمع كلامي» واستشهد بالأمير بشير على ذلك.

واستمرت المفاوضات شاقة بين الطرفين فتناولت الأمور السياسية والعسكرية وغير ذلك، حتى أن الفريقين تطرقا إلى المفاضلة بين قوتيهما، ومما قاله ابراهيم باشا لمعتمد عبدالله باشا: «إذا خدعتم أنفسكم بقولكم إن الفرنساويين لا يستطيعون الاستيلاء على قلعتنا، فالجواب على ذلك أن الفرنساويين لم يكن معهم في ذلك الحين إلا مدفع واحد، ولم يمكنهم من الوصول إلى القلعة من طريق البحر وذلك لخوفهم من الانكليز، الخ...»، وانتهت المفاوضات على أن ينقل المعتمد إلى عبدالله باشا ما سمعه من ابراهيم باشا والأمير بشير، ثم استأذن المعتمد بالانصراف على أن يرسل جواب سيده الباشا بواسطة سر عسكر عكا المدعو «خورشيد»، الذي سيبلغه بدوره إلى الساعي المرسل من قبل القائد المصري، وبعد انتظار ساعتين تحت أسوار

المدينة، خرج السر عسكر ليقول للساعي إن جواب عبدالله باشا هو التالي: «سلّم على أخي الباشا وقل له نحن لا نصدق الكلام، فإذا كانت الدولة قد ألحقت لهم أيالة صيدا فليرسلوا لنا الأوامر لنراها، وعلى مقتضى ذلك نرسل لكم الجواب، ثانياً، إننا لم نحارب بعضنا بعد، والأمر لا ينتهي بحصار عكا أربعين أو خمسين يوماً، وبسقوط كم حجر منها، فلنحمل على بعضنا بالسيف والخنجر، ويمكن أن نتفاهم بعد حرب جيدة. يقال إنهم سيطلقون المدافع فمهما أطلقوا فسيطلق عليهم ثلاثة أمثاله»[١٨].

وهكذا فشلت المفاوضات بين الفريقين، واستمر حصار المصريين لعكا ستة أشهر وأسبوعاً قبل أن تسقط بأيديهم في منتصف ليل ٢٧ - ٢٨ أيار ١٨٣٢[١٩].

٢ - دور الأمير في الدفاع عن طرابلس (آذار ١٨٣٢) - ترتيبات الدفاع:

لم يكن محمد علي غافلاً عمّا يدور في بلاد الشام في أثناء محاصرة جيشه لعكا، فقد عيّنت الدولة العثمانية والياً جديداً على طرابلس يدعى «عثمان باشا»، وكانت طرابلس بيد «مصطفى آغا بربر» أحد حلفاء محمد علي، ومعه حامية للمدينة من الجند المصريين.

وما أن وصل الوالي الجديد إلى حلب حتى أخذ يعد جيشاً للانطلاق به نحو طرابلس، وكتب إلى الأمير بشير رسالة يستميله فيها لعلّه يعود فينحاز إلى الدولة في صراعها مع عزيز مصر، وقد جاءت رسالته زاخرة بعبارات الود والتفخيم والمجاملة، فهو «صاحب العطوفة والسعادة والمروءة والرأفة» وهو «أخي حميد المزايا، سلطاني وأميري الكريم». ويؤكد الوالي الجديد، في رسالته للأمير، أنه لم يدخر وسعاً في إطرائه والثناء عليه «بالصدق والأمانة

والدراية والفطانة» وبإخلاصه الشديد للدولة العليّة، وبأنه - أي الأمير - لا يريد قط «الانفصال عن الدولة بحال من الأحوال» وهو يعده أن يقوم بجميع ملتمساته «لدى الحكومة العثمانية»[٢٠].

واعتبر محمد علي تعيين والٍ جديد لطرابلس من قبل الدولة العثمانية تحدياً له غير مقبول، فكتب إلى ابنه ابراهيم يأمره بوجوب «طرد كل شخص يأتي إلى الأيالات التي وقعت بيده»[٢١]، وقد ألّف ابراهيم باشا، على أثر ذلك، مجلساً استشارياً، برئاسته، ضم كلاً من الأمير بشير، والمعلم يوحنا بحري، وعثمان بك. وقد قرّر هذا المجلس بعد درس طويل للموقف العسكري في البلاد ما يلي:

أ - تشكيل فرقة عسكرية من المشاة والمدفعية والخيّالة، وإرسالها إلى مرج ابن عامر ببلاد نابلس، وإلى القدس للقضاء على كل معارضة للحكم المصري في هذه البلاد.

ب - تكليف الأمير خليل ابن الأمير بشير الذهاب إلى طرابلس على رأس ألف مقاتل من رجاله لمساعدة حاميها في رد عثمان باشا إذا حاول دخولها.

ج - تعزيز حامية طرابلس، بالإضافة إلى ذلك، بخمسة بلوكات من المشاة، وتعزيز حامية بيروت ببلوكين.

د - إعداد جيش خاص بقيادة ابراهيم باشا نفسه لدعم حامية طرابلس إذا حاول الوالي الجديد دخولها عنوة.

هـ - إعداد جيش بقيادة الأمير أمين ابن الأمير بشير لاحتلال دمشق إذا أعلنت الدولة العثمانية الحرب على باشا مصر[٢٢].

و - تعيين حكام لكل من القدس ونابلس وبيروت وغيرها من المراكز المهمة، يحكمون هذه البلاد بالنيابة عن ابراهيم باشا.

ز - تكليف الأمير بشير «إدارة مصلحة البلاد» باسم ابراهيم باشا، وختم جميع المعاملات والأوراق والأوامر بختم ابراهيم باشا نفسه، وذلك لمعرفته بأحوال بر الشام واطلاعه التام على أوضاع سكانه ودقائق شؤونهم[٢٣].

وتنفيذاً لهذه القرارات، استدعى الأمير بشير ابنه الأمير خليلاً إلى عكا وكلّفه تنفيذ المهمة المناطة به، فعاد الأمير خليل إلى الشويفات حيث أعدّ جيشاً من «النكديين والتلاحقة والملكيين والخوازنة والجيشيين»[٢٤]، راوح عديده بين ألف وألف وخمسماية رجل، وسار به إلى طرابلس، وكان من قادة هذا الجيش، إلى جانب الأمير خليل، كل من الشيخ حمود النكدي والشيخ حسن تلحوق والشيخ يوسف الملكي، كل على رأس نفر من أقاربه[٢٥]، وكان قد سبق الأمير خليلاً إلى طرابلس، الألاي الثامن عشر المصري، فأصبح عديد حامية هذه المدينة، نحو ٦ الاف مقاتل[٢٦]، بينهم ألف رجل، على الأقل، من رجال الأمير بشير.

انطلق عثمان باشا من حلب نحو طرابلس على رأس «بضعة الاف مقاتل غير نظامي»[٢٧]، ولما وصل إلى اللاذقية أرسل «كاخيته» إلى عكار ليدعو أهلها للانضمام إليه، ثم انتقل من اللاذقية إلى طرابلس حيث عسكر بالقرب منها في بلدة «المنية»، وكتب إلى ضباط حامية طرابلس يدعوهم للتمرد على ابراهيم باشا و«الانقياد لأوامر الدولة العلية»[٢٨]، كما كتب إلى مصطفى آغا بربر كتاباً يدعوه فيه دعوة مماثلة، وما لبث أن تقدم بجيشه حتى وصل إلى أبواب المدينة[٢٩].

المعركة (٣١ آذار):

- تحركت طلائع جيش عثمان باشا نحو أسوار المدينة، فخرج إليها «إدريس بك» قائد الألاي الثامن عشر، بأورطة من جنده، واشتبك معها بالقتال.

- تظاهرت هذه الطلائع بالهزيمة وتراجعت، فلحق بها ادريس بك إلى السهل الواقع خارج المدينة شمالاً بشرق، وما أن توغلت الأورطة المصرية في مطاردة طلائع عثمان المتراجعة، حتى عادت هذه الأخيرة إلى الهجوم فجأة، فباغتت الأورطة المصرية المطارِدة فهزمتها ومزقتها وقضت على قسم كبير من رجالها.

- عندما رأى عثمان باشا طلائعه ترتد على جند إدريس بك فتهزمهم ثم تتابع تقدمها نحو المدينة، اندفع بدوره، مع جنده، للحاق بطلائعه، وانقض على أسوار المدينة يهاجمها، ثم أخذ يبني له أتراساً على تل تجاه المدينة.

- إلاّ أن الأمير خليلاً الشهابي لم يترك الفرصة لعثمان باشا كي يخترق أسوار المدينة أو يتمركز قبالتها، فخرج إليه برجاله وهاجم خيّالته الذين كانوا منتشرين في السهل فهزمهم، ثم ارتد على الأرناؤوط المتمركزين على التل فاقتلعهم منه وهزمهم كذلك، وظل يطارد فلول المنهزمين حتى البداوي شمال المدينة، ثم عاد برجاله إليها. وقد قتل، في هذه الوقعة، من رجال عثمان باشا ثلاثون رجلاً، كما قتل شيخ صافيتا الذي كان مع عثمان باشا، أما رجال الأمير فقد قتل منهم خمسة فقط[٣٠].

ولا بد من الإشارة إلى الرواية التي ذكرها «جوريل Jorelle» القائم بأعمال القنصلية الفرنسية ببيروت، في رسالتين منه إلى وزير الخارجية الفرنسية، الكونت سيباستياني، بتاريخ أول نيسان ١٨٣٢ وبتاريخ ١٠ منه، فقد ذكر «جوريل» أنه حدثت، بتاريخ ٢٨ اذار، مناوشات بين طلائع جيش عثمان باشا، وهي مؤلفة من مايتي خيّال، وبين حامية طرابلس، فقد اقتربت هذه الطلائع من قلعة المدينة لاستكشاف مواقع الحامية، إلا أن الحامية أطلقت عليها بعض طلقات المدفعية، ثم سارت إليها كتيبة من المشاة المصريين

انتشرت في حقول الزيتون تحت القلعة، وأطلقت عليها نيراناً كثيفة اضطرتها إلى الانسحاب بعد أن خسرت ثلاثة قتلى وعدداً من الجرحى، ولم تستمر هذه المناوشات أكثر من ساعتين انسحبت بعدها طلائع جيش عثمان باشا، وعادت الكتيبة المصرية إلى مواقعها مع جريحين فقط. ويتابع «جوريل» روايته ذاكراً أنه، بتاريخ ٣١ آذار، تقدم عثمان باشا نحو طرابلس بجيشه، وفي مقدمته خمس قطع من المدفعية التي ما أن أصبحت على بُعدِ عشرين دقيقة من المدينة حتى فتحت عليها نيرانها بغزارة، وقد سقطت قذائف تلك المدفعية على عدد من منازل المدينة فهدمتها، فتحرك نحو ألف وخمسماية جندي من المشاة المصريين بإمرة عقيد، ومعه الأمير خليل الشهابي على رأس أربعماية من رجاله، وخرجوا من المدينة لقتال المهاجمين، ودارت بين الفريقين معركة حامية استمرت ثلاث ساعات ونصفاً، وانتهت بانسحاب عثمان باشا بعد أن خلّف وراءه عدداً كبيراً من القتلى، وعاد المشاة المصريون بعد أن خسروا نحو مايتي رجل بين قتيل وجريح، أما الأمير خليل فقد خسر خمسة قتلى وثلاثين جريحاً[٣١].

ولما علم ابراهيم باشا بأنباء القتال في طرابلس، سار إليها على رأس جيش من عشرة آلاف مقاتل (آلاي الغارديا وآلاي الخيّالة السابع وستة مدافع)[٣٢]، فوصل إلى البترون في مطلع نيسان (١٨٣١) وبات فيها تلك الليلة، وما أن علم عثمان باشا بتوجّه القائد المصري لقتاله حتى أسرع في الرحيل شمالاً، تاركاً في معسكره بالمنية «خيامه وجرحاه ومقداراً من الذخائر والجبخانة»[٣٣]، ودخل ابراهيم باشا طرابلس في ٥ نيسان، فكلّف الأمير عبدالله الشهابي الذهاب إلى المنية وضبط مخلّفات عثمان باشا في معسكره، بينما جدّ هو في اللحاق بعثمان باشا إلى حمص[٣٤].

٣ - دور الأمير في قمع الاضطرابات بالشوف (نيسان ١٨٣٢):

إستطاع محمد باشا والي حلب أن يغري وجهاء الشوف وزعماءه بالخروج عن طاعة الأمير بشير وحليفه المصري، خصوصاً أنه - أي محمد باشا - أصدر مرسوماً بتعيين الشيخ نعمان ابن الشيخ بشير جنبلاط شيخاً على مشايخ الشوف، وعهد إليه إدارة حكومة «جبل الشوف وكسروان وما فيهما من الضياع والبلدان» بدلاً من الأمير بشير الذي ظهرت خيانته للدولة العليّة «بموافقة الفئة الباغية المصرية، وجسارته على الحركات الردية»، وقد ورد في المرسوم نفسه أن هذا التعيين قد تمّ بالاتفاق بين محمد باشا والي حلب وعبدالله باشا والي عكا[٣٥].

ويظهر أن هذا المرسوم قد فعل فعله في الشوف، فأسرع كثير من وجهائه (وخصوصاً الدروز منهم الذين لم يكونوا يوافقون الأمير بشيراً على تحالفه مع محمد علي) يعلنون ولاءهم للدولة العلية، وذلك برسائل رفعوها إلى محمد باشا والي حلب، أو تبادلوها فيما بينهم، وقد أثبت يوحنا بحري، أمين سر ابراهيم باشا، هذه الرسائل في تقرير رفعه إلى مكتب محمد علي باشا بمصر، بتاريخ ١٢ ذي القعدة ١٣٤٧هـ (نيسان ١٨٣٢م)، وظهر منها، في هذا التقرير، ست رسائل.

- **الأولى**: من بيت العماد إلى الشيخ أبو قاسم حمود والشيخ محمد أبو ناصيف بو نكد، ويعلق يوحنا بحري على هذه الرسالة بقوله: «بيت العماد هؤلاء مشايخ من الجبل الذين منهم الشيخ علي العماد الذي قتل مع الأمير بشير ومنهم حسن آغا العماد الذي كان بالمحروسة وتوفي، وبيت أبو نكد وأمثالهم». (ويظهر أن يوحنا بحري كان يقصد بالأمير بشير في تعليقه هذا، الشيخ بشير جنبلاط، الذي كان الشيخ علي العماد من حلفائه في حربه ضد الأمير بشير، وقتل في دمشق على يد واليها كما مرّ معنا).

- **الثانية:** من بيت العماد إلى مشايخ وأهالي المتن عموماً، ويعلق يوحنا بحري على هذه الرسالة بقوله «المتن هي إحدى مقاطعات جبل الدروز وأكثر الموجودين بها طوايف معلومين من الدروز».

- **الثالثة:** من بيت العماد إلى مشايخ بيت الأعور وحلفائهم من بيت هلال.

- **الرابعة:** إلى مشايخ بيت بو نكد، (الشيخ حمود والشيخ ناصيف)، ويعلق يوحنا بحري على هذه الرسالة بقوله: «هؤلاء تقرّر عنهم أول بأول هذا الجرنال، أنهم أقران بيت عماد، بل أقل منهم ما يقل، والشيخ ناصيف هو محضر هؤلاء التقارير».

- **الخامسة:** إلى الشيخ سلمان بحمد، ويعلق يوحنا بحري على هذه الرسالة بقوله: «هذا هو رجل فلاح من بيت بحمد وهم فلاحين أيضاً إنما كبير عيلته».

ويضيف يوحنا بحري على ما ورد في تقريره أن «هؤلاء التحارير جمعهم من دون تاريخ وإنما بحيث أن تاريخ مرسوم والي حلب في ٢١ شوال سنة ١٢٤٧ فهم محررين بعده».

- **السادسة:** من أولاد جنبلاط (المتقدم ذكرهم) إلى مشايخ بيت هلال وغرضيتهم، ويعلق يوحنا بحري على الرسالة بقوله: «هولاي بيت هلال فلاحين من قرايا المتن متفرقين، وهم دروز»[٣٦].

وقد تبيّن من هذه الرسائل جميعها أن الدروز بوجه عام، لم يكونوا راضين عن التحالف الذي تمّ بين أميرهم - الأمير بشير - والمصريين، فأظهروا استعدادهم للتعاون مع الدولة ضد هذا التحالف، بل إنهم تجاوبوا مع دعوة محمد باشا والي حلب للتمرد على الأمير وحلفائه وتقديم الخضوع

والطاعة للدولة العلية، والامتثال لأوامرها[٣٧]، فكان موقف الدروز هذا مدعاة للخلاف بينهم وبين النصارى في الشوف والجبل، وكان هؤلاء يؤازرون الأمير وحلفاءه، فوقعت حوادث بين الفئتين في كل من دير القمر والمتن وزحلة[٣٨] وصلت أنباؤها إلى مسامع الأمير في عكا وابراهيم باشا في بعلبك[٣٩]، وكان ابراهيم باشا قد غادر حمص إلى بعلبك بجيشه ليكون على مقربة من مركز تموين الجيش الذي أنشأه في زحلة وأقام على حراسته فرقة من رجال الأمير بشير بقيادة ابنه الأمير قاسم.

لقد كانت ردّة الفعل، بسبب حوادث الشوف والجبل، عند الزعيمين المتحالفين، مختلفة نوعاً، فقد وجّه الأمير بشير، إلى وجهاء الطائفتين في الشوف والجبل، انذاراً شديد اللهجة بوجوب الطاعة والخضوع والتزام الهدوء[٤٠]، إلا أنه، كما يبدو، لم يكن يرغب في دخول الجيش المصري إلى الشوف كيلا يؤدي ذلك إلى خراب البلاد وإرهاق العباد[٤١]، أما ابراهيم باشا، فقد أصدر أمراً ترجم إلى كل من التركية والعربية، وجاء فيه «إن طائفة الدروز القاطنين بالجبل قد بلغنا عنهم انهم قاموا بحركات رديئة، وثاروا، و... انهم صاروا أعداء ألداء لنا...» لذا، يجب «التوجه بعساكرنا المنصورة إلى بيت الدين لقمع ثورة هؤلاء الخبثاء وقطع دابرهم»[٤٢]. وكان الأمير بشير قد غادر عكا، إثر هذه الأحداث، إلي بعلبك، للتداول مع ابراهيم باشا بشأنها، وكان ابراهيم باشا في زحلة، فأرسل في طلب الأمير إليه للتداول معه فيما بلغ مسامعه «من عصيان أهالي جبل الدروز... واعتدائهم على النصارى القاطنين في الجبل»[٤٣]، ولما حضر الأمير بشير وفاتحه ابراهيم باشا بهذا الأمر «شرع الأمير في الكلام مبيناً تكذيب هذه الحوادث، وقال: إن الخطة التي قرّر الجناب العالي إنفاذها في هذا الخصوص لا حاجة إلى ذلك، وإزالة هذه القائلة من

فكر دولته بتاتاً»[٤٤]، إلا أن رسالة وردت من الأمير أمين إلى والده الأمير بشير أكّدت ما كان «بلغ مسامع الجناب العالي بشأن الدروز وانهم مصرّون على غيّهم وغرورهم»[٤٥]، فما كان على الأمير إلا أن يطلع ابراهيم باشا على مضمون هذه الرسالة كي يتخذ القرار الملائم بشأن هذه الأحداث.

وكان قرار ابراهيم باشا بهذا الصدد هو التوجّه بجيشه، وبرفقة الأمير بشير، إلى الشوف، لقمع الاضطرابات ووضع حد للتمرد فيه، ففرّ الجنبلاطيون والنكديون زعماء التمرد، كما فرّ معهم ثلاثماية من أتباعهم، إلى دمشق وحمص «لدى حضور السر عسكر والأمير بشير إلى بيت الدين»[٤٦]، بينما جاء باقي وجهاء البلاد إلى بيت الدين كي يقدموا الخضوع والولاء لابراهيم باشا وحليفه الأمير.

ولم يمكث ابراهيم باشا في الشوف طويلاً، بل عاد بجيشه إلى زحلة، إلا أنه أمر بنفي عدد من زعماء المعارضة في البلاد إلى معسكره بعكا، ومنهم: الأمير سعد الدين مراد والأمير بشير قايد بيه اللمعيين، والأمير أمين ارسلان والشيخ حسين تلحوق والشيخ يوسف عبد الملك[٤٧]، كما أمر بمداهمة منازل كل من الأمراء بشير الشهابي (الصغير) وسلمان سيد أحمد وحسن أسعد (الشهابيين) كي يقبض عليهم ويساقوا إلى بيروت فيحتجزوا فيها، وذلك لعلمه أنهم يتآمرون مع عساكر السلطان ضده[٤٨]، وأمر كذلك بهدم منازل النكديين والجنبلاطيين والعماديين في كل من دير القمر وكفرنبرخ والمختارة[٤٩].

وهكذا استطاع ابراهيم باشا اخماد ثورة الدروز في الشوف ضدّه قبل أن تستعر، فعاد إلى بعلبك مطمئناً كي ينظّم قواته فيها، وكان قد تجمّع لديه منها: أربع آلايات مشاة، وألايا خيّالة، ومدفعية كاملة (ثلاث بطاريات)[٥٠].

٤ - دور الأمير في احتلال دمشق (حزيران ١٨٣٢):

إستطاع ابراهيم باشا أن ينهي الاضطرابات في جبل الدروز بسرعة وبحزم بفضل بسالته[٥١]، فعاد إلى بعلبك لينظم جيشه كما قدّمنا، إلا أن رسالة وصلته من والده يطلب منه فيها الاهتمام بقضية عكا واحتلالها قبل تدخل الدول الأجنبية في هذه المسألة، وذلك وفقاً لما أسرّ به إلى محمد علي «بعض المحبين من الأجانب»[٥٢]، فعاد ابراهيم باشا إلى عكا فوراً حيث أشرف بنفسه على أعمال الحصار وأخذ يعدّ العدّة اللازمة لاحتلالها، ولم يكن قد بقي على أسوار المدينة، بعد ذهاب ابراهيم باشا إلى طرابلس، سوى عشرة آلاف مقاتل بقيادة اللواء ابراهيم يكن باشا، وحاول ابراهيم باشا أن يستأنف المفاوضات مع عبدالله باشا المحاصَر في داخل عكا إلا أن هذا الأخير رفض ذلك، عندها أخذ يضيق الحصار على المدينة ويقصفها بمختلف أنواع المدافع ويدك أسوارها ومنازلها بقذائفه، ثم شنّ في صباح ٢٧ أيار (١٨٣٢) هجوماً عاماً على المدينة استطاع رجاله، بواسطته، أن يخترقوا أسوارها ويتسلقوها إلى الداخل، حيث دار بين الفريقين قتال عنيف لم يلبث أن انتهى باستسلام المدينة ليل ٢٧ - ٢٨ أيار[٥٣].

بعد سقوط عكا، لم يعد أمام ابراهيم باشا أي عائق يعيق تقدمه، أما خطة التقدم فقد حدّدها له والده في رسائله، إذ خيّره بين أن يتابع الزحف لاحتلال حمص وحماه وحلب، أو أن يبدأ بالاستيلاء على دمشق «لأنها مركز الحكومة»[٥٤]، وجمع ابراهيم باشا مجلسه الاستشاري المؤلف من «الأمير بشير الشهابي وقواد الجيش»[٥٥]، حيث قرّر بعدها أنه «لا بدّ من الاستيلاء على دمشق أولاً ومتابعة الزحف بعد ذلك نحو الشمال لمطاردة العدو»[٥٦]، ثم عاد فجمع مجلساً استشارياً آخر برئاسته وبعضوية كل من الأمير بشير ومتسلمي

حاصبيا وراشيا، فوافق هذا المجلس على خطة ابراهيم باشا بالبدء بدمشق. وكتب ابراهيم إلى والده يخبره بقراره هذا، وباستعداده «للزحف على دمشق»[٥٧]، فتلقى، بسرعة، جواباً من والده، بالموافقة على خطته تلك «لأنها توصل الحكومة إلى صوب مقصودها وتنيلها مرامها»[٥٨]، كما تلقى، في اليوم التالي، «أمراً بالزحف على دمشق لتطهيرها»[٥٩].

ويتبيّن لنا، من الوثائق الموجودة بين أيدينا، أنه، لما كان عزيز مصر يعير اهتماماً لرأي الأمير بشير في شؤون بلاد الشام، فقد كان يطلب من ابنه ابراهيم، باستمرار، أن يستشير الأمير في الشؤون العائدة لهذه البلاد، فهو يأمره، في رسالة منه بتاريخ ٨ محرم ١٢٤٨هـ (٧ حزيران ١٨٣٢) أن يعقد مجلساً استشارياً مؤلفاً من «الأمير بشير الشهابي ومير لواء يوحنا بحري» للتداول في التدابير المتوجب اتخاذها إزاء الموقف ببلاد الشام[٦٠]، ثم يرى، في رسالة أخرى منه لابراهيم، أنه لا بد من استشارة الأمير بشير «إذ لا يوجد أحد سواه يصلح للاستشارة»[٦١]، كما انه لا ينسى أن يهدي سلامه «إلى الأمير بشير وشيوخ البلاد وأمراء الألوية» ويحتم عليهم جميعاً «التضامن وبذل الجهد لإتمام هذه المسألة التي ستعود بالخير على الأمة المحمدية»[٦٢].

المعركة (١٣ حزيران ١٨٣٢):

التقدم نحو دمشق:

قسم ابراهيم باشا جيشه المتوجّه نحو دمشق، في التاسع من حزيران (١٨٣٢) إلى ٣ أقسام:

- الأول، بقيادته، ويتألف من ٩ آلاف جندي نظامي و٣ آلاف خيال بدوي، وقد انتقل بهذا الجيش من عكا إلى الرامة فجسر بنات يعقوب فالقنيطرة فخان سعسع، فداريا بالقرب من دمشق.

- الثاني، بقيادة الأمير بشير، ويتألف من «بضعة الاف» من رجال الأمير، وبصحبته ولده الأمير خليل والأميران أمين ومحمد الارسلانيان، وقد انتقل هذا الجيش من بيت الدين إلى وادي الحرير فوادي القرن فداريا.
- الثالث، الاحتياط، ويتألف من:
- احتياط أول أو قريب، بقيادة عباس باشا، وقيادته في بعلبك.
- احتياط ثان أو بعيد، بقيادة حسن بك المناستولي، وقيادته في طرابلس[٦٣].

القتال:

لم يكن الدمشقيون متحمسين لقتال ابراهيم باشا، لذلك لم ينفع تحريض علو باشا (أو علّوش باشا) والي دمشق، لهم، على القتال. ورغم أن قسماً منهم قد استجاب لدعوة الوالي ولدعوة بعض أعيان المدينة مثل محمد جوربجي آغا[٦٤]، إلا أن الذين انصاعوا للوالي وللأعيان وخرجوا إلى داريا لقتال المهاجمين لم يكونوا يتعدون الثمانماية خيّال «وبضعة آلاف من المشاة»[٦٥] وهكذا، فما أن سلط ابراهيم باشا عليهم «أورطة» من جيشه النظامي، وثلة من خيّالة البدو، حتى فرّوا هاربين لا يلوون على شيء «في ظرف ساعة من الزمن»[٦٦]، واستسلمت المدينة في مساء اليوم نفسه (١٣ حزيران) بعد أن فرّ منها واليها وقاضيها ومفتيها ومعظم وجهائها.

وفي صباح اليوم التالي (١٤ حزيران) دخل ابراهيم باشا دمشق على رأس «ألاي الغارديا» (الحرس)، وفي طليعة موكبه: الأمير بشير ورجاله، فاستقبل بطلقات المدافع من قلعة دمشق تحية له، ثم عيّن أحمد بك ابن الكنج

يوسف باشا (والي دمشق سابقاً) متسلماً من قبله على المدينة، واستقبل من بقي في المدينة من أعيانها فعفا عنهم، كما أمر بنفي عدد من أولاد الزعماء الدمشقيين «الذين نكثوا بوعودهم للسلطات المصرية»(٦٧)، وأبعد عن دمشق «كل من خشي أمره»(٦٨).

٥ - دور الأمير في احتلال حمص (٨ تموز ١٨٣٢):

التقدم نحو حمص:

أ - قوات ابراهيم باشا:

تقدم ابراهيم باشا بقواته نحو حمص على ٣ محاور:

- **المحور الأول:** دمشق - القطيفة - النبك - حسية - حمص، وكانت القوات المتقدمة على هذا المحور بقيادة ابراهيم باشا نفسه، ويؤازره الأمير بشير برجاله.
- **المحور الثاني:** بعلبك - القصير - حمص، وكانت القوات المتقدمة على هذا المحور بقيادة عباس باشا قائد الاحتياط الأول في بعلبك.
- **المحور الثالث:** طرابلس - حمص، وكانت القوات المتقدمة على هذا المحور بقيادة حسن المناستولي قائد الاحتياط الثاني في طرابلس.

ب - القوات العثمانية:

كانت معظم القوات العثمانية لا تزال معسكرة في انطاكية بقيادة السردار الأكرم قائد القوات العثمانية، بينما كانت قوات ابراهيم باشا تتقدم نحو حمص، إلا أن طلائع الجيش العثماني، بقيادة محمد باشا، كانت قد وصلت إلى حمص، ونزلت عند تل «النبي مندو» بالقرب من نهر العاصي(٦٩).

وقد قدّر مشاقة عديد قوات ابراهيم باشا، بما فيها قوات الأمير بشير، بعشرين ألف مقاتل، إلا أنه قدّر عديد القوات العثمانية بأكثر من ذلك، إذ قدّر

خيّالة الأتراك فقط بخمسة عشر ألفاً، أما مشاتهم فقد قال عنهم أنهم «أكثر عدداً» من «عسكر مصر النظامي»(٧٠). ولكن «غوين Gouin» قدّر قوّة المصريين بثلاثين ألف مقاتل، أما قوّة العثمانيين فقد قدّرها بخمسة وعشرين ألفاً، منها ١٠٤٧١ جندياً نظامياً فقط(٧١).

الاستعداد للقتال:

أ - خطة الدفاع العثمانية:

وضع محمد باشا خطة للدفاع عن حمص، مكتفياً لذلك بطلائع الجيش التي كانت بقيادته، وبمعزل عن معظم الجيش الذي كان لا يزال بعيداً عن ساحة المعركة، في انطاكية. وقد وضع الخطة كما يلي:

- إختار السهل الواقع جنوب حمص والمسمّى بسهل «بابا عمرو» مكاناً لملاقاة العدو.
- قسّم ساحة المعركة إلى ثلاثة خطوط دفاعيّة.
- **خط الدفاع الأول:** على جانبي طريق دمشق - حمص المارة في السهل المذكور، بحيث كانت ميمنته على العاصي «والترعة المتفرعة منه» وميسرته على حدود الصحراء، وقد حشد في هذا الخط أربع ألايات مشاة.
- **خط الدفاع الثاني:** خلف الخط الأول، وقد حشد فيه ألايي مشاة وألاي خيّالة.
- **خط الدفاع الثالث:** خلف الخط الثاني، بين العاصي غرباً وإحدى القرى المتهدّمة الواقعة على بعد ١٨٠٠ متر عن قلعة حمص، جنوباً بشرق، وقد حشد في هذا الخط قواته غير النظامية مع ألاي من الخيّالة النظاميّة.

- عزز محمد باشا كل أورطة من مشاته بمدفع، وكل ألاي خيالة بمدفعين، وركّز ٢١ مدفعاً في مراكز مختلفةٍ، خلف خطوطه الثلاثة.

ب - خطة الهجوم المصريّة:

كانت قوات ابراهيم باشا قد وصلت، بكاملها، إلى القصير، جنوب حمص، في السابع من تموز. وفي صباح الثامن منه، كان القائد المصري قد رتّب قواته، باتجاه حمص، المشاة في القلب، والخيّالة في ميمنة المشاة وميسرتهم، وفقاً للترتيب التالي:

في القلب: - الرعيل الأول: ٣ ألايات مشاة (الثاني عشر والثالث عشر والثامن عشر).

- الرعيل الثاني: ألايا مشاة (الخامس والحادي عشر) وألاي الغارديا.

في الميمنة: - ٣ ألايات خيّالة، بقيادة عباس باشا.

في الميسرة: - ٣ ألايات خيّالة، بقيادة يكن أحمد باشا.

في الاحتياط: - الألاي الثامن مشاة وقوات غير نظامية من البدو.

رعيل الذخائر والمؤن (٣ آلاف جمل): خلف رعائل القتال، بحراسة الأمير بشير وبقية الأمراء ورجالهم.

- **المساندة النارية:** ٣ بطاريات مدفعيّة خلف الرعيل الأول (٤٣ مدفعاً)، و٤ بطاريات مدفعيّة مع قذافين (Obusiers) خلف الرعيل الثاني.

- **شكل انتشار القوى:** بالأورط (الكتائب)، وفي كل ألاي: «شكل قوس مزدوج مفتوح غير كامل الانتشار».

- **مركز القائد:** في وسط الجيش، وعلى تل قطينة[٧٣].

أ - القتال:

كانت ميسرة القوات العثمانية مكشوفة بحيث يسهّل على القوات المصريّة ضربها أو الإلتفاف عليها، بينما لم يكن من السهل ضرب ميمنة تلك القوات المرتكزة على العاصي، لذا، وضع القائد المصري، لتنفيذ الهجوم، المناورة التالية:

- القيام بهجوم ثانوي أو تضليلي على ميمنة العدو.
- القيام بهجوم رئيسي على قلب العدو.
- القيام بحركة التفاف على ميسرة العدو.

وقد نفّذ ابراهيم باشا مناورته هذه على الشكل التالي:

- أمر ميسرته بشن هجوم صاعق على ميمنة العدو لإيهامه بأن الهجوم الرئيسي هو على هذا المحور؛ وبينما كان العدو منشغلاً بصد هذا الهجوم:

- أمر قلب جيشه بأن يحمل بعنف على قلب جيش العدو، وفي الوقت نفسه:

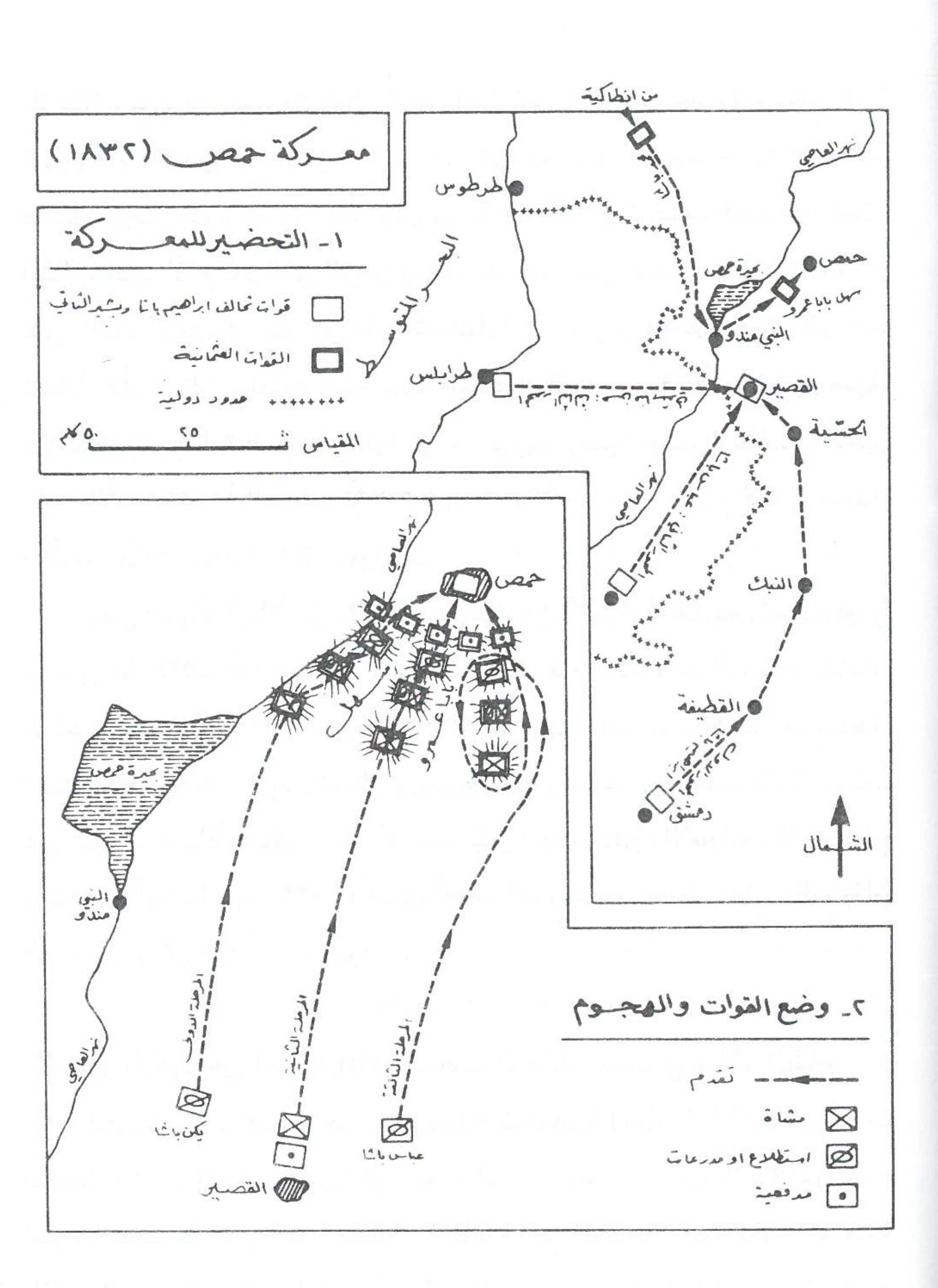
- إنطلق بنفسه، على رأس قوات من المشاة والخيّالة والمدفعيّة، ليقوم بحركة التفاف بارعة على ميسرة العدو، فاقتحمت خيّالته مواقع ميسرة العدو في خطوط دفاعه الثلاثة، متجاوزة القرية المتهدّمة حيث ينتهي خط دفاعه الثالث والأخير، ثم شنّت هجوماً صاعقا على خيّالة الأتراك المتمركزين في ميسرة ذلك الخط، ففوجئوا ولم يتمكنوا من المقاومة فتقهقروا منهزمين، وانهارت ميسرة الجيش العثماني بعدهم وتقهقرت، فاحتل المصريون مواقع هذا الجيش شمال القرية المذكورة وحتى حدود مدينة حمص.

- بعدما انهارت ميسرة الأتراك أمام الهجوم المصري، لم يبق أمام قلب الجيش العثماني إلا أن يتراجع بدوره متقهقراً دون أن يسمح له القائد المصري بإعداد أي هجوم ردي ما، وقد حاول محمد باشا، قائد الجيش العثماني، أن

يقوم، بخيّالته، بهجوم ردي على ميمنة المصريين، إلاّ أن عباس باشا ردّ، بخيّالته، ذلك الهجوم، وأكره المهاجمين على التراجع، فانثنى قلب الجيش العثماني عندها وتقهقر تحت وطأة هجوم المصريين ونيرانهم. وما أن بدأ الليل يرخي سدوله على ساحة القتال، حتى كان محمد باشا، القائد العثماني، يغادر ساحة المعركة على ظهر جواده، إلى حمص، مولياً ظهره لقادته وجنده الذين سرعان ما حذوا حذوه واقتفوا أثره، وخلت ساحة القتال للجيش المنتصر الذي أكمل تقدمه نحو حمص، فدخلها، في صباح اليوم التالي (٩ تموز) وفي طليعة قواته: الأمير بشير، الذي أوكل إليه القائد المصري أمر المدينة المفتوحة، فاستقر الأمير في سراي المدينة، حيث أمر بدفن القتلى، وسوق الجرحى والأسرى إلى عكا (بحراسة من رجاله بقيادة الشيخ حسين تلحوق)، ثم ضبط مخلفات الوزراء والقادة المنهزمين[٧٤].

ويذكر أبو عز الدين، استناداً إلى «غوين Gouin» أن العثمانيين خسروا في هذه المعركة نحو ألفي قتيل وألفين وخمسماية أسير، أما الجيش المصري فقد خسر ماية واثنين من القتلى وستين جريحاً[٧٥]. إلا أن ابراهيم باشا نفسه، يذكر، في رسالة منه لأبيه بتاريخ ١٠ صفر ١٢٤٨هـ (٩ تموز ١٨٣٢م)، أن خسائر العثمانيين في هذه المعركة كانت أكثر من ألف وخمسماية بين قتيل وجريح، وأكثر من ألفين وخمسماية أسير، هذا بالإضافة إلى استيلائه على «أطوابهم وخيامهم وجبخاناتهم وسائر ذخائرهم»[٧٦]. ويحدّد أبو عز الدين عدد المدافع التي غنمها ابراهيم باشا في هذه المعركة، بواحد وعشرين مدفعاً، وذلك استناداً إلى «غوين Gouin» نفسه[٧٧].

وبعد المعركة، ظلّ الأمير بشير بحمص يدير شؤون الحكم فيها باسم ابراهيم باشا، بينما تابع القائد المصري تقدمه في بلاد الشام، فدخل حماة



بلا قتال، ثم دخل حلب بلا قتال كذلك (١٥ تموز)، واحتل بعد ذلك بيلان (٢٩ تموز) فالإسكندرونة وباياس وانطاكية واللاذقية، وتوجّه صوب حدود الأناضول فاحتل أورفة وعينتاب ومرعش وقيصرية وأدنة على الحدود الشمالية لبلاد الشام، حيث أقام فترة من الزمن يستعد للزحف على بلاد الأناضول[٧٨]. وكان على القائد المصري، بعد كل هذه الانتصارات، أن يؤمن مؤخرة جيشه الزاحف شمالاً، فأوكل إلى حلفائه حكم بلاد الشام، وكانت حصة الأمير بشير منها، بالإضافة إلى إمارة الشوف، إدارة كل من بيروت وصيدا وصور، فانتدب الأمير بشير الأمير ملحماً الشهابي لإدارة بيروت، والأمير بشير قاسم لإدارة صيدا، والأمير حسن أسعد لإدارة صور[٧٩].

ومن المؤكّد أن الأمير بشيراً، ومن معه من الأمراء ورجالهم، لم يتجاوزوا حمص بعد ذلك، أما ابراهيم باشا فقد استأنف زحفه نحو الآستانة، فاحتل كوتاهية بلا قتال (٢٠ كانون الأول ١٨٣٢)، حيث أصبحت الآستانة، بعدها، تحت رحمته، مما أدى إلى تدخل أوروبي واسع فرض على ابراهيم باشا التوقف عن الزحف شمالاً، وعقد معاهدة صلح بين محمد علي والآستانة، فكان صلح كوتاهية (أواسط أيار ١٨٣٣) الذي أوقف الحرب بين محمد علي والسلطان العثماني، ولكن إلى أمد قصير[٨٠].

٦ - دور الأمير في إخماد الثورات ضد الحكم المصري لبلاد الشام:

لم يكد يمرّ عام واحد على صلح كوتاهية (أيار ١٨٣٣) حتى بدأت الاضطرابات والثورات تتفجّر في جميع أنحاء البلاد الشامية، وكان من أهم أسباب تفجيرها القرارات الصعبة والظالمة التي اتخذها محمد علي والمتعلقة بإدارة الحكم في هذه البلاد (احتكار الحرير - تحصيل الفردة والميري -

السخرة - التجنيد - نزع السلاح)، مما أفسد على ابراهيم باشا خطته الحكيمة في إدارة البلاد وفي اجتذاب أهلها لجانب الحكم المصري الذي كان من المفترض أن ينسيهم مظالم الحكم العثماني وأهواله، وقد استغل الباب العالي تذمر الناس من ظلم قرارات محمد علي وجورها، كما استغلتها الدول الأوروبية المتحالفة مع الباب العالي، فنشرت هذه الدول جواسيسها وعملاءها في صفوف هؤلاء الناس، على اختلاف طبقاتهم، تستفزهم للثورة على الحكم المصري، وتمدهم بالسلاح والمال[٨١]. هذا بالإضافة إلى سوء الإدارة التي مني بها الحكم المصري، وقد تراكمت كل هذه الأمور لكي تجعل الثورة على المصريين في بلاد الشام أمراً ميسوراً وشرعياً ومستحسناً في نظر الغالبية العظمى من أهل البلاد. ولا يهمنا، في هذا المجال، دراسة هذه الثورة (أو الثورات) بقدر ما تهمنا دراسة علاقة الأمير الشهابي بها ودوره في إخمادها.

أ - دور الأمير في إخماد الثورة بصفد (تموز وآب ١٨٣٤):

لم تكد قرارات محمد علي تصل إلى مسامع أهالي بلاد الشام حتى بدأت إمارات الثورة تظهر في الأفق منذرة بشر مستطير، وزاد من غليان النفوس وتأجج الثورة فيها إصرار ابراهيم باشا على تنفيذ قرارات والده بحذافيرها، وكانت فلسطين المسرح الأول للاضطرابات في بلاد الشام بعد اعلان هذه القرارات والبدء بتنفيذها، وظهرت تلك الاضطرابات، أول ما ظهرت، بين القبائل الرحل في بادية الشام وحوران وشرق الأردن، ثم عند عرب الكرك والخليل، وسرعان ما تفشت الثورة وانتشرت، فانضم إليها زعماء جبال القدس ونابلس والخليل كآل طوقان وآل الجرار وآل أبي غوش وآل القاسم[٨٢]. ولم تكن أسباب هذه الثورة عائدة للقرارات العزيزية فحسب، فقد كان لكل من الزعماء، بالإضافة إلى السبب المعلن، وهو رفض

القرارات، أسبابه الخاصة به، وكثيراً ما كانت حقداً شخصياً لفعلة أو لتصرف بدر من الحكم المصري تجاه هذا الزعيم أو ذاك. ومهما يكن من أمر، فقد عمت الثورة فلسطين كلها، وغرق ابراهيم باشا في دوامة من القلق اضطرته لأن يكتب إلى والده يستنجد به[٨٣]، فأنجده محمد علي بنفسه مع قوّة من الجند (قدرت بخمسة عشر ألف مقاتل) وصلت إلى يافا بحراً من الاسكندرية في ٣٠ حزيران[٨٤].

ويظهر أن شكوك المصريين بدأت تحوم حول موقف الأمير بشير وابنه الأمير خليل من الثورة منذ نشوبها، وخصوصاً في صفد، حيث كان للأمير بشير، وابنه الأمير خليل، أنصار وأصدقاء من أعيان تلك المنطقة ووجهائها، فقد كتب يوحنا بحري (من أركان ابراهيم باشا) إلى (سامي بك) في القيادة العامة بمصر، يفيده أن «عرب الشام» الثائرين حاولوا الاتصال بأهالي حوران لحضّهم على الثورة وأن الأمير بشيراً سعى لإحباط هذه المحاولة، إلا أنه يذكر، في الرسالة نفسها، أن أعيان صفد «حرّروا عريضة إلى الأمير خليل الشهابي يحثونه فيها على الإشتراك معهم في أعمال الثورة، وأن الأمير بشيراً زجّ حاملها في السجن وردّ عليها بالتهديد والوعيد»[٨٥]. وهذا ما حدا باللواء علي بك لأن يكتب إلى محمد علي باشا رسالة يرى فيها «أن المصلحة تقضي باطلاع الأمير بشير على أخبار الثورة كما يرويها السر عسكر كي يعيد وعيه ولا يعرض نفسه إلى البلاء في شيخوخته»[٨٦]. وهذا ما دعا، كذلك، محمد علي، لأن يطلب من الأمير بشير أن يحضر إليه فور وصوله إلى يافا «للتداول معه بشؤون فلسطين»[٨٧]، فكتب الأمير إليه كتاباً يعتذر له فيه عن عدم تمكنه من المثول أمامه بنفسه، ويبرّر ذلك بكونه قد تشاور مع «الميرلوا بحري بك» بهذا الصدد، وقرّ الرأي أنه

من الأفضل أن يتوجّه ابنه إلى يافا، وأن يبقى هو «محافظاً وملاحظاً» على البلاد، ولذا، يقول الأمير «قد وجهنا عبدكم ولدنا أمين صحبة جناب المحب رفيق دولتكم بحري بك... فإن كان سعادتكم تروا أن توجّه ولدنا كافياً ونبقى نحن متربصين بمكاننا لأجل ضبط الأطراف فالأمر أمر سعادتكم، وإن كان لم يزل مقتضياً حضور عبدكم للثم أذيالم فأمرونا بذلك لكي حالاً نبادر لذلك على جناح السرعة...»[٨٨].

وما أن وصل محمد علي إلى يافا، حتى مثل الأمير أمين بين يديه واضعاً نفسه ورجاله بتصرف عزيز مصر، فأمر محمد علي الأمير أميناً «بتأديب الأشقياء في صفد»[٨٩]. وبعد خلوة استمرت ساعتين بين الباشا والأمير، غادر الأمير أمين يافا عائداً إلى بلاده ليبلغ والده أوامر عزيز مصر، فأعدّ الأمير بشير قوّة من رجاله قدّرت بخمسة آلاف مقاتل سار على رأسها (بتاريخ ١٦ تموز) إلى صيدا حيث تلقى أمراً بإرسال ابنه الأمير خليل، بألفين من رجاله (ألف منهم من كسروان) لقمع ثورة النصيرية بالشمال، أما الأمير بشير، فقد تابع تقدّمه، بجيشه، إلى «جسر القعقعية» حيث أرسل إلى زعماء صفد ووجهائها الثائرين يطلب منهم الخضوع والطاعة، فأرسلوا إليه أحد زعمائهم، الشيخ صالح الترشيحي (قاضي ترشيحا) الذي فاوض الأمير واتفق معه على عودة البلاد إلى الهدوء والسكينة، ثم أرسل الأمير قوّة لاحتلال صفد فاحتلتها وقبضت على عدد من الذين قادوا أعمال الشغب فيها، وعيّن محافظاً عليها، وفعل مثل ذلك في جميع قرى الشاغور والجبل وساحل عكا وطبريا، حتى الناصرة، وكتب إلى محمد علي كتاباً ينبئه فيه «بانقطاع دابر الفساد» في البلاد[٩٠]، وهكذا، فقد نجح الأمير في «إخماد نار الفتنة في أيالة صيدا» وظل بعد ذلك «يواصل أعمال التطهير» في تلك الأيالة «فيقبض على المحرّضين ويرسلهم إلى عكا»[٩١].

ب - دور الأمير في إخماد الثورة بطرابلس وعكار (تموز - أيلول ١٨٣٤):

اندلعت الثورة في طرابلس وعكار بعد اندلاعها في فلسطين مباشرة، حيث أخذ الأهالي يعتدون على الحامية المصرية في طرابلس ومن يحالفها من المسيحيين فيها، فانسحبت الحامية المصرية من المدينة إلى بلدة «الميناء» على الساحل وتحصنت فيها بانتظار التعزيزات، أما المسيحيون المناصرون للمصريين فقد هربوا إلى الجبال الواقعة شرق المدينة.

وكان محمد علي بيافا عندما وصلته أنباء الثورة في طرابلس وعكار، فأمر الأمير بشيراً أن يرسل ابنه الأمير خليلاً برجاله لكي يعزّز الحامية المصرية في طرابلس ويخمد الثورة فيها، فقام الأمير خليل على رأس ألف من رجاله إلى تلك المدينة في منتصف تموز[٩٢]، ولما وصل إليها، انضم، مع رجاله، إلى قائد الحامية المصرية «اللواء سليم بك»، وعملوا جميعاً على إخماد الثورة في المدينة، فقبضوا على سبعة وخمسين من زعماء الثورة وقادتها وزجوهم في السجن ومن هؤلاء: الحاج عبدالله ومصطفى ملك والحاج مصطفى الأدهمي ومحمد الزوق وخليل الثمين أمين الفتوى وغيرهم، ودخل أهالي طرابلس «في الطاعة» بعد ذلك[٩٣].

ومن طرابلس، سار اللواء سليم بك والأمير خليل إلى عكار، في ٢٣ ربيع الأول (أواخر تموز)، وما أن علم زعماء الثوار بقدوم هذه الحملة إلى ديارهم حتى فرّوا هاربين من وجهها، فألقى اللواء سليم بك القبض على «سعيد بك ومحمد بك وسعدين آغا وأخيه حسن آغا» وجمع أسلحتهم ثم ألقاهم في سجن القلعة بطرابلس[٩٤]، وقد أصيب الأمير خليل بعد ذلك بمرض منعه من متابعة المهمة فعاد هو ورجاله إلى بيت الدين في العاشر من أيلول[٩٥]، أما ابراهيم باشا فقد أمر بإعدام السجناء من زعماء الثورة في طرابلس وعكار، فأعدموا في ساحة الملاحة بطرابلس «إرهاباً»[٩٦].

ويذكر، في هذا المجال، أن محاولات عثمانية جرت لإغراء الأمير بتخليه عن ابراهيم باشا وانحيازه للعثمانيين، فقد كتب إليه أحد رجال الدولة العثمانية «أحمد الحواري باشي» رسالة يبلغه فيها محبة «محمد رشيد باشا» الصدر الأعظم له، وعطفه عليه، ويدعوه للانضمام إلى العثمانيين في قتالهم ضد المصريين، ثم يقول: «فإن كان الصبر والاجتناب حصل عنكم من خصوص بعض المواد السابق لا تخاف ولا تأسف من كل جهة، أنا بإذن الله متكفل لكم كما شئتم»[٩٧]، ولكن الأمير ألقى القبض على حامل الرسالة وأرسله إلى سجن عكا، ثم كتب إلى «يوحنا بحري»، أمين سر ابراهيم باشا، بهذا الشأن، مرفقاً رسالته بالرسالة الواردة إليه من أحمد الحواري المذكور (أو أحمد الهواري) طالباً منه إيصالها إلى ابراهيم باشا، ومشيراً إلى أن هذه الرسالة هي من الصدر الأعظم بالذات، وانها كتبت باسم الهواري خشية من وقوعها بيد المصريين، كما أشار الأمير، في رسالته، إلى المعلومات التي أسرّها إليه حامل الرسالة عن وجود محمد رشيد باشا، في ملاطية، مع «عساكر وافرة»[٩٨].

ج - دور الأمير في إخماد الثورة ببلاد النصيرية (آب - كانون الأول ١٨٣٤):

كان اللواء سليم بك قد تابع مهمته في إخماد الثورة فانتقل بجيشه من عكار إلى صافيتا والحصن، وألقى القبض على متسلم عكار مصطفى بك الأسعد وعلى متسلمي الحصن وصافيتا الشيخ دندش والشيخ خضر وأرسلهم جميعاً إلى قلعة طرابلس، ولم يكد ينتهي شهر ربيع الأول ١٢٥٠هـ (الأسبوع الأول من آب ١٨٣٤م) حتى كانت الثورة قد أخمدت في كل من «طرابلس وعكار وصافيتا» وذهب شيوخ صافيتا إلى طرابلس «للدخول في الطاعة ولتقبيل مواطئ أقدام السر عسكر»[٩٩].

ولكن سرعان ما انتقلت الثورة إلي اللاذقية وجبلة وبانياس وطرطوس من بلاد النصيرية، وأخذ الثوار يهاجمون العسكر المصري والممتلكات الحكومية والمسيحيين المتعاطفين مع الحكم المصري، كما نهبوا منازل الضباط وحاصروا متسلم اللاذقية في داره[١٠٠]، ولم يكن اللواء سليم بك، بما لديه من قوات، قادراً على الوقوف في وجه هذه الثورة، فاستنجد بابراهيم باشا الذي أنجده بسليم باشا، قائد القوات المصرية في شمال سوريا، فأوفد سليم باشا، لهذه الغاية، ألاي المشاة العاشر من حماة وثلاثماية من فرسانه الهناديين من جسر الشغور[١٠١].

وبالإضافة إلى ذلك، فقد أمر ابراهيم باشا الأمير بشيراً أن يوجّه قوّة من رجاله، بقيادة أحد أولاده، لتعزيز قوات اللواء سليم بك في تلك النواحي، فأرسل الأمير بشير، ابنه الأمير خليلاً، بتاريخ ٢٠ تشرين الأول (١٨٣٤)، على رأس قوّة من «عشرة آلاف مقاتل» وقيل ثلاثة الاف فقط[١٠٢]، وانضم إليه، من الشهابيين، الأمراء أفندي وجهجاه وسعد الدين وأحمد، ومعهم رجال من وادي التيم، وقد انطلقت هذه القوّة، بقيادة الأمير خليل، إلى منطقة الثوار «للتعاون مع اللواء سليم بك» فوصلت إلى اللاذقية في ٢٧ جمادى الآخرة ١٢٥٠هـ (أوائل تشرين الثاني ١٨٣٤م)، ثم انتقلت منها إلى بلاد النصيرية في ٦ رجب (٨ تشرين الثاني) حيث عسكرت هذه القوة في منطقة البهلولية، ففر النصيرية من وجه عسكر الأمير تاركين «مواشيهم وغلالهم وأمتعتهم»، فأحرق لهم الأمير خمس عشرة قرية «وقطع أرزاقهم»[١٠٣].

أما اللواء سليم بك، فكان قد دخل بجيشه بانياس وقلعة المرقب، فأعدم عبدالله آغا محافظ القلعة بناء لأوامر من ابراهيم باشا[١٠٤]، كما أعدم بعض الثائرين مثل أحمد قارقور والأمير اصلان وطه كتخدا عبدالله آغا، ثم تابع

تقدمه نحو اللاذقية «ليقتص من عصاة المقاطعات... ومن تآمر معهم من سكان اللاذقية»[١٠٥].

وأرسل الأمير خليل، بعد وصوله إلى البهلولية، فرقة من رجاله تقدر بنحو ألف مقاتل بقيادة الأمير جهجاه (أحد أمراء حاصبيا) فأحرقت من قرى النصيرية ما يقدر بنحو ثلاثين قرية، وفرّ النصيريون تاركين قراهم طعمة لنيران المهاجمين، وفي اليوم التالي، قام الأمير خليل، بنفسه، ومعه الأمير أفندي (أمير راشيا) وبعض الخيّالة المصريين، وبعض خيّالة عرب الهنادي، واشتبك مع الثوار في قرية «منبايا»، فانهزم الثوار بعد أن قتل منهم خمسة رجال، كما قتل اثنان من رجال الأمير وثلاثة من الخيّالة المصريين، وأحرق الأمير بعد ذلك نحو خمسين قرية من قراهم[١٠٦].

وقام الأمير، واللواء سليم بك، بعد ذلك بأيام، من البهلولية، إلى مقاطعة صهيون، حيث خيّما بعسكرهما في قرية «الحفة»، ثم تقدما بجندهما، في صباح اليوم التالي، نحو قلعة «صهيون» حيث كان يعتصم الثوار، وخيّما شمالها، ولكن أهل مقاطعة بيت الشلف المجاورة للقلعة لم يطيقوا أن يقع رفاقهم الثوار المعتصمون في القلعة، في يد القائد المصري وحليفه، فهبّوا لنجدتهم بنحو ألفي مقاتل، إلاّ أن الأمير خليلاً بادر بإرسال فرقة من جنده لقتالهم، ودار بين الفريقين قتال انتهى بهزيمة الثوار بعد أن خسروا أربعة عشر رجلاً وسقط اثنان من رجال الأمير، ثم هاجم الأمير القلعة حيث يعتصم الثوار فاستولى على ثلاثة أبراج تقع بالقرب منها، فأبقى فيها ماية مقاتل، وعاد إلى معسكره، بينما أخذ الماية المتمركزون في الأبراج يشدّدون الحصار على الثوار المعتصمين في القلعة، ولم يمضِ زمن يسير - عند منتصف تلك الليلة - حتى طلب الثوار الأمان فأُعطوه، ففرّوا تاركين القلعة لرجال الأمير[١٠٧].

وصار اللواء سليم بك، والأمير خليل، ينتقلان، بعد ذلك، بجندهما، في بلاد النصيرية، من نصر إلى نصر، فجاءهما أهل مقاطعة ديروس مستسلمين، ثم انتقلا بعدها إلى مقاطعات بيت الشلف والمزرعة وبيت عمار والجهنا فأحرقا قراها، وجاء أهل هذه المقاطعات يدخلون في طاعة القادة المنتصرين، وحاول ثوار من عكار وصافيتا وقرى السرامطة والقراحلة وبيت ياشور والحمام أن يقطعوا الطريق على نجدة تقدر بخمسماية خيّال من زحلة وبسكنتا، أرسلها الأمير بشير لابنه خليل، فربطوا لها عند القنطرة أو جسر السن، بين المرقب وجبلة، وكادت تلك النجدة أن تنهزم بعد أن قتل من رجالها ٣٦ رجلاً (٢٦ من أهل زحلة و١٠ من أهل بسكنتا)، وقتل من الثوار ستة فقط، لولا أن أنجدها الأمير خليل بنحو ثلاثماية خيّال بقيادة الأميرين أحمد وسعد الدين الشهابيين، ففرّ الثوار إلى جبل الحمام منهزمين، بعد أن قتل منهم ثمانية رجال، وأحرق عسكر الأمير قراهم ونهبها[١٠٨].

وفي هذه الأثناء، ورد أمر من ابراهيم باشا بعودة الأمير خليل ورجاله إلى بلادهم، فعاد أولاً الأميران أحمد وسعد الدين الشهابيان[١٠٩]، ثم غادر الأمير خليل بلاد النصيرية في ٢٠ شعبان ١٢٥٠هـ (٢٢ كانون الأول ١٨٣٤م) فوصل إلى بيت الدين في أول العام ١٨٣٥[١١٠]. كما عاد ألاي الخيّالة الثالث عشر إلى طرابلس بعد أن انتهت مهمته في تلك البلاد[١١١].

د - دور الأمير في إخماد ثورة الدروز بحوران ووادي التيم (١٨٣٨):

ثار دروز حوران على ابراهيم باشا بسبب فرضه التجنيد الإلزامي على رجالهم، ومن ثم قراره بتجريدهم من السلاح، وساندهم دروز وادي التيم في ثورتهم، وجرد ابراهيم باشا، لقمع ثورة الدروز هذه، حملات عديدة إلى

حوران، ثم إلى وادي التيم، ودارت بينه وبين الثوار معارك عديدة وعنيفة في «اللجاة» وفي حاصبيا وعين قنيا وشبعا وسواها، ولم تكن هذه المعارك سهلة على جيوش ابراهيم باشا التي هزمت مرات عديدة أمام الثوار، ويوضح «محمد شريف باشا»، في رسالة منه إلي ابراهيم باشا[١١٢]، أسباب هذه الهزائم في حوران، بأنها ترجع «إلى أن عساكر الألايات - أي ألايات الجيش المصري - كانت تحارب وهي تسير مجتمعة، في منطقة صخرية، ولم يمكنها الاختباء وراء الصخور القائمة هناك، بينما كل ٣ أو ٥ من الأشقياء قد كمنوا خلف تلك الصخور وراحوا يطلقون النار على العساكر ويصيبونهم، ولذا، فإن نيران العساكر كانت قلما تصيب الأشقياء مهما أكثروا من إطلاق النار، الأمر الذي أثار في الأشقياء روح الجرأة وأوقع الرعب في قلوب العساكر». كما يقترح، في الرسالة نفسها، الاستعانة بالأمير بشير لقمع هذه الثورة، فهو يرى أن يتم، بمعرفة الأمير بشير، «انتخاب نحو ٧ أو ٨ آلاف رجل من نصارى جبل الدروز، وأن يسلح هؤلاء الرجال بالبنادق الموجودة بعكا، وإذا ما تمّ ذلك، زحفت هذه القوّة بقيادة الأمير خليل» ويعلّق على ذلك بقوله: «وإني لأظن أن تنفيذ هذه الخطة سيكون سبباً في إنهاء أمر هؤلاء الأشقياء»[١١٣]. ويظهر أن ابراهيم باشا لم يوافق محمد شريف باشا على خطته بإرسال رجال الأمير بشير إلى حوران للإسهام في قمع ثورة الدروز، فقد ردّ على اقتراح محمد شريف باشا بأن هذا التدبير «خطر من ناحيتين: أولاً، لأنه لا يتّفق مع كرامة الحكومة المصرية وشهرتها، وثانياً، لأن نجاح النصارى غير مضمون، فإن فشلوا في مهمته هل يقال للدروز: الأمان يا دروز؟»[١١٤]، حتى أن ابراهيم باشا رفض إرسال «ألاي الغارديا الثالث» لمحاربة الدروز في اللجاة بحوران، وذلك لأن «نصفه من الدروز»[١١٥].

إلا أن ابراهيم باشا لم يمنع في أن يسهم الأمير بشير، برجاله، في مقاتلة الثوار الدروز بوادي التيم، فقد هبّ هؤلاء يساندون اخوانهم بحوران فعمدوا إلى سلب خيّالين من «خيّالة المصلحة» خيلهم وسلاحهم، وكان هذان الخيّالان يقومان بمهمة التفتيش عن «انفار فرارية من العسكرية» في قريتي «عنقيتا – أو عين قنيا – وشويا» بمقاطعة حاصبيا[١١٦]، عندما أقدم نحو خمسين مسلحاً من دروز «ميمس والخلوات» على اطلاق النار باتجاه «عين عطا وعين حرشا» قاصدين قتل «محمد رفيق ابراهيم آغا» المسؤول الحكومي فيهما[١١٧]، كما استولى الثوار الدروز المقدر عددهم بنحو ٤٠٠ خيّال وألف راجل عند سعسع، على قافلة مؤلفة من «عشرين حمل جبخانة» عائدة للجيش المصري[١١٨]، ثم إن فريقاً من الثوار الدروز يقدّر بنحو ١٢٠ ثائراً، غادر اللجاة بحوران إلى اقليم البلان، لكي يعبث بأمن هذا الاقليم ويقطع الطرق فيه على كل نجدة يمكن أن يرسلها المصريون إلي قواتهم بحوران، مما اضطر ابراهيم باشا إلى الاستعانة بالأمير بشير لطرد هؤلاء الثوار من الاقليم وفرض الهدوء والأمن فيه، فكلّف الأمير بشير حفيده الأمير مجيد قاسم تنفيذ هذه المهمة، وقد قام الأمير مجيد على رأس قوّة من رجاله إلى اقليم البلان، حيث «آمن دروز القرى» الكائنة في هذا الاقليم وعهد إلى أهاليه «أمر المحافظة على الطرق»[١١٩]، إلا أن الثوار القادمين من اللجاة تصدوا للأمير ورجاله في «بيت جن» واشتبكوا معه في قتال عنيف استمر حتى المساء، حيث «تفرق الطرفان دون أن يتغلب احدهما على الآخر»، وأما الثوار فقد عادوا إلى اللجاة[١٢٠]. وقد انتدب ابراهيم باشا، على أثر ذلك «ألاي المشاة السادس، والسكبان الذين تقدموا من أدنة، لتأديب الثوار في جهات حاصبيا وراشيا»[١٢١]، كما انه كتب إلى مصطفى باشا، قائد ألاي الغارديا الثالث، القادم من كريت إلى بيروت، يأمره بالاتصال بالأمير

مجيد حفيد الأمير بشير «وبالتعريج على حاصبيا وراشيا، في طريقه إلى دمشق، لتأديب الثوار فيهما»[١٢٢].

وكتب ابراهيم باشا إلي الأمير بشير يطلب منه تجنيد «أربعة آلاف مقاتل من نصارى لبنان» وتسليمهم «أسلحة مؤبدة لهم ولذريتهم» ثم توجيههم إلى حاصبيا، بقيادة ابنه الأمير خليل «لقتال الدروز»[١٢٣]، فجمع الأمير نحو ألفي مقاتل، في وقت كان دروز الشوف وجبل لبنان ينضمون إلى ثوار راشيا وحاصبيا وحوران علانية، دون أن يتعرض الأمير لهم[١٢٤]، ومع ذلك فقد أسهم الأمير، علانية كذلك، في القتال ضد الدروز إلى جانب حلفائه المصريين، ففي رسالة من اللواء أحمد بك قائد «مدرعي الغارديا» صادرة عن «مجدل شمس»[١٢٥]، يروي هذا القائد خبر ملاحقته للثائر الدرزي شبلي العريان وجماعته (وكان العريان قد هرب من «مجدل شمس» ومعه مايتا ثائر وخمسة عشر جملاً محملاً بالذخائر)، ويذكر أنه سوف يستخلف الأمير بشيراً على البلدة، ويعهد إليه بجمع الأسلحة منها[١٢٦]، كما أن محمود بك، محافظ بيروت، يذكر، في رسالة منه إلى حسين باشا[١٢٧]، أن الأمير بشيراً أرسل إليه نسخة عن «البشرى بانتصار السر عسكر على الدروز في موقعة بره ده حوالي الساعة السابعة من يوم الأربعاء في ١٢ ربيع الآخر»[١٢٨].

وقد جرت، بعد ذلك، في وادي بكا، معركة بين الثوار الدروز وابراهيم باشا، انتهت بهزيمة الدروز ولجوئهم إلى أرض «جنعم»، وهي أرض مرتفعة تقع على مقربة من بلدة «شبعا» بين جبل الشيخ وجبل الوسطاني الذي يفصل أرض جنعم وشبعا عن حاصبيا. وكان ابراهيم باشا قد وصل بعسكره إلى راشيا فوجد الدروز قد تخلوا عنها ونزحوا نحو «جنعم»، وكان بينهم شبلي العريان وجماعته، فقرّر ابراهيم باشا محاصرتهم في ذلك السهل ثم مهاجمتهم، فحشد لذلك جيشه في

سهل «عيحا»، وأرسل إلى جنده المحتشدين في بانياس يبلغهم خطته، وكانوا من العساكر النابلسية وعلى رأسهم متولي أيالة صيدا، وكان رسوله إلى هؤلاء الجند «الشيخ جرجس الدبس»[١٢٩] الذي نفّذ المهمة الموكلة إليه بإبلاغه القوات المتمركزة في بانياس بخطة الباشا، إلا أنه أضاف على ذلك أن أفشى بهذه الخطة إلى العريان ورفاقه الثوار الذين استعدوا لصد الهجوم المرتقب عليهم.

وكانت خطة ابراهيم باشا أن يهاجم الدروز في جنعم من ثلاث جهات:

- من الجنوب، بواسطة الجنود النابلسيين المتمركزين في بانياس.
- ومن الشمال، بواسطة جيشه المتمركز في سهل «عيحا» بالقرب من راشيا.
- ومن الغرب، بواسطة قوات الأمير خليل الشهابي المتمركزة في حاصبيا.
- أما من الشرق، فكان جبل الشيخ يشكل سداً منيعاً لا يمكن لأي جيش أن يجتازه.

وأمر ابراهيم باشا هذه القوات بأن تزحف جميعها، في ساعات محدّدة لها، نحو «جنعم»، وعيّن لكل منها: محور الهجوم، وساعة الانطلاق.

- وانطلقت القوات النابلسية في هجومها إلا أنها منيت بالفشل بسبب المقاومة الضارية التي لقيتها من الثوار الدروز.
- وانطلقت القوات الشهابية من حاصبيا باتجاه جنعم، وكانت طلائعها بقيادة الأمير مسعود ابن الأمير خليل، ويظهر أن الأمير خليلاً أسرع في تنفيذ الخطة، حيث تحرك من مواقعه قبل الموعد المحدّد بساعتين (وكان مقرّراً أن يصل إلى أرض جنعم مع جيش ابراهيم باشا الزاحف من الشمال، في وقت

واحد، حيث يطبقان على العدو عند الظهيرة)[١٣٠]، ففاجأت قوات الدروز طلائعه تلك عند بلدة «شويا» في ذيل جبل الوسطاني، فهزمتها، وانهزم في أثرها الأمير خليل بقواته، وكان الدروز قد حاصروا الأميرين المذكورين ورجالهما في مكان صخري وعرٍ وبدأوا بإطلاق النار عليهم «فانكسروا ناكصين على أعقابهم مذعورين» وقتل «الشيخ فضل الخازن وسبعة عشر رجلاً» وغنم الدروز أمتعتهم[١٣١].

في هذه الأثناء، وبينما كان الدروز منشغلين بقتالهم ضد الأمير خليل ورجاله، وصل ابراهيم باشا بجيشه إلى مكان المعركة، ففاجأ الدروز الذين لم يتمكنوا من الصمود أمام قوات القائد المصري. فتقهقروا منهزمين، واحتل ابراهيم باشا بلدة شبعا ثم أرض جنعم، بينما فرّ العريان وماية من رجاله إلى حوران، إلا أنه عاد، بعد ذلك، لكي يستسلم على يد الشيخ جرجس الدبس الذي ضمن له سلامته عند ابراهيم باشا، وقد صفح عنه القائد المصري وأدخله في خدمته «وعينه رئيساً على خمسماية خيّال غير نظامي»[١٣٢]، وقد جرت هذه المعركة في ١٠ تموز ١٨٣٨.

بعد هذه المعركة، بدأ ثوار وادي التيم يستسلمون لابراهيم باشا، بعضهم إثر بعض، وكان القائد المصري قد عمد إلى قطع المياه عن ثوار حوران المعتصمين باللجاة[١٣٣]، ثم أرسل الشيخ جرجس إلى أولئك الثوار يغريهم بالاستسلام بعد أن أصبحوا «بحالة يرثى لها من العطش والجوع والبرد»[١٣٤]، وكان الأمير بشير قد كتب إلى زعماء الدروز بحوران يدعوهم للخضوع والطاعة لقاء عفو عام يصدره القائد المصري عنهم، ورأى هؤلاء الزعماء أن لا فائدة من استمرار الثورة، فجاء أربعون من مشايخهم، مع ألف رجل، وسبعماية بندقية من سلاحهم، وألفي بندقية كانوا قد غنموها من الجيش المصري،

وقدّموا الخضوع والطاعة، مع الأسلحة، إلى ابراهيم باشا الذي عفا عنهم «فعادوا إلى قراهم آمنين»[١٣٥].

ولم ينتهِ شهر آب من العام نفسه (١٨٣٨) حتى كانت الثورة الدرزية في حوران ووادي التيم قد انتهت بعد مضي نحو تسعة أشهر على اندلاعها، دون أن يتمكن ابراهيم باشا بالفعل، من إطفاء نار الحقد المتأججة عند هؤلاء الثائرين، الأمر الذي أعاد إشعال الثورة من جديد بعد مرور أقل من عامين على انتهائها.

والأمر الذي لا جدال فيه، بعد تبيان دور الأمير بشير في إخماد ثورة الدروز هذه، هو أن وقوف هذا الأمير، ومعه نصارى الشوف والجبل، إلى جانب المصريين في هذه الحرب، كانت من أهم الأسباب التي قادت البلاد، بعد عامين فقط على خروج ابراهيم باشا من بلاد الشام، إلى حرب طائفية مدمّرة نتج عنها تقسيم كل من إمارة الشوف وجبل لبنان إلى قائمقاميتين، واحدة نصرانية وأخرى درزية.

هـ - دور الأمير بشير في قمع حركات التمرد في عكار وبعلبك وحوران وعجلون وبلاد بشارة (١٨٣٩):

لم تستقر الأمور لابراهيم باشا في بلاد الشام بعد أن أنهى ثورة الدروز في حوران ووادي التيم، فقد استمرت الانتفاضات وحركات التمرد ضد الحكم المصري تنتقل من منطقة إلى أخرى ومن إقليم إلى آخر، وكان على ابراهيم باشا أن يظل في تحرك مستمر لمطاردة المتمردين وملاحقتهم والقضاء عليهم، حتى لكأنه يمكن القول إن عام ١٨٣٩ كان عام الانتفاضات وحركات التمرد المحلية التي أدّت، في مطلع العام ١٨٤٠، إلى التحرك الثوري الكبير

ضد الحكم المصري في هذه البلاد، وكان لا بد لابراهيم باشا أن يستعين، لقمع هذه الانتفاضات والحركات، بحليفه الأمير الشهابي الكبير.

ويتبين من الوثائق التي بين أيدينا أن هذه الحركات قد بدأت في جهات طرابلس وعكار في شهر حزيران عام ١٨٣٩، حيث أخذ «بعض اللصوص الأشقياء» يعبثون في تلك الجهات فساداً، فأرسل «السر عسكر» أمراً إلى «اللواء عثمان بك» في «كلّس» بأن يذهب على رأس قوّة من الجند لضربهم، ويذكر السر عسكر في هذا الأمر العسكري أنه كتب إلى الأمير بشير «بأن يعيّن في معية أحد حفدته نحو ألف نفر من أتباعه ويسوقهم على هؤلاء الأشقياء لتأديبهم»[١٣٦]، ثم يردف هذا الأمر بأمر آخر، وفي اليوم ذاته، إلى يوسف بك شريف، مدير طرابلس واللاذقية، يبلغه فيه علمه بتعدي «الثوار الأشقياء»، من «بني حمادي» على متسلم عكار وقتله، ويعلمه أنه أمر الأمير بشيراً أن يرسل على هؤلاء «نحو ستماية أو ألف عيسوي في قيادة أحد حفدته»، ثم يأمره بأن يتعقب هؤلاء «العيسويون» أولئك «الأشقياء الثوار» ويؤدبوهم[١٣٧].

أما الأمر الذي وجهه السر عسكر ابراهيم باشا إلى الأمير بشير بهذا الصدد فقد جاء فيه «وردت إلينا ورقة من يوسف بك مدير طرابلس وبها يذكر أن جماعة أشقياء دخلوا بيت متسلم العكار وقتلوه، وقد تحقّق لنا من ورقة متسلم الحصن بأن الأشقياء المرقومة هم من المتاولة وبيت حماده... فيقتضي كذلك تبذلوا الهمة في جمع ستماية أو ألف عيسوية وتعطوهم إلى أحد أحفادكم وترسلوهم على الأشقياء المذكورة وتعطوهم تربيتهم»[١٣٨]. ويظهر أن الأمير تقاعس في تنفيذ أمر ابراهيم باشا مما أثار غضبه وأسفه، واعتبر أن تأخر الأمير عن ضرب «المتاولة» الذين قتلوا متسلم عكار ونهبوا بيته «واستولوا على النقود الموجودة في خزينة عكار» يعود إلى «حرصه وطمعه»[١٣٩]، إلا أنه

سرعان ما تلقى خطاباً من الأمير يفيده فيه أنه «أرسل حفيده على رأس العيسويين» لمساعدته في «مسألة المتاولة» فاطمأن، وقدر أن هذه المسألة سوف تنتهي «عما قريب»[١٤٠].

وبالفعل، فقد تلقى ابراهيم باشا، من الأمير، بتاريخ ١٨ ربيع الآخر ١٢٥٥هـ (أوائل تموز ١٨٣٩م) رسالة أخرى يفيده فيها أن «بيت حمادة» و«بيت نون» من «طايفة الشيعة» لم يدخلوا بالطاعة بعد، وأنه أرسل حفيده الأمير مجيداً لمحاربتهم[١٤١]، ولم يطل الأمر بالأمير مجيد حتى أنهى «موضوع المتاولة» بعكار وقضى على المتمردين منهم، وقد تمّ ذلك في خلال شهر تموز نفسه[١٤٢].

وما أن انتهى ابراهيم باشا من تمرد ال حمادة وآل نون بعكار حتى تمرد عليه الأمير جواد الحرفوش بالبقاع، فأصدر أمراً سر عسكرياً بوجوب تعقب الأمير الحرفوشي وإلقاء القبض عليه، وكلّف محمد شريف باشا مدير مديرية (أيالة) دمشق تنظيم حملة لهذه الغاية، بقيادة كل من اسماعيل عاصم بك ومحمد بك خفتان آغاسي والرئيسين رحمون آغا وقره بيرقدار آغا، على أن يكون عديد الجند في هذه الحملة بين ٣ و٤ آلاف رجل، يضاف إليهم، عند الحاجة، ألف رجل من رجال الأمير بشير، بقيادة خليل أحد أبناء الأمير[١٤٣]، ولكن الحاجة لم تقض باشتراك الأمير بشير بهذه الحملة إذ إنه، ما أن علم الأمير جواد الحرفوش بتنظيم هذه الحملة لتعقبه، حتى فرّ من البقاع والتجأ إلى الأمير بشير الذي ألقى القبض عليه وسلّمه إلى والي دمشق[١٤٤] الذي نفّذ فيه حكم الاعدام فور وصوله[١٤٥].

وما لبثت الاضطرابات أن عادت إلى حوران، فاعتصم «العصاة من عرب اللجاة» من جديد بمعاقلهم، وأخذوا يتحرشون بالجند في «قرياطة وكوم

الرمان»، بينما كان هؤلاء ينشئون الأبراج على مياه تينك المحلتين، فوقع القتال بين الفريقين و«قتل من الجند بعض أنفار وجرح البعض الآخر»[١٤٦]. وتوسّع نطاق القتال في اللجاة بعد أن بدأ عربها يعتدون على الطريق وينهبون المارة، ولكن، بينما سلك عرب اللجاة وفلاحو حوران «طريق التمرد والفساد بسبب الشروع في بناء الأبراج»، فإن الدروز «لا يشاهد منهم سوى الولاء والخضوع»[١٤٧]. وقد كتب ابراهيم باشا، إثر ذلك، إلى محمد شريف باشا، يخبره بأنه أوعز إلى يوحنا بك (بحري) لكي يكتب بدوره إلى الأمير بشير لإرسال «رجال من الجبل بعدد البنادق الموجودة فيه»، كما أمره أن يكتب هو أيضاً - أي محمد شريف باشا - إلى الأمير، بالموضوع نفسه، ويقدّر ابراهيم باشا، بعد ذلك أنه «إذا أتى أربعة آلاف رجل من حملة البنادق من الأمير بشير وألف وخمسماية منهم من نابلس وستماية من مدينة راشيا» فإنه، أي محمد شريف باشا، سوف يتمكن بهذا العدد الضخم من الجند، بالإضافة إلى جيشه الكثيف، من تمزيق المتمردين وتشتيتهم[١٤٨].

وقد أردف السر عسكر رسالته هذه بأمر سر عسكري وجّهه إلى يوحنا بحري بك يأمره فيه بوجوب «الاتصال بالأمير بشير الشهابي لإيفاد رجاله إلى حوران بقيادة ابنه الأمير خليل»[١٤٩]، ولكن يظهر أنه، بعد هزيمة الثوار في اللجاة، واستئناف الأعمال لإكمال إنشاء الأبراج فيها، لم يعد هنالك من حاجة لاستدعاء رجال الأمير، فكتب يوحنا بحري بك إلى ابراهيم باشا يشرح له الموقف ويبشره «بتقهقر المعتدين ورجوعهم إلى الوراء خائبين خاسرين»، وأنه يلاحظ «أن هذه المسألة ستنتهي»، ولذلك، فهو قد كفّ عن طلب النجدة المشار إليها من الأمير بشير[١٥٠].

وفي العام نفسه (١٨٣٩)، اندلعت الاضطرابات في عجلون بفلسطين، فعصي أهالي عجلون على الحكم المصري بسبب فداحة الضرائب التي فرضت

عليهم[١٥١]، وكان على رأسهم كل من الشيخين «بركات وصلاح» اللذين استسلما، بعد أشهر فقط، لمحمد آغا الشوربجي متسلم عجلون على يد نائبه «خفتان بك»، فانتهى العصيان باستسلامهما[١٥٢].

وثار، في الوقت نفسه، زعيم من زعماء بلاد بشارة، هو الشيخ حسين شبيب ابن الشيخ فارس الناصيف، فشغلت ثورته السلطات المصرية الحاكمة، خصوصاً أنه استطاع أن يجمع حوله نحو ماية وخمسة وثلاثين رجلاً[١٥٣]، وقيل ستماية، مسلحين بالبنادق والخناجر والطبنجات[١٥٤]، واعتصم هو ورجاله في منطقة صخرية وعرة يصعب على الجند النظاميين، وخصوصاً الخيّالة منهم، الوصول إليها، فأخذت «مصالح بلاد بشارة» تتعطل بسببهم، مما حدا بمحمد شريف باشا حكمدار الشام لأن يأمر مدير ايالة صيدا الشيخ محمود عبد الهادي، بوجوب الاستعانة بالأمير مجيد (حفيد الأمير بشير) ورجاله للقضاء على هؤلاء «الأشقياء»، وذلك لأنهم «خبيرون بتلك الديار». وقد قام الأمير مجيد على رأس «خمسماية جندي» إلى بلاد بشارة، للقضاء على «مفاسد ذلك الشقي»[١٥٥]، وذلك بناء لأمر سر عسكري صادر بتاريخ ٣ رمضان ١٢٥٥هـ (تشرين الثاني ١٨٣٩م)[١٥٦]، وأمر محمد شريف باشا مدير الايالة بأن يكتب إلى الأمير بشير لكي «يرسل مايتي فارس» لهذا الغرض[١٥٧]، كما كتب هو نفسه، إلى الأمير بشير لكي «يلزم مشايخ المتاولة بإقليم شومر» بتدمير العصاة، و«أن يساعدهم عند الحاجة»[١٥٨].

وما أن وصل الأمير مجيد برجاله إلى النبطية حتى أخذ يتتبع آثار الشيخ حسين شبيب ورجاله، في تلك المنطقة، ولما وصل إلى قرية «ميمس» علم من أهاليها أن الشيخ المذكور، ومعه نحو مايتي رجل، موجودون بقرية «يارون»، فجدّ السير في أثرهم، وما أن علم هؤلاء بمطاردة الأمير لهم حتى فرّوا إلى

الجبال واعتصموا بها، وطاردهم الأمير ورجاله في الجبال وقاتلوهم حتى هزموهم وشتّتوا شملهم «ولم يبق سوى الشقي ومعه خمسة أنفار أوقاهم ظلام الليل»[١٥٩].

واعترف الشيخ حسين شبيب بهزيمته فرفع، بتاريخ ٩ رمضان (تشرين الثاني)، عريضة إلى «الأعتاب السنية الخديوية» يعرض فيها الخضوع والطاعة والعودة إلى الولاء للحكام ضمن شروط أهمها: «يكون الأمان على جميع ما حصل منا من دم ومال وغيره، والأمان لنا وإلى كل من يختص بنا على الدم والمال والسلاح... وإعطاء الثلاث مقاطعات عهدتنا والمعاش الذي كان بيدنا سابق، وإعطاء المقاطعات عهدتنا حسب شرط نامات السالفة كأيام والدنا المرحوم الشيخ فارس الناصيف، ورفع المتسلمين والمعاش الذي كان بيد المرحوم فوق معاشنا» لكي «يقيم بحالنا وحال أتباعنا»، ويتعهد الشيخ حسين لقاء ذلك «بدفع الأموال والغلال بحيث أن لا يدخل إلى البلاد أحد غيري، ومتعهد بكل ضغط يحصل في الطرقات، وغيره مما هو ضد رضى هذه الدولة السعيدة... وأما المطاليب من مال وأغلال فأنا متعهد بنجازها ودفعها تمام»[١٦٠].

ولكن الحكومة المصرية رفضت طلب الشيخ حسين شبيب الذي ظل فاراً من وجهها، هو وأخوه محمد علي شبيب، ففرا إلى اللجاة بحوران، وظلا متخفيين هناك إلى أن تمكن محمد شريف باشا من القبض على الشيخ حسين وأحد أعوانه ويدعى «موسى قليط»، بسبب وشاية من أحد عملائه، فأعدم الشيخ حسين شنقاً، أما أخوه محمد علي فقد ظل متخفياً حتى انتهاء الحكم المصري لبلاد الشام، وعاش بعد ذلك نحو أربعين عاماً[١٦١].

و - دور الأمير بشير في مقاومة الثورة العامة على الحكم المصري في بلاد الشام (١٨٤٠):

في شهر ربيع الأول من عام ١٢٥٦هـ (أيار ١٨٤٠م) اندلعت الثورة في جبل الدروز (إمارة الشوف) ضد الحكم المصري (ومعه حكم الأمير بشير)، وقد اشترك الدروز والنصارى معاً في هذه الثورة، وكان السبب المباشر لها هو قرار الحكومة المصرية بجمع السلاح من أهالي الجبل، أما المحرضان عليها فهما «بطرس كرامة والأمير خليل الشهابي»، اللذان اتهما بأنهما «رأس الفساد»، كما اتهم المسيحيون بأنهم «أصل الحركة»[١٦٢].

ويظهر أن الثورة كانت منظمة سلفاً، فقد أنشأ الثوار مخافر لهم على طريق صيدا - بيروت، وأقاموا في هذه المخافر كُتّاباً وبعض الجند، ورفعوا عليها أعلاماً حمراء، وأخذوا «يقومون بأعمال الشقاوة بين صيدا وبيروت»[١٦٣]، لذا، فقد أثارت مظاهر هذه الثورة وأخبارها الحكام المصريين وحليفهم الشهابي الذي كتب إلى مدير أيالة دمشق محمد شريف باشا يستطلع رأيه في التدابير التي يجب اتخاذها إزاء هذه الثورة[١٦٤].

وبدأت الثورة تتسع وتنتشر، فاتصل الثوار في إمارة الشوف بدروز حوران[١٦٥]، وأعلنوا امتثالهم لأوامر السلطان، كما أعلنوا أهداف ثورتهم وهي «رفع المظالم وردع كل ظالم»[١٦٦]، وبدأوا يوزعون جندهم لقتال المصريين ما بين صيدا وبيروت[١٦٧]، كما أن أهالي دير القمر «قد أظهروا الاختلال عن الإطاعة ومرادهم ينهضون لمساعدة العصاة عند حصول المحاربة»[١٦٨].

وكان قرار الأمير الشهابي، منذ بدء هذه الثورة، أن يستمر في تحالفه مع ابراهيم باشا، رغم أن أغلبية شعبه في الإمارة كان مشاركاً في هذه الثورة، أو

محرضاً عليها ومسانداً لها، فقد أوضح في رسالته إلى محمد شريف باشا (بتاريخ ٢٩ ربيع الثاني ١٢٥٦هـ = آخر حزيران ١٨٤٠م) أنه صمّم «بحوله تعالى» على أن يقاتل أهالي دير القمر «وينهض في ظهورهم» إذا ما حاولوا معاونة «العصاة» ومناصرتهم، وأشار إلى أنه بقي في دير القمر لهذا الغرض[١٦٩]. ثم نقل الأمير، في رسالته هذه، إلى محمد شريف باشا، أنباء تشير إلى أن «العصاة» قد أمسكوا مخارج صيدا لكي يمنعوا خروج الجند منها، واقترح عليه، مقابل ذلك، أن يقيم مخفراً دائماً من الجند على جسر صيدا، كي يمنع على هؤلاء العصاة من التعرض للجند الداخلين إلى المدينة أو الخارجين منها[١٧٠]، وهذا يبين، ولا شك، إلى أي مدى بلغت جدية الالتزام عند الأمير الشهابي في تحالفه مع الحكم المصري لبلاد الشام.

ومع ذلك، فقد وقف الأمير من قضية جمع السلاح من نصارى الجبل ودروزه، موقف الناصح والمرشد بالنسبة إلى الحكم المصري، فقد كتب إلى ابراهيم باشا يعرض عليه واقع الحال في الجبل وهو أن الأهالي، من مختلف الطوائف، يرفضون إعادة السلاح، وربما كانوا مستعدين للثورة إذا جمع السلاح منهم قسراً، ويشير إلى أن أهالي دير القمر، خصوصاً، قد أظهروا التمرد والعصيان عندما طلب إليهم إعادة السلاح الذي كانوا قد استلموه من الحكم المصري «أيام حركة الدروز»، بل وأقدموا على ضرب «المأمور» الذي كان قد جمع السلاح من إحدى قرى الجبل، ثم استعادوا السلاح منه ووزّعوه من جديد على الأهالي، ثم يحذّر الأمير القائد المصري من مغبة جمع السلاح من أهالي الجبل[١٧١]، خصوصاً أن أهالي دير القمر قد كتبوا إلى المشايخ في بعض «المقاطعات» كراشيا وحاصبيا والشحار والمناصف وجزين، يحرّضونهم على الثورة، فثار أهالي دير القمر والشحار والمناصف، «وأما باقي المقاطعات، لم

يزل ما أظهروا العصيان، ولكنهم لا يمكن أن يعطوا البواريد، ومثلهم مثل النار تحت الرماد»[١٧٢]، ولكن الحكم المصري كان قد اتخذ قراره ولم يعد هنالك مجال للعودة عنه، خصوصاً أن المصريين قد أوضحوا للأهالي أن السلاح المطلوب منهم هو فقط السلاح الذي سبق للسلطات المصرية أن وزّعته عليهم إبان ثورة الدروز في حوران ووادي التيم، أي «سلاح الجهادية فقط، وليس كافة السلاح»[١٧٣]، ولكن نصارى الجبل رأوا في جمع السلاح منهم مقدمة لأن «يؤخذ منهم عسكر أيضاً»[١٧٤]، فقرّروا عدم تسليم السلاح مهما كلّفهم ذلك من تضحيات، وقد أظهر الدروز في دير القمر تحالفاً مع اخوانهم النصارى في هذا الشأن، فهبّ الجميع «عيسوية ودروزاً»[١٧٥]، ومنعوا مأموري الحكومة من جمع السلاح من القرى، وانتزعوا منهم ما جمعوا من سلاح وأعادوه إلى أصحابه[١٧٦]، مما حدا بابراهيم باشا لأن يكتب إلى الأمير بشير معاتباً إياه لعدم إطلاعه على «حقيقة الحال في الجبل»، ويذكر أنه لو فعل الأمير ذلك «لما أقدم السر عسكر على لمّ السلاح»، ولكنه لم يعد من الجائز التراجع عن القرار المتّخذ بهذا الشأن، وعلى الأمير أن يطمئن «وجهاء الطائفة» العيسوية بأن السلطة «لا تنوي جمع الجنود منهم»، وأن مصلحتهم تقضي «بتقديم السلاح والاخلاد إلى السكينة»[١٧٧]، ثم أرسل أوامر سر عسكرية إلى قادته ونوابه في البلاد يأمرهم فيها بأن يقدموا النصح والعظة إلى الثوار، وأن ينذروهم بسوء العاقبة إن هم استمروا في ثورتهم، وذلك لأنه يريد أن يخمد فتنة النصارى دون أن يمسهم بسوء[١٧٨]، كما كتب إلى الأمير بشير يأمره بالاتصال برهبان الجبل وأمرائه وتقديم النصح إليهم كي يكفوا عن الثورة، مبيناً لهم ضعف مقدرتهم العسكرية (أربعة آلاف بندقية فقط) مقابل القوة التي يتمتع بها جيشه[١٧٩]، ولكن الثورة استمرت بل وازدادت اتساعاً وانتشاراً، فأصدر ابراهيم

باشا أوامره إلى أحد قادته، عثمان باشا، بالزحف إلى الجبل، عن طريق بعلبك - زحلة، بخمسة آلايات من الجند، لإخماد تلك الثورة[١٨٠].

ولم يتوانَ الأمير بشير عن أن يستعمل كل امكاناته وكل ما يملك من وسائل ومناورات لكي يوقف الثورة، فكتب إلى حلفائه وأنصاره في مختلف أنحاء الجبل يطلب منهم التدخل الجدّي لتطمين الأهالي تارة وترغيبهم ثم ترهيبهم تارة أخرى، وكذلك «استعمال الوسايل الموجبة التفريق بينهم وعدم اجتماع كلمتهم»[١٨١] وقد تمكن، بالفعل، من إقناع أهالي دير القمر بالعودة إلى الخضوع «وتقديم الإطاعة»[١٨٢]، وكذلك فعل أهالي دفون ورمحالا والمختارة وغريفة، وأقاليم جزين والشحار والمناصف[١٨٣]، أما أهالي حاصبيا وراشيا «دروز ونصارى»، وكذلك أهالي البقاع الغربي، فلم يوافقوا الثوار على تحركهم، وظلوا «هاجعين من دون حركة»[١٨٤]، وقد ضمن الأمير للقرى والأقاليم التي كانت متمرّدة وعادت إلى الطاعة، لقاء ذلك، عدم «طلب أنفار للنظام العسكري» وعدم «زيادة المطاليب العايدة للميري» و«إبقاء البواريد» مع الأهالي[١٨٥].

ولم يرق للسلطنة وحلفائها من الدول الأوروبية أن تنتهي الثورة على الحكم المصري في بلاد الشام، فعادت تحرك أهالي هذه البلاد وتمدّهم بالسلاح والمال، واكتشف ابراهيم باشا هذه الحقيقة[١٨٦]، فعمد إلى التحرك بدوره في سبيل إجهاض محاولات خصومه وقرّر إبقاء السلاح بيد الأهالي ورفض إدخال الجيش المصري إلى الجبل[١٨٧]، ولكن عملاء الدول الأوروبية استمروا في تحريض الناس على الثورة، وكان لا يزال عدد من هؤلاء الثوار معتصماً في حرش بيروت، فقدّم العملاء الأوروبيون لهم الزاد والرصاص[١٨٨]، واستمر الأمير في سعيه «لإصلاح ذات الحال» بين الحكم المصري وهؤلاء الثائرين[١٨٩].

إلا أن وسائل التهدئة لم تنفع مع الثائرين الذين ما لبثت سلطتهم أن امتدت إلى أماكن مختلفة من البلاد، فامتدت الثورة من ساحل بيروت[١٩٠] إلى المتن[١٩١]، ثم ثار «أبو سمرة غانم» مع مايتين من رجاله في «جونية»، وأخذ قناصل كل من سردينيا والنمسا وانكلترا يساعدون الثوار علانية ويحرضون الناس على العصيان، ويعدونهم بشحنات من السلاح[١٩٢]، فاستطاع هؤلاء القناصل أن يؤلبوا نصارى المتن وكسروان والشويفات وساحل بيروت ووزّعوا عليهم نحو ألف بندقية[١٩٣]، بينما سعى الأمير جاهداً لكي يحتفظ بالدروز إلى جانبه وجانب حلفائه المصريين، فتعهد له مشايخهم من آل تلحوق وعبد الملك «بالطاعة والخضوع»، حتى أن هؤلاء المشايخ التمسوا من الأمير أن يكون أولادهم «مع العساكر المنصورة» في جيش ابراهيم باشا[١٩٤].

ولم ينتصف شهر حزيران (١٨٤٠) حتى كان الثوار قد انتشروا في المتن والبقاع الغربي وبلاد حاصبيا وراشيا وزحلة والمعلقة وبلاد بعلبك، وذلك لأجل «اضطرام نار الفساد بتلك الأطراف»[١٩٥]، وانضم إليهم أمير من آل أبي اللمع من «كبراء المتن» هو «الأمير علي قايد بك»، كما كان أحد العملاء الأوروبيين يمدهم «بالبارود والرصاص»[١٩٦]، ورغم ذلك، فقد بقي أهل حاصبيا وراشيا وزحلة، دروزاً ونصارى، على طاعتهم للحكم المصري[١٩٧]. ولكن رسائل التحريض على الثورة لم تتوقف، فقد كتب الشيخ فرنسيس الخازن إلى «أهالي العرقوب والمتن والشحار وكافة البلاد بوجه العموم» قائلاً إن «البلاد جميعها قايمة من طرابلس إلى ناقورة عكا»، كما كتب إلى أهالي زحلة يحضهم على الثورة «لأن الذخيرة عندهم في بعلبك»[١٩٨]، وكتب «مراد العقل» من بكفيا إلى «شحادة الخوري صعب» يعلمه ان الثوار في ساحل بيروت قد أصبحوا نحو ٣ آلاف، وأن زعماء من «بيت باللمع وبيت مراد وبيت الخازن» قد انضموا إلى

الثورة، وأن قنصل الانكليز قد أرسل إلى الثوار «ألف دستة رصاص وبارود»، وان «الفرج قريب»[١٩٩]، وكتب أهالي جبل لبنان «دروز ونصارى» إلى «المشايخ الحمادية وباقي طوايف بيت حمادة» يحرضونهم على الثورة ضد الحكم المصري والخضوع إلى أوامر الدولة العثمانية «الرؤوفة»[٢٠٠].

وأدّى اتساع الثورة وانتشارها، ونشاط الثوار وتحركهم، إلى ظهور الارتباك في نهج الحكم المصري، فبينما يكتب محمد علي إلى ابنه ابراهيم ينبئه انه أمر سليمان باشا بأن «يستأصل شأفة المصرّين» من الدروز، على العصيان «ويجرّدهم من الأسلحة»، إذا به يرى، في الكتاب نفسه «أن الهجوم على من أمّنه الأمير بشير وجَرْدَه (أي تجريده) من سلاحه لا يتّفق وحكمة الإدارة»، فيكتب إلى الأمير قائلاً: «إحتراماً لشخصك، لا يجب أن يُهجم على الذين منحتهم الأمان ولا يُطلب إليهم تسليم أسلحتهم، وإنما يُضرب العصاة الذين في بيروت وتُنزع أسلحتهم حرباً وقهراً، وهذا هو مطلوبي»[٢٠١]، وهذا ما دفع ابراهيم باشا لأن يقترح على والده صرف النظر عن جمع السلاح من مسيحيي الجبل[٢٠٢].

ولكن ما أن كادت الثورة تشرف على الانتهاء، وكاد الثوار يدخلون من جديد في طاعة الدولة[٢٠٣]، حتى امتدت الأصابع العثمانية والأجنبية لتحرك الثورة من جديد، فقد ثبت لسليمان باشا، نائب القائد المصري في بلاد الشام، أن للأجانب علاقة بالثورة في هذه البلاد، وأن الآستانة أرسلت أحد مدربي الجيش إلى بيروت بقصد التحريض على الثورة[٢٠٤]، وأن رجلاً فرنسياً يدعى «الفيكونت اونفروا Le Vicomte Onffroy» قد «اتخذ مقراً له في جهات الزوق، واتصل بالثوار موزّعاً عليهم كميات من البارود والرصاص والدراهم وأوسمة صليبية»، وأن وكيل القاصد البابوي المقيم في الزوق يعاون

الثوار باستمرار، وأن الأوروبيين لا يزالون «يخرجون كل يوم من بيروت ويختلطون بالعصاة ثم يعودون إلى بيروت»[٢٠٥]. ويقترح محافظ بيروت «محمود نامي بك»، الذي أرسل هذه المعلومات إلى سليمان باشا، على القائد المصري، أن يتفضل «بإصدار أمر إلى قناصل الدول بمنع خروج رعاياهم من بيروت واختلاطهم بالعصاة»[٢٠٦]، وبناء على ذلك، فقد كتاب محمد علي باشا إلى سليمان باشا، يأمره بأن ينتقل من صيدا إلى بيروت، وينّبه على قناصل تلك الدول بوجوب «ضبط رعاياهم»[٢٠٧]. والذي يلفت النظر هو أن الأجانب من الجنسية الفرنسية كانوا من أكثر العملاء تحركاً ونشاطاً في التحريض على الثورة، رغم أن فرنسا كانت الحليف العلني لمحمد علي، فقد كان هؤلاء العملاء يجمعون المسلحين في كسروان ويضعون على رأس كل منهم شارة الصليب، ويوزّعون عليهم الرواتب والسلاح والذخيرة، ويسيرون في مقدمتهم ومعهم العلم الفرنسي[٢٠٨]، كما كانوا يجوبون قرى المتن وكسروان يحرضون الناس على الثورة ويعدونهم بقدوم «مراكب فرنساوية مشحونة جبخانة وسلاح لأجل امدادهم»[٢٠٩]، ولكن لا يستبعد أن يكون معظم هؤلاء الأجانب الفرنسيين عملاء للدولة العثمانية. فالكونت «اونفروا» مثلاً، هو ضابط فرنسي سابق، إلا أنه التحق بالآستانة بعد تركه الخدمة في الجيش الفرنسي، ثم انتقل منها إلى مدرسة عينطورة ليتعلم اللغة العربية فيها، ولا يشك محافظ بيروت، محمود نامي بك، أن يكون هذا الكونت موفداً «من ذلك الجانب» أي الجانب العثماني[٢١٠]، ولكن الذي يثير الشك في موقف فرنسا هو أن خليل المدور، ترجمان القنصل الفرنسي، كان على اتصال مستمر بالثوار «يمدهم بمادة الكبسول»، وان عدداً من الرعايا الفرنسيين كانوا في صفوفهم[٢١١].

وفي تحليل دقيق لأسباب الثورة ودوافعها، كتب المعلم بطرس كرامة رسالة إلى يوحنا بحري بتاريخ ١٣ ربيع الآخر ١٢٥٦هـ (حزيران ١٨٤٠)، يذكر له فيها أن الذين اكتفوا بالمطالبة بعدم نزع السلاح وعدم زيادة الضريبة وعدم التجنيد، قد اطمأنوا وتوقفوا عن الثورة وعادوا إلى طاعة الدولة، وهم أهالي دير القمر «ومن تابعهم»، وأما «أهل المتن» ومعهم «أهالي كسروان» فلم تنفع معهم وسائل التطمين والتهدئة «ولم يزدادوا إلا فجوراً»[٢١٢]. ويعزو بطرس كرامة تعنت هؤلاء الثوار إلى التدخل الأجنبي في صفوفهم، فقد «تداخل معهم الفرنج وجعلوا يشددوهم ويعلموهم كيف يتطلبوا، ومدوهم بقليل من ذخيرة وبارود ورصاص، ووعدوهم انه قريباً يرد لهم ذخاير وجبخانة وسلاح من طرف الفرنج، وهذا شيء صار ظاهراً غير مخفي»[٢١٣]، كما يعزو ذلك إلى اغراء الدروز للنصارى بالعصيان وعدم الطاعة كي «يرموهم بالهلاك» ويجري لهم (أي للنصارى) كما جرى للدروز[٢١٤].

وقد قدّر الأمير بشير خطورة الحالة فرفع إلى «الأعتاب السنية» بتاريخ ١٨ ربيع الآخر ١٢٥٦هـ (حزيران ١٨٤٠م) عريضة يشرح فيها أوضاع الثوار في البلاد، وانهم «لم يزالوا مصرين على الطغيان وصمّت آذانهم عن قبول النصيحة والتطمين وفرغت الوسايل من دون تأثير»، ويقترح على «الأعتاب السنية الخديوية» أن تسرع في ارسال الجند لقمع هذه الثورة واخمادها، لأنه «إذا تعوق ورود العساكر المنصورة يزيد الاختلال ويكثر الطغيان»[٢١٥]، وكتب الأمير محمود الشهابي، في الوقت نفسه، عريضة مماثلة يذكر فيها قيام كل من الأميرين محمد الحرفوش وخنجر الحرفوش بالثورة في بلاد البقاع وأبلح ورياق[٢١٦]. أما مطالب الثوار فقد حدّدها الأمير بشير في عريضة رفعها إلى محمد علي باشا بتاريخ ١٤ ربيع الآخر، وهي، أولاً: إبقاء السلاح مع الأهالي

وعدم نزعه منهم، ثانياً: عدم أخذ انفار للنظام منهم، ثالثاً: تخفيف مال الإعانة ورفع ربع مال الميري، رابعاً: إبطال تشغيل المعدن من الجبل، خامساً: انتخاب ستة مندوبين عن الأهالي تجاه الحكومة المصرية «لأجل مناظرة الأحكام». وقد رفض الأمير الشهابي مطالب الثوار هذه رفضاً قاطعاً(٢١٧)، وأعلن، في رسالة منه إلى محمد علي، أنه مستعد للإسهام، عسكرياً، في إخماد هذه الثورة(٢١٨). وكان محمد علي باشا قد قرّر التحرك عسكرياً لمواجهة الثوار بدءاً ببيروت، فأرسل، من الاسكندرية، تعزيزات عسكرية لسليمان باشا وأمره بأن يهاجم الثوار في بيروت، بمعاونة الأمير بشير والمير ميران عثمان باشا الذي كان معسكراً بجيشه في البقاع(٢١٩)، وقد تقرّر أن يهاجم كل من سليمان باشا بالجيش الآتي من الاسكندرية، من جهة، وجيش الأمير بشير من جهة ثانية، وجيش عثمان باشا الآتي من البقاع، من جهة ثالثة، أما الثوار، فكانوا قد تجمعوا في ساحل بيروت، وفي الجبل المطل على سهل البقاع، في قرية «بوارش»، وانضم إليهم، حسبما ذكر الأمير الشهابي: أمير من آل فارس من بسكنتا يدعى الأمير علي، والأمراء الشهابيون محمود ابن الأمير سلمان العلي وفارس ابن الأمير حسن العلي ويوسف ابن الأمير سلمان سيد أحمد، والأمير عبدالله مراد من أمراء المتن (وكان هذا الأخير يظهر التحالف مع الثوار إلا أنه كان في الحقيقة عازماً على استدراجهم للطاعة)، وكان هؤلاء الأمراء قد أرسلوا إلى الأمير بشير الشروط التي يرضون بموجبها العودة إلى طاعة الدولة، وهي عشرة شروط ضمنها الأمير رسالته هذه إلى محمد علي، وأهم هذه الشروط:

- عدم أخذ السلاح من الأهالي على اختلاف طوائفهم.
- عدم التجنيد من الأهالي على اختلاف طوائفهم.

- تخفيض الضرائب وأموال الاعانة.
- لا يتم العمل باستخراج المعادن إلا بالحرية وليس بالالزام.
- صرف النظر عمّا أخذ بالحرب من كلا الطرفين.
- يوافق الخديوي ووزراء «دول الافرنج» على هذه الشروط عند الاتفاق عليها مع الحكومة المصرية.

وقد وقّع على هذه الشروط كل من الأمراء: خنجر الحرفوش وعلي فارس وعلي قايد بيه، وشهد عليها: الأمير عبدالله مراد، وقبل بها: وكلاء جمهور العامية(٢٢٠). وكان من الطبيعي أن ترفض الحكومة المصرية هذه الشروط، وأن تستعد لقتال الثوار، فاقترح ابراهيم باشا على والده أن ينقضّ عليهم من ناحيتين في آن واحد: من ناحية بيروت، ومن ناحية زحلة، وقد حشد القائد المصري، لهذه المعركة، القوات التالية:

- ١٥٠٠ بغدادي (في دمشق).
- ٤ ألايات وجنود غير نظاميين (من مصر).
- ألايان ونصف (بإمرة سليمان باشا).
- ألايان (في بيروت، بإمرة اللواء عثمان بك).
- جنود عثمان باشا(٢٢١).

القتال الأخير:

(١) معركة زحلة *(آخر ربيع الآخر ١٢٥٦هـ آخر حزيران ١٨٤٠م)*:

كان الثوار، وعددهم نحو ألف رجل حسب إفادات أسراهم، بقيادة الأميرين خنجر الحرفوش وعلي فارس(٢٢٢)، قد توجهوا نحو زحلة لإثارتها إلى جانبهم، ضد الحكم المصري، وكان عثمان باشا قد عسكر بجيشه على مقربة

من المدينة، خارجها، والتحق به الأمير محمود ابن الأمير خليل بن بشير الشهابي[٢٢٣]. وما أن علم عثمان باشا بتوجه الثوار نحو زحلة، حتى أرسل الأمير محموداً، على رأس أورطة، بمهمة استطلاعية نحو زحلة، وكان ذلك يوم إثنين، في الساعة التاسعة والنصف صباحاً، فما أن أصبح الأمير محمود على مسافة نصف ساعة من المدينة حتى ظهرت له طلائع الثوار سائرة باتجاه زحلة، فعمد فوراً إلى إفادة القائد عثمان باشا الذي سارع لمواجهتهم على رأس قوّة من جيشه بلغت «ألاي سواري و٣ مدافع والعساكر الباشبوزق»[٢٢٤]، وما أن تواجه الفريقان حتى أطلقت مدافع عثمان باشا النار على الثوار، ثم شنّ ألاي السواري وعساكر الباشبوزق عليهم هجوماً بالسلاح الأبيض، واستمر القتال بين الفريقين طوال النهار، حيث انتهى بحلول الظلام وبهزيمة الثوار الذين تركوا خلفهم عدداً كبيراً من القتلى قدّر بأربعماية قتيل[٢٢٥]، ما عدا الجرحى والأسرى، أما الباقون فقد ولّوا هاربين متحصنين بظلام الليل الذي فصل بين المتقاتلين «وبصخور مكان يقال له المريجات»[٢٢٦]، ولم يذكر شيء عن خسائر المصريين في هذه المعركة.

(٢) معركة بيروت - (آخر ربيع الآخر ١٢٥٦ - آخر حزيران ١٨٤٠م):

وصل سليمان باشا إلى بيروت في ٢٩ ربيع الآخر (آخر حزيران)، وخاض، فور وصوله، معركة مع الثوار في منطقة نهر بيروت[٢٢٧] انتهت بهزيمتهم، وكان عدد الثوار في ضواحي بيروت، في ذلك الحين، يراوح بين ألف وألف وخمسماية رجل، وفقاً لما صرّح به الأمير محمود الشهابي لعثمان باشا بالبقاع[٢٢٨].

ولكن الثوار بدأوا يتزايدون بسرعة ويحتشدون في جهات زغرتا بالشمال، ويتسلطون على الأهالي يكرهونهم للقيام معهم[٢٢٩]، كما انهم بدأوا

يتزايدون في جهات بعلبك والجبل. وكان تحشّد الثوار في جهات بعلبك وبلدة بوارش وزحلة بقيادة الأمراء خنجر الحرفوش وموسى نون وعلي فارس وعبدالله مراد، وفي ساحل بيروت بقيادة الأمراء الشهابيين محمود بن سلمان العلي وفارس بن حسن العلي ويوسف بن سلمان سيد أحمد، وفي دير القمر والمناصف والشحار بقيادة المشايخ النكديين خطار وواكد ويوسف، بينما بقي أهالي الشوف والعرقوب، نصارى ودروزاً، مخلصين للأمير بشير وحلفائه المصريين[٢٣٠].

وكان على الأمير أن يواجه تحشدات الثوار هذه بتحشدات عسكرية مماثلة، فوجّه حفيديه الأميرين مسعوداً ومجيداً إلى صيدا، وأمر مسعوداً أن يلتحق بالجيش المصري الذي سينطلق من بيروت لمواجهتهم، وأرسل يبلغ حفيده الأمير محموداً الذي كان في البقاع، بأن يظل في مكانه بتصرف الجيش الذي سيستمر في مواجهة الثوار في تلك الجهات، (جيش عثمان باشا)، ولم يأتِ فجر يوم ٤ جمادى الأولى (٤ تموز) إلا وكان «جميع العساكر من كل جهة مستعدين للهجوم على العصاة منتظرين صدور الأوامر»[٢٣١]. وبالفعل، تحركت القوات المصرية من بيروت إلى صيدا، وكان قوامها: الألاي السادس والألاي الثاني عشر وعساكر السكبان الآتية من مصر، فاحتلت معلقة الدامور بعد أن قتلت من الثوار «نحو ثلاثمئة شخص» وتقدمت نحو صيدا «فالتقت بعساكرها قرب نهر الأولي»[٢٣٢].

في هذه الأثناء، وصل من صيدا إلي بيروت، بحراً، كل من الأمير مجيد (الشهابي) والأمير أمين ارسلان والأمير عجاج مع ٣٦ خيالاً من خيّالة الأمير بشير، ووضعوا أنفسهم بتصرف محافظ المدينة[٢٣٣]، وقد نقل، في الآونة نفسها، أحد الأسرى المدعو جرجس الخوري، إلى محافظ بيروت، المعلومات

من المدينة، خارجها، والتحق به الأمير محمود ابن الأمير خليل بن بشير الشهابي[٢٢٣]. وما أن علم عثمان باشا بتوجه الثوار نحو زحلة، حتى أرسل الأمير محموداً، على رأس أورطة، بمهمة استطلاعية نحو زحلة، وكان ذلك يوم إثنين، في الساعة التاسعة والنصف صباحاً، فما أن أصبح الأمير محمود على مسافة نصف ساعة من المدينة حتى ظهرت له طلائع الثوار سائرة باتجاه زحلة، فعمد فوراً إلى إفادة القائد عثمان باشا الذي سارع لمواجهتهم على رأس قوّة من جيشه بلغت «ألاي سواري و٣ مدافع والعساكر الباشبوزق»[٢٢٤]، وما أن تواجه الفريقان حتى أطلقت مدافع عثمان باشا النار على الثوار، ثم شنّ ألاي السواري وعساكر الباشبوزق عليهم هجوماً بالسلاح الأبيض، واستمر القتال بين الفريقين طوال النهار، حيث انتهى بحلول الظلام وبهزيمة الثوار الذين تركوا خلفهم عدداً كبيراً من القتلى قدّر بأربعماية قتيل[٢٢٥]، ما عدا الجرحى والأسرى، أما الباقون فقد ولّوا هاربين متحصنين بظلام الليل الذي فصل بين المتقاتلين «وبصخور مكان يقال له المريجات»[٢٢٦]، ولم يذكر شيء عن خسائر المصريين في هذه المعركة.

(٢) معركة بيروت - (آخر ربيع الآخر ١٢٥٦ - آخر حزيران ١٨٤٠م):

وصل سليمان باشا إلى بيروت في ٢٩ ربيع الآخر (آخر حزيران)، وخاض، فور وصوله، معركة مع الثوار في منطقة نهر بيروت[٢٢٧] انتهت بهزيمتهم، وكان عدد الثوار في ضواحي بيروت، في ذلك الحين، يراوح بين ألف وألف وخمسماية رجل، وفقاً لما صرّح به الأمير محمود الشهابي لعثمان باشا بالبقاع[٢٢٨].

ولكن الثوار بدأوا يتزايدون بسرعة ويحتشدون في جهات زغرتا بالشمال، ويتسلطون على الأهالي يكرهونهم للقيام معهم[٢٢٩]، كما انهم بدأوا

يتزايدون في جهات بعلبك والجبل. وكان تحشّد الثوار في جهات بعلبك وبلدة بوارش وزحلة بقيادة الأمراء خنجر الحرفوش وموسى نون وعلي فارس وعبدالله مراد، وفي ساحل بيروت بقيادة الأمراء الشهابيين محمود بن سلمان العلي وفارس بن حسن العلي ويوسف بن سلمان سيد أحمد، وفي دير القمر والمناصف والشحار بقيادة المشايخ النكديين خطار وواكد ويوسف، بينما بقي أهالي الشوف والعرقوب، نصارى ودروزاً، مخلصين للأمير بشير وحلفائه المصريين[٢٣٠].

وكان على الأمير أن يواجه تحشدات الثوار هذه بتحشدات عسكرية مماثلة، فوجّه حفيديه الأميرين مسعوداً ومجيداً إلى صيدا، وأمر مسعوداً أن يلتحق بالجيش المصري الذي سينطلق من بيروت لمواجهتهم، وأرسل يبلغ حفيده الأمير محموداً الذي كان في البقاع، بأن يظل في مكانه بتصرف الجيش الذي سيستمر في مواجهة الثوار في تلك الجهات، (جيش عثمان باشا)، ولم يأتِ فجر يوم ٤ جمادى الأولى (٤ تموز) إلا وكان «جميع العساكر من كل جهة مستعدين للهجوم على العصاة منتظرين صدور الأوامر»[٢٣١]. وبالفعل، تحركت القوات المصرية من بيروت إلى صيدا، وكان قوامها: الألاي السادس والألاي الثاني عشر وعساكر السكبان الآتية من مصر، فاحتلت معلقة الدامور بعد أن قتلت من الثوار «نحو ثلاثمئة شخص» وتقدمت نحو صيدا «فالتقت بعساكرها قرب نهر الأولي»[٢٣٢].

في هذه الأثناء، وصل من صيدا إلي بيروت، بحراً، كل من الأمير مجيد (الشهابي) والأمير أمين ارسلان والأمير عجاج مع ٣٦ خيالاً من خيّالة الأمير بشير، ووضعوا أنفسهم بتصرف محافظ المدينة[٢٣٣]، وقد نقل، في الآونة نفسها، أحد الأسرى المدعو جرجس الخوري، إلى محافظ بيروت، المعلومات

التالية: يتجمع الثوار في نواحي زحلة وهدفهم سد طريق زحلة - بيروت في وجه عثمان باشا وجيشه، وذلك باحتلال المريجات وقب الياس وبوارش، ويقوم الأميران الشهابيان ملحم وبشير قاسم بتسليح أنصارهما سراً، ويعاونهما في ذلك الأمير خليل، كما أن الأمير حيدر يموّن الثوار بالذخيرة، وأما قادة الثوار فهم الأمراء علي يوسف وعلي قائد بيه وبشير عساف واسماعيل حسن قايد بيه وفارس شهاب ويوسف شهاب ومنصور حيدر شهاب والمشايخ فرنسيس الخازن وعفيف الخازن وخليل بليبل وسواهم(٢٣٤).

ولكن الأمير بشيراً لم يكن يتوانى عن السعي المتواصل لإعادة الثوار إلى النظام وإدخالهم من جديد في طاعة الحكومة المصرية، وقد كان ينجح أحياناً ويفشل أحياناً أخرى، فقد كتب بتاريخ ١٣ جمادى الأولى (١٣ تموز) إلى سليمان باشا رسالة يبشره فيها بعودة أهالي المتن ودير القمر عن الثورة ودخولهم في طاعة الدولة، وانهم قد بادروا فوراً إلى جمع الأسلحة وتقديمها إلى المراجع الحكومية المسؤولة، وانه لم يبق من الثوار في ساحل صيدا أحد باستثناء من بقي منهم في ساحل بيروت عند «عين الحازمية» وهم «شرذمة من الأشقياء»، وقد وجّه لمحاربتهم ابنه الأمير خليلاً على رأس ثلة من رجال الشوف ونحو ألف من عسكر النابلسية، وانه ينتظر الأوامر لبدء الهجوم(٢٣٥). وبالفعل فقد تقرّر الزحف على الثوار يوم الاثنين في ١٥ جمادى الأول (١٥ تموز)، ولكن الأمير بشيراً أعلن «انتهاء الثورة ودخول الثوار في الطاعة» فعُدل عن ذلك(٢٣٦).

وفيما يلي موجز للعمليات العسكرية التي جرت ضد الثوار منذ أول جمادى الأولى (أول تموز) ولغاية الرابع عشر منه (١٤ تموز) وفقاً لما جاء في عريضة الأمير بشير التي رفعها إلى محمد علي باشا بتاريخ ١٤ جمادى الأولى، بهذا الصدد:

- في آخر ربيع الثاني (آخر حزيران) وصل عباس باشا إلى بيروت وتكامل ورود العساكر من الاسكندرية.

- في ٣ جمادى الأولى (٣ تموز) أرسل الأمير بشير حفيديه مسعوداً ومجيداً إلى صيدا، فبقي الأمير مسعود مع العسكر المقيم على جسر صيدا ليكون دليلاً أمام العسكر الذي ينطلق منها، وتوجّه الأمير مجيد إلى بيروت ليكون دليلاً أمام العسكر الذي ينطلق من بيروت، وقد رافق كلاً من الأميرين المذكورين عدد من الأمراء والمشايخ، وتمّ الاتفاق على أن يجري الانطلاق من بيروت ومن صيدا ومن البقاع «ومن طرفنا» لمهاجمة الثوار المجتمعين في ساحل بيروت، وفي بوارش.

- يوم الجمعة ٤ جمادى الأولى (٤ تموز) وصل العسكر النابلسي إلى زحلة بقيادة اسماعيل بك حكمدار حلب. وفي هذه الأثناء عادت «مقاطعتا» المناصف والشحار وأهل دير القمر وجزين وإقليمها إلى الثورة، وتجمهروا في «عين مزبود» وقد أعلنوا العصيان والتمرد، وزحفوا نحو صيدا حيث نزلوا في أرض «مجدلونا».

- يوم الأحد ٦ الشهر المذكور، هاجم الثوار الجيش المصري المعسكر على جسر صيدا، إلا أنهم هزموا بعد أن قتل من أهالي دير القمر ١٣ رجلاً وجرح خمسة.

- يوم الثلاثاء ٨ منه، هاجم ثوار المتن وكسروان والساحل الجيش المصري المعسكر بظاهر بيروت، إلا أنهم هزموا بعد أن سقط منهم ١٧ قتيلاً.

- يوم الخميس ١٠ منه، هاجم الميرميران عثمان باشا واسماعيل بك حكمدار حلب بعسكرهما، وفي طليعته الأمير محمود الشهابي مع خيّالته، مراكز الثوار في بوارش، فهزم الثوار وهربوا إلى التلال المحيطة بالبلدة، ودخل

العسكر المنتصر بلدة بوارش فأحرقها، ثم دخل قرية حمانا فسلبها ونهبها، وعاد إلى «الرمتانية» حيث بات ليلته هناك[٢٣٧].

– في اليوم التالي، الجمعة ١١ منه، طلب جميع أهالي المتن الأمان وقدموا الخضوع والطاعة وجميع ما لديهم من الأسلحة، وقد بلغ عدد القرى التي قدّمت الطاعة وما لديها من أسلحة حتى تاريخه ١٣ قرية من أشهر قرى المتن، ولا تزال باقي القرى تبادر بتقديم الأسلحة.

– لما انتشر خبر هزيمة الثوار في بوارش وتقديم أهالي المتن الخضوع والأسلحة، تقدم للطاعة جميع أهالي دير القمر و«مقاطعات» الشحار والمناصف وجزين وإقليمها، ودخلوا في الأمان، وعادوا من «مجدلونا» إلى ديارهم وبادروا بتقديم ما لديهم من أسلحة، بينما فرّ الأمراء الذين كانوا على رأس هؤلاء الثوار إلى ساحل بيروت حيث التحقوا بثوار ذلك الساحل، ومعهم الأمير فاعور الشهابي.

– توجّه الأمير خليل الشهابي مع رجاله لمحاربة ثوار ساحل بيروت فولى هؤلاء منهزمين أمامه وذلك قبل وصوله إليهم، وقد عاد الأهالي إلى قراهم، أما الأمراء فلم يعرف شيء عن مصيرهم ووجهتهم.

– الوضع الآن (١٤ جمادى الأولى): بادر جميع أهالي ساحل بيروت وقرية الشويفات إلى جمع الأسلحة وتقديمها[٢٣٨].

وفي الوقت ذاته، كتب عثمان باشا قائد الجيش المصري في البقاع إلى عباس باشا كتخدا الخديوي رسالة يبشره فيها بانتهاء الثورة في نواحي زحلة[٢٣٩]، كما كتب محمود نامي بك إلى حسين باشا يفيده أن الجيش المرابط في بيروت زحف على الثوار يوم الثلاثاء ١٥ جمادى الأولى (١٥ تموز) فهزمهم وقتل عدداً منهم، ولكن قنصل فرنسا في المدينة استدعى إليه اليوزباشي الأول

علي القبطان وأبلغه أن قنصل انكلترا سوف يحتج على تصرف الجيش المصري وسيهدد السلطات المصرية المحلية بضرب بيروت وبتدمير السفن المصرية الراسية في مياهها[٢٤٠].

وكانت أوضاع الجيوش المصرية المقاتلة في هذه الجهات، وفي ١٩ تموز كما يلي:

– استقر الجيش المصري الذي خرج من بيروت، ببلدة حمانا.

– انتقل الجيش الذي خرج من زحلة، إلى بسكنتا، في طريقه إلى نبع اللبن.

– توجّه الأمير خليل الشهابي إلى الزوق لجمع السلاح من كسروان[٢٤١].

ومع ذلك، فإن رياح الثورة ظلت تعصف في أجواء البلاد، فقد وجّه البطريرك الماروني يوسف حبيش إلى «كهنة ورهبان وخوارنة الشعب القاطنين بجبل لبنان» نداء يدعو فيه الناس إلى الثورة على الحكم المصري ويحضّهم عليها، ويهدّد من يتلكأ منهم أو من يتجاسر ويخالف أمره بأن يُحرم «من بيعة الله ويحل عليه الغضب والنقمات الإلهية كائناً من كان»[٢٤٢]. ونشطت مساعي الدول الأوروبية لإعادة البلاد إلى أجواء الثورة، فرست السفن الانكليزية في مياه بيروت وغايتها «إثارة الفتن في جبال لبنان وجبال اللاذقية»[٢٤٣] وأخذ المستر «وود» (وهو أحد التجار الانكليز في أزمير وعديل قنصل انكلترا في بيروت) يتجول في جهات الزوق وغزير وجونية ويتصل بأبناء البلاد باذلاً جهده لإثارة الفتن وداعياً أهل الجبل كي يستمروا في الثورة[٢٤٤]، كما اتصلت إحدى السفن الانكليزية بالثوار في منطقة جونية وأشاعت بينهم أن الانكليز عازمون على احتلال موانئ الشام، وأخذت، تأكيداً لذلك، تسبر غور البحر بين جونية وطرابلس لدرس إمكان رسو السفن على هذا الشاطئ[٢٤٥].

ولكن بدا أن القيادة المصرية كانت عازمة على انهاء الثورة بأي ثمن، فبعد الحملة التأديبية التي قام بها الجيش المصري في زحلة وبوارش وجوارهما، دخل هذا الجيش كفرسلوان ثم منطقة المتن حيث جمع السلاح منها، ثم انتقل إلى نبع صنين فنبع بقليع حيث استقبل قائده قادة الثوار (الأمراء علي وفارس وأبناء أخي الأمير حيدر الشهابي) الذين جاؤوا مستسلمين، كما قبض الأمير أمين الشهابي على الأميرين يوسف وفاعور الشهابيين، وسيق الجميع إلى الأمير بشير مخفورين[٢٤٦]، أما الأمير خنجر الحرفوش فقد فرّ إلى جهات بعلبك ولم تعرف وجهته بعد ذلك[٢٤٧]، كذلك فرّ الشيخ فرنسيس الخازن من البلاد على ظهر باخرة فرنسية[٢٤٨]. وفي رسالة من الأمير بشير إلى محمد علي بتاريخ ٢٣ جمادى الأولى (٢٣ تموز) أفاد الأمير عزيز مصر انه ألقى القبض على سبعة من زعماء الثورة وقادتها، وأنه سلمهم إلى عباس باشا ليرسلهم إلى عكا فستّار[٢٤٩]، وهؤلاء الزعماء هم: الأمراء الشهابيون فاعور ويوسف وفارس ومحمود، وأمراء المتن من آل أبي اللمع، حيدر وعلي وعبدالله، وانه لم يبق «من أهل الفساد في الجبل» سوى «الشيخ حمود أبو نكد وولده قاسم وابن عمه الشيخ عباس»[٢٥٠]، وعلى هذا الأساس، أعلن محمد شريف باشا، في رسالته إلى حسن باشا بتاريخ ٢٠ جمادى الأولى (٢٠ تموز)، انتهاء الثورة في هذه البلاد[٢٥١].

إخراج محمد علي من بلاد الشام وسقوط الأمير بشير (١٨٤٠):

ما أن شعرت الدول الكبرى (انكلترا وروسيا وبروسيا والنمسا)، المتحالفة مع الآستانة، بقدرة محمد علي على انهاء الثورة في بلاد الشام، حتى بدأت تدخلها الجدّي والمباشر لإنهاء حكم عزيز مصر في هذه البلاد،

فاجتمعت، في الخامس عشر من تموز، بمؤتمر دولي في لندن، لتتخذ قراراً سرياً بإخراجه منها[٢٥٢].

وفي الرابع عشر من آب (١٨٤٠) سلّم الكومودور نابيير، قائد الأسطول البريطاني في البحر المتوسط، انذاراً إلى محمود نامي بك، محافظ بيروت، يشعره فيه بالاتفاق الدولي الذي يقضي «بإعادة سورية إلى حكم السلطان»[٢٥٣]، وكان موقف الأمير بشير من هذا الانذار موقف الاستمرار في التحالف مع محمد علي وتأكيد هذا التحالف رغم كل المخاطر التي تكتنفه، فقد كتب إليه يفيده بما تسلم من تهديدات «من طرف الانكليز» إن هو استمر في تحالفه معه، ويؤكد له تحالفه قائلاً: «فإني، أنا وعبيد اعتابكم أولادي وأحفادي، مستعدون، كل وقت، للموت بخدمة دولتكم من دون تردّد ولا انتقاض»[٢٥٤]، وهكذا ربط الأمير بشير مصيره بمصير محمد علي في بلاد الشام، رغم التهديد الذي تلقاه من الكومودور نابيير المذكور، بتاريخ ١٣ آب، والذي يحثّه فيه على «الرجوع إلى طاعة السلطان» منذراً إيّاه بأوخم العواقب إن لم يفعل[٢٥٥].

ودخلت الدول الكبرى المذكورة، مع الآستانة، في حرب معلنة ومكشوفة ضد محمد علي، وعادت المناطق التي كانت ثائرة، قبل هذا التاريخ، إلى الثورة من جديد، وقد تسلح الثوار، هذه المرة، بالتأييد القوي والمعلن من قبل الآستانة والدول الكبرى، كما تسلحوا بشحنات جديدة وكثيرة من الأسلحة التي نقلت إليهم، إما عبر الحدود التركية السورية، أو بواسطة السفن الحربية الانكليزية والعثمانية التي رست على الساحل الشامي، ومع ذلك، فقد ظل الأمير بشير على تحالفه مع محمد علي، وخاض إلى جانبه غمار حرب ضروس ضد المهاجمين الأتراك والانكليز وضد الثوار من أهالي البلاد. ومن أهم المعارك التي خاضها الأمير الشهابي، إلى جانب حلفائه المصريين، في هذه الفترة:

- **معركة كسروان**، التي جرت بين حفيده الأمير مجيد وبين نحو ستماية من ثوار كسروان، في أوائل تشرين الأول عام ١٨٤٠، وقد أسفرت عن هزيمة الثوار ومقتل نحو ٧٥ رجلاً منهم، مع جرح عدد كبير منهم وخسارتهم لنحو ماية بندقية[٢٥٦].

- **معركة وطا الجوز**، التي جرت في أوائل تشرين الأول (١٨٤٠) واشترك بها الأمير مجيد كذلك إلي جانب المصريين، وقد هزم فيها الأمير الثائر خنجر الحرفوش على يد الأمير مجيد نفسه[٢٥٧].

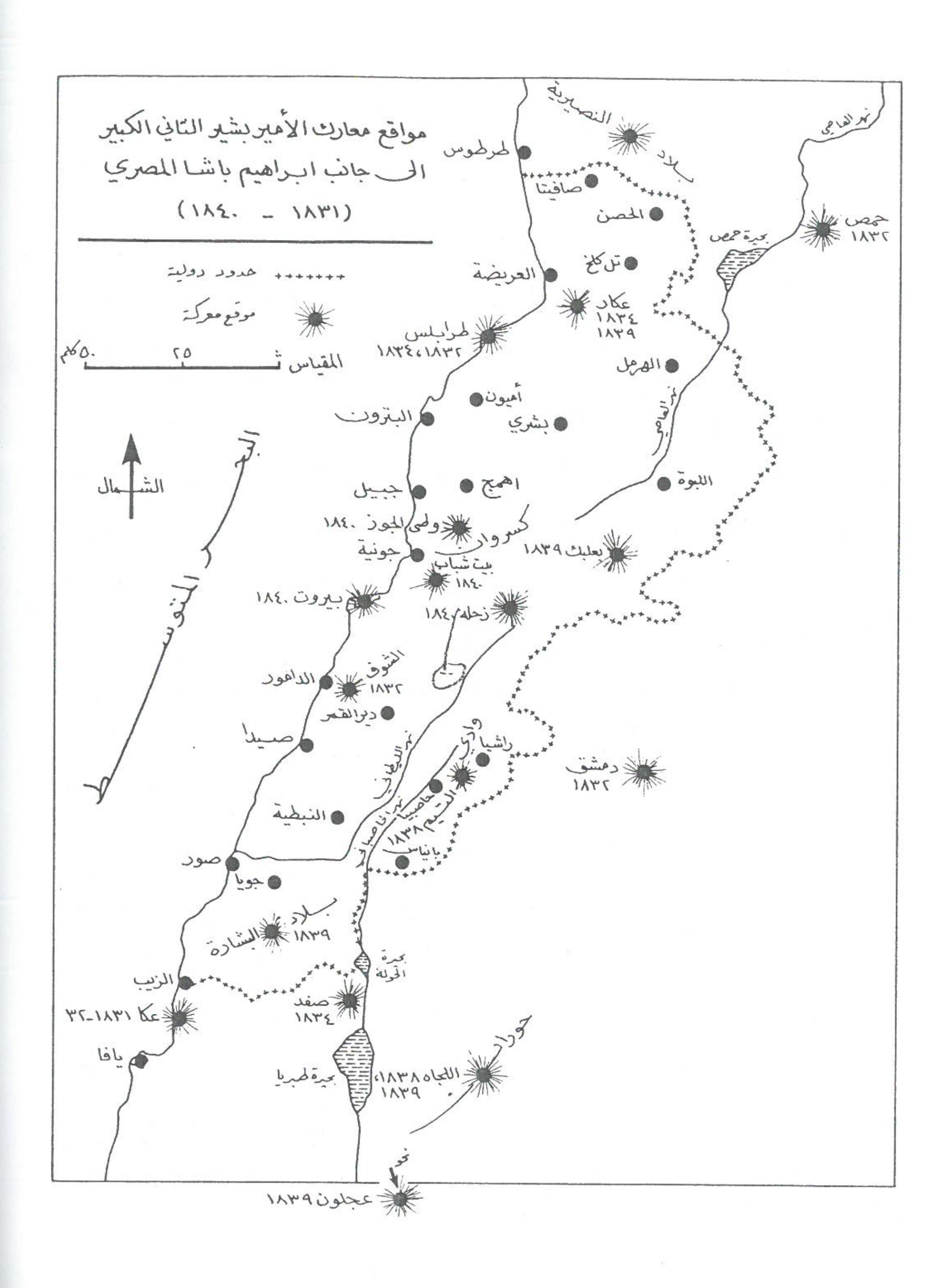
- **معركة بيت شباب**، التي جرت في منتصف تشرين الأول (١٨٤٠) وكانت نتيجتها هزيمة حاسمة لإبراهيم باشا على يد الجيش العثماني والثوار، وقد عاد بعدها رجال الأمير بشير إلى بيت الدين، وكانت آخر معركة يخوضها الأمير إلى جانب حلفائه المصريين[٢٥٨].

واستمرت الحرب طوال النصف الثاني من العام نفسه (أول أيلول - آخر كانون الأول ١٨٤٠) حيث انتهت بهزيمة ابراهيم باشا وحليفه الشهابي وخروجهما نهائياً من بلاد الشام، إذ تمّ خروج آخر جندي مصري من دمشق في ٣١ كانون الأول ١٨٤٠[٢٥٩]، كما تمّ خروج آخر جندي مصري من هذه البلاد وعن طريق غزة في ٣١ كانون الثاني ١٨٤١[٢٦٠]. أما الأمير بشير، فلم يكن مصيره بأفضل من مصير حليفه وشريكه محمد علي، إذ انه استسلم للقوات المنتصرة ووضع مصيره بين أيديها، حتى تقرّر عزله عن الإمارة ونفيه إلى مالطة، فغادر بيت الدين إلى صيدا، ومنها إلى مالطة (في ١٠ تشرين الأول ١٨٤٠)، وقد مكث فيها زمناً يسيراً انتقل بعدها إلى الآستانة حيث وافاه الأجل في التاسع والعشرين من كانون الأول عام ١٨٥٠ عن عمر يناهز الرابعة

والثمانين[٢٦١]، وبعد أن حكم الإمارة نحو نصف قرن من الزمن، وكانت وفاته، بالتحديد، في (قاضي كوي) التي كانت تعرف قديماً باسم (خلقي دونيا) وتقع قبالة (استنبول) عاصمة السلطنة آنذاك.

أما إمارة الشوف، فقد نصّبت عليها الدولة العثمانية، بالاتفاق مع الانكليز، وفي التاسع من تشرين الأول (١٨٤٠) أميراً جديداً هو الأمير بشير قاسم ملحم أو الأمير بشير الثالث[٢٦٢]، الذي كان آخر أمير لآخر إمارة.

والجدير بالذكر أن الفرمان السلطاني الذي عُيّن الأمير بشير الثالث بموجبه أميرا على الشوف (بدلاً من سلفه الأمير بشير قاسم عمر أو الأمير بشير الثاني)، سمّاه أميراً على «إمارة جبل الدروز»، وقد وجّه هذا الفرمان إلى الأمير «بشير القاسم دام مجده» وإلى «مفاخر الأماجد والأعيان مشايخ قبائل الدروز زيدت إطاعتهم»[٢٦٣]. ولم يكن ذلك، في أي حال، مخالفاً لشروط رجال الدين الموارنة التي أعلنوها بعد تنصيب الأمير الماروني الشهابي الجديد بعشرين يوماً (٢٩ تشرين الأول ١٨٤٠) وأهمها الشرط الثاني عشر وهو «أن الحاكم دايما على جبل لبنان وانطيلبنان، بحسب المعتاد القديم، لا يكون إلا مارونياً من العايلة الشهابية الشريفة»[٢٦٤]. وقد وقّع على هذه الشروط كل من: مطران بعلبك (أنطوان الخازن) ومطران قبرص (عبدالله بليبل) ومطران طرابلس (بولس موسى) ومطران بيروت (بطرس كرم) ومطران دمشق (يوسف الخازن) ومطران قورش (يوسف رزق) ومطران صور والوكيل البطريركي (سمعان زوين) وبطريرك انطاكية وسائر المشرق (يوسف بطرس)[٢٦٥].



حواشي الفصل السابع

(١) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم أول ص ٦١.

(٢) رستم، م. ن. ص. ن. ويقدر مشاقة، معاصر الأمير، عديد جيش ابراهيم باشا الذي حاصر عكا بما يلي:

«ثمانية ألايات مشاة تبلغ أنفارها ثمانية عشر ألفاً، وثمانية ألايات خيل تبلغ رجالها أربعة آلاف، ويوجد نحو ألفي فارس من عرب الهنادي، والمدافع مع القبوسات وهاون القنبرة ثلاثون وأربعون قطعة، ومطبعة حجر» (مشاقة، منتخبات من الجواب على اقتراح الاحباب، ص١١٢).

(٣) رستم، م. ن. ص. ن.

(٤) عند وصول ابراهيم باشا إلى يافا جاءه وجهاؤها يعرضون عليه تسليم المدينة بلا قتال فوافق، ثم أوفد كتيبة من جنده لاحتلالها والاستيلاء على مدافعها وذخائرها كما أوفد كتيبة أخرى لاحتلال بيت المقدس فتم له ذلك (رستم، م. ن. ص. ن.).

(٥) فور وصول ابراهيم باشا إلى حيفا جاءه شيوخ نابلس وجنين وقدّموا له الطاعة فأقرّهم على مشيخاتهم (رستم، م. ن. قسم ١ : ٦١ - ٦٢).

(٦) م. ن. ص ٦٢.

(٧) في رسالة من ابراهيم باشا إلى والده بتاريخ ١٠ شعبان ١٢٤٧هـ (منتصف كانون الثاني ١٨٣٢م) ذكر ابراهيم باشا أن حامية عكا، في أثناء الحصار، كانت تعد، وفقاً لتقدير الأمير الشهابي، ما بين ٢٧٠٠ و٢٨٠٠ مقاتل. (رستم، المحفوظات الملكية، بيان بوثائق الشام، مجلد ١ : ١٧٠ وثيقة رقم ٤٣٦). وذكر مشاقة الرقم نفسه تقريباً، إذ قال: «كان في داخل عكا من العسكر نحو ثلاثة آلاف من الشجعان المجربين بالوقائع»، (مشاقة، مخايل، منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب، ص ١١١).

(٨) رستم، م. ن. مجلد ١ : ١٣٣ وثيقة رقم ٣٦٠.

(٩) رسالة من الأمير بشير إلى ابراهيم باشا (رستم، م. ن. مجلد ١ : ١٣٥، وثيقة رقم ٣٦٠).

(١٠) الوثيقة نفسها.

(١١) رسالة من محمد علي إلى الأمير بشير بتاريخ ٢٩ جمادى الآخرة ١٢٤٧هـ (كانون الأول ١٨٣١م)، (رستم. م. ن. مجلد ١ : ١٣٥ وثيقة رقم ٣٦٢).

(١٢) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ١ : ٦٣.

(١٣) مشاقة، منتخبات، ص ١١٠.

(١٤) يؤكد هذا الاعتقاد ما ذكره مشاقة من أنه حضر لعند الأمير «للوقوف على خاطره كيف يريد أن يكون تصرف الأمير سعد الدين (الشهابي، أمير حاصبيا) بهذه الحادثة» أي حادثة هجوم ابراهيم باشا على عكا، فأجابه الأمير «متى انتهى أمر عكا فأعرّف الأمير سعد الدين وغيره عمّا يجب عمله، وأما الآن فيجب أن يكون في طاعة والي الشام كعادته» (مشاقة، منتخبات ص ١١١).

(١٥) Ismaïl, Documents, diplomatiques et consulaires, T.5 p. 200.

ورستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ١ : ٦٤.

(١٦) Ismaïl, Op. cit. T5, pp. 200 - 201.

وانظر: رسالة من ابراهيم باشا إلى والده بتاريخ ٢٩ ربيع الأول ١٢٤٨هـ (آب ١٨٣٢م) والتي يذكر فيها اعتذار الأمير بشير عن قبول منصب حاكم بر الشام. (رستم، المحفوظات الملكية، مجلد ٢ : ٨٦ وثيقة رقم ١٦٥٨). وقد كتب محمد علي إلى الأمير بشير رسالة قال له فيها: «أنا عالم بميلك ومحبتك وصدق خلوصيتك لطرفنا، ولكن حين كانت تورد لنا الأخبار اليومية ولم أر بها حضورك لإعانة سعادة ولدنا المشار إليه، فضاق صدري جداً وحرّرت لك ذلك التحرير السابق (الذي) يتضمن زعل خاطرنا». ويستطرد محمد علي في الرسالة نفسها قائلاً: «فيا أمير بشير، أنا اختيار وأنت اختيار، (وإذا) اعطا أحدنا إلى أحدنا شيئاً يكون غشاً من كون هكذا أشياء تليق للشبان، فالآن مرسلين إلى ولدنا ولدكم الموجود معكم جوز طبنجات ذهب وسيف ذهب إن شاء الله تعالى عند وصولهما واعطايهما يتقلد بهم بالصحة، ومن الآن وصاعداً لا تخلونا من التذكار مع ما يلزم إعراضه، هذا مأمولنا والسلام ختام» (رستم، الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا، ج ١ : ١٠٤).

(١٧) رسالة من محمد علي إلى ابنه ابراهيم بتاريخ ٢٧ رجب هـ (كانون الثاني ١٨٣٢م)، رستم، المحفوظات الملكية، مجلد ١ : ١٦١ وثيقة رقم ٤١١.

(١٨) رسالة من ابراهيم باشا إلى والده بتاريخ ١٠ شعبان ١٢٤٧هـ (منتصف كانون الثاني ١٨٣٢م)، رستم، المحفوظات، مجلد ١ : ١٦٩ وثيقة رقم ٤٣٦.

(١٩) أنظر وصفاً دقيقاً وشاملاً لسقوط عكا بيد ابراهيم باشا، عند: رستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ١ : ٧٥ - ٧٦.

(٢٠) رستم، المحفوظات، مجلد ١ : ١٩١ - ١٩٤.

(٢١) رسالة من محمد علي إلى ابنه ابراهيم بتاريخ ١٢ شعبان ١٢٤٧هـ (كانون الثاني ١٨٣٢م)، رستم، المحفوظات، مجلد ١ : ١٧١، وثيقة رقم ٤٤١.

(٢٢) رسالة من ابراهيم باشا إلى والده بتاريخ ١٩ شعبان ١٢٤٧هـ (كانون الثاني ١٨٣٢م)، رستم، المحفوظات، مجلد ١ : ١٧٣ - ١٧٧.

(٢٣) الرسالة نفسها المشار إليها أعلاه، ورسالة يوحنا بحري إلى الباشمعاون بتاريخ ٣ رمضان ١٢٤٧هـ (شباط ١٨٣٢م)، رستم، المحفوظات، مجلد ١ : ١٨٩.

(٢٤) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ١ : ٦٩.

(٢٥) الشدياق، أخبار الأعيان، ج ٢ : ٤٤٥، ويذكر الشدياق أن الشيخ حموداً كتب كتاباً إلى عثمان باشا باللاذقية يبلغه فيه أنه لا يزال مقيماً على طاعة الدولة العثمانية، فوقع الكتاب بيد الأمير خليل الذي أرسله إلى والده بعكا (م. ن. ص. ن). وبينما يذكر الشدياق (م. ن. ص. ن.) أن عديد هذا الجيش كان ألف رجل، فقد ذكر جوريل «Jorelle» القائم بأعمال القنصلية الفرنسية ببيروت، وفي رسالته إلى الكونت سيباستياني وزير الخارجية الفرنسية، بتاريخ ٧ شباط ١٨٣٢، أن عديد هذا الجيش كان ألفاً وخمسماية رجل.

(Ismaïl, Documents, T5 p. 200).

(٢٦) رستم، المحفوظات، مجلد ١ : ٢٣١.

(٢٧) رسالة من مصطفى آغا بربر إلى يوحنا بحري بتاريخ ٣پ رمضان ١٢٤٧هـ (شباط ١٨٣٢م)، رستم، المحفوظات، مجلد ١ : ١٩٨ - ٢٠٠. ويقدر الشدياق عدد هؤلاء المقاتلين بأربعة آلاف من «أرناؤوط وهوارا وغيرهم» (أخبار الأعيان ج ٢ : ٤٤٥).

(٢٨) تقرير يوحنا بحري بأخبار المعسكر عن شهر ذي القعدة ١٢٤٧هـ (نيسان ١٨٣٢م)، رستم، المحفوظات، مجلد ١ : ٢٤٨ وثيقة رقم ٧٠٧.

(٢٩) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ١ : ٧٠، وإذ يستند رستم في روايته هذه على الشدياق (أخبار الأعيان)، نرى أن الشدياق يروي المعركة بشكل آخر، فيذكر أن الذي خرج في البدء لقتال عثمان باشا هو مصطفى آغا بربر حاكم طرابلس، وقد خرج إليه بمايتي مقاتل من طرابلس ومايتين من العسكر النظامي، فانكسر مصطفى آغا، وأنجده الأمير خليل الشهابي برجاله وهجم على عثمان باشا الذي انهزم أمامه، فلما رأى العسكر المصري جند عثمان باشا منهزمين جدّوا في أثرهم مطاردين وكان العسكر المصري نحو ستماية رجل، ولكن خيّالة عثمان باشا ارتدّوا على العسكر المصري المطارد فهزموه وشتّتوه وتمكّنوا من أن ينفردوا بثلة من خمسين منهم فقتلوا بعضهم وفرّ البعض الآخر، وعندها تدخل الأمير خليل من جديد وللمرة الثانية فهجم بعسكره على فرسان عثمان باشا في السهل والارناؤوط في التل فهزمهم جميعاً وطاردهم حتى البداوي (الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٤٤٥ - ٤٤٦).

(٣٠) الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٤٤٦.

(٣١) Ismaïl, Documents T5. pp. 212 et 221.

(٣٢) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ١ : ٧٠.

(٣٣) م. ن. ص. ن.

(٣٤) م. ن. ص. ن.

(٣٥) أنظر النص الكامل لهذا المرسوم الصادر في ١ شوال ١٢٤٧هـ (آذار ١٨٣٢م)، عند: رستم، الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا، ج ١ : ١١٧ - ١١٨.

(٣٦) أنظر نصّ تقرير يوحنا بحري عند: رستم، المحفوظات، مجلد ١ : ٢٥٧ - ٢٦٠.

(٣٧) أنظر خصوصاً الرسالتين الأولى والأخيرة الواردتين في تقرير يوحنا بحري المشار إليه أعلاه (رستم، م. ن. ص. ن.).

(٣٨) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ١ : ٧١.

(٣٩) رستم، المحفوظات، مجلد ١ : ٢٨٤، وثيقة رقم ٨٢٠.

(٤٠) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ١ : ٧١.

(٤١) وإن كان الدكتور أسد رستم يرى عكس ذلك فيذكر أن الأمير بشيراً استغل فرصة وجود ابراهيم باشا وجيشه في البقاع، فقام من عكا إلى بيت الدين وسار مع ابراهيم باشا إلى دير القمر على رأس قوة مصرية أوقعت الرعب في قلوب المعارضين (رستم، م. ن. ص. ن.).

(٤٢) أمر عالي صادر عن السر عسكر ابراهيم باشا بتاريخ ٢٧ ذي القعدة ١٢٤٧هـ (نيسان ١٨٣٢م) رستم، المحفوظات، مجلد ١ : ٢٨٣، وثيقة رقم ٨٢٠.

(٤٣) مم. ن. جلد ١ : ٢٨٤، وثيقة ن.

(٤٤) م. ن. ص. ن.

(٤٥) م. ن. مجلد ١ : ٢٨٥.

(٤٦) تقرير يوحنا بحري إلى الباشمعاون بشأن أخبار المعسكر، بتاريخ ٢٩ و٣٠ ذي القعدة (آخر نيسان ١٨٣٢)، رستم، المحفوظات، مجلد ١ : ٢٨٦، وثيقة رقم ٨٢٦، وانظر أيضاً: الشدياق، أخبار الأعيان، ج ٢ : ٤٤٧ - ٤٤٨.

(٤٧) الشدياق، أخبار الأعيان، ج ٢ : ٤٤٧، ورستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ١ : ٧١.

(٤٨) الشدياق، م. ن. ص. ن. ورستم، م. ن. ص. ن.

(٤٩) الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٤٤٨ ورستم، م. ن. قسم ١ : ٧١ - ٧٢.

(٥٠) رستم، م. ن.، قسم ١ : ٧٢.

(٥١) رسالة من محمد علي إلى ابنه ابراهيم بتاريخ ٦ ذي الحجة ١٢٤٧هـ (أيار ١٨٣٢م)، رستم، المحفوظات، مجلد ١ : ٢٩١، وثيقة رقم ٨٥٨.

(٥٢) الرسالة نفسها المشار إليها أعلاه، م. ن. ص. ن.

(٥٣) راجع وصفاً دقيقاً للمعركة عند: رستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ١ : ٧٤ - ٧٦.

(٥٤) رسالة من محمد علي إلى ابنه ابراهيم بتاريخ ٤ محرم ١٢٤٨هـ (٣ حزيران ١٨٣٢م) رستم، المحفوظات، مجلد ٢ : ٥، وثيقة رقم ١٠٧٢.

(٥٥) رسالة ابراهيم باشا إلى والده بتاريخ ٧ محرم ١٢٤٨هـ (٦ حزيران ١٨٣٢م) م. ن.، مجلد ٢ : ١٠ وثيقة رقم ١١٠٨.

(٥٦) الرسالة نفسها المشار إلهيا أعلاه، م. ن. ص. ن.

(٥٧) رسالة من ابراهيم باشا إلى والده بتاريخ ٨ محرم ١٢٤٨هـ (٧ حزيران ١٨٣٢م) م. ن.، مجلد ٢ : ١٤ وثيقة رقم ١١٢٩.

(٥٨) رسالة من محمد علي إلى ابنه ابراهيم بتاريخ ١٠ محرم ١٢٤٨هـ (٩ حزيران ١٨٣٢م) م. ن.، مجلد ٢ : ١٤ - ١٥، وثيقة رقم ١١٣٢.

(٥٩) رسالة من محمد علي إلى ابنه ابراهيم بتاريخ ١١ محرم ١٢٤٨هـ (١٠ حزيران ١٨٣٢م) م. ن.، مجلد ٢ : ١٥ - ١٦، وثيقة رقم ١١٣٨.

(٦٠) م. ن.، مجلد ٢ : ١٢، وثيقة رقم ١١١٥.

(٦١) رسالة من محمد علي إلى ابنه ابراهيم بتاريخ ١٣ محرم ١٢٤٨هـ (١٢ حزيران ١٨٣٢م) م. ن.، مجلد ٢ : ١٨، وثيقة رقم ١١٥٨.

(٦٢) رسالة من محمد علي إلى ابنه ابراهيم بتاريخ ١١ محرم ١٢٤٨هـ (١٠ حزيران ١٨٣٢م) م. ن.، مجلد ٢ : ١٥ - ١٦، وثيقة رقم ١١٣٨.

(٦٣) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ١ : ٧٩.

(٦٤) م. ن. ص. ن.

(٦٥) م. ن. ص. ن.

(٦٦) م. ن. ص. ن.

(٦٧) رسالة من محمد علي إلى ابنه ابراهيم بتاريخ ٢٤ محرم ١٢٤٨هـ (٢٣ حزيران ١٨٣٢م) رستم، المحفوظات، مجلد ٢ : ٢٨، وثيقة رقم ١٢٢٩، وانظر أيضاً: رستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ١ : ٨٠.

(٦٨) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ١ : ٨٠.

(٦٩) م. ن.، قسم ١ : ٨١ - ٨٢، ومشاقة، منتخبات، ص ١١٤.

(٧٠) مشاقة، م. ن. ص ١١٤ و١١٧. وكان مشاقة قد سمع من الأمير في دمشق أن عديد القوات العثمانية في حمص «اثني عشر ألفاً» فقط، إلاّ أنه عندما بدأت المعركة ورأى كثرة عدد العثمانيين سأل الأمير قائلاً: «هؤلاء هم الاثني عشر ألفاً الاعداء الذين قلتم عنهم بدمشق؟» فأجابه الأمير «قلنا هذا ولم يصل معنا لهنا نصف الذين كانوا معنا، فكيف لو قلنا أنهم ستون أو سبعون ألفاً فلا يصل معنا أحد» (مشاقة، م. ن. ص: ١١٤ و١١٦).

(٧١) أبو عز الدين، سليمان، ابراهيم باشا في سوريا ص ٩٥.

(٧٢) رستم، المرجع السابق، قسم ١ : ٨١، ومشاقة، المصدر السابق، ص ١١٥، و Weygand, Histoire Militaire de Mohamet Ali et de ses fils, vol. 2 p. 37.

ولكن «أبو عز الدين» يذكر أن محمد باشا رتّب جيشه في صفين اثنين «جاعلاً جناحه الأيمن في مكان منفصل عن سائر الجيش، في جزيرة واقعة ما بين مجرى نهر العاصي وقناة ماء»، مما شلّ قدرة هذا الجناح على التحرك والمناورة، (أبو عز الدين، المرجع السابق، ص ٩٦). فهل يمكن الموافقة بين قول أبو عز الدين هذا فيما خصّ الجزيرة المشار إليها، وبين قول رستم إن محمد باشا أسند ميمنة جيشه على العاصي «والترعة المتفرعة منه» بحيث تكون هذه الميمنة قد أصبحت في موقع منفصل فعلاً؟ إن نظرة إلى خارطة الموقع ترينا أنه يوجد بين حمص وبحيرة «قطينة» الواقعة جنوب غربي المدينة، مجاري مياه (أو ترع) متفرعة عن نهر العاصي، يمكن أن تشكل الأراضي الواقعة بينها وبين مجرى النهر جزر أو مواقع منفصلة أخطأ القائد العثماني بتركيز ميمنته عليها.

(٧٣) رستم، المرجع السابق، قسم ١ : ٨٢ - ٨٣، ومشاقة، المصدر السابق، ص ١١٤ - ١١٥ (*).

(٧٤) رستم، المرجع السابق، قسم ١ : ٨٣، ومشاقة، المصدر السابق، ص ١١٧. ويذكر مشاقة أن خيل ابراهيم باشا والأمير بشير، عندما دخلت إلى حمص، ظلت «تدوس على القتلا مسافة ميل في سهل بابا عمرو» (مشاقة، م. ن. ص. ن.).

(*) **ملاحظة: نعرّف**: رستم، المرجع السابق، قسم... (بشير بين السلطان والعزيز)
و: رستم، المصدر السابق، مجلد... (المحفوظات الملكية).
و: مشاقة، المصدر السابق، (مختارات من الجواب على اقتراح الأحباب).

(٧٥) أبو عز الدين، المرجع السابق، ص ٩٧.

(٧٦) م. ن. ص ٩٨.

(٧٧) م. ن. ص ٩٧.

(٧٨) رستم، المرجع السابق، قسم ١ : ٨٣ - ٨٨.

(٧٩) م. ن. قسم ١ : ٨٧.

(٨٠) سوف تعود الآستانة، بعدها، إلى نقض هذا الصلح، وتطرد، بمعاونة الدول الأوروبية، محمد علي من بلاد الشام كلها (عام ١٨٤٠).

(٨١) لا يمكن لأحد أن ينكر دور المستر وود أحد موظفي السفارة البريطانية بالآستانة، في هذه الثورات (رستم، المرجع السابق، قسم٢ : ١٣٥).

(٨٢) في رسالة من اللواء ابراهيم بك إلى محمد علي باشا بتاريخ ١٥ محرم ١٢٥٠هـ (أواخر أيار ١٨٣٤م)، كتب اللواء ابراهيم إلى عزيز مصر يفيده أن الفلاحين قد تجمعوا في قرية «البيرة» بفلسطين وذهبوا إلى قرية «أبي غوش» وذلك «لقطع الطريق على العساكر الآتية من يافا إلى القدس»، ثم يذكر له أنه «بمسيس الحاجة إلى الفرسان لمطاردة الثوار وتعقبهم»، كما يذكر له «عطف عظماء جبل الدروز وزعمائه على حركة الفلاحين واتفاقهم معهم». (رستم، المحفوظات، مجلد ٢ : ٣٩٩ وثيقة رقم ٣٤٣٨)، وانظر أسباب ثورة آل القاسم وثورة القبائل الرحل في بادية الشام وحوران وشرقي الأردن عند : رستم، المرجع السابق، قسم ٢ : ١٢٠ - ١٢١.

(٨٣) في رسالة من ابراهيم باشا إلى والده محمد علي بتاريخ ١٦ محرم ١٢٥٠هـ (أواخر أيار ١٨٣٤م) كتب ابراهيم باشا إلى والده «يشعره بنشوب الثورة في فلسطين ويذكر له الإجراءات العسكرية التي اتخذها لتأديب الثائرين... ويرجو إمداده بالقوة وإرسال ألاي الغارديا الثاني أو ألاي الغارديا المقيم في مصر» (رستم، المحفوظات، مجلد ٢ : ٣٩٩، وثيقة رقم ٣٤٤٠).

وفي رسالة أخرى من ابراهيم باشا إلى والده بتاريخ ٢٥ محرم ١٢٥٠هـ (أوائل حزيران ١٨٣٤م) أشار ابراهيم باشا إلى ما نقله إليه أحمد بك أمير ألاي الفرسان الخامس «عن القلق الذي يساور الحضرة الخديوية من جرّاء حوادث فلسطين وجبل الدروز» ويؤكد لوالده أن ما جرى هو «لمجرد التخلص ن التجنيد» فقط، ويقلل من أهمية هذه الأحداث. (رستم، المحفوظات، مجلد ٢ : ٤٠٢، وثيقة رقم ٣٤٥٧).

(٨٤) رستم، المرجع السابق، قسم ٢ : ١٢٣ - ١٢٤، وأبو عز الدين، المرجع السابق، ص ١٧٤، وانظر: رسالة من محمد علي إلى ابنه ابراهيم تشير إلى أنه «قام من الاسكندرية يوم الخميس في ١٩ صفر (٢٧ حزيران) وأنه وصل إلى يافا يوم الاثنين» (٢٣ صفر - ٣١ حزيران)، (رستم، المحفوظات، مجلد ٢ : ٤١٧، وثيقة رقم ٣٥٢٧).

(٨٥) رسالة بتاريخ ١٣ صفر ١٢٥٠هـ (٢١ حزيران ١٨٣٤م)، رستم، المحفوظات، مجلد ٢ : ٤١١ وثيقة رقم ٣٥٠١.

(٨٦) رسالة بالتاريخ نفسه أعلاه (م. ن. ص. ن. وثيقة رقم ٣٥٠٣).

(٨٧) رستم، المرجع السابق، قسم ٢ : ١٢٤.

(٨٨) رسالة من الأمير بشير إلى محمد علي بتاريخ ١٥ صفر ١٢٥٠هـ (٢٣ حزيران ١٨٣٤م)، رستم، المحفوظات، مجلد ٢ : ٤١٤، وثيقة رقم ٣٥١٣.

(٨٩) رسالة من الجناب العالي إلى الديوان الخديوي بتاريخ غاية صفر ١٢٥٠هـ (أوائل تموز ١٨٣٤م)، م. ن.، مجلد ٢ : ٤٢١، وثيقة رقم ٢٥٤١.

(٩٠) رسالة من الأمير بشير إلى محمد علي بتاريخ ١٧ ربيع الأول ١٢٥٠هـ (تموز ١٨٣٤م)، م. ن.، مجلد ٢ : ٤٣٠، وثيقة رقم ٣٥٨٥، وانظر:
Ismaïl, Documents T5. pp. 295 - 296, et 303.

(٩١) من رسالة يوحنا بحري بك إلى سامي بك بتاريخ آخر بيع الأول ١٢٥٠هـ (آب ١٨٣٤م)، رستم، المحفوظات، مجلد ٢ : ٤٣٥ - ٤٣٦، وثيقة رقم ٣٦١٣.

(٩٢) الشدياق، أخبار الأعيان، ج ٢ : ٤٥١. ويذكر أبو عز الدين (المرجع السابق، ص ١٨٢) أن الأمير خليلاً سار برجاله إلى طرابلس في ٩ ربيع الأول ١٢٥٠هـ (الموافق لـ ١٦ تموز ١٨٣٤م)، وقد وافقها أبو عز الدين، خطأ، في ٣ تموز.

(٩٣) رسالة من مجهول إلى مجهول بتاريخ ٢٣ ربيع الأول ١٢٥٠هـ (أواخر تموز ١٨٣٤م)، رستم، المحفوظات، مجلد ٢ : ٤٣٢ وثيقة رقم ٣٥٩٦.

(٩٤) هكذا وردت الأسماء في الرسالة الآنفة الذكر، إلا أن الشدياق (أخبار الأعيان، ج ٢ : ٤٥٢) أورد أسماء: «أسعد بك المرعب وأسعد بك الشديد واثنين من أولاد محمد بك القدور» وأضاف أنه قبض، بالإضافة إلى هؤلاء، «على ثلاثين رجلاً وبعض وجوه عكار» وقد أخذ عنه كل من: رستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ٢ : ١٢٦، وأبو عز الدين، ابراهيم باشا في سوريا، ص ١٨٣.

(٩٥) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٥٢. وأبو عز الدين، المرجع السابق، ص ١٨٣.

(٩٦) رستم، المرجع السابق، قسم ٢ : ١٢٧.

(٩٧) رسالة مؤرّخة في ٢ ربيع الآخر ١٢٥٠هـ (٨ آب ١٨٣٤م)، رستم، المحفوظات، مجلد ٢ : ٤٣٧ - ٤٣٨، وثيقة رقم ٣٦٢٠.

(٩٨) أنظر النصّ الكامل لرسالة الأمير بشير إلى (يوحنا بحري بك) عند: رستم، المحفوظات، مجلد ٢ : ٤٤٤، وثيقة رقم ٣٦٥٠، وهي رسالة مؤرّخة في ٢٧ ربيع الآخر ١٢٥٠هـ (أوائل أيلول ١٨٣٤م).

(٩٩) رسالة من يوحنا بحري بك إلى سامي بك بتاريخ آخر ربيع الأول ١٢٥٠هـ (أوائل آب ١٨٣٤م)، رستم، م. ن.، مجلد ٢ : ٤٣٥ - ٤٣٦، وثيقة رقم ٣٦١٣.

(١٠٠) رسالة من سليم باشا إلى ابراهيم باشا بتاريخ ٢٩ جمادى الأولى ١٢٥٠هـ (تشرين الأول ١٨٣٤م)، م. ن.، مجلد ٢ : ٤٦١، وثيقة رقم ٣٧٣٣.

(١٠١) رسالتان من سليم باشا إلى ابراهيم باشا لهذا الغرض بتاريخ ٦ و١٤ جمادى الآخرة ١٢٥٠هـ (تشرين الأول ١٨٣٤م)، م. ن.، مجلد ٢ : ٤٦٥، و٤٦٩، وثيقة رقم ٣٧٤٩ ووثيقة رقم ٣٧٦٧.

(١٠٢) رسالة من علي بك (قائد ألاي فرسان في الجيش المصري) إلى سليم باشا بتاريخ آخر جمادى الآخرة ١٢٥٠هـ (أول تشرين الثاني ١٨٣٤م)، تفيد أن «الأمير خليل الشهابي قام إلى منطقة الثوار على رأس عشرة آلاف مقاتل للتعاون مع اللواء سليم بك». (رستم، المحفوظات، مجلد ٢ : ٤٧٤ - ٤٧٥، وثيقة رقم ٣٧٩٠). ورسالة أخرى من اللواء سليم بك إلى سليم باشا بتاريخ ٥ رجب ١٢٥٠هـ (تشرين الثاني ١٨٣٤م) تفيد أن النجدة قد وصلت بقيادة الأمراء خليل ومحمود وفندي، (رستم، م. ن. مجلد ٢ : ٤٧٧ وثيقة رقم ٣٨٠١). إلاّ أن القنصل الفرنسي ببيروت، هنري غيز، ذكر في رسالة منه إلى الكونت دي رينيي، وزير الخارجية الفرنسية، بتاريخ ٢٢ تشرين أول ١٨٣٤ أن عدد الجند الذين اصطحبهم الأمير خليل معه إلى اللاذقية كان ٣ آلاف فقط، (Ismaîl, op. cit. T 5, p. 310).

(١٠٣) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٥٢.

(١٠٤) رسالة من مجهول إلى مجهول بتاريخ ٢٣ ربيع الأول ١٢٥٠هـ (أول آب ١٨٣٤م)، رستم، المحفوظات، مجلد ٢ : ٤٣٢، وثيقة رقم ٣٥٩٦.

(١٠٥) رسالة من سليم بك (قائد ألاي فرسان المدفعية) إلى ابراهيم باشا بتاريخ آخر جمادى الأولى ١٢٥٠هـ (تشرين أول ١٨٣٤م)، م. ن.، مجلد ٢ : ٤٦٢، وثيقة ٣٧٣٦.

(١٠٦) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٥٢.

(١٠٧) الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٤٥٣، ورستم، المرجع السابق، قسم ٢ : ١٢٨.

(١٠٨) الشدياق، م. ن. ج ٢ : ٤٥٣، ورستم، م. ن. قسم ٢ : ١٢٨ - ١٢٩، وانظر: رسالة من اللواء سليم بك إلى ابراهيم باشا بتاريخ ٢٧ رجب ١٢٥٠هـ (أواخر تشرين الثاني ١٨٣٤م)، وهي تشير إلى وقعة «القنطرة» بين النجدة المرسلة من الأمير بشير وبين ثوار عكار وصافيتا الخ... وتذكر كذلك أن «حسن اليازجي» خرج بفرسانه «وألف وخمسماية نفر من عساكر الدروز من اللاذقية» لمكافحة هؤلاء الثوار في الجبال. (رستم، المحفوظات، مجلد ٢ : ٤٨٢، وثيقة رقم ٣٨٣٣).

(١٠٩) يذكر أبو عز الدين أنه قد جرت معارك بين هذين الأميرين ورجالهما وبين النصيرية في وادي العيون ووادي عميق شمال صافيتا، وذلك في أثناء عودة الأميرين إلى بلادهما (أبو عز الدين، المرجع السابق، ص ١٨٨).

(١١٠) أبو عز الدين، م. ن. ص. ن.

(١١١) رسالة من اللواء سليم بك إلى ابراهيم باشا الوارد ذكرها أعلاه، وقد جاء في هذه الرسالة أن عدد البنادق التي جمعها الجيش المصري من بلاد النصيرية زاد على خمسة الاف بندقية (رستم، المحفوظات، مجلد ٢ : ٤٨٢، وثيقة رقم ٣٨٣٣).

(١١٢) رسالة مؤرخة في ٢٩ ذي القعدة ١٢٥٣هـ (شباط ١٨٣٨م). رستم، المحفوظات، مجلد ٣ : ٣٣٩ وثيقة رقم ٥٣١٢.

(١١٣) م. ن. مجلد ٣ : ٣٤٠، وثيقة رقم ٥٣١٢.

(١١٤) رسالة من ابراهيم باشا إلى محمد شريف باشا بتاريخ ٣ ذي الحجة ١٢٥٣هـ (أواخر شباط ١٨٣٨م)، م. ن. مجلد ٣ : ٣٤٤ - ٣٤٥ وثيقة رقم ٥٣٢١.

(١١٥) رسالة من ابراهيم باشا إلى سامي بك بتاريخ ٣ ذي الحجة، (م. ن. مجلد ٣ : ٣٤٥ وثيقة رقم ٥٣٢٢)، ولكن القنصل الفرنسي ببيروت، هنري غيز، ذكر في رسالة منه إلى الكونت موليه، وزير الخارجية الفرنسية، بتاريخ ٢١ آذار ١٨٣٨، أن الأمير بشيراً أرسل، مع ولده، نحو ألفي خيّال، إلى حوران، لحراسة الممرات المهمة. (Ismaïl, op. cit., T5 p. 380)

(١١٦) رسالة مجهولة العنوان من متسلم حاصبيا (ولعلّها موجّهة إلى يوحنا بحري بك أو إلى محمد شريف باشا)، ومؤرّخة في ٢ محرم ١٢٥٤هـ (آذار ١٨٣٨م)، رستم، المحفوظات، مجلد ٣ : ٣٧٠، وثيقة رقم ٥٣٧٢.

(١١٧) رسالة من اختيارية نصارى الكفير إلى متسلم حاصبيا، بالتاريخ نفسه (٢ محرم)، م. ن. مجلد ٣ : ٣٧١، وثيقة رقم ٥٣٧٢.

(١١٨) رسالة من درويش آغا بلوكباشي الهوارة إلى أحمد آغا البليدي رئيس الهوارة، بتاريخ ٤ محرم ١٢٥٤هـ (آخر آذار ١٨٣٨م)، م. ن. مجلد ٣ : ٣٧١، وثيقة رقم ٥٣٧٢. إلاّ أن يوحنا بحري يرى، في رسالة منه إلى ابراهيم باشا بهذا الصدد، وبتاريخ ٥ محرم، أن عدد الثوار «مبالغ فيه» لأنه «من المستبعد أن يغادر اللجاة نصف هذا العدد من الأشقياء أو ثلثه بينما هناك ذاك العدد من خيالة الجيش» ولا يستبعد أن يكون هؤلاء من «الأشقياء الذين شقوا عصا الطاعة في مقاطعة حاصبيا». م. ن. مجلد ٣ : ٣٧٤، وثيقة رقم ٥٣٧٤.

(١١٩) رسالة من يوحنا بحري بك إلى ابراهيم باشا بتاريخ ٥ محرم ١٢٥٤هـ (نيسان ١٨٣٨م)، م. ن. مجلد ٣ : ٣٧٢، وثيقة رقم ٥٣٧٤.

(١٢٠) الرسالة نفسها، م. ن. مجلد ٣ : ٣٧٣.

(١٢١) رسالة من ابراهيم باشا إلى حسين باشا بتاريخ ١٦ محرم ١٢٥٤هـ (نيسان ١٨٣٨م)، م. ن. مجلد ٣ : ٣٧٩، وثيقة رقم ٥٣٨٦.

(١٢٢) الرسالة نفسها، م. ن. ص. ن.

(١٢٣) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٥٥.

(١٢٤) م. ن. ص. ن. ويذكر المسيو كونتي Conti نائب القنصل الفرنسي بصيدا، في رسالة منه إلى المسيو ألكس ديڤال Alex Deval القنصل الفرنسي ببيروت، بتاريخ ١٨ حزيران ١٨٣٨، أن الأمير خليلاً أسهم في معارك راشيا، مع المصريين، بثلاثماية خيّال. (Ismaïl, op. cit, T5. p. 389)

(١٢٥) رسالة مؤرخة في ١٦ محرم (نيسان ١٨٣٨)، رستم، المحفوظات، مجلد ٣: ٣٨٢ وثيقة رقم ٥٣٨٩.

(١٢٦) الرسالة نفسها، م. ن. ص. ن.

(١٢٧) رسالة مؤرّخة في ١٥ ربيع الآخر ١٢٥٤هـ (تموز ١٨٣٨م)، م. ن. مجلد ٣ : ٣٩٧ وثيقة رقم ٥٤٢٦.

(١٢٨) جاء في هذه الرسالة «البشرى» أنه، في هذا اليوم «الذي هو الأربعاء بالساعة المذكورة - الساعة ٧ - كان انتهاء عمر الدروز من هذا الطرف». وقد ورد ذكر هذه المعركة في الرسالة كما يلي: «تحشدوا - أي الدروز - في البوغاز فهجمت عليهم العساكر حتى درست منهم بالسيوف إعداماً ما ينوف عن الألف». وتضيف الرسالة «بالاقتصار هالكهم أكثر من المتوفي في وقعة قونية، فهو لاي ما بقي لهم مجال سوى دخلك دخلك» (م. ن. مجلد ٣ : ٣٩٧ - ٣٩٨). وقد جاء في رسالة من المسيو ألكس ديڤال Alex Deval القنصل الفرنسي ببيروت، إلى الكونت موليه C. Molé وزير الخارجية الفرنسية، بتاريخ ٢٣ حزيران ١٨٣٨ ما يلي: «يظهر أن الأمير - بشيراً - عازم على التحرك ضد الدروز وذلك باعتماده على الموارنة، إلاّ أنه قد لا يشارك أولاد الأمير أباهم في هذه المشاعر، وننتظر، ببعض القلق، تتابع الأحداث».
(Ismaïl, Documents, T5. p. 387).

هذا ولم يكن الأمير بشير ليثق بالدروز، لذا، فهو قد أوكل إلى جنود مسيحيين أمر حراسة قصره (رسالة من ألكس ديڤال إلى الكونت موليه بتاريخ ٣٠ حزيران ١٨٣٨).
(Ibid, p. 393).

(١٢٩) يذكر رستم، استناداً إلى ذكريات الشيخ جرجس دبس نفسه (ص ١٣)، أن الشيخ جرجس كان «يرشد السر عسكر أحياناً، ويضلّه أحياناً، ثم ينقل أخباره أحياناً أخرى إلى القيادة الدرزية» (رستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ٢ : ١٤٢).

(١٣٠) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٥٦، ويذكر الشدياق هذه المعركة في أحداث عام ١٨٣٥، ولكن الوثائق المدرجة في المجلد الثالث من وثائق الدكتور أسد رستم «المحفوظات الملكية» تثبتها ضمن أحداث العام ١٢٥٤هـ (١٨٣٨م).

(١٣١) الشدياق، م. ن. ص. ن. ورستم، المرجع السابق، قسم ٢ : ١٤٣.

(١٣٢) رستم، م. ن.، قسم ٢ : ١٤٤، نقلاً عن ذكريات الدبس ص ١٣ - ١٤. ويذكر رستم أن العريان طلب من الأمير بشير أولاً أن يستسلم على يده فرفض الأمير ذلك لأنه لم يكن واثقاً أنه يستطيع ضمان سلامته (م. ن. ص. ن.). وانظر ترجمة لرسالة الأمير بشير إلى محمود نامي بك، محافظ بيروت، بتاريخ ١٨ ربيع الآخر ١٢٥٤هـ (١١ تموز ١٨٣٨م) التي يبشره فيها بالانتصار على الثوار في هذه المعركة.

(Ismaïl, op. cit., T5. p. 401 - 402.

(١٣٣) عمد ابراهيم باشا إلى إنشاء الأبراج على آبار المياه التي يستخدمها الثوار في تلك المنطقة، وذلك لكي يمنعها عن الثوار فيقتلهم عطشاً (رستم، المحفوظات، مجلد ٤ : ٢٠٦ - ٢٠٨ و٢٣٦ - ٢٣٨ و٢٤٠ - ٢٤٣). ويذكر مشاقة أن ابراهيم باشا سمّم مياه اللجاة بمحلول السليماني (مشاقة، منتخبات، ص ١٢٥ - ١٢٦) إلا أن هذا الادعاء غير ثابت.

(١٣٤) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ٢ : ١٤٤ - ١٤٥.

(١٣٥) م. ن.، قسم ٢ : ١٤٥، وانظر: رسالة ابراهيم باشا إلى حسين باشا بتاريخ ١٢ جمادى الأولى ١٢٥٤هـ (أوائل آب ١٨٣٨م)، رستم، المحفوظات، مجلد ٣ : ٤٠٤ - ٤٠٥، وثيقة رقم ٥٤٤٤. وانظر لهذه المعركة: مشاقة، منتخبات، ص ١٢٦ - ١٢٧، وأبو عز الدين، ابراهيم باشا في سوريا، ص ٢١٦ - ٢١٧.

(١٣٦) أمر سر عسكري مؤرّخ في ٢١ ربيع الأول ١٢٥٥هـ (حزيران ١٨٣٩م)، رستم، المحفوظات، مجلد ٤ : ١٠٩ - ١١٠، وثيقة رقم ٥٨٥٧.

(١٣٧) أمر سر عسكري مؤرّخ في ٢١ ربيع الأول ١٢٥٥هـ، م. ن.، مجلد ٤ : ١١٠، الوثيقة نفسها أعلاه.

(١٣٨) أمر سر عسكري صادر عن «توزل» موجّه إلى الأمير بشير في التاريخ نفسه (٢١ ربيع الأول)، م. ن.، مجلد ٤ : ١١٠، الوثيقة نفسها أعلاه.

(١٣٩) رسالة من ابراهيم باشا إلى حسين باشا بتاريخ ٢٣ ربيع الأول ١٢٥٥هـ (حزيران ١٨٣٩م)، م.ن.، مجلد ٤ : ١٠٥، الوثيقة نفسها أعلاه.

(١٤٠) رسالة من ابراهيم باشا إلى حسين باشا بتاريخ ٢٧ ربيع الأول ١٢٥٥هـ (حزيران ١٨٣٩م)، م.ن.، مجلد ٤ : ١١٢، و.ثيقة رقم ٥٨٦١.

(١٤١) رسالة من ابراهيم باشا إلى حسين باشا بتاريخ ٢٦ ربيع الأول ١٢٥٥هـ (تموز ١٨٣٩م)، م. ن.، مجلد ٤ : ١٢٧، وثيقة رقم ٥٩٠٠.

(١٤٢) م. ن. مجلد ٤ : ١٥٩، وثيقة رقم ٥٩١٨.

(١٤٣) أمر سر عسكري بتاريخ ٤ جمادى الآخرة ١٢٥٥هـ (آب ١٨٣٩م)، م. ن.، مجلد ٤ : ١٨٣، وثيقة رقم ٥٩٦٠.

(١٤٤) رسالة من اسماعيل عاصم بك مؤرّخة في غرة جمادى الآخرة ١٢٥٥هـ (آب ١٨٣٩م)، م. ن.، مجلد ٤ : ١٨٨، وثيقة رقم ٥٩٧٢.

(١٤٥) رسالة من محمد شريف باشا مؤرّخة في ٥ جمادى الآخرة ١٢٥٥هـ (آب ١٨٣٩م)، م. ن.، مجلد ٤ : ١٨٧، الوثيقة نفسها أعلاه.

(١٤٦) رسالة من محمد شريف باشا إلى ابراهيم باشا بتاريخ ٢٠ رجب ١٢٥٥هـ (آخر أيلول ١٨٣٩م) م. ن.، مجلد ٤ : ٢٣٦، وثيقة رقم ٦٠٥٢.

(١٤٧) رسالة من محمد شريف باشا إلى ابراهيم باشا بتاريخ ١٧ رجب ١٢٥٥هـ (أيلول ١٨٣٩م) م. ن.، مجلد ٤ : ٢٣٧، وثيقة رقم ٦٠٥٥.

(١٤٨) رسالة من ابراهيم باشا إلى محمد شريف بتاريخ ٢٢ رجب ١٢٥٥هـ (أوائل تشرين الأول ١٨٣٩م)، م. ن.، مجلد ٤ : ٢٣٩ - ٢٤٠، وثيقة رقم ٦٠٥٨.

(١٤٩) أمر سر عسكري مؤرّخ في ٢٢ رجب ١٢٥٥هـ (أوائل تشرين الأول ١٨٣٩م)، م. ن.، مجلد ٤ : ٢٤١، الوثيقة نفسها أعلاه.

(١٥٠) رسالة من يوحنا بحري بك إلى ابراهيم باشا بتاريخ ٢٦ رجب ١٢٥٥هـ (تشرين أول ١٨٣٩م)، م. ن. مجلد ٤: ٢٤٢ وثيقة رقم ٦٠٦١.

(١٥١) رسالة من محمد شريف باشا إلى ابراهيم باشا بتاريخ ٥ جمادى الآخرة ١٢٥٥هـ (آب ١٨٣٩م)، م. ن.، مجلد ٤ : ١٨٦، وثيقة رقم ٥٩٧٢.

(١٥٢) رسالة من محمد شريف باشا إلى ابراهيم باشا بتاريخ ٢٧ شعبان ١٢٥٥هـ (تشرين الثاني ١٨٣٩م)، م. ن.، مجلد ٤ : ٢٥٧، وثيقة رقم ٦٠٩٢. ورسالة من اسماعيل عاصم بك إلى ابراهيم باشا بتاريخ ٢٦ شعبان ١٢٥٥هـ (تشرين الثاني ١٨٣٩م)، وقد جاء في هذه الرسالة أن العصاة سلّموا لخفتان بك ٥٣ بندقية. (م. ن. مجلد ٤ : ٢٥٨ وثيقة رقم ٦٠٩٢).

(١٥٣) رسالة من محمد شريف باشا إلى ابراهيم باشا بتاريخ ٥ رمضان ١٢٥٥هـ (تشرين الثاني ١٨٣٩م)، م. ن.، مجلد ٤ : ٢٥٧، وثيقة رقم ٦٠٩٢.

(١٥٤) منهم ٤٥٠ مسلحون بالبنادق، و١٥٠ مسلحون بالخناجر والطبنجات (رستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ٢ : ١٧٢)، أما سبب ثورته فهو مطالبته الحكم المصري «برفع المتسلمين من بلاده وإعادة الحكم إليه كما كانت الحالة في عهد والده»، (م. ن. ص. ن.) وقد وردت مطالبته هذه في عريضة رفعها إلى محمد علي في ٩ رمضان ١٢٥٥هـ (١٦ تشرين الثاني ١٨٣٩م)، (رستم، المحفوظات، مجلد ٤ : ٢٧١ - ٢٧٢).

(١٥٥) الرسالة نفسها، الوارد ذكرها أعلاه (حاشية ١٥٣)، م. ن.، مجلد ٤ : ٢٥٨، الوثيقة نفسها.

(١٥٦) الرسالة نفسها، م. ن. ص. ن. الوثيقة نفسها أعلاه.

(١٥٧) رستم، م. ن. مجلد ٤ : ٢٧٣، وثيقة رقم ٦١٠٧.

(١٥٨) رسالة من محمد شريف باشا إلى ابراهيم باشا بتاريخ ٢٣ شعبان ١٢٥٥هـ (تشرين الثاني ١٨٣٩م)، م. ن.، مجلد ٤ : ٢٥٨، وثيقة ٦٠٩٢.

(١٥٩) رسالة من الأمير مجيد الشهابي إلى محمد شريف باشا بتاريخ ١٠ رمضان ١٢٥٥هـ (تشرين الثاني ١٨٣٩م)، م. ن.، مجلد ٤ : ٢٧١ وثيقة رقم ٦١٠٣.

(١٦٠) م. ن. مجلد ٤ : ٢٧١ - ٢٧٢ الوثيقة نفسها.

(١٦١) آل صفا، تاريخ جبل عامل، ص ١٤٧ - ١٤٨، وآل فقيه، جبل عامل في التاريخ. ج ٢ : ١٨٣ - ١٨٤، ويذكر آل صفا أن الشيخ حسين شبيب (أو حسين بك شبيب) من آل صعب، قد ثار هو وأخوه محمد علي بك مدة ثلاث سنوات متتالية، من عام ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م) إلى عام ١٢٥٥هـ (١٨٣٩م)، «وهاجموا مراكز الحكومة وطردوا عمالها ونكلوا بجنودها» (آل صفا، م. ن. ص ١٤٨).

(١٦٢) رسالة من محمود نامي بك إلى حسين باشا بتاريخ ٢٨ ربيع الأول ١٢٥٦هـ (أواخر أيار ١٨٤٠م) رستم، المحفوظات، مجلد ٤ : ٣٣٩ - ٣٤٠ وثيقة رقم ٦٣٠٣، إلا أن اتهام محمود نامي بك للأمير خليل بالتحريض على الثورة ظل غير ثابت.

(١٦٣) الرسالة نفسها، م. ن. ص ٣٤٠.

(١٦٤) رسالة من محمد شريف باشا إلى السر عسكر بتاريخ ٢٩ ربيع الأول ١٢٥٦هـ (أول حزيران ١٨٤٠م)، م. ن.، مجلد ٤ : ٣٤١، الوثيقة نفسها أعلاه.

(١٦٥) رسالة من محمد شريف باشا إلى السر عسكر بتاريخ آخر ربيع الأول ١٢٥٦هـ (أول حزيران ١٨٤٠م)، م. ن.، مجلد ٤ : ٣٤١، الوثيقة نفسها أعلاه.

(١٦٦) البيان الذي أذاعه الأمير محمود «رئيس الأشقياء» بتاريخ ٢٧ ربيع الأول ١٢٥٦هـ (أيار ١٨٤٠م)، م. ن. ص. ن.

(١٦٧) البيان نفسه أعلاه، ورسالة الأمير بشير إلى محمد شريف باشا بتاريخ ٢٩ ربيع الثاني ١٢٥٦هـ (آخر حزيران ١٨٤٠م)، م. ن. مجلد ٤ : ٣٤٢ الوثيقة نفسها أعلاه.

(١٦٨) رسالة الأمير بشير المذكورة أعلاه، م. ن. ص. ن.

(١٦٩) الرسالة نفسها، م. ن. ص. ن.

(١٧٠) الرسالة نفسها، م. ن. ص. ن.

(١٧١) رسالة الأمير بشير إلى السر عسكر ابراهيم باشا بتاريخ ٢٦ ربيع الأول ١٢٥٦هـ (أيار ١٨٤٠م)، م. ن.، مجلد ٤ : ٣٤٣ - ٣٤٤، وثيقة رقم ٦٣٠٧.

(١٧٢) رستم، م. ن. مجلد ٤ : ٣٤٤ - ٣٤٩، ورسالة الأمير بشير إلى السر عسكر بتاريخ آخر ربيع الأول ١٢٥٦هـ (أول حزيران ١٨٤٠م)، م. ن. مجلد ٤ : ٣٤٩.

(١٧٣) رسالة الأمير بشير إلى السر عسكر بتاريخ ٢٦ ربيع الأول ١٢٥٦هـ (أيار ١٨٤٠م) م. ن. مجلد ٤ : ٣٤٨.

(١٧٤) الرسالة نفسها، م. ن. ص. ن. ورسالة سليمان باشا إلى الأمير بشير بتاريخ ٢٧ ربيع الأول ١٢٥٦هـ (أيار ١٨٤٠م)، م. ن. مجلد ٤ : ٣٥٢ وثيقة رقم ٦٣٠٨.

(١٧٥) عريضة الأمير بشير إلى السر عسكر ابراهيم باشا بتاريخ ٢٣ ربيع الأول ١٢٥٦هـ (أيار ١٨٤٠م)، م. ن. مجلد ٤ : ٣٥٥ وثيقة رقم ٦٣١٠.

(١٧٦) العريضة نفسها، م. ن. ص. ن.

(١٧٧) رد السر عسكر على عريضة الأمير، بتاريخ أول ربيع الآخر ١٢٥٦هـ (أوائل حزيران ١٨٤٠م)، م. ن. مجلد ٤ : ٣٥٥، الوثيقة نفسها أعلاه.

(١٧٨) م. ن. مجلد ٤ : ٣٥٥ - ٣٥٧ وثيقة رقم ٦٣١٢.

(١٧٩) خطاب سر عسكري موجّه إلى الأمير بشير، رستم، م. ن. مجلد ٤ : ٣٥٧.

(١٨٠) خطاب سر عسكري موجّه إلى سليمان باشا بتاريخ ٣ ربيع الآخر ١٢٥٦هـ (حزيران ١٨٤٠م)، م. ن. مجلد ٤ : ٣٦٣، وثيقة رقم ٦٣١٧.

(١٨١) رسالة من الأمير بشير إلى سليمان باشا في أوائل ربيع الآخر ١٢٥٦هـ (حزيران ١٨٤٠م)، م.ن. مجلد ٤ : ٣٦٤، وثيقة رقم ٦٣١٨.

(١٨٢) الرسالة نفسها، م. ن. مجلد ٤ : ٣٦٤ - ٣٦٥.

(١٨٣) صورة المعروض المقدم من أهالي دير القمر والقرى والأقاليم المذكورة، (م. ن. مجلد ٤: ٣٦٥ - ٣٦٦).

(١٨٤) رسالة الأمير بشير المشار إليها أعلاه، م. ن. مجلد ٤ : ٣٦٥.

(١٨٥) رسالة من الأمير بشير إلى الأهالي بتاريخ ٣ ربيع الآخر ١٢٥٦هـ (حزيران ١٨٤٠م) م. ن. مجلد ٤ : ٣٦٦ - ٣٦٧.

(١٨٦) رسالة من سليمان باشا إلى حسين باشا بتاريخ ٨ ربيع الآخر ١٢٥٦هـ (حزيران ١٨٤٠م) م. ن. مجلد ٤ : ٣٦٧ وثيقة رقم ٦٣٢١.

(١٨٧) تقرير من علي بك إلى سليمان باشا، م. ن. مجلد ٤ : ٣٦٨، الوثيقة نفسها أعلاه.

(١٨٨) رسالة من الشيخ خليل حبيش إلى الأمير بشير بتاريخ ٦ ربيع الآخر ١٢٥٦هـ (حزيران ١٨٤٠م)، م. ن. مجلد ٤ : ٣٦٨، الوثيقة نفسها أعلاه.

(١٨٩) رسالة من الأمير بشير إلى سليمان باشا بتاريخ ٥ ربيع الآخر ١٢٥٦هـ (حزيران ١٨٤٠م)، م.ن. مجلد ٤ : ٣٦٩، الوثيقة نفسها أعلاه.

(١٩٠) رسالة من الأمير بشير إلى سليمان باشا بتاريخ ١١ ربيع الآخر ١٢٥٦هـ (حزيران ١٨٤٠م) م. ن. مجلد ٤ : ٣٦٩، وثيقة رقم ٦٣٢٤.

(١٩١) عريضة من الأمير بشير إلى الجناب العالي بتاريخ ١١ ربيع الآخر ١٢٥٦هـ (حزيران ١٨٤٠م) م. ن. مجلد ٤ : ٣٧٠، الوثيقة نفسها أعلاه.

(١٩٢) تقرير من المعاون علي حبيب بك إلى سليمان باشا بتاريخ ١١ ربيع الآخر ١٢٥٦هـ (حزيران ١٨٤٠م) م. ن. مجلد ٤ : ٣٧١، الوثيقة نفسها أعلاه.

(١٩٣) رسالة من الأمير بشير إلى سليمان باشا بتاريخ ١٥ ربيع الآخر ١٢٥٦هـ (حزيران ١٨٤٠م) رستم، م. ن. مجلد ٤ : ٣٧٢، الوثيقة نفسها أعلاه.

(١٩٤) الرسالة نفسها، م. ن. ص. ن.

(١٩٥) عريضة الأمير بشير بتاريخ ١٤ ربيع الآخر ١٢٥٦هـ، م. ن. مجلد ٤ : ٣٨٢ وثيقة رقم ٦٣٣٩، ورسالة من سليمان باشا إلى محمد علي بتاريخ ١٥ ربيع الآخر، م. ن. مجلد ٤ : ٣٧٤.

(١٩٦) رسالة سليمان باشا إلى محمد علي المشار إليها أعلاه، م. ن. ص. ن.

(١٩٧) الرسالة نفسها، م. ن. ص. ن.

(١٩٨) رسالة من الشيخ فرنسيس الخازن بتاريخ ١٩ ربيع الأول ١٢٥٦هـ (أيار ١٨٤٠م)، م. ن. مجلد ٤ : ٣٧٦، وثيقة رقم ٦٣٢٩.

(١٩٩) م. ن. ص. ن. الوثيقة نفسها أعلاه.

(٢٠٠) م. ن. ص. ن. الوثيقة نفسها أعلاه. وانظر الوثيقة التي وقّعها «جمهور الدروز في جبل لبنان ونصارى ومتاولة وإسلام بوجه العموم» بتاريخ ٨ ربيع الآخر ١٢٥٦هـ (٧ حزيران ١٨٤٠م) واتفقوا بموجبها على «أننا لا نخون ولا نطابق بضرّ أحد منّا كائناً من يكون القول واحد والرأي واحد... وقد أقمنا علينا جناب الشيخ فرنسيس ابن جناب الشيخ حنا هيكل الخازن من غوسطا» (رستم، الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي، ج ٥ : ١٠٠، وثيقة رقم ٥٣٠).

(٢٠١) رسالة من محمد علي إلى ابنه ابراهيم بتاريخ ١٥ ربيع الآخر ١٢٥٦هـ (حزيران ١٨٤٠م) رستم، المحفوظات، مجلد ٤ : ٣٧٧ - ٣٧٨، وثيقة رقم ٦٣٣٢.

(٢٠٢) رسالة من ابراهيم باشا إلى والده بتاريخ ١٥ ربيع الآخر ١٢٥٦هـ (حزيران ١٨٤٠م) م. ن. مجلد ٤ : ٣٧٩، وثيقة رقم ٦٣٣٧.

(٢٠٣) معروض من أهالي دير القمر والمناصف والشحار وجزين والشوف وغيرهم، إلى الجناب العالي يثبتون فيه ولاءهم واخلاصهم للحكومة المصرية (١٥ ربيع الأول ١٢٥٦هـ) ورسالة من الأمير بشير إلى سليمان باشا بتاريخ ٥ ربيع الآخر يفيده فيها بدخول بعض الثوار في الطاعة (م.ن. مجلد ٤ : ٣٧٩ - ٣٨٠) الوثيقة نفسها أعلاه.

(٢٠٤) رسالة من سليمان باشا إلى محمد علي بتاريخ ١٥ ربيع الآخر ١٢٥٦هـ (حزيران ١٨٤٠م) م. ن. مجلد ٤ : ٣٨٠، وثيقة رقم ٦٣٣٨.

(٢٠٥) رسالة من محمود نامي بك محافظ بيروت إلى سليمان باشا بتاريخ ١٤ ربيع الآخر ١٢٥٦هـ (حزيران ١٨٤٠م) م. ن. مجلد ٤ : ٣٨١، الوثيقة نفسها أعلاه.

(٢٠٦) الرسالة نفسها، م. ن. ص. ن.

(٢٠٧) رد محمد علي على رسالة سليمان باشا المشار إليها أعلاه (حاشية ٢٠٤) وهو بتاريخ ٢٩ ربيع الآخر ١٢٥٦هـ (حزيران ١٨٤٠م)، م. ن. مجلد ٤ : ٣٨٠ وثيقة رقم ٦٣٣٨.

(٢٠٨) رسالة من الأمير ملحم الشهابي إلى الأمير أمين الشهابي بتاريخ ١٤ ربيع الآخر ١٢٥٦هـ، (م.ن. مجلد ٤ : ٣٨٢ - ٣٨٣، وثيقة رقم ٦٣٣٩).

(٢٠٩) عريضة من الأمير بشير إلى الأعتاب السنية الخديوية بتاريخ ١٤ ربيع الآخر ١٢٥٦هـ، (رستم، م. ن. مجلد ٤ : ٣٨٣، الوثيقة نفسها أعلاه).

(٢١٠) رسالة محمود نامي بك محافظ بيروت إلى سليمان باشا بتاريخ ١٤ ربيع الآخر ١٢٥٦هـ، (م. ن. مجلد ٤ : ٣٨٣، الوثيقة نفسها أعلاه).

(٢١١) الرسالة نفسها (م. ن. مجلد ٤ : ٣٨٣ – ٣٨٤، الوثيقة نفسها أعلاه). وقد ذكر سليمان باشا، في إحدى رسائله إلى محمد علي باشا، بتاريخ ٢٨ ربيع الآخر ١٢٥٦هـ (آخر حزيران ١٨٤٠م) أن قنصل فرنسا في بيروت صرّح له أن لفرنسا كلمة نافذة في هذه البلاد وأن لقنصلها قدرة على تسكين العصاة (م. ن. مجلد ٤ : ٣٩٤ وثيقة رقم ٦٣٥٣).

(٢١٢) م. ن. مجلد ٤ : ٣٨٤ وثيقة رقم ٦٣٤٠.

(٢١٣) م. ن. ص. ن. الوثيقة نفسها أعلاه.

(٢١٤) م. ن. ص. ن. الوثيقة نفسها أعلاه.

(٢١٥) م. ن. مجلد ٤ : ٣٨٥ وثيقة رقم ٦٣٤٢.

(٢١٦) عريضة الأمير محمود الشهابي بتاريخ ١٧ ربيع الآخر ١٢٥٦هـ (م. ن. مجلد ٤ : ٣٨٦ – ٣٨٧، الوثيقة نفسها أعلاه).

(٢١٧) م. ن. مجلد ٤ : ٣٩٠ وثيقة رقم ٦٣٤٤.

(٢١٨) رسالة من الأمير بشير إلى محمد علي باشا بتاريخ ٢٨ ربيع الآخر ١٢٥٦هـ (آخر حزيران ١٨٤٠م)، م. ن. مجلد ٤ : ٣٩٤، وثيقة رقم ٦٣٥٤.

(٢١٩) الرسالة نفسها، م. ن. مجلد ٤ : ٣٩٤ – ٣٩٥، الوثيقة نفسها أعلاه.

(٢٢٠) الرسالة نفسها، م. ن. مجلد ٤ : ٣٩٥ – ٣٩٦، الوثيقة نفسها أعلاه.

(٢٢١) رسالة من ابراهيم باشا إلى محمد علي باشا بتاريخ ٢٨ ربيع الآخر ١٢٥٦هـ (آخر حزيران ١٨٤٠م)، م. ن. مجلد ٤ : ٢٩٦ – ٢٩٧، وثيقة رقم ٦٣٥٥.

(٢٢٢) رسالة من الأمير بشير إلى محمد علي باشا بتاريخ أول جمادى الأولى ١٢٥٦هـ (أول تموز ١٨٤٠م)، م. ن. مجلد ٤ : ٣٩٨، وثيقة رقم ٦٣٥٨، ورسالة من ابراهيم باشا إلى محمد علي باشا بتاريخ ٨ جمادى الأولى ١٢٥٦هـ (٨ تموز ١٨٤٠م) وهي تتضمن تقريراً لعثمان باشا يصف فيه المعركة بينه وبين الثوار في ضواحي زحلة وأخباراً عن الثوار استقاها من الأسرى ومنها انهم من مقاطعة المتن وأن عددهم ألف وأن قائديهم الأميران خنجر الحرفوش وعلي فارس. (م. ن. مجلد ٤ : ٤٠٣، وثيقة رقم ٦٣٦٤).

(٢٢٣) رسالة من عثمان باشا إلى محمد علي باشا بتاريخ ٢٥ ربيع الآخر ١٢٥٦هـ (حزيران ١٨٤٠م)، م. ن. مجلد ٤ : ٣٩١، وثيقة رقم ٦٣٤٤. ويذكر الشدياق أن عثمان باشا عسكر في مرج عرجموش، (الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٦٠).

(٢٢٤) رسالة من الأمير بشير إلى محمد علي المشار إليها أعلاه (حاشية ٢٢٢)، م. ن. مجلد ٤ : ٣٩٨ وثيقة رقم ٦٣٥٨.

(٢٢٥) الرسالة نفسها، م. ن. ص. ن. الوثيقة نفسها أعلاه. ورسالة من الأمير بشير إلى محمد شريف باشا بتاريخ ٤ جمادى الأولى (٤ تموز)، م. ن. مجلد ٤ : ٤٠٦ وثيقة رقم ٦٣٧١.

(٢٢٦) الرسالة نفسها، (م. ن. ص. ن.) الوثيقة نفسها أعلاه. ورسالة الأمير بشير المشار إليها أعلاه، (م. ن. ص. ن.).

(٢٢٧) رسالة من سليمان باشا إلى محمد علي بتاريخ ٢ جمادى الأولى ١٢٥٦هـ (٢ تموز ١٨٤٠م)، رستم، م. ن. مجلد ٤ : ٣٩٨ – ٣٩٩، وثيقة رقم ٦٣٦٠، إلا أن رستم لم يذكر تفاصيل هذه المعركة التي قال انها جرت بين سليمان باشا والثوار، والتي وصفها بأنها صغيرة (م. ن. ص ٣٩٨).

(٢٢٨) رسالة من عثمان باشا إلى محمد علي المشار إليها أعلاه (حاشية ٢٢٣)، م. ن. مجلد ٤ : ٣٩١ وثيقة رقم ٦٣٤٤.

(٢٢٩) رسالة من مدير أيالة طرابلس الحاج يوسف شريف زاده إلى محمد شريف باشا بتاريخ ٢ جمادى الأولى ١٢٥٦هـ (٢ تموز ١٨٤٠م)، م. ن. مجلد ٤ : ٤٠٤ وثيقة رقم ٦٣٦٨.

(٢٣٠) رسالة من الأمير بشير إلى محمد شريف باشا بتاريخ ٤ جمادى الأولى ١٢٥٦هـ (٤ تموز ١٨٤٠م)، رستم، م. ن. مجلد ٤ : ٤٠٥ – ٤٠٦، وثيقة رقم ٦٣٧١.

(٢٣١) الرسالة نفسها، م. ن. مجلد ٤ : ٤٠٦، الوثيقة نفسها أعلاه.

(٢٣٢) رسالة من محمود نامي بك محافظ بيروت إلى حسين باشا بتاريخ ١١ جمادى الأولى ١٢٥٦هـ (١١ تموز ١٨٤٠م)، م. ن. مجلد ٤ : ٤٠٧، وثيقة رقم ٦٣٧٢.

(٢٣٣) رسالة من محمود نامي بك إلى حسين باشا بتاريخ ١١ جمادى الأولى ١٢٥٦هـ (١١ تموز ١٨٤٠م)، م. ن. مجلد ٤ : ٤٠٧، وثيقة رقم ٦٣٧٣.

(٢٣٤) الرسالة نفسها، م. ن. مجلد ٤ : ٤٠٧، الوثيقة نفسها أعلاه.

(٢٣٥) م. ن. مجلد ٤ : ٤٠٧ – ٤٠٨، وثيقة رقم ٦٣٧٤.

(٢٣٦) رسالة من محمود نامي بك إلى حسين باشا بتاريخ ١٤ جمادى الأولى (١٤ تموز)، م. ن. مجلد ٤ : ٤٠٩، وثيقة رقم ٦٣٧٦.

(٢٣٧) يفيد عثمان باشا، في رسالة منه إلى ابراهيم باشا بتاريخ ٩ جمادى الأولى ١٢٥٦هـ (٩ تموز ١٨٤٠م) أنه، «عملاً بمشورة الأمير بشير، سوف يزحف على بوارش وكفرسلوان»، وفي رسالة ثانية منه إلى ابراهيم باشا أيضاً بتاريخ ١٠ منه، يفيد عثمان باشا أنه «زحف على الثوار ببعض المشاة

والنابلسيين والفرسان غير النظاميين فشتت شملهم في الجرد فوق بوارش وعاد إلى هذه القرية لتمضية الليل فيها» كما يشير في رسالته هذه إلى أنه كان مصحوباً، في زحفه هذا، بالأمير محمود الشهابي. (رسالة ابراهيم باشا إلى محمد علي باشا بتاريخ ١٦ جمادى الأولى - ١٦ تموز - م. ن. مجلد ٤ : ٤١٤ وثيقة رقم ٦٣٨٤).

(٢٣٨) عريضة الأمير بشير التي رفعها إلى محمد علي بتاريخ ١٤ جمادى الأولى (١٤ تموز)، م. ن. مجلد ٤ : ٤١٠ - ٤١٢، وثيقة رقم ٦٣٧٧.

(٢٣٩) رسالة من محمود نامي بك إلى ابراهيم باشا بتاريخ ١٥ جمادى الأولى (١٥ تموز)، م. ن. مجلد ٤ : ٤١٢، وثيقة رقم ٦٣٧٨.

(٢٤٠) رسالة من محمود نامي بك إلى حسين باشا بتاريخ ١٦ جمادى الأولى (١٦ تموز)، م. ن. مجلد ٤ : ٤١٤ - ٤١٥، وثيقة رقم ٦٣٨٦.

(٢٤١) رسالة من محمود نامي بك إلى حسين باشا بتاريخ ١٩ جمادى الأولى (١٩ تموز)، م. ن. مجلد ٤ : ٤١٥ - ٤١٦، وثيقة رقم ٦٣٩٠.

(٢٤٢) راجع نداء البطريرك حبيش بكامله في الوثيقة المذكورة أعلاه، م. ن. مجلد ٤ : ٤١٦.

(٢٤٣) رسالة من محمود نامي بك إلى ابراهيم باشا بتاريخ ٢٠ جمادى الأولى (٢٠ تموز)، م. ن. مجلد ٤ : ٤١٧ - ٤١٨، وثيقة رقم ٦٣٩١.

(٢٤٤) رسالة من محمود نامي بك إلى حسين باشا بتاريخ ٢٣ جمادى الأولى (٢٣ تموز)، م. ن. مجلد ٤ : ٤١٩ - ٤٢٠، وثيقة رقم ٦٣٩٥.

(٢٤٥) رسالة من محمود نامي بك إلى حسين باشا بتاريخ ٢٥ جمادى الأولى (٢٥ تموز)، م. ن. مجلد ٤ : ٤٢٣ - ٤٢٤، وثيقة رقم ٦٤٠١.

(٢٤٦) رسالة من عثمان باشا إلى محمد علي باشا بتاريخ ٢٠ جمادى الأولى (٢٠ تموز)، م. ن. مجلد ٤ : ٤١٨، وثيقة رقم ٦٣٩٢، ورسالة من عثمان باشا إلى محمد شريف باشا، بتاريخ ١٨ جمادى الأولى (١٨ تموز)، م. ن. مجلد ٤ : ٤١٨، وثيقة رقم ٦٣٩٣.

(٢٤٧) رسالة من عثمان باشا إلى محمد شريف باشا المذكورة أعلاه، م. ن. مجلد ٤ : ٤١٩، وثيقة رقم ٦٣٩٣.

(٢٤٨) رسالة من محمود نامي بك إلى حسين باشا بتاريخ أول جمادى الآخرة (آخر تموز)، م. ن. مجلد ٤ : ٤٢٤ - ٤٢٥، وثيقة رقم ٦٤٠٧.

(٢٤٩) م. ن. مجلد ٤ : ٤٢٠، وثيقة رقم ٦٣٩٦.

(٢٥٠) رسالة الأمير بشير نفسها، م. ن. مجلد ٤ : ٤٢١، الوثيقة نفسها أعلاه. ويذكر الشدياق أن من بين الذين استسلموا للأمير أمين في المتن، في ذلك الحين، الثائر يوسف الشنتيري الذي قدم إلى الأمير أمين «وبرأ ذاته من شركة العامية وأنه ما دخلها إلا ليعدلهم فأعطاه الأمير أمين الأمان وأبقى له سلاحه» («الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٦٥).

(٢٥١) رستم، م. ن. مجلد ٤ : ٤١٨، وثيقة رقم ٦٣٩٣.

(٢٥٢) رسالة من محمد علي باشا إلى ابراهيم باشا بتاريخ ٢٨ جمادى الأولى (٢٨ تموز)، م. ن. مجلد ٤ : ٤٢٤، وثيقة رقم ٦٤٠٦، ورسالة من ابراهيم باشا إلى والده بتاريخ ٨ جمادى الآخرة ١٢٥٦هـ (آب ١٨٤٠م)، م. ن. مجلد ٤ : ٤٢٨، وثيقة رقم ٦٤١٨.

(٢٥٣) رسالة من محمود نامي بك إلى حسين باشا بتاريخ ١٦ جمادى الآخرة ١٢٥٦هـ (١٦ آب ١٨٤٠م)، م. ن. مجلد ٤ : ٤٣١، وثيقة رقم ٦٤٣٦.

(٢٥٤) رسالة من الأمير بشير إلى محمد علي بتاريخ ١٧ جمادى الآخرة ١٢٥٦هـ (١٧ آب ١٨٤٠م)، م.ن. مجلد ٤ : ٤٣١، وثيقة رقم ٦٤٣٩. والجدير بالذكر أن المستر وود سبق أن حاول اقناع الأمير بشير بانهاء تحالفه مع محمد علي والانحياز إلى السلطان، إلا أن الأمير رفض ذلك، وقد جرت هذه المحاولة عام ١٨٣٦ وفقاً لما ورد في رسالة القنصل الفرنسي هنري غيز ببيروت إلى الدوق دي بروغلي وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ ٨ نيسان ١٨٣٦. (Ismaïl, Documents, T5, p. 348) بالإضافة إلى محاولات أخرى غيرها ظلت بلا نتيجة.

(٢٥٥) الرسالة نفسها المشار إليها أعلاه، م. ن. مجلد ٤ : ٤٣١ - ٤٣٢، الوثيقة نفسها أعلاه، كما تلقى الأمير رسالة مماثلة وبالمعنى نفسه من المستر وود، ورغم ذلك، فقد عاد الأمير وأكّد، برسالة ثانية منه لمحمد علي بتاريخ ١٧ جمادى الآخرة أيضاً، موقفه السابق الذي أورده في رسالته الأولى، (أنظر رسالتي المستر وود والأمير بشير في: رستم، م. ن. مجلد ٤ ص ٤٣٢، الوثيقة نفسها أعلاه). وانظر بيان الكومودور نابيير إلى أهالي الشام بهذا الصدد، وبتاريخ ١٢ آب ١٨٤٠، في : (رستم، الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا، ج ٥ : ١٥٨ - ١٥٩، وثيقة رقم ٥٦٤).

(٢٥٦) رسالة من الكونت دي راتي - مانتون Comte De Ratti-Menton قنصل فرنسا بدمشق، إلى المسيو تيير Thiers رئيس وزراء فرنسا ووزير خارجيتها بتاريخ ٧ تشرين أول ١٨٤٠، (Ismaïl, op. cit., T5, p. 443)

(٢٥٧) رسالة من الكونت دي راتي - مانتون إلى المسيو تيير بتاريخ ١٠ تشرين الأول ١٨٤٠. (Ibid p. 447)

(٢٥٨) رسالة من الكونت دي راتي - مانتون إلى المسيو تيير بتاريخ ١٨ تشرين الأول ١٨٤٠. (Ibid. pp. 249 - 252).

(٢٥٩) رستم، الأصول العربية، ج ٥ : ٢٦٨، وثيقة رقم ٦١٨.

(٢٦٠) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ٢ : ٢٢١.

(٢٦١) باز، مذكرات رستم باز، ص ٣٨ - ٣٩ و٧٦ - ٧٧، ويذكر الشدياق أن الأمير بشيراً دفن في دير الأرمن الكاثوليك في غلطة بتركيا (الشدياق، المصدر السابق، ج ١ : ٥٣) وقد نقلت رفاته بعد ذلك، في مطلع العهد الاستقلالي (عهد الرئيس الشيخ بشارة الخوري) إلى لبنان.

(٢٦٢) رستم، المرجع السابق، قسم ٢ : ٢٠٨ وباز، المصدر السابق، ص ٣٥ - ٣٦.

(٢٦٣) رستم، الأصول العربية، ج ٥ : ٢٧٢ - ٢٧٤، وثيقة رقم ٥٧٠.

(٢٦٤) م. ن.، ج ٥ : ٢١٠، وثيقة رقم ٥٨٩.

(٢٦٥) م. ن. ج ٥ : ٢١١، الوثيقة نفسها أعلاه. وراجع النص الكامل للوثيقة في المصدر المذكور (وثيقة رقم ٥٨٩، جـ ٥: ٢٠٨ - ٢١١)(❖).

(❖) **ملاحظة**: تمت الإشارة، في هذه الحواشي، إلى (م. ن. مجلد:...) للدلالة على ما جمعه الدكتور أسد رستم من (المحفوظات الملكية المصرية، بيان بوثائق الشام: ٥ مجلدات)، كما تمت الإشارة إلى (م. ن. جـ:...) للدلالة على ما جمعه الدكتور رستم من (الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا:٥ أجزاء).

الفصل الثامن

مجتمع الإمارة الشهابية في عهد الأمير بشير الثاني الكبير

أولاً - التوزع الجغرافي للأسر الإقطاعية :

لقد بيّنا، في فصل سابق[1] أن الأمير حيدر الشهابي، بعد انتصاره في وقعة عيندارة عام ١٧١١، أعاد توزيع الإقطاعات في إمارته على الأمراء والمشايخ الذين ناصروه في تلك الوقعة، والجدير بالذكر أنه، أي الأمير حيدر، اعتبر جبل لبنان من ضمن إمارته، فوزّع، كذلك، إقطاعات هذا الجبل على مشايخه.

ولم يحدث، بعد الأمير حيدر، وفي أثناء حكم الشهابيين، بالتتابع، تعديل جذري في توزيع هذه الإقطاعات في كل من إمارة الشوف وجبل لبنان، ولكن أمرين هامين حدثا في هذه الفترة من تاريخ الإمارة الشهابية، وهما:

- تأكيد ارتباط جبل لبنان بالإمارة الشهابية، خصوصاً في عهد الأميرين يوسف وبشير الشهابيين، واستمرار هذا الارتباط حتى قيام القائمقاميتين.
- تعزيز مركز آل جنبلاط الذين حكموا قسماً كبيراً من إقطاعات الإمارة وأصبحوا القوة الرئيسية فيها، حتى عام ١٨٢٥.

وهكذا، فإنه، عندما تسلّم الأمير بشير الحكم عام ١٧٨٨، كانت إقطاعات إمارة الشوف وجبل لبنان موزّعة على الشكل التالي:

- كان آل جنبلاط يحكمون إقطاعة الشوف[2] وإقليمي جزين والخروب.

- وآل عماد: العرقوب.
- وآل نكد: المناصف والشحار.
- وكان آل عبد الملك وآل الخوري يقتسمون حكم الجرد.
- وكان الارسلانيون والتلحوقيون يقتسمون حكم الغربين الأسفل والأعلى.
- وكان آل أبي اللمع يحكمون المتن وآل الخازن كسروان وآل حبيش غزير.
- وكان آل الدحداح على الفتوح وبعض قرى جبيل.
- وكان آل الضاهر على الزاوية وآل حمادة المتاولة على المنيطرة.
- كما كان بعض الأمراء الشهابيين يحكمون الساحل[٣].

وكان وضع الاقطاعات الرئيسية، بعد مرور ثلاثين عاماً على حكم الأمير بشير، وفي عام ١٨١٨، كما يلي: ظل آل أبي اللمع على المتن، وآل عبد الملك على الجرد، وآل تلحوق على الغرب الأعلى، وآل ارسلان على الغرب الأسفل، وآل الخازن على كسروان، وقوي نفوذ آل جنبلاط فحكموا الشوف وجبل الريحان وأقاليم جزين والخروب، إلا أن جميع هؤلاء المقاطعجيين كانوا تابعين للأمير بشير الذي كان «إذا وقع أحدهم - أي المقاطعجيين - أمر ضد خاطر الحاكم فينزعه من التصرف في مقاطعته ويقيم إنسان من قبله لأجل جمع الأموال الميرية من تلك المقاطعات»[٤].

إلا أن التغيير الكبير في توزّع هذه الإقطاعات جرى عام ١٨٢٥ حين وقعت الحرب بين البشيرين وانتهت بهزيمة الشيخ بشير جنبلاط ومقتله، مما أدخل إلى قلب الأمير الارتياب والشك برعاياه الجنبلاطيين وحلفائهم، وجعله يقلص رقعة نفوذهم ليزيد من رقعة نفوذ حلفائه، ويعيد النظر، بشكل جذري، في توزيع هذه الإقطاعات، فكان توزيعها، بعد عام ١٨٢٥، على الشكل التالي:

- أقطع الأمير حليفيه الشيخين حموداً وناصيف النكديين إقطاعة الشوف.
- وأقطع ابنه الأمير خليلاً جبل الريحان وإقليمي جزين والتفاح.
- وأقطع أحد أنصاره من بعقلين، الشيخ حسين حمادة، اقليم الخروب.

وكانت هذه الإقطاعات والأقاليم جميعها لآل جنبلاط.

- كما أقطع ابنه الأمير قاسماً إقليم العرقوب، وكان لآل عماد.
- وأقطع أحد أقربائه الأمير بشير ملحم (الشهابي) إقليم الشويفات، وكان للإرسلانيين.
- وانتزع الغرب الأسفل من الإرسلانيين كذلك، وألحقه بحكم المشايخ التلحوقيين في الغرب الأعلى.
- وأبقى اللمعيين على المتن، إلا أنه أخضعهم لأحد أقربائه الشهابيين.
- أما في جبل لبنان، فقد عزل الخازنيين والحبيشيين عن كسروان وغزير وأقطعهما حفيده الأمير عبدالله (الشهابي)، كما عزل آل الدحداح عن الفتوح وبعض قرى جبيل وأقطعها ابنه الأمير أميناً[٥].

وكان واضحاً ان الأمير بشيراً عمد، بعد قضائه على الشيخ بشير جنبلاط، وحتى نهاية ولايته عام ١٨٤٠، إلى تعزيز سلطة أبنائه وأقاربه وحلفائه الموثوقين، على حساب خصومه وحتى بعض أصدقائه[٦]، وذلك تلافياً لقيام أية انتفاضة أو أي تمرد على غرار ما قام به الشيخ بشير وأنصاره.

وعندما استقر الحكم لابراهيم باشا في بلاد الشام عام ١٨٣٢، أبقى على التنظيمات الإدارية التي كان معمولاً بها في هذه البلاد في ظل الحكم العثماني[٧]، واكتفى بتعديل في التسمية فقط، إذ استعاض عن كلمة «أيالة»

بكلمة «مديرية»، وقسّم بلاد الشام إلى أربع مديريات هي: حلب ودمشق وطرابلس وصيدا، وألحقها جميعها بالحكمدارية في دمشق، ثم عيّن على كل مديرية مديراً يمثل السلطة المركزية فيها، كما أبقى على التقسيمات الإدارية المتفرعة عن المديريات مثل المتسلمية والإقطاعة، وجعل على رأس كل متسلمية متسلماً يعينه الحكمدار، وعلى رأس كل إقطاعة شيخاً أو آغا يتولى أمورها بالتوارث[٨]. وقد ظل الأمير بشير، وهو الحليف الموثوق للحاكم المصري، أميراً على جبل الدروز وجبل لبنان، ومرتبطاً بالحاكم المصري مباشرة، وقد امتدت سلطته إلى كل من البقاع ووادي التيم وطرابلس، ومدن الساحل مثل بيروت وصيدا وصور[٩]، إلا أنها كانت، في الواقع، سلطة مستمدة من قوّة الحاكم المصري وهيبته، لذلك رأينا هذه السلطة تنهار عندما انهارت سلطة ابراهيم باشا على بلاد الشام، فخرج الاثنان من البلاد معاً، واحد عن طريق غزة، نحو مصر، والآخر عن طريق البحر، نحو المنفى.

ثانياً - التطور الجغراسياسي للإمارة الشهابية:

من الواضح أنه، ما أن تسلم الشهابيون حكم إمارة الشوف، أو جبل الدروز، خلفاً للمعنيين، حتى بدأ نوع من التناغم السياسي والطائفي بين الأسرة الحاكمة في هذه الإمارة وبين زعماء جبل لبنان السياسيين والروحيين، خصوصاً بعد أن اعتنق الأمراء الشهابيون المذهب الماروني، فدعمتهم الكنيسة المارونية، وأصبح أهالي جبل لبنان من رعاياهم الحقيقيين، وكان ذلك منذ انتصار الشهابيين في وقعة عيندارة عام ١٧١١، إلا أنه بدا واضحاً في عهد الأمير يوسف (١٧٧١ - ١٧٨٨) وهو الذي أتى إلى هذه الإمارة حاكماً من بلاد جبيل، كما سبق أن ذكرنا[١٠].

وكان جبل الدروز يضم، في هذه الفترة، ما سمي «بمعاملة صيدا»، أي البلدان الممتدة من نهر الأولي قرب صيدا، جنوباً، حتى وادي المعاملتين (أو جسر المعاملتين) قرب جونية، شمالاً، وكانت «دير القمر» قاعدة هذه المعاملة التي كان يحكمها أمير الجبل (جبل الشوف أو جبل الدروز)[١١]، معنياً كان أم شهابياً، وكان مرجعه والي صيدا. أما جبل لبنان فكان يضم ما سمي «بمعاملة طرابلس» أي البلدان الممتدة من وادي المعاملتين، جنوباً، حتى المرتفعات الواقعة شرق طرابلس، شمالاً، وكانت «جبيل» قاعدة هذه المعاملة التي كان يحكمها مقدمون ومشايخ يعينهم والي طرابلس[١٢]، وقد تمّ توحيد هاتين المعاملتين، لأول مرة، تحت حكم الأمير يوسف الشهابي عام ١٧٧١.

ولم يتغير الحال، في عهد الأمير بشير الثاني، عما كان عليه في عهد الأمير يوسف، فقد استطاع هذا الأمير أن يستمر في حكم الجبلين معاً، جبل الدروز وجبل لبنان، محتفظاً، في الوقت ذاته، بلقب «أمير الدروز» وهكذا اتسعت رقعة الإمارة الشهابية حتى أضحت تضم كلاً من «بلاد الدروز» وهي البلاد الممتدة من نهر الكلب شمالاً حتى الجبال الواقعة فوق صيدا جنوباً، «وبلاد الموارنة» وهي الممتدة من نهر الكلب جنوباً حتى الجبال الواقعة فوق طرابلس شمالاً[١٣]، أو انها اضحت «من حدود صيدا لقرب طرابلس طولاً... وعرضاً من الدامور لرأس الجبل الذي يفصله عن أرض البقاع»[١٤].

ويحدد «هنري غيز» القنصل الفرنسي ببيروت في تلك الحقبة من الزمن، وفي كتابه الذي وضعه عام ١٨٤٧، إقطاعات الإمارة الشهابية «قبل الأحداث الأخيرة» (أي قبل أحداث ١٨٤٢ الطائفية) وحكام تلك الإقطاعات، على الشكل التالي:

الإقطاعات	الحكام	
- جبة بشري	الشيخ جرجس، بونار (؟)	تخضع هذه الإقطاعات الخمس المسماة
- الزاوية	بيت ضاهر	«بلاد جبيل» لباشا طرابلس، وقد ولي عليها
- الكورة	الابن البكر للأمير الكبير (بشير الثاني)	أخيراً، الأمير بشير من قبل عبدالله باشا
- البترون	الأمير أمين ابن الأمير الكبير	وشريف باشا، كما ولي، في الوقت نفسه، على
- جبيل	(بشير الثاني)	الجزء من الجبل العائد إلى باشوية عكا.
- كسروان	الأمير عبدالله الشهابي	مشايخ هذه الإقطاعة هم آل الخازن الذين
		يمثلون مع آل حبيش، أكبر اقطاعي الجبل
		والقوة المسلحة فيه
- المتن	أمراء أبي اللمع ومراد	متحدرون من عائلة قائدبيه.
- العرقوب	الأمير قاسم وبيت عماد، دروز	أهالي هذه الإقطاعة هم من أتباع الشيخ الدرزي.
- الجرد	الشيخ عبد الملك، درزي	
- الغرب الفوقاني	الشيخ تلحوق، درزي	أهالي هاتين الإقطاعتين يتبعون هذين الشيخين.
- الغرب التحتاني	آل شهاب وبيت ارسلان، دروز (❖)	
- الشوف	الأمير خليل وبيت جنبلاط، دروز (❖)	تقسم هذه الإقطاعة إلى عدة نواح، ويتبع
		اهاليها المشايخ الدروز.
	دروزويتبع أهاليها المشايخ الدروز	
- اقليم البلان		كانت هذه الإقطاعات تخص المتاولة ولكن
- اقليم الخروب		أمراء الدروز استولوا عليها بتشجيع من
- اقليم التفاح		الجزار الذي أزعجه الموقف العدائي للمتاولة
- جبل الريحان		في هذا الجزء من البلاد، إذ كانوا يدمرونه
- اقليم الشحار		في كل مرّة يدب فيها الخلاف بينه وبين «هذه
		الأمة المتوحشة»[١٥].

(❖) تجدر الإشارة إلى أن آل شهاب والأمير خليلاً، لم يكونوا دروزاً (المؤلّف).

إلاّ أن الذي تأكّد في عهد الأمير بشير، هو الارتباط الإداري والسياسي بين جبل الدروز وجبل لبنان، هذا الارتباط الذي استمر طوال عهد الأمير بشير الثاني وخليفته الأمير بشير الثالث، والذي انتهى بانتهاء الإمارة الشهابية عام ١٨٤٢ وظهور القائمقاميتين الدرزية والنصرانية.

وبينما كان جبل الدروز وجبل لبنان يشكلان، في هذه الفترة من العهد الشهابي، جناحي الإمارة الشهابية التي كان قلبها «دير القمر» ثم «بيت الدين» بعد ذلك، كانت باقي المقاطعات (وادي التيم والبقاع وجبل عامل وطرابلس) تشهد انفصالاً يكاد يكون تاماً عن هذه الإمارة، ورغم أن ابراهيم باشا قد منح الأمير بشيراً سلطة كاملة على إمارته وعلى المقاطعات الممتدة من طرابلس إلى صور ومن البقاع إلى وادي التيم[١٦]، فإن هذه السلطة لم تدم أكثر من دوام سلطة ابراهيم باشا نفسه على بلاد الشام، حيث عادت سلطة الأمير بشير الثالث لتنحصر بعد ذلك في «جبل الدروز» إمارته فقط[١٧].

ثالثا - الوضع السكاني للطوائف:

لا بد، لاستكمال هذا البحث، من إلقاء نظرة، ولو موجزة، على الوضع السكاني للطوائف في الإمارة، وخصوصاً القوتين الرئيسيتين فيها، وهما: الدروز والموارنة. ففي تقرير كتبه «تايتبوت Taitbout» القنصل التجاري الفرنسي، بصيدا، رداً على أسئلة وجّهها إليه وزير الخارجية الفرنسية عام ١٨٠٦، يذكر هذا القنصل الفرنسي المعلومات التالية:

«- يبلغ عدد الدروز ٢٠ ألف نسمة، وعدد الموارنة بين ٧٥ و٨٠ ألف نسمة.

«- الموارنة فقراء، وهم جميعاً مخلصون للدولة الفرنسية، أما الدروز فهم أغنياء بصورة عامة، وخصوصاً زعماؤهم، إلا أنهم يكرهون الأوروبيين وخصوصاً الفرنسيين.

«- يبلغ عدد القادرين على حمل السلاح من الدروز ٦ آلاف، أما عدد القادرين على حمل السلاح من الموارنة فهو ٢٥ ألفاً.

«- لا يوجد للدروز أي تأثير اجتماعي إلا في حدود الجبل، أما المسيحيون، وخصوصاً الكاثوليك والموارنة منهم، فلهم تأثير كبير في كل سوريا وفلسطين، إما بسبب العلاقات الدينية، أو بسبب روابط القرابة، ويمتد تأثيرهم إلى الحكام والباشوات والمتسلمين وقادة الجند.

«- يفضل الدروز الشيخ بشير (جنبلاط) وذلك لأنه زعيم من طائفتهم، إلا أنه ليس باستطاعته أن يحكم لأنه، حسب تشريع الإمارة، ليس أميراً، أما الأمير بشير، فقد اعتنق، وعائلته، الديانة المسيحية، منذ زمن، كما انه لا يقبل لحراسته سوى المسيحيين.

«- يوجد في الجبل ٣٦ قرية أو مدينة، وعاصمة الجبل هي «دير القمر»، ويقطن الموارنة البلدان الواقعة بين نهر الكلب وجبال حكومة طرابلس، أما البلدان الواقعة بين نهر الكلب وجبال صيدا فيقطنها الدروز والموارنة، بينما يقطن المتاولة البلدان الواقعة بين جبال صيدا وجبال عكا.

«- لا توجد أية علاقة للموارنة والدروز والمتاولة مع الباب العالي، فهم يدفعون الضرائب للباشوات، ولا يهمهم إطلاقاً أمر السلطنة، فارتباطهم نموذجي، لأن لهم رؤساء يعرفون كيف يفرضون احترامهم عند الحاجة.

«- إذا أتت الجيوش الفرنسية إلى هذه البلاد، يترك الدروز ممتلكاتهم ويرحلون إلى بلادس فارس، ويدفع الموارنة حبهم، بل وميلهم الجامح (لفرنسا)، لأن يتقدموا هذه الجيوش، أما المتاولة، فيفعلون الشيء نفسه، ولكن ظاهرياً فقط»[١٨].

ويذكر المعلوف[١٩] أنه قد وقف على إحصاء لسكان الإمارة الشهابية وضعه بطرس كرامي مدبر الأمير بشير الثاني في الآستانة بتاريخ ١١ نيسان ١٨٤١، وقد تضمن المعلومات التالية:

«- يقسم سكان الإمارة إلى مسلمين (سنة وشيعة) ونصارى (موارنة وروم كاثوليك وروم ارثوذكس) ودروز.

«- يبلغ عدد الذكور في الإمارة، وفي إحصاء لهم أجري عام ١٨٣٩: أربعين ألفاً، وقد أجري هذا الإحصاء وفقاً لسجل يشتمل على عدد القرى قرية فقرية.

وعلى عدد ذكور كل قرية نفراً نفراً، بالأسماء (أحصي الذكور من سن ١٤ إلى سن ٧٠).

«- يضاف إلى الأربعين ألفاً المذكورة وفقاً لهذا الإحصاء، مقدار عشرين ألفاً هم من لم يحصوا من الذكور كالاكليروس والأمراء والمشايخ وأتباعهم وأحزابهم.

«- يتوزّع هذا العدد من الذكور ومن القادرين على حمل السلاح، بين الطوائف، بالشكل التالي:

الطائفة	عدد الذكور (بالآلاف)	عدد القادرين على حمل السلاح (بالآلاف)
الموارنة	٣٠	٢٠
الروم الكاثوليك	٩	٧
الروم الأرثوذكس	٧	٥
الدروز	١٠	٨
السنة	١	٠,٧٠٠
الشيعة	٣	٢
المجموع:	عدد الذكور: ٦٠٠٠٠ ذكراً	عدد القادرين على حمل السلاح: ٤٢٧٠٠ رجل

«- إذا افترضنا أن عدد الذكور هو ستون ألفاً، وأن لكل ذكر اثنين من الإناث والأطفال، يكون مجموع النفوس في هذه الإمارة بين ١٨٠ و٢٠٠ ألف نسمة».

ولا تختلف أرقام هذا الإحصاء كثيراً عن تلك التي أعطاها «هنري غيز»[٢٠] وفقاً لجدول حصل عليه، وقد ورد فيه أن عدد سكان ٢٤ إقطاعة (District) من إقطاعات الجبل قد بلغ، عام ١٨٤٣: ٨٣٥ و١٩٣ نسمة، موزّعة كما يلي: ٢٩٠ يهودياً و٥٣٩٥ شيعياً و٨٧٧٥ سنياً و٢٦٤٤٥ درزياً و١٥٣٠٥٠ مسيحياً. كما لا تختلف عن الأرقام التي قدّمها القنصل «تايتبوت» عام ١٨٠٦، إذا أخذنا فارق الزمن بالاعتبار.

رابعاً - التحولات الطائفية ذات التأثير السياسي:

لم تعرف الإمارة المعنية، في تاريخها الذي استمر نحو قرنين من الزمن (١٥١٦ - ١٦٩٧) حوادث طائفية مماثلة لتلك التي بدأت تذر قرنها بعد أن تسلّم الشهابيون حكم إمارة الشوف، وربما كان سبب ذلك هو الشعور بالغربة الذي انتاب الأمراء الشهابيين حكام تلك الإمارة، مما أدّى إلى انحيازهم كلياً إلى نصارى جبل لبنان الذين كان يهمهم، ولا شك، أن يكون لهم الحظوة عند أمراء في إمارة اشتهرت بالمنعة والسطوة، فوضعوا بتصرف هؤلاء الأمراء «مدبرين» كفوئين أبدوا مهارة فائقة في كسب ثقة أسيادهم، واستطاعوا، في فترة من الزمن لم تتجاوز النصف قرن، أن يفرضوا على الإمارة والأمراء أهم تحول مصيري عرفته تلك الإمارة، فكان الأمير يوسف الشهابي (١٧٧١) أول أمير ماروني، من أسرة سنية، يحكم إمارة درزية. (أنظر الفصل الرابع من الباب الأول: التطور الجغراسياسي للإمارة الشهابية في عهد الأمير يوسف).

وهكذا فإن الشعور بالغبن الذي لم يكن ينتاب الزعماء الدروز في إمارة الشوف في ظل حكم الأمراء المعنيين، بدأ ينتابهم في ظل حكم الأمراء الشهابيين، خصوصاً أن «الدرزية» في الإمارة كانت تعبيراً عن «جنسية» أكثر منها تعبيراً عن مذهب أو طائفة، فالدرزي هو أحد رعايا الإمارة الدرزية، درزياً كان أم نصرانياً، «فالدروز النصارى Les Druses Chrétiens» هم الرعايا المسيحيون في إمارة الدروز، أما «الدروز» مذهباً، أو «الدروز الروحيون Les Druses Spirituels» فهم الرعايا الدروز في هذه الإمارة[٢١].

إضافة إلى هذا التحول التاريخي في معتقد الأمير الحاكم في إمارة الشوف، فإن معظم الزعامات الدرزية في هذه الإمارة كانت تدرك إدراكاً كلياً أسباب هذا التحول، كما انها كانت تدرك ضعف القاعدة الشعبية التي كان يقوم عليها حكم الأمير الشهابي، لذا، فقد كان ينتاب الكثير من هذه الزعامات شعور بأنها أحق في الإمارة والحكم، وبأن الشهابيين دخلاء على إمارة ليس لهم فيها جذور تاريخية ولا قواعد شعبية، ولم تعد تربطهم بها روابط المعتقد أو الدين، وقد ظهر هذا الشعور جلياً في التنافس الخطير الذي جرى على زعامة الإمارة بين الشيخ بشير جنبلاط زعيم الأسرة الجنبلاطية، وبين الأمير بشير، والذي قضي، بنتيجته، على الشيخ بشير، كما خسر الجنبلاطيون كل ما كان لديهم من إقطاعات في عهد الأمير المذكور.

بدأت الخلافات الطائفية تذر قرنها في إمارة الشوف، إذن، في العهد الشهابي، وبالتحديد في عهد الأمير يوسف بالذات، وكان هذا الأمير يلجأ، كلما ثار رعاياه الدروز عليه، إلى حلفائه بجبل لبنان، حتى انه خاض معظم حروبه، ضد خصومه في الإمارة، وضد الشيعة في أميون والكورة، بجيش من نصارى الجبل[٢٢].

وتسلم الأمير بشير حكم إمارة الشوف عام ١٧٨٨ خلفاً للأمير يوسف، فاستمر، في حكم الإمارة، على النهج الذي اختطفه سلفه، بل وزاد فيه إمعاناً وارتباطاً، فزادت الفرقة بينه وبين رعاياه في جبل الدروز، وقامت ضده ثورات وانتفاضات كان يستعين، للقضاء عليها، بحلفائه في جبل لبنان تارة، وبعبدالله باشا والي عكا تارة أخرى، وكانت أهم ثورة وأخطرها على حكم الأمير بشير تلك التي قادها الشيخ بشير جنبلاط عام ١٨٢٥ والتي كانت تهدف ولا شك إلى إنهاء حكم الشهابيين في إمارة الشوف[٢٣].

ويرى أبو شقرا، أحد مؤرخي الدروز لتلك الفترة، أن الأمير بشيراً عمد إلى خطة محكمة، بناء لنصيحة من حليفه محمد علي، باشا مصر، وذلك بأن يضرب بعض الدروز ببعضهم الآخر، فضرب الجنبلاطية بالنكدية مما أدّى إلى هلاك الأخيرة، ثم ضرب آل أبي علوان بآل عماد مما أدّى الى انتزاع زعامة العرقوب من آل عماد[٢٤]، ثم أخذ يسعى إلى «بذر حبوب الشقاق بين الطوائف المحمدية والمسيحية» فكان «يعزّز جانب الفئة المسيحية منهما وهو مع ذلك جاهد في توطيد دعائم النصرانية في البلاد ونجاح مساعيهم وبسطة أيديهم ونفوذ كلمتهم مع إخماد نار الدروز ودرس آثار عزهم وسؤددهم وغناهم، فنمت بذلك بين الطائفتين بذور الحسد وتأصلت في أفئدتهم جذور البغض والمشاحنة» التي كانت «أهم الأسباب في حدوث ما حدث أخيراً بين الدروز والنصارى»[٢٥].

ويؤكّد الدكتور أسد رستم ما ذكره المؤرخ أبو شقرا فيذكر أن الأمير «اتفق مع الجنبلاطيين والعماديين» على «النكديين» وما أن انتهى من هؤلاء حتى بدأ بإضعاف العماديين معتمداً في ذلك على مؤازرة «الجنبلاطيين» له، وظل يسعى إلى مناوأتهم وإضعافهم حتى «أفقرهم وأبعدهم عن البلاد إلى

وادي التيم وحوران وعكة ومصر»، وما أن انتهى من العماديين حتى اتّجه لإضعاف الجنبلاطيين فضرب كبيرهم الشيخ بشيراً وقضى عليه وعلى ولديه قاسم وسليم في عكا، «وهكذا تشتّت الجنبلاطيون وضبط الأمير جميع محاصيلهم»[٢٦].

لقد عمد الأمير بشير إلى المناورة لتحطيم الزعامات المحلية في إمارته، وتركيز السلطة بشخصه، وقد نجح في ذلك، بصورة مبدئية، خصوصاً أنه اعتمد، في تحالفاته الخارجية، على قوى سياسية مؤثّرة في محيطه، مثل عبدالله باشا والي عكا، ومحمد علي باشا عزيز مصر، وقد راهن، في تحالفه مع هذا الأخير، مراهنة جادة على المصير المشترك بينهما، فقاتل إلى جانبه في جميع حروبه ضد العثمانيين في بلاد الشام، وضد المتمردين والثائرين على الحكم المصري في هذه البلاد، وهكذا وضع الأمير نفسه، من جديد، في موضع الخصم للرعايا الدروز في إمارته وفي باقي الأيالات الشامية، ولم يكتفِ بذلك، بل اجتذب إليه النصارى الذين قبلوا السلاح الذي وزّع عليهم من قبل السلطات المصرية وراحوا يحاربون، إلى جانب الأمير والجيش المصري، الدروز الثائرين في كل من حوران ووادي التيم.

وفيما يلي نص الخطاب الذي وجّهه الأمير بشير إلى نصارى جبل لبنان لهذه الغاية: «إلى عساكر العيسوية القاطنين جبل لبنان بوجه العموم، تحيطون علماً أنه بحيث تحقّق حبّكم وطاعتكم إلى هذه الدولة السعيدة، فقد صدر لنا أمر كريم من سعادة ولي النعم الخديوي الأعظم مضمونه السامي بأنه أنعم عليكم بستة عشر ألف بندقية مع جباخانة لأجل حفظ مالكم ولكي تفتخروا بها على أقرانكم طايفة الدروز الخاينة الكافرة الناكرين وجود الله وأنبياه، وإنشا

الله تعالى يكونوا غنيمة لكم هم وأملاكهم ونقلكم السلاح دائماً سرمداً لكم وإلى أولاد أولادكم»[٢٧].

ويظهر أن هذا التوجه من قبل الحكم في الإمارة أغرى بعض الرعايا الدروز لكي يتخلوا عن مذهبهم ويعتنقوا المسيحية، مما أثار حفيظة عزيز مصر فكتب إلى «محمد شريف باشا» يعلمه بما بلغه «أن نفراً من الدروز ارتد عن دينه» وأنه، مع عدم تأكده من صحة هذا الخبر «يراه أمراً خطيراً يجب تلافيه»، ثم يأمره بأن يتحرى الحقيقة، سراً، من الأمير بشير[٢٨]، مما حدا بالأمير بشير لأن يكتب إلى «محمد شريف باشا» رسالة يشرح فيها ما وصل إلى علمه عن «قضية تنصر الدروز» وفيما يلي أهم ما جاء في هذه الرسالة المؤرخة في ٢٥ ربيع الثاني ١٢٥٢هـ (آب ١٨٣٦م):

«فأما حقيقة هذه القضية هو أنه كان بعض الأشخاص وقليل جداً جداً أراد التداخل بالطريقة العيسوية، فأظهرنا التنبيه والتشديد الكلي وأبدينا كمال التهدد بالسطوة الخديوية العلية فانقطع هذا المبدى، وخمدت نار هذه الشهوة، لكن، كما لا يغرب عن النيرة الشفافة، أنه موجود في الجبل طايفة أمرا يقال لهم بيت أبي اللمع، فهذه الطايفة في الزمن القديم كانوا دروز وتداخلوا في الطريقة العيسوية رويداً رويداً إلى أن صاروا جميعهم عيسويين، وذلك من مدة أربعين خمسين سنة، ولم يبق منهم على طريقة الدروز أحد إلى عصرنا هذا سوى الأمير أحمد قايدبيه المقيم في قرية برمانا وأولاد الأمير نصر مراد المقيمين في المتين وهم الأمير سليمان والأمير موسى والأمير يوسف، فالأمير أحمد لم يزل باقياً على طريقة الدروز، وأما أولاد الأمير نصر الثلاثة المذكورين كانوا بهذا الوقت أرادوا الدخول بالطريقة العيسوية لكنهم لما سمعوا بالتهديد والتشديد الذي حصل من عبدكم تركوا ما كانوا عزموا عليه،

والآن حينما صدر أمر دولتكم بالفحص عن هذه القضية فحصنا ودقّقنا وحقّقنا فوجدنا أن الأمرا الثلاثة أولاد الأمير نصر المذكورين قد دخلوا في الطريقة العيسوية سراً ولم يزالوا مصرين عليها وغيرهم من طايفة الدروز لم يدخل منهم أحد في العيسوية لا سراً ولا جهراً لا من الأكابر ولا من الأصاغر»[٢٩].

ورغم أن اتفاقاً تمّ بين الدروز والنصارى (والمتاولة والإسلام بوجه العموم) في السابع من حزيران عام ١٨٤٠ على أن «لا نخون ولا نطابق بضر أحد منا كائناً من يكون، القول واحد والرأي واحد»[٣٠]، إلا أن هذا الاتفاق لم يدم طويلاً، إذ انفجر الصراع الدامي بين الدروز والنصارى، بعد عام من هذا الاتفاق تقريباً (١٨٤١)، مما أدّى إلى إنشاء كيانين طائفيين منفصلين، لأول مرة في تاريخ بلاد الشام (عام ١٨٤٢).

لقد وقفت سياسة الأمراء الشهابيين، من الأمير يوسف وحتى الأمير بشير الثالث، مروراً بالأمير الكبير بشير الثاني، حائلاً دون اتحاد الطائفتين الكبريين في جبل الدروز وجبل لبنان، وساعد التدخل الأجنبي السافر[٣١] على التفرقة بين جناحي الإمارة الشهابية، فانقسمت الإمارة على نفسها، وزاد من انقسامها انحياز أمرائها وتمسك الطائفة المارونية بشروطها الأربعة عشر التي أعلنتها في ٢٩ تشرين الأول ١٨٤٠ وأهمها المطالبة باستمرارية هذه الطائفة على رأس الحكم في «جبل لبنان وأنطيلبنان»، وذلك لأن «سكان الجبال المذكورة الأكثر عدداً مما سواهم هم الموارنة»[٣٢]، يقابله شعور بالغبن والاضطهاد لدى الدروز، وهو شعور أخذ يقوى ويزداد منذ أن تسلم الأمير بشير الثالث حكم الإمارة وانتهج، بدوره، سياسية أكثر عداء للدروز من أسلافه، مما حدا بزعماء الدروز لأن يرفعوا إلى الباب العالي، بتاريخ آخر حزيران ١٨٤١،

عريضة جاء فيها: «أما اليوم، فإن الأمير الكبير الذي يحكم الجبل، فلكونه مسيحياً، ينزل بنا ضروب الاحتقار ساعياً لإذلالنا حملاً لنا على اعتناق ديانته، بل انه يكرهنا عليها، فلا يسعنا أن نحتمل اضطهادات هذا الأمير والأمة المسيحية ولا استبدادهما بنا، فهما يحاولان إخراجنا من دائرة الطاعة الواجبة علينا للباب العالي وإدخالنا في طاعة غير المؤمنين، مما لا يمكّنا قبوله لأننا لن نرضى أبداً بالمروق عن طاعة الباب العالي الذي أظلنا في كل آن بحمايته، وإننا لنجاهر تكراراً بأننا لن نلوذ أبداً بكنف حماية الأجانب ولو كان في ذلك ابادتنا جميعاً نحن ونساؤنا وأولادنا.

«لقد طالما كنا أوفر وجاهة من المسيحيين، محترمي الجانب، فكيف نطيق أن نكون تحت سيطرتهم أذلاء مهانين؟ لا مراء أن هذه الحالة لا تلائمنا وحكومة جلالة السلطان لا ترضى بها... وعليه، فمن المحال أن نقبل بالبقاء تحت سيطرة حكومة مسيحية والخضوع لها ولأوامرها.

«فنسترحم من جلالة سلطاننا العظيم الرؤوف نصر الله أعلامه أن يتنازل فيرعانا بعين عنايته ويعين علينا رئيساً كما كان الحال في عهد الشيخ بشير جنبلاط، وتصدر أوامره الشاهانية فيعهد إليه بإدارة شؤوننا بموجب فرمان سام يقلده هذا المنصب لخير بلادنا وشرفها...»[٣٣].

بعد كل ما تقدم، لم يعد هناك مجال لأي شك في أن السياسة التي اتبعها الأمراء الشهابيون، بالإضافة إلى التدخل الأجنبي[٣٤] ومناورات الدولة العثمانية، أسهمت جميعها في خلق الجو الطائفي الذي عاشت به البلاد في ذلك الحين، وبعده، حتى يومنا هذا، وإن تغيرت أدوار بعض الطوائف.

ويظهر أن فكرة الاستقلال الإداري للجبل قد نشأت عند الانكليز، ثم الفرنسيين، في أثناء الثورة على المصريين عام ١٨٤٠، ففي رسالة كتبها

المسيو «برتو Bertou» المكلف مهمة في هذه البلاد، في أثناء الثورة، إلى الدوق «دي ڤالمي Duc De Valmy» بتاريخ ١٢ تشرين الثاني ١٨٤٠، ذكر «برتو» أن الانكليز يعدون الثائرين، همساً، باستقلال إداري للجبل، ويستطرد السياسي الفرنسي:

«كم جميل هو الدور الذي يمكن أن تلعبه فرنسا إذا أخذت بالمبادرة بتبني هذا المشروع، بدلاً من أن تظل ملزمة، دون أي حظ بالنجاح، في التمسك بمحافظة محمد علي على هذه البلاد.

«... لنترك بشالق ادنه وحلب، ثم دمشق والساحل، للباب العالي، باستثناء موقع أو اثنين نضمهما إلى الجبل، ولنجعل من الجبل إقليماً (Province) يدفع الضريبة إلى الباب العالي ولكنه مستقل عنه إدارياً، على أن يكون هذا الاقليم تحت حماية الدول الكبرى الخمس. وإنني أجيبك بأن فرنسا سوف تقود هذا الاقليم إن هي بادرت إلى إعلان هذا المشروع، ثم يأتي دور كليتنا التي ستهتم بإكمال «فَرْنَسَة» الجبليين...»[٣٥]. ورغم أن الظروف التي مرّت بها البلاد في ذلك الحين فرضت على الطائفتين الكبريين في الإمارة الفرقة والانفصال، فقامت القائمقاميتان الدرزية والنصرانية، إلا أن الكلام الذي كتبه المسيو «مارتان Martin» قنصل فرنسا بصيدا، إلى «البارون باسكييه Baron Pasquier» وزير الخارجية الفرنسية، بتاريخ أول آب ١٨٢١، يظل هو القول الفصل، قال «مارتان»:

«عندما يتّحد سكان جبل لبنان وانتيلبنان، فإنهم أقوياد كفاية، بسبب وضع بلادهم، لكي يصارعوا قوى أكبر منهم بكثر. فالجزار، بجيشه المؤلف من عشرين ألفاً، كان مضطراً لأن يترك أهل هذه البلاد وشأنهم، بعد أن هُزم دون أن يتمكن من إحراز أي نصر عليهم»[٣٦].

حواشي الفصل الثامن

(١) راجع الفصل الأول من الباب الأول (وقعة عيندارة).

(٢) كان جبل الشوف مؤلفاً من سبع اقطاعات هي: الشوف والمناصف والعرقوب والجرد والمتن والشحار والغرب.

(٣) الدحداح، سليم خطار، مجلة المشرق، مجلد ٢٢، سنة ١٩٢٤، ص ٥٦٣ - ٥٦٤.

(٤) الشهابي، الأمير حيدر أحمد، تاريخه، طبعة الجامعة اللبنانية، قسم ٣ : ٦٤١ - ٦٤٢.

(٥) الشدياق، أخبار الأعيان، ج ٢ : ٣٤٨ و:

- Touma, Paysans et institutions féodales, T1 pp. 146 - 147.

(٦) - Ibid, p. 147.

(٧) نذكر أن بلاد الشام كانت مقسمة، في ظل الحكم العثماني، إلى أربع ايالات (أو ولايات) هي ايالات حلب ودمشق وطرابلس وصيدا (أو عكا) باستثناء القدس وغزة ويافا فهي لم تكن داخلة في هذا التقسيم.

(٨) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ١ : ١٠٤ - ١٠٥.

ويضاف إلى هذه المديريات الأربع مديريات ثلاث أخرى هي: مديرية أدنة، ومديرية يافا، (رستم، المحفوظات الملكية، مجلد ٣ : ١٠٢ - ١٠٣ وثيقة رقم ٤٩٩٩) ومديرية غزة.

(Dib, L'église maronite, V2 p. 239).

(٩) راجع واحداً من المراسيم الثلاثة التي أصدرها ابراهيم باشا عام ١٢٤٨هـ (١٨٣٢م) والتي عيّن بموجبها الأمير بشيراً متسلماً على كل من بيروت وصيدا وصور (رستم، الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا، ج ٢ : ٤٥ - ٤٦ وثيقة رقم ٩٥). وقد عيّن الأمير بشير بدوره متسلمين من قبله على المدن الثلاث، (أنظر رسالة الأمير بشير إلى مفتي بيروت والتي عيّن بموجبها قريبه الأمير ملحماً الشهابي متسلماً على هذه المدينة - رستم، م. ن. ج ٢ : ٤٦ وثيقة رقم ٩٦). إلا أن ذلك لم يدم طويلاً، إذ استعاد ابراهيم باشا، بعد فترة وجيزة، هذه المدن من الأمير بشير وعيّن عليها متسلمين من قبله (أبو عز الدين، ابراهيم باشا في سوريا، ص ١٣٢).

(١٠) راجع الفصل الرابع من الباب الأول (التطور الجغراسياسي للإمارة الشهابية في عهد الأمير يوسف).

(١١) انتقلت قاعدة هذه الإمارة إلى «بيت الدين» في عهد الأمير بشير الثاني الكبير.

(١٢) الشدياق، المصدر السابق، ج ١ : ١٩ - ٢٨، واسماعيل حقي بك، لبنان، مباحث علمية واجتماعية، ج ١ : ٤٣ - ٤٨، وانظر أيضاً:

النكدي، عارف، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مجلد ٢٠، سنة ١٩٤٥، ص ٤٩٨، والدحداح، سليم خطار، مجلة المشرق، مجلد ٢٢، سنة ١٩٢٤، ص ٥٦٢ - ٥٦٣.

(١٣) - Ismaïl, Documents diplomatiques et consulaires, T3, p. 51.

(١٤) مشاقة، منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب، ص ١٥٤.

(١٥) - Guys, Relation, T1 pp. 279 - 280.

وإننا إذ ننقل كلام «غيز» بحرفيته عن المتاولة «هذه الأمة المتوحشة» فذلك لكي نثبت، دون أدنى شك، التحيز العنصري الواضح، لهذا المؤرخ والدبلوماسي الفرنسي، مما يقلّل، ولا ريب، من أهمية أحكامه التاريخيّة.

(١٦) - Nantet, Histoire du Liban, p. 146.

(١٧) أنظر الفرمان السلطاني الذي صدر عام ١٨٤٠ وعيّن بموجبه الأمير بشير الثالث أميراً على «قبائل الدروز» (رستم، الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا، ج ٥ : ١٧٢ - ١٧٤، وثيقة رقم ٥٧٠، والخازن، مجموعة المحررات السياسية، مجلد ١ : ٢١ - ٢٢ وثيقة رقم ١٥).

وانظر كذلك: رستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ٢ : ٢٠٨.

(١٨) - Ismaïl, Documents, T3 pp. 49 - 52.

(١٩) المعلوف، عيسى اسكندر، دواني القطوف، ص ٢٤٦ - ٢٤٧.

(٢٠) - Guys, Henri, Relation, T1. p. 276.

إلا أن «غيز» نفسه يقدّر عدد سكان الجبل بـ ٣٠٠ ألف نسمة، دون أن يحدّد تاريخ هذا التقدير، وربما كان تاريخ وضعه لمؤلفه (١٨٤٧)، كما يذكر أن ثلثي هذا العدد (مايتي ألف) هم مسيحيون، والباقي (ماية ألف) دروز وسنة وشيعة (Ibid, p. 275) ثم يقدر، وفقاً لإحصاء وضع عام ١٨٤٣، عدد القادرين على حمل السلاح في ١٦ إقطاعة من إقطاعات الجبل، من الشوف حتى جبيل ضمناً، بـ ٤٥٠٥٠ رجلاً موزعين كما يلي: ٣٤ ألف مسيحي،

و١٠٠٥٠ درزياً، (Ibid, p. 276) دون أن يذكر باقي الطوائف التي لم يكن لها، على ما يظهر، وجود يذكر في هذه الإقطاعات.

(٢١) أنظر تقرير «رينار» نائب القنصل الفرنسي بصيدا، بتاريخ أول أيلول (Ismaïl, Documents, T2. p. 381) وقد ورد تعبير... «النصراني الدرزي... وهو الذي حضر من جبل الدروز» عند المؤرّخ الجبرتي (عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج ٣ : ٣٦٦)، وذلك في أحداث العام ١٢٢٧ هـ الموافق لعام ١٨١٢م.

(٢٢) راجع الفصل الرابع من الباب الأول (الأمير يوسف: الأمير وجبل لبنان).

(٢٣) أنظر، أبو شقرا، الحركات في لبنان، ص ١٥ حاشية (١)، وانظر أيضاً عن مكانة الشيخ بشير الذي اتفقت الفئتان الجنبلاطية واليزبكية على توليته الزعامة، وهما اللتان «قلما اتفقتا أو كانتا يداً واحدة في الشؤون الأهلية آونة السلم إلا على عهد هذا الشيخ العظيم... حتى أصبحت الطائفة برمتها في قبضة الشيخ بشير تقوم إذا قام وتقعد إذا قعد» (أبو شقرا، م. ن. ص ٤).

(٢٤) م. ن. ص ٤ - ٨.

(٢٥) م. ن. ص ٢٦، ويقصد المولف أحداث عام ١٨٦٠ الطائفية. ونحن، إذ نذكر أقوال المؤرّخ أبو شقرا هذه، لا نقصد من وراء ذلك اثبات وقائع تاريخية معينة بقدر ما نقصد اظهار ما كان ينتاب المواطنين الدروز من رعايا الأمير، أو فئة منهم على الأقل، من مشاعر الحقد والكراهية لهذا الأمير الذي اختار، في سلوكه العام في الحكم، سبيلاً أسهم إلى حدٍّ كبير في خلق روح التعصب الطائفي بين الدروز والنصارى في إمارته، كما أسهم، بالتالي، في التهيئة النفسية للأحداث الطائفية التي جرت بعده.

(٢٦) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ١ : ٧ - ٩ وانظر أيضاً: مشاقه، مشهد العيان، ص ٦٦ - ٦٧.

(٢٧) رستم، الأصول العربية لتاريخ سورية، ج ٤ : ٢٣١ وثيقة رقم ٤٦٦.

(٢٨) رسالة محمد علي باشا إلى محمد شريف باشا بتاريخ ٣ ربيع الآخر ١٢٥٢هـ (تموز ١٨٣٦م)، رستم، المحفوظات، مجلد ٣ : ١٣٧ وثيقة رقم ٤٦٤٨.

(٢٩) رسالة من محمد شريف باشا إلى سامي بك بتاريخ ٩ جمادى الأولى ١٢٥٢هـ (آب ١٨٣٦م)، م. ن.، مجلد ٣ : ١٤٧ وثيقة رقم ٤٦٨٧.

(٣٠) أنظر اتفاقية الدروز والنصارى في انطلياس بالتاريخ المذكور. (رستم، الأصول العربية لتاريخ سورية ج ٥ : ١٠٠، وثيقة رقم ٥٣٠، والخازن، مجموعة المحررات السياسية، مجلد ١ : ٢ - ٣، وثيقة رقم ٢).

(٣١) لقد كان التدخل الأجنبي بالفعل سافراً في هذه الفترة، إذ سعت كل دولة كبرى لأن تضع تحت حمايتها طائفة من الطوائف المتواجدة في الإمارة المنهارة، فالموارنة لفرنسا، والدروز لبريطانيا، والأرثوذكس لروسيا، والسنة للسلطنة، أما الكاثوليك فكانوا يترجحون بين فرنسا والنمسا.

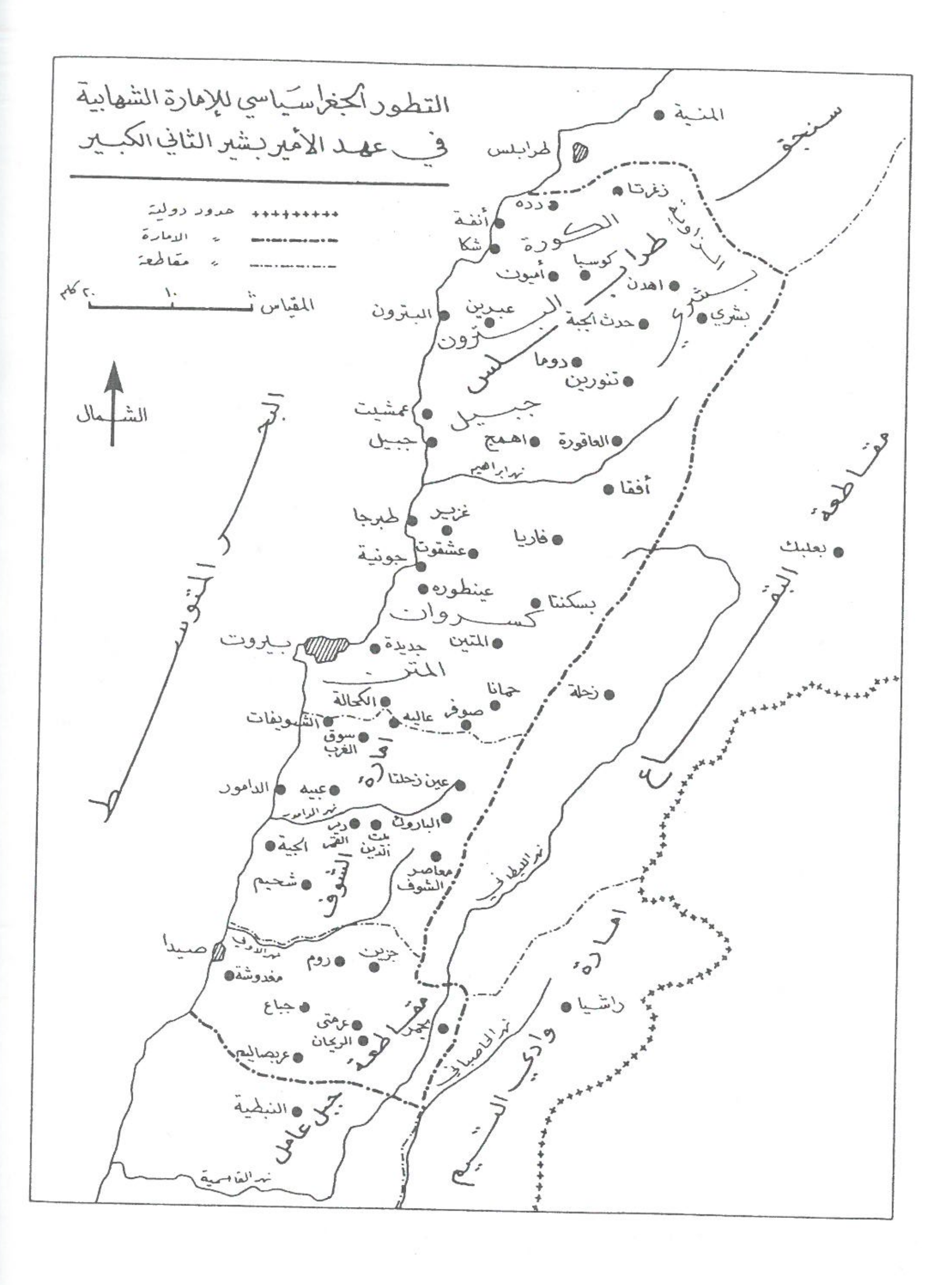
(٣٢) راجع «شروط الموارنة» عند: رستم، الأصول العربية لتاريخ سورية، ج ٥ : ٢١٠ وثيقة رقم ٥٨٩.

(٣٣) الخازن، مجموعة المحررات السياسية، مجلد ١ : ٥٠ - ٥٢ وثيقة رقم ٢٦.

(٣٤) أنظر بعض المعلومات عن دور القناصل والعملاء الأجانب في الثورة على المصريين في رسائل القنصل الفرنسي ببيروت (بوريه Bourée) إلى المسيو (تيير Thiers) وزير الخارجية الفرنسية، بتاريخ ٦ و٧ و٨ حزيران ١٨٤٠. (Ismaïl, Documents, T6. pp. 45 - 54)

(٣٥) Ibid pp. 288 - 289. -

(٣٦) Ibid, T3. p. 169. -



الفصل التاسع

الأمير بشير الثالث

آخر الأمراء في آخر إمارة

(١٨٤٠ - ١٨٤٢)

في التاسع من تشرين الأول عام ١٨٤٠ نودي بالأمير بشير قاسم ملحم الشهابي (بشير الثالث) أميراً على «جبل الدروز» و«قبائل الدروز» أو «عشائر الدروز»، وذلك بموجب فرمان سلطاني مؤرخ في السادس من رجب عام ١٢٥٦هـ (الثالث من أيلول عام ١٨٤٠م)(١)، وقد تضمن الفرمان نفسه عزل الأمير بشير الثاني الذي رفض التخلي عن حليفه المصري والإنضمام إلى الحلفاء رغم كل المحاولات التي بذلها الانكليز لهذه الغاية(٢)، وما أن حصل «عرّاب» الأمير الجديد «المستر ريتشارد وود» ومعه «السر بولدوين ووكر»، وهما انكليزيان، على صورة الفرمان السلطاني، حتى هبا لتوهما يقتفيان أثر الأمر الجديد في ميدان القتال لكي يبلغاه النبأ السعيد، فلحقا به إلى «ميروبا» حيث كان يقاتل المصريين، وقد اخترقا، لأجل ذلك، خطوط القتال المصرية وعرّضا نفسيهما للخطر(٣)، قال الحتوني في ذلك: «وتوجه السنيور ريتشارد وود الانكليزي إلى ميروبا، وأقبل عليه الأعيان الذين طلب منهم أن يوافوه إلى هناك، فتلا عليهم فرمان الدولة العلية بتولية الأمير بشير (أبو طحين)(٤) قاسم ملحم شهاب حاكماً على الجبل، فأظهروا جميعهم القبول ودعوا للدولة العلية بالنصر والتأييد»(٥).

واستقر الأمير بشير الثالث، بعد خروج المصريين من البلاد ورحيل سلفه الأمير بشير الثاني عنها، في بعبدا، حيث اتخذ منها مقراً لإمارته، وكان هذا الأمير عاجزاً، ضعيف الشخصية، غير قادر على التصرف في مواجهة الظروف الصعبة التي تمر بها إمارته، مما جعله لعبة بيد الانكليز الذين انتدبوا رجلاً من قبلهم، من آل مسك، مستشاراً للأمير، فأقام هذا المستشار، ومعه المستر وود، في قصر يقع بمقربة من قصر الأمير ببعبدا، حيث تقاسم الاثنان معاً، مسك وورد، إدارة البلاد، فكان الأمير «لا يأخذ أي قرار دون الرجوع إلى مستشاره البريطاني»[٦]. ولم يكن تأمير الأمير بشير الثالث على الجبل بلا ثمن، فقد سبق أن أعلن الأمير المذكور انحيازه إلى الحلفاء وانضمامه إلى معسكر المقاتلين ضد المصريين، وذلك بعد أن كان «قد غادر معسكر المصريين قرب بيروت خلسة وانضم إلى معسكر الحلفاء في جونيه»[٧].

وفي رسالة منه إلى المستر «نيفن مور» قنصل انكلترا ببيروت، بتاريخ ٤ شعبان ١٢٥٦هـ، (أول تشرين الأول ١٨٤٠م)، عرض الأمير «الروابط القديمة» الجارية بينه وبين القنصل، ثم عرض «الأمر الشريف» الصادر إليه من «محمد سليم باشا» سر عسكر الجيوش العثمانية، والكتاب الموجّه إليه من «الكومودور نابيير» قائد الأسطول البريطاني، وانتهى إلى القول بأنه ينتظر تلقي «الأوامر الشريفة» مقدماً ذاته ذبيحة «بخدمة الدول السعيدة»[٨].

وكان قد سبق كل ذلك اتفاق بين الأمير بشير (الثالث) والمستر وود، على أن يتسلم الأمير الحكم بعد إخراج المصريين من البلاد، شرط أن يتزعم الثورة ضدهم[٩]. وحان وقت تنفيذ هذا الاتفاق عندما بدأ الحلفاء (انكلترا والنمسا والدولة العثمانية) بإنزال جيوشهم على الساحل بين نهر الكلب وجونية في ١١ أيلول ١٨٤٠[١٠]، ثم على ساحل صيدا في ٢٦ منه[١١]، وعلى ساحل

الدامور في ٢٩ منه، حيث وزعت جيوشهم خمسة آلاف بندقية على الأهالي الذين توافدوا من الجبل، وبينهم أمراء شهابيون، لكي يحملوا السلاح للقتال ضد المصريين[١٢].

ورغم أن الحلفاء ظلوا يأملون في أن ينضم الشهابي الكبير إليهم قبل فوات الأوان، فقد باشر الأمير بشير الثالث مهماته القتالية في جبل لبنان إلى جانبهم، وخاض، مع رجاله الكسروانيين خاصة، معارك عديدة ضد القوات المصرية، أهمها: وقعتا وطا الجوز وبحرصاف، ثم طارد فلول القوات المصرية حتى دمشق.

١ - وقعة وطا الجوز (٤ تشرين الأول ١٨٤٠):

بين يدينا عدّة روايات لهذه الوقعة أهمها ما رواه القنصل الفرنسي بدمشق الكونت دي راتي مانتون Comte De Ratti - Menton وذلك في رسالة منه إلى المسيو تيير Thiers رئيس الوزراء ووزير الخارجية الفرنسية، بتاريخ ١٠ تشرين الأول ١٨٤٠، فقد ذكر هذا القنصل أن القائد المصري عثمان باشا الذي كان موجوداً، في ذلك الحين، بكسروان، على رأس جيش من ستة آلاف جندي، قد هزم «تماماً» على يد «عصبة من الجبليين الذين يساندون كتيبتين من الجنود الأتراك وبعض سرايا الجند الانكليز»، وقد ترك القائد المصري «في أثناء انسحابه غير المنتظم حتى النبع - نبع صنين - بين جبل صنين وزحلة» مؤونة تكفي جيشه لثمانية أيام، وست صناديق ذخيرة، كما ترك بين أيدي أعدائه «نحو خمسماية مريض ما عدا مايتي فار»[١٣].

ويلاحظ أن القنصل لم يحصر المعركة بين جيش عثمان باشا والجبليين فقط، بل ذكر اشتراك الأتراك والانكليز فيها، ثم انه لم يأت على ذكر الأمير

بشير الثالث في هذه المعركة، كما انه تحدث عن «وادي الجوز» لا «وطا الجوز» محدداً موقع هذا الوادي قرب غزير، ثم أتى على ذكر «النبع» بين جبل صنين وزحلة، قاصداً ولا شك «نبع صنين» الذي ذكره الدكتور أسد رستم في روايته دون أن يأتي هو أيضاً على ذكر «وطا الجوز» بالاسم، فقد ذكر رستم أن الكومودور نابيير «جهز الأمير بشيراً القاسم (الثالث) بالرجال والعتاد، وأمره بإرهاق المصريين في أثناء تراجعهم، ففعل الأمير وتأثر الباشا المصري حتى نبع صنين، وأسر من رجاله ثلاث مئة طوعاً وجبراً، فارتفعت أسهم الأمير في عيون الحلفاء»[١٤]، وهو القول نفسه الذي أورده الشدياق عندما ذكر أنه، في اليوم الثالث لوصول الأمير بشير الثالث إلى جونيه، أمره القائد العثماني بأن يذهب لمحاربة عثمان باشا المصري وأرفقه بألف نفر من العثمانيين، فانطلق الأمير ومن معه إلى «وطا الجوز» حيث اجتمع الكسروانيون، وما أن تحرك القائد المصري بجيشه في ظلام الليل وتحت أنوار المصابيح حتى «هجم عليه اللبنانيون والعثمانيون وجدّوا في أثره وأطلقوا الرصاص على المتأخرين فقتلوا ونهبوا وأسروا جماعة منه طوعاً وجبراً، ولم يزالوا يطردونه حتى بلغ ثغرة البندق، فبات كل في مكانه، وكانت مدة حرب الكسروانيين في وطا الجوز عشرين يوماً»[١٥]. ونعثر على اسم «ثغرة البندق» أو «طفرت البندق» (وهي تحريف لثغرة البندق)، في مذكرات رستم باز وقد جاء فيها: «وانكسر ابراهيم باشا في وطا الجوز وتبعوه الكساروي إلى طفرت البندق فوق بسكنتا، ونزل إلى زحلة»[١٦]. ونلاحظ أن رستم باز لم يأتِ على ذكر الأمير بشير في وطا الجوز، كما انه لم يذكر تفاصيل المعركة بل اكتفى بذكر اشتراك الكسروانيين فيها.

ويستنتج من هذه الروايات أن الكسروانيين، بقيادة الأمير بشير الثالث، قد اشتركوا ضد المصريين في هذه المعركة، مع حلفائهم الأتراك



الكومودور نابيير

والانكليز، وأن مهمتهم كانت مناوشة مؤخرة الجيش المصري المتقهقر نحو زحلة بالبقاع، ما بين ميروبا وصنين، فناوشهـا الأمير عند «وطا الجوز» وقتـل بعضاً من جند هذه المؤخرة، كما أسر بعضاً آخر، وظل يطارد المتأخرين منها حتى «ثغرة البندق» فوق بسكنتا، بينما انهزم الجيش المصري إلى زحلة.

وقد سُرّ الحلفاء بهذا الانتصار كما أعجبوا بما أبداه الأمير ورجاله في هذه الوقعة من اندفاع وحماسة وإخلاص، وقام المستر وود، على أثر ذلك، بتسليم فرمان الولاية إلى الأمير، بل صعد بنفسه إلى ميروبا، حيث أعلن أمام الملأ هناك تولية الأمير على الجبل، ثم عاد إلى جونيه[١٧]. ولم يكن ليتم ذلك، على أي حال، لو لم ييأس الحلفاء من إمكان اجتذاب الأمير الشهابي الكبير إلى صفوفهم[١٨].

٢ - وقعة بحرصاف (١٠ تشرين الأول ١٨٤٠):

كان الأمير بشير الثالث، بتاريخ ٩ تشرين الأول، في ميروبا، وقد انتهى لتوه من وقعة «وطا الجوز»، عندما وافاه المستر وود إليها لتسليمه مقاليد الإمارة، وقد تلقى، في اليوم نفسه، من الكولونيل نابيير قائد القوات الحليفة الزاحفة من كسروان نحو مواقع ابراهيم باشا في مرتفعات «بحرصاف»، أمراً بأن يؤمن حماية ميمنة الحلفاء، وذلك بأن يقوم بحركة التفاف على ميسرة الجيش المصري، على محور ميروبا - بعبدات، ثم يتقدم إلى ما وراء مواقع العدو في «بحرصاف».

وكان على الأمير أن يقطع مسافة طويلة في أرض وعرة من ميروبا إلى بكفيا فبحرصاف، لكي يتمكن من تنفيذ المهمة في الوقت المحدّد، إلا أنه

أصيب، في أثناء المسير، بالحمى، مما جعله يصل بقواته متأخراً إلى ساحة القتال (كان لم يصل بعد إلى بلدة الشوير عندما بدأت المعركة في بحرصاف)، ولكنه، رغم ذلك، تمكن من أن يمنع وصول فرقة مصرية من ألفي رجل قادمة من جهة زحلة، لإنجاد جيش ابراهيم باشا[١٩].

٣ - المطاردة حتى دمشق:

اتخذ الأمير من بلدة الشوير، ثم من حمانا، فقب الياس بالتتالي، قواعد لأعماله الحربية، حيث كان «يناوش»، بين الحين والآخر، وبقواته البالغة نحو ٣٥٠٠ مقاتل، مؤخرة القوات المصرية المنسحبة نحو زحلة[٢٠]. ووقع بين يديه الأمير مجيد حفيد الأمير بشير الشهابي الكبير، أسيراً، وكان الأمير في حمانا، فأحسن معاملته وأرسله إلى بيروت حيث تسلمه الوزير محمد عزت باشا وألحقه بجده في مالطة[٢١]، وأخذ الأمير ينقل، بعد ذلك، مقر قيادته بالتنسيق مع جيوش الحلفـاء المطاردة لجيش ابراهيم باشا، حتى استقر في بلدة طبريا، متابعاً، في الوقت ذاته، مناوشاته لمؤخرة الجيش المصري المنسحب نحو دمشق، حيث كان نحو ألفين من رجاله يلاحقون هذا الجيش عند الزبدانة فالهامة فالكسوة[٢٢]. وما أن سقطت دمشق بيد الحلفاء (أول كانون الثاني ١٨٤١) حتى رجع الأمير من طبريا إلى بلدة مرجعيون، وطلب من رجاله - الذين كـانوا قد أصبحوا في ضواحي دمشق ودخل بعضهم دمشق ذاتها مع العثمـانيين وحلفائهم[٢٣] - أن يوافـوه إلى مرجعيون، ثم انتقل معهم من مرجعيون إلى «ميس» بجبل عامل، فصفد، فيافا بفلسطين[٢٤]، ثم إلى بعبدا، بعد ذلك، حيث استقر أميراً على البلاد.

٤ - الثورة على الأمير بشير الثالث وسقوط الإمارة الشهابية (١٨٤١ - ١٨٤٢):

إلا أن الذي سمي «أمير الدروز» كان الدروز أول من ثاروا عليه وسعوا إلى خلعه عن إمارتهم، وذلك لأنه انتهج حيالهم سياسة خاطئة اتسمت بالحقد والكراهية، فهو قد أهان زعماءهم العائدين من مصر مثل الشيخ نعمان جنبلاط والشيخين عبد السلام وخطار العماد والشيخ ناصيف النكدي وولده عباس، إذ انهم، عندما حضروا إلى خيمته ليسلموا عليه «ازدرى بهم وبعلاماتهم - ألقابهم - وأسمعهم كلاماً يخفض مقامهم» فأغضبهم ذلك لكنهم كتموا غيظهم إلى أن تحين فرصة الانتقام[٢٥].

وما أن عاد الزعماء الدروز من منفاهم حتى أخذوا يطالبون بحقوقهم وامتيازاتهم وإقطاعاتهم التي انتزعت منهم في عهد الشهابي الكبير، وقد تزعم هذه المطالبة كل من الشيخين نعمان وسعيد جنبلاط ابني الشيخ بشير جنبلاط، وتبعهما، من زعماء الدروز، عدد كبير، وخصوصاً ممن فقدوا، في زمن الأمير بشير الثاني، امتيازاتهم واقطاعاتهم، بل زاد على ذلك أن، اعتقل بعضهم وجرّد البعض الآخر مما كان قد تبقى له من امتيازات، كما أضاف، إلى خصومه، بعض مشايخ الإقطاع الموارنة أمثال آل الخازن وآل حبيش بكسروان[٢٦].

وكانت القنصلية الفرنسية ببيروت تؤازر هؤلاء الاقطاعيين الدروز والموارنة وتدعمهم ضد الأمير، وما أن قويت الخصومة بين الطرفين وأحس معارضو الأمير أن لديهم القدرة على اعلان المطالبة بعزله عن الإمارة، حتى بدأوا يطالبون بإقالته مرشحين، خلفاً له، الأمير سلمان الشهابي، وكان هذا سنّياً، إلا أنه ميال إلى النصارى وقد ربى أولاده تربية مسيحية[٢٧]، ومع ذلك

فقد رفض البطريرك يوسف حبيش أن تؤول الامارة إليه، وأصر على أن يكون البديل أميراً مارونياً، فوقعت الفرقة من جديد بين الدروز والموارنة، وتفاقمت الخصومة بين الفريقين[٢٨]، واستعاد الدروز ذكريات تحالف الموارنة مع المصريين ضدهم في حوران ووادي التيم، وأبى الموارنة إلا أن يظلوا متمسكين «بحقهم» في الإمارة، ووقع الاصطدام الدموي بين الطائفتين بدير القمر في ١٣ تشرين الأول ١٨٤١ وقد نتج عن هذا الاصطدام فتنة طائفية انتهت بعزل الأمير بشير الثالث في ١٣ كانون الثاني ١٨٤٢[٢٩]، وهكذا أسقط النظام الأميري الإقطاعي ليحل محله، لأول مرة في هذه البلاد، نظام طائفي هو نظام القائمقاميتين.

أما الأمير بشير فقد غادر دير القمر بعد أن فك الدروز، بأمر من المشير العثماني، حصارهم الذي ضربوه حول مقره فيها[٣٠]، وسار إلى بيروت، حيث سيق منها إلى الآستانة ليقيم فيها لاجئاً سياسياً براتب مقداره ٤ آلاف قرش[٣١] سنوياً، إلا أنه عاد منها إلى بعبدا، بعد فترة حيث لقي مصرعه على يد الدروز (أو الجنود العثمانيين) عام ١٨٦٠، في أثناء الحرب الأهلية، وكان عمره يناهز الخامسة والثمانين[٣٢].



الأمير بشير الثالث

حواشي الفصل التاسع

(١) رستم، الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا، ج ٥ : ١٧٢ - ١٧٤، وثيقة رقم ٥٧٠، والخازن، مجموعة المحررات السياسية، مجلد ١ : ٢١ - ٢٢، وثيقة رقم ١٥، وقد وردت عند رستم «قبائل الدروز» بينما وردت عند الخازن «عشائر الدروز». ويذكر الخازن أن الانكليز استصدروا الفرمان من الباب العالي بتولية الأمير بشير الثالث بلا تاريخ، ولكنهم أذاعوه في العاشر من تشرين الأول ١٨٤٠ وأرّخوه في الثالث من أيلول من العام نفسه (الخازن، م. ن. مجلد ١ : ٢١ حاشية ١)، وقد تأخر الانكليز في اذاعته طوال هذه المدة أملاً منهم في إقناع الأمير بشير الثاني بالانحياز إلى صفوف الحلفاء وإبقائه أميراً إلا أنهم فشلوا في ذلك، مما اضطرهم إلى إذاعة الفرمان بتعيين بشير الثالث بدلاً منه.

(٢) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ٢ : ٢٠٧.

(٣) م. ن. قسم ٢ : ٢٠٨.

(٤) يذكر أبو شقرا أن الأمير بشيراً لقّب كذلك «لمعاطاته التجارة في هذا الصنف» (أبو شقرا، الحركات في لبنان، ص ٣٥)، أما رستم باز فيذكر أنه - أي الأمير - اكتسب هذا اللقب لأنه كان «يعطف على الفقراء ويوزّع عليهم الطحين» (باز، مذكراته، ص ٣٦ حاشية ١).

(٥) الحتوني، الخوري منصور، نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية، ص ٢٣٧.

(٦) Ismaïl, Histoire du Liban, T1. V pp. 107 - 108 -

(٧) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ٢ : ٢٠٦.

(٨) رستم، الأصول العربية، ج ٥ : ١٨٧ - ١٨٨، وثيقة رقم ٥٧٩.

(٩) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ٢ : ٢٠١.

(١٠) م. ن. قسم ٢ : ٢٠٤، وانظر رسالة محمود نامي بك إلى حسين باشا بتاريخ ١٤ رجب ١٢٥٦ هـ. (أيلول ١٨٤٠ م.)، رستم، المحفوظات، مجلد ٤: ٤٥١، وثيقة رقم ٦٥٢٠، والشدياق، أخبار الأعيان، ج ٢ : ٤٦٧. وقد مهدت الدول الثلاث لهذا الإنزال بأن قصفت البوارج الانكليزية والنمساوية بيروت بمدافعها طوال يومي ١٠ و١١ أيلول (١٨٤٠) بقصد إرغام حاميتها المصرية (الطابورين الثامن عشر والثلاثين) بقيادة اللواء سليمان باشا الفرنساوي رئيس أركان الجيش

المصري، على الانسحاب من المدينة (وثائق من محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية منشورة في: أوراق لبنانية، مجلد ٣ : ٤٢٨ – ٤٣١).

(١١) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ٢ : ٢٠٦.

(١٢) م. ن. ص. ن.

(١٣) - Ismaïl, Documents diplomatiques et consulaires, T5. pp. 446 - 446.

(١٤) رستم، المرجع السابق، قسم ٢ : ٢٠٧.

(١٥) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٧٠، والمقصود بالقول «طوعاً وجبراً» هو أن بعض الأسرى قد استسلم اختياراً، أما البعض الآخر فقد أسر كرهاً.

(١٦) باز، مذكرات رستم باز، ص ٣٦.

(١٧) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٧٠، وانظر لهذه الوقعة: أبو عز الدين، ابراهيم باشا في سورية، ص ٢٨٦.

(١٨) رستم، المرجع السابق، قسم ٢ : ٢٠٧.

(١٩) م. ن. قسم ٢ : ٢٠٩ – ٢١٠، وأبو عز الدين، المرجع السابق، ص ٢٨٨، والشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٦٩ – ٤٧١، إلا أن الشدياق، وأبو عز الدين، لم يأتيا على ذكر واقعة مرض الأمير التي ذكرها رستم. وانظر ما كتبه ريمون كزافيه R. Xavier عن هذه الوقعة في جريدة Les Débats الفرنسية، (Guys, Relation, T2. p. 281).

(٢٠) رستم، المرجع السابق، قسم ٢ : ٢٠٩، وأبو عز الدين، المرجع السابق، ص ٢٩١.

(٢١) رستم، م. ن. قسم ٢ : ٢١١ والشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٧٢.

(٢٢) رستم، م. ن. قسم ٢ : ٢٢٠، ويذكر رستم أن ابراهيم باشا كان قد جعل من زحلة قاعدة حربية له منذ هزيمته في بحرصاف، فجمع جنده فيها وانتظر الأوامر من والده الذي أبلغه، في منتصف تشرين الثاني ١٨٤٠، أمراً سرياً بوجوب الانسحاب نهائياً من بلاد الشام، فجمع ابراهيم باشا جيشه وسار به إلى دمشق (م. ن. قسم ٢ : ٢١٨) ومنها تابع انسحابه بعد ذلك نحو غزة على الحدود الفلسطينية – المصرية.

(٢٣) يذكر رستم أن رجال الأمير هم الذين دخلوا دمشق أولاً وفور انسحاب المصريين منها، ثم أعلنوا حكم السلطان فيها، وعيّن محمد عزت باشا أحمد آغا اليوسف متسلماً عليها (م. ن. قسم ٢ : ٢٢٠).

(٢٤) م. ن. قسم ٢ : ٢٢١.

(٢٥) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٧٤، ويذكر رستم أن محمد علي باشا كان قد منح كلاً من الشيخ نعمان جنبلاط والشيخ ناصيف النكدي والشيخين خطار وعبد السلام العماد رتبة «الميرالية»، وعينهم بمراكز هامة في الإمارة، ثم منحهم أوسمة وأرسلهم إلى ابنه ابراهيم، إلا أنهم وصلوا بعد مغادرة هذا الأخير بلاد الشام وتسلّم الأمير بشير الثالث حكم الإمارة، فاستهان الأمير الجديد برتبهم وألقابهم ونياشينهم (رستم، المرجع السابق، قسم ٢ : ٢١٥ و٢٢٢).

(٢٦) الصليبي، كمال، تاريخ لبنان الحديث ص ٧٦ – ٧٨.

(٢٧) م. ن. ص ٧٨. ويذكر الصليبي كذلك أن القنصل الفرنسي اقترح الأمير الماروني حيدر أبي اللمع، إلا أن البطريرك نفسه رفض ذلك أيضاً رغم أن الأمير حيدر كان صديقاً له، وذلك لأنه - أي البطريرك - لا يريد أميراً لمعياً في الحكم بدلاً من الشهابيين (م. ن. ص ٧٨ – ٧٩).

(٢٨) هنالك أسباب عديدة أخرى للخلاف لا مجال لذكرها في هذا البحث، أنظر: أبو صالح، عباس ومكارم، سامي، تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربي، ص ٢٤٢ – ٢٥٢، وانظر:
- Ismaïl, Histoire du Liban, T IV, pp. 123 - 166.

(٢٩) ذكر بوريه، قنصل فرنسا ببيروت، في رسالة منه إلى غيزو، وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ ١٨ كانون الثاني ١٨٤٢، انه، بتاريخ ١٣ منه، «سحب سليم باشا من الأمير - بشير - النيشان الذي أرسله إليه الباب العالي وأمره بأن يذهب إلى السراي حيث يظل إلى أن يصل زورق بخاري يحمله إلى الآستانة، وسيذهب الأمير هذا اليوم». (Ismaïl, Documents, T7, p. 86) -

(٣٠) الحتوني، المصدر السابق، ص ٢٤٠.

(٣١) باز، رستم، مذكراته، ص ١٠٦. ويذكر باز كذلك أن الدروز لاقوا الأمير بشيراً عند خروجه من دير القمر، بمرج القطن، فأنزلوه عن فرسه، وانتزعوا الأوسمة من عنقه، وخلعوا عنه ملابسه ولم يبقوا له على جسمه إلا «قميص وشنتيان زغير وعرقيه»، وقد نخزه أحدهم ببندقية في دبره قائلاً له: إلى الطاحون إذهب. (م. ن. ص. ن.).

(٣٢) الصليبي، المرجع السابق، ص ١٢٨، ويذكر الصليبي أنه، في أثناء هجوم الدروز وجنود الباش بوزق العثمانيين على بعبدا سقط عدد من القتلى، ومن بينهم الأمير بشير الثالث، وكان كفيف البصر في الخامسة والثمانين من عمره، كما يذكر، نقلاً عن جريدة «التايمز» اللندنية، في ٢٧ تموز (١٨٦٠) انه هوجم «فيما كان خدمه ينقلونه من بيته، ففرّ الخدم تاركينه وحده، عندئذ ذبحه المهاجمون وقطعوا جسده بالسيوف» (م. ن. ص. ن.).

الباب الثالث

المقاطعات اللبنانية الأخرى

الفصل الأول

مقاطعة جبل عامل

انتهى حكم المعنيين لإمارة الشوف عام ١٦٩٧ وخلفهم الشهابيون في حكم هذه الإمارة، ورغم تبدل الحكام، فإن الخط السياسي العام الذي اتبعه زعماء جبل عامل تجاه الحكم الشهابي لم يتبدل عما كان عليه تجاه الحكم المعني، إذ انه، كما في عهد الأمراء المعنيين الذين خلفوا فخر الدين المعني الثاني، لم يكن للأمراء الشهابيين، في جبل عامل، حكم ثابت مستقر، ورغم ان كلاً من هؤلاء الأمراء كان يطمع إلى أن يتولى حكم هذا الجبل، بضمان من والي صيدا (او عكا)، فغالباً ما كانت مهمتهم تنحصر في معاونة هؤلاء الولاة في جباية الضرائب والأموال المترتبة على العامليين، إذا تمتّع هؤلاء عن دفعها، وهكذا نرى بشيراً الأول، بعد عام واحد من توليه الحكم، أي عام ١٦٩٨، يلبي دعوة ارسلان باشا المطرجي، والي صيدا، ويزحف إلى جبل عامل بجيش قوامه ٨ الاف مقاتل، ليخضع أحد زعمائه الشيخ مشرف بن علي الصغير الذي خرج على الوالي، وقتل بعض أعوانه، واعتصم في قريته (المزيرعة، أو المزرعة، أو مزرعة مشرف) فيقاتله الأمير فيها، وينتصر عليه، ويقتل عدداً كبيراً من جماعته، ثم يقبض عليه وعلى أخيه محمد بن علي الصغير، ويسوقهما إلى الوالي الذي يسجنهما[1]، وتطلق يد الأمير، مقابل ذلك، في صفد وأقاليم جبل عامل (بلاد بشارة والشقيف واقليمي الشومر والتفاح).

وتسلم الأمير حيدر حكم الإمارة الشهابية عام ١٧٠٦، فكان أول عمل قام به هو محاولة السيطرة على جبل عامل، وكان بشير باشا، الذي أصبح والياً على صيدا، قد أعاد الشيخ مشرفاً إلى حكم اقطاعته في بلاد بشارة (بعد أن كان ارسلان باشا قد أطلق سراحه)، والتمس الأمير حيدر من بشير باشا حكم جبل عامل بعد أن أغراه بالمال، فاقطعه إياه، وفي عام ١٧٠٨، زحف الأمير حيدر على جبل عامل بجيش قدّره بعض المؤرخين بـ١٢ ألف مقاتل[٢]، وكان آل الصغير، مع حلفائهم من آل منكر حكام اقليمي الشومر والتفاح، وآل صعب حكام الشقيف، قد اعتصموا في بلدة «النبطية» فهاجمها الأمير حيدر، ودارت بين الفريقين معركة انتهت بانتصار الأمير الشهابي واحتلاله للبلاد، حيث نصّب عليها متسلماً من قبله هو الشيخ محمود أبو هرموش، بينما تشتّت آل الصغير وحلفاؤهم، تاركين حكم الجبل للأمير الشهابي[٣].

ولم تكن الحال بين الشهابيين والعامليين في عهد الأمير ملحم (١٧٣٢ - ١٧٥٤) بأفضل مما كانت عليه في عهد من سبقه من حكام هذه الإمارة، إذ استهل الأمير ملحم المذكور حكمه بإظهار طموحه للتوسع نحو جبل عامل، ففي عام ١٧٣٤، طلب من سعد الدين باشا العظم والي صيدا، أن يقطعه بلاد بشارة، وكان زعماؤها، من آل الصغير، قد خرجوا عن طاعة الوالي وامتنعوا عن اداء الأموال الأميرية إليه، فاقطعه إياها، وقام الأمير ملحم بحملة على هذه البلاد، حيث نازل زعماءها في بلدة «يارون» عام ١٧٣٤ فهزمهم، وفرّ آل الصغير إلى القنيطرة[٤].

وفي عام ١٧٤٣ خرج المناكرة والصعبية على الوالي سليمان باشا العظم، والي صيدا، فأرسل الأمير ملحماً الشهابي لتأديبهم، ودارت بين الفريقين معركة ضارية في جوار قرية «أنصار» انتهت بهزيمة العامليين ولجوئهم إلى

داخل القرية، حيث أقدم الأمير ملحم على اقتحامها وإحراقها، ثم عاد بعسكره إلى دير القمر، وقد خسر العامليون في هذه المعركة نحو ألف وستماية قتيل، كما قبض الأمير على أربعة من مشايخهم[٥]، ويذكر «دي لان De Lane» قنصل فرنسا بصيدا، في رسالة منه إلى وزير الدولة الفرنسي «الكونت دي موريباس Comte De Maurépas» بتاريخ ٢٠ آب من العام نفسه (١٧٤٣)، هذه الوقعة بقوله: «إن الصدر الأعظم حانق جداً بسبب رفض مشايخ المتاولة دفع الضريبة، وبعض المتوجبات الأخرى لحكامهم ومنهم سليمان باشا، والي صيدا - لذا، فقد أمره، كما أمر أمير الدروز، الأمير ملحم الشهابي - بمحاصرة قلاعهم وتصفية سكان تلك البلاد جميعاً بحد السيف، وهكذا فقد دخل الأمير، عند تلقيه هذا الأمر، بلاد المتاولة، بجيش مقداره خمسة عشر ألف رجل، حيث نشر النار والدماء في كل مكان حلّ فيه»[٦].

وفي عام ١٧٤٩ اعتدى المناكرة على اقليم جزين، وكان داخلاً في حكم الجنبلاطيين حلفاء الشهابيين، فقتلوا اثنين من أتباع الشيخ علي جنبلاط حليف الأمير ملحم، فحشد الأمير جيشاً وسار لقتالهم حيث لقيهم في قرية «جباع الحلاوة» فقاتلهم وقتل منهم نحو ثلاثماية رجل[٧].

مرت ولاية الأميرين منصور وأحمد الشهابيين (١٧٥٤ - ١٧٦٣) ثم ولاية الأمير منصور منفرداً (١٧٦٣ - ١٧٧١)، على الإمارة الشهابية، دون حوادث ذات أهمية بين العامليين والشهابيين، وذلك لأن الأمراء الشهابيين كانوا منشغلين، في هذه الفترة، بالخصومات والصراعات الداخلية فيما بينهم، مما قيض للعامليين نوعاً من الاستقلال الذاتي والتصرف الحر، إلا أن ذلك لم يمنعهم من التحسب واليقظة، خصوصاً أنهم قد لقوا، خلال انتفاضاتهم المتعددة على الحكم العثماني، وبالتالي على الحكمين المعني

والشهابي، من الشدة والقسوة ما جعلهم لا يطمئنون إلا لحكم زعمائهم، وكان عليهم، في الوقت نفسه، أن يزيدوا من قواهم الذاتية من جهة، وان يبحثوا، من جهة أخرى، عن تحالفات عسكرية تتيح لهم الصمود والمنعة. وفي هذه الأثناء، قام، في العامليين، زعيم وحّد صفوفهم وجمع كلمتهم، هو الشيخ ناصيف النصار، من آل الصغير، الذي وصفه «شفالييه دي توليس Chevalier De Taulès» قنصل فرنسا بصيدا، في رسالة منه إلى «الدوق ديغويون Duc D'aiguillon» بتاريخ ٢٨ حزيران ١٧٧٢ بأنه «الشيخ الكبير الذي اشتهر في كل سوريا بشجاعته»[٨]. كما قام، في ديار عكا وصفد، حاكم طموح وقدير ومتحفز هو الشيخ ضاهر بن عمر بن أبي زيدان، الذي اشتهر بضاهر العمر، وقد تسلم تلك الديار من والي صيدا، بشير باشا، في أول عهده بالولاية عام ١٧٥٦، وأخذ يرقب، بعين حذرة ويقظة، ما يجري في شمال بلاده، وجنوبها، ففي مصر حاكم يحلم بالتوسّع شمالاً، نحو بلاد الشام، ويطمح للتعاون مع حاكم قدير في فلسطين يسهل له دخول تلك البلاد، وحاكم مصر هذا هو علي بك الكبير وقائده محمد بك أبو الذهب، وفي جبل عامل مشايخ عانوا الكثير من الظلم العثماني المتحالف مع أمراء آل معن ومن بعدهم آل شهاب، فأضحوا تواقين للتحالف مع قوة تساندهم وتعزّز قوتهم وتشد أزرهم، وهكذا التقى، في ساحة فلسطين، وعلى امتدادها، شمالاً حتى صيدا، وجنوباً حتى مصر، ثلاث قوى تتكامل إن هي تحالفت، هي قوّة المصريين والصفديين والعامليين، وقد بلغ هذا التحالف أوجه في أول معركة خاضها ضد العثمانيين وحلفائهم الشهابيين في صيدا عام ١٧٧١[٩]، مما حدا بدراغون Dragon النائب التجاري الفرنسي بصيدا، إلى تسميته «باتحاد كونفدرالي Confédération» بين مصر والشيخ ضاهر العمر والمتاولة، ضد

السلطان وولاته وحكامه، وذلك في رسالة بعث بها إلى الدوق ديغويون وزير الدولة الفرنسية، بتاريخ ٢ أيار ١٧٧١[١٠].

إلا أن التحالف بين العامليين والشيخ ضاهر العمر لم يكن سهلاً في بدايته، فقد سبقه صراع مسلح بين شيخ مشايخ العامليين ناصيف النصار والشيخ ضاهر، حيث تقاتلا في عدة معارك أهمها «معركة تربيخا» التي جرت عام ١٧٥٠، فقد كان الشيخ ناصيف، في هذه الفترة، في مقره بتبنين، وقد حصّن قلعتها وأشاد فيها أبراجاً منيعة، وشحنها بالرجال والسلاح، وبسط، منها، سلطانه، على كل أنحاء جبل عامل، وكان جاراً حدودياً للشيخ ضاهر الذي رغب في «التحرش» بالزعيم العاملي فطالبه ببلدتي «مارون الراس» و«البصة» باعتبارهما من بلاد فلسطين، فردّ الزعيم العاملي رسول الشيخ ضاهر خائباً مما دفع الشيخ ضاهر لاحتلالهما، فثارت الحرب بين الزعيمين، وكانت وقعة «الدولاب» أو «تربيخا» التي هزم فيها الشيخ ضاهر ووقع أسيراً بين يدي الشيخ ناصيف الذي «انقض عليه» و«مكّن الرمح من صدره، ثم عفا عنه واكتفى بسلبه فرسه»[١١]، وقد قتل من رجال الشيخ ضاهر في هذه الوقعة نحو ١٥٠ خيّالاً كما قتل من رجال الشيخ ناصيف نحو عشرين خيّالاً، وغنم الشيخ ناصيف مئة فرس من خيل الشيخ ضاهر بعد أن قتل خيّالتها[١٢]. وانتهى الصراع المسلح بين الزعيمين بمعاهدة تحالف ودفاع انجزت بينهما في عكا عام ١٧٦٧، حيث «حلفا اليمين على السيف والمصحف أن يكونا وشعباهما متضامنين متصافيين ما دامت الأرض والسماء»[١٣]، وكان هذا التحالف قد تمّ بوساطة بين الطرفين قام بها الأمراء الشهابيون وحلفاؤهم المشايخ الجنبلاطيون، وكانوا، حينذاك، على علاقة حسنة بالفريقين. يحدثنا عن ذلك قنصل فرنسا بصيدا المسيو «كليرامبو Clairambault» في رسالة منه إلى وزير الدولة الفرنسية «الدوق دي

براسلان «Duc De Praslin» بتاريخ ٢٣ نيسان ١٧٦٧، جاء فيها: «الشيخ ناصيف النصار هو اليوم شيخ مشايخ المتاولة الذين يقيمون من صيدا حتى أرض عكا، وهو يحمي الشيخ عثمانَ ابن الشيخ ضاهر العمر الذي لجأ إليه - وكان الشيخ عثمان قد خرج عن طاعة أبيه فلجأ إلى الشيخ ناصيف - وبما ان الحرب في هذه البلاد تهدأ ثم تتجدد كل ثلاثة أشهر، فإنها تنتهي بخراب أحوال الفلاحين، وبإعطاء المبرر لمشايخهم لتأجيل دفع الضرائب والمستلزمات المالية للوالي. وقد وصل إلى هنا - أي إلى صيدا - الأمير اسماعيل - أمير وادي التيم - وثلاثة من مشايخ الدروز هم الشيخ علي جنبلاط والشيخ عبد السلام العماد والشيخ كليب النكدي، وهؤلاء يعاضدون الشيخ ناصيف، فعملوا على إحلال الوفاق بينه وبين الشيخ ضاهر العمر»[١٤].
ولا يغربن عن بالنا أن هذا الوفاق قد تمّ في عهد الأمير منصور الشهابي (١٧٦٣ - ١٧٧١) الذي كان كما قيل عنه «لين العريكة لا يخلو من جبانة قليلة»، فعمل على إحلال الوفاق محل الخصام بينه وبين العامليين طوال مدة ولايته، حتى أضحوا يوالونه حقاً.

وما أن تمّ الوفاق بين الشيخين ناصيف النصار وضاهر العمر حتى انقلب هذا الوفاق إلى تحالف وطيد، نظراً للعداوة التي كانا يكنانها للعثمانيين والشهابيين، وكانت أول تجربة ناجحة لهذا التحالف هي الوقعة التي جرت بين المتحالفين وبين عثمان باشا والي دمشق عند بحيرة الحولة في أيلول عام ١٧٧١، إذ انه، ما أن انتهت ولاية الأمير منصور، وخلفه في الحكم ابن أخيه الأمير يوسف (عام ١٧٧١) حتى انتفض العامليون مجدداً ضد حكم درويش باشا (والي صيدا وابن عثمان باشا الصادق والي دمشق)، فرفضوا دفع الأموال الأميرية، وطردوا عمال الوالي من ديارهم، فعزم عثمان باشا عندئذ على

مهاجمة جبل عامل وبلاد صفد، تعزيزاً لمركز ابنه والي صيدا، ومساعدة له، فسار لقتال العامليين والصفديين بجيش قدّره بعض المؤرخين بعشرة آلاف مقاتل مع ١٢ مدفعاً ميدانياً و٤ مدافع لدك الحصون[١٥]، ونهد العامليون والصفديون لقتاله بقيادة كل من الشيخ ناصيف والشيخ ضاهر، وساروا لملاقاته عند الحدود الجنوبية الشرقية لجبل عامل، وعسكر الشيخ ناصيف برجاله، وكانوا نحو خمسماية فارس، قرب مقام النبي يوشع، بينما عسكر عثمان باشا بجيشه عند بحيرة الحولة، واغتنم العامليون والصفديون ظلمة إحدى الليالي وتقدّموا نحو عدوهم فأحاطوا به من جميع الجهات وفاجأوه وهو غير متحسب لهجومهم، ثم أطبقوا عليه، ودارت بين الفريقين رحى معركة عنيفة انتهت بهزيمة الوالي وقتل عدد كبير من جيشه قدّره بعض المؤرخين تقديراً نرى فيه كثيراً من المبالغة، وهو ٨ آلاف رجل[١٦]، بينما قال آخرون إن هذا الجيش «قد فني عن آخره ومن سلم من القتل رمى نفسه في البحيرة فمات غرقاً»[١٧]، وقد غنم المهاجمون كثيراً من خيول المنهزمين وأسلحتهم وأمتعتهم وعتادهم، ولم يفقد الشيخ ناصيف سوى واحد من رجاله فقط[١٨]، بينما فرّ الوالي نحو دمشق طالباً النجاة لنفسه. ويذكر «دراغون» النائب التجاري الفرنسي بصيدا، أن درويش باشا والي صيدا قد فرّ من المدينة عندما علم بهزيمة والده عثمان باشا في هذه الوقعة، إلا أنه عاد إليها بعد ذلك بحماية من جند الأمير يوسف الشهابي[١٩].

ولا ريب في أن الذي دفع الأمير الشهابي لإعلان الحرب على العامليين بعد ذلك هو ما وصله من أنباء عن اجتياحهم لبلدة مرجعيون وقرى الحولة، وهي، في ذلك الحين، من أعمال خاله الأمير اسماعيل أمير حاصبيا، فجهّز الأمير يوسف، عند ذلك، لقتالهم، جيشاً قدّر بعشرين ألف رجل، من مشاة

وخيّالة، وأرسل إلى خاله الأمير اسماعيل ليلاقيه بمن عنده من المقاتلين[20]، ثم نهض من عاصمته دير القمر، باتجاه صيدا، حيث عسكر عند جسر الأولي، فبات ليلته هناك، وانطلق، في اليوم التالي، إلى بلدة «جباع الحلاوة» حيث تحشّد آل منكر وحلفاؤهم من آل الصغير وآل صعب، فلما عرف هؤلاء بضخامة الجيش الذي جاء به الأمير لقتالهم، تفرّقوا ورحلوا عن البلاد بلا قتال، بينما وصل الأمير إلى «جباع الحلاوة» فأحرقها، كما أحرق جميع قرى اقليم التفاح[21].

واتصل العامليون بحليفهم الشيخ ضاهر، يطلبون منه العون والنجدة، فكتب الشيخ ضاهر إلى الأمير اسماعيل أمير حاصبيا يتوسطه لكي ينصح ابن أخته الأمير يوسف بإحلال الصلح بينه وبين العامليين، وأرسل الأمير اسماعيل كتاب الشيخ ضاهر إلى الأمير يوسف، وطلب منه، باسمه الشخصي، أن يتوقف عن مطاردة العامليين وارهاقهم تجاوباً مع وساطة الشيخ ضاهر، ولكن الأمير يوسف رفض قبول الوساطة، كما انه لم ينتظر وصول خاله الأمير اسماعيل الذي طلب منه البقاء في مركزه دون قتال حتى وصوله، فانطلق بجيشه إلى كفر رمان فأحرقها، ثم إلى النبطية (تشرين الأول ١٧٧١) حيث كان العامليون قد استقروا بعد أن جمعوا فلول مقاتليهم فبلغت نحو أربعة آلاف مقاتل، وانضم إليهم حليفهم الشيخ ضاهر الذي أغاضه عدم قبول الأمير يوسف لوساطته، وعزم الجميع على ملاقاة المهاجمين، وما أن وصلت طلائع جيش الأمير يوسف إلى النبطية حتى بادرها العامليون ورجال الشيخ ضاهر بالقتال[22]، فدب الذعر في صفوف جيش الأمير يوسف وولى جنده منهزمين وقد تركوا خلفهم، حسب بعض المؤرخين، نحو ألف وخمسماية قتيل، ولم ينقذ الأمير يوسف وجيشه إلا وصول خاله الأمير اسماعيل بجيشه، ولكن الأمير يوسف ظل يتقهقر

بجيشه حتى دخل إمارته، وخاف درويش باشا والي صيدا من لقاء العامليين وحلفائهم ففرّ من المدينة[23].

وقاد الشيخ ضاهر الهجوم باتجاه الشمال، وكان ذلك طموحاً قديماً لديه، فاحتل صيدا حيث مكث فيها مدة، ثم عيّن عليها متسلماً من قبله هو أحمد آغا الدنكزلي، وغادرها إلى فلسطين. وحكم العامليون صيدا في هذه الفترة، وأقاموا فيها يتحرشون بإمارة الأمير يوسف، واستقرت العداوة بين الأمير يوسف والولاة العثمانيين من جهة، والشيخ ضاهر وحلفائه العامليين من جهة أخرى، ولم يكن ممكناً أن تسمح السلطنة للشيخ ضاهر وحلفائه بهذا الانتصار، فأرسل عثمان باشا والي دمشق يطلب من الأمير يوسف تجهيز جيش لمقاتلتهم، وكتب إلى الدالي خليل (أو خليل باشا) والي القدس، ومعه الجزار، أن يرافقه في هذه الحملة، وأمدّهم بكل ما يلزمهم من معدات القتال، فتجمع للأمير يوسف نحو عشرين ألف مقاتل ضربوا حصاراً حول صيدا مدة أسبوع كامل كاد الدنكزلي في نهايته أن يستسلم ويسلم المدينة للمحاصِرين لولا أن الشيخ ضاهراً أوفد سفناً مسكوبية حربية، استأجرها لهذا الغرض، فأطلقت مدافعها على الجيش المحاصِر، مما اضطره إلى فك الحصار عن المدينة[24].

ورغم ذلك، فقد حاول الشيخ ضاهر أن يتحاشى استئناف القتال، فأرسل إلى الأمير يوسف يطلب منه أن يرجع بعسكره إلى جسر الأولي شمال صيدا، إلا أن الأمير أبى ذلك، فزحف الشيخ ضاهر وحلفاؤه (المصريون هذه المرة) والعامليون، تجاه صيدا، والتقى الجيشان في سهل «الغازية» جنوب شرقي صيدا (١٢ حزيران ١٧٧٢)، حيث جرت بينهما معركة انتهت بهزيمة الأمير يوسف وحليفه الدالي خليل ومن معهما، وطارد الشيخ ضاهر وحلفاؤه

فلول جيش الأمير يوسف حتى حدود إمارته، بينما فرّ الدالي خليل بمن معه إلى دمشق[٢٥].

ولم يكتفِ الشيخ ضاهر بذلك، بل أرسل السفن المسكوبية لحصار مدينة بيروت بحراً - وكانت محمية شهابية - فدمرت، بمدافعها، بعض أبراج المدينة، ثم نزل جند هذه السفن إلى المدينة فنهبوها وعادوا إلى سفنهم، وظل حصار السفن المسكوبية لبيروت قائماً إلى أن دفع أمراؤها مبلغاً من المال قبضه قائد الأسطول وعاد قافلا إلى عكا. واستمر التحالف بين العامليين، بزعامة الشيخ ناصيف النصار، وبين المصريين بزعامة علي بك الكبير، والصفديين بزعامة ضاهر العمر، قوياً ومتيناً حتى عام ١٧٧٤. حين وقع الخلاف بين حاكم مصر الجديد محمد بك أبو الذهب (الذي خلف علي بك الكبير في الحكم إثر انقلاب قام به ضد سيده) وبين الشيخ ضاهر، فأعلن أبو الذهب الحرب على الشيخ ضاهر، وهاجم بلاده بستين ألف مقاتل، مما اضطر الشيخ ضاهراً إلى الفرار، بينما احتل أبو الذهب عكا وصفد وصور وصيدا، إلا أنه لم يستمر في حكم هذه البلاد سوى أيام معدودات، إذ توفي فجأة، فانسحبت الجيوش المصرية إثر وفاته، وعاد الشيخ ضاهر إلى عكا، ولكنه اغتيل عام ١٧٧٥ على يد أحد رجاله من أتباع الدنكزلي، وتسلم أحمد باشا الجزار ولاية عكا، فكان اخضاع جبل عامل وادخاله في سلطته أول اهتماماته، وزحف إليه عام ١٧٨١ بجيش قدّره «ارازي Arazy» قنصل فرنسا العام بصيدا، بما يراوح بين ثلاثة الاف وأربعة الاف خيّال، وذلك في رسالة منه إلى «الكونت دي فيرجين Comte De Vergennes» وزير الدولة الفرنسية، بتاريخ ٢ تشرين الأول ١٧٨١[٢٦]، فتصدّى له الشيخ ناصيف، مع حلفائه من مشايخ العامليين، بفرقة من الخيّالة قدّرها بعض المؤرخين بسبعماية خيّال فقط، ويذكر هؤلاء

المؤرخون أن سبب ذلك هو أن الشيخ ناصيف لم ينتظر وصول النجدات إليه، فهبّ لملاقاة جيش الجزار بمن كان معه من الجند في قلعة تبنين، وخاض، بخيله القليلة، معركة غير متكافئة، ضد جيش لجب[٢٧]، إلا أن «ارازي» أشار، في رسالته التي سبق ذكرها، إلى أن مشايخ جبل عامل قد اشتركوا في هذه المعركة إلى جانب الشيخ ناصيف وان شيخين، على الأقل، قد أسرا فيها[٢٨].

ودارت المعركة بين الفريقين في أيلول من العام نفسه ١٧٨١، قرب بلدة «يارون» وكانت معركة ضارية وغير متكافئة حقاً، وقد استبسل فيها العامليون، وخصوصاً قائدهم الشيخ ناصيف الذي ظل يقاتل بنفسه إلى أن سقط قتيلاً، وسقط معه ما يراوح بين ثلاثماية وأربعماية من رجاله، وهزم الباقون.

وما أن علم مشايخ جبل عام بموت قائدهم في وقعة يارون واقتحام جيش الجزار لبلادهم ممعناً فيها تدميراً وتخريباً وبأهليها تقتيلاً، حتى فرّوا من وجهه وتشتّتوا في أنحاء مختلفة من بلاد الشام، كما لجأ قسم كبير منهم إلى الحرفوشيين ببعلبك[٢٩].

ويتحدث «ارازي» في رسالته المذكورة عن هذه الوقعة فيقول: «إن موت الشيخ ناصيف ونحو ٣٠٠ أو ٤٠٠ من خيّالته، وفيهم عدد من الزعماء، وضع، بضربة واحدة، حداً لهذه الحرب - حرب الجزار مع العامليين - وذلك بتشتيت باقي المشايخ الذين وقع اثنان منهم في قبضة الباشا»[٣٠].

وبمقتل الشيخ ناصيف، خضع جبل عامل لحكم الجزار طوال ربع قرن من الزمن، وحتى وفاة هذا الأخير عام ١٨٠٤.

ومنذ أن تولّى الجزار حكم ولاية عكا (بما فيها جبل عامل وصيدا) لم يعد للشهابيين يد في هذه الولاية، وهكذا، فقد انقضت ولاية الأمير يوسف (١٧٨٩) والعقد الأول من ولاية الأمير بشير الثاني، حتى وفاة الجزار (١٨٠٤) دون أن

يكون لهؤلاء الأمراء في جبل عامل أي تأثير، ولكن العامليين الذين تعودوا التمرد والثورة على كل حكم أجنبي، وأنسوا في حياتهم شيئاً من الحرية والاستقلال الذاتي، لم يستكينوا لحكم الجزار الذي تميّز بالقوة والشدّة، فحكم البلاد بالحديد والنار، وقضى على قسم كبير من زعماء بني عاملة وشرّد القسم الآخر إلى عكا وحلب والأناضول، وهاجر العلماء والمثقفون إلى البلاد الاسلامية كالهند والعراق وايران وأفغانستان خوفاً من ظلم الجزار وبطشه، فأصبح تاريخ احتلال الجزار لجبل عامل نهاية فترة من الحكم الذاتي تمتع به الجبل طويلاً، ولكن البلاد عرفت، في عهد الجزار، عدداً من الانتفاضات كتلك التي قام بها الشيخ حمزة بن محمد النصار من آل الصغير والشيخ علي الزين صاحب شحور، اللذان شكلا فرقة من الثوار أخذت تهاجم المراكز الحكومية العائدة للجزار، فهاجمت تبنين وقتلت عاملها المعين من قبل الجزار واستولت على المال الموجود في خزانته[٣١]، إلا أن انتقام الجزار كان شديداً، إذ فاجأ المتمردين في بلدة شحور بفرقة من جنده، فقضى على زعيمهم الشيخ حمزة وفرّ الشيخ علي إلى ايران وتشتّت شمل المتمردين جميعاً.

يستدل من ذلك أن الانتفاضات في عهد الجزار لم تكن منظمة ولم يقيض لها زعيم كناصيف النصار يوجهها التوجيه الصحيح، فغالباً ما كانت خالية من أي توجيه ثوروي أو أية غاية سياسية محدّدة، كما كانت لا تتورع عن إيقاع الضرر بالأهالي أو برجال الجزار لا فرق، ويندّد الشيخ علي السبيتي بهذا الأمر، في مجموعته، فيقول: «كان دور العصابات والفدائيين... أتعس دور مرّ على جبل عامل، وقع فيها بين نارين: نار زبانية الجزار ونار رجال الثورة، فالزبانية التي كان يقذفها الطاغية تعيث في البلاد فساداً، وتضيّق الخناق على الأهلين المساكين، وتؤلف منهم فرقاً... لمطاردة العصابات فلا تظفر بهم،

والثوار يشنون الغارات للسلب والنهب وحرق القرى وتدمير البيوت متغلغلين في بطون الأودية بين الأحراج والغابات معتصمين برؤوس الجبال»[٣٢].

ولكن الكابوس الخانق الذي كانت شخصية الجزار المعروفة بالبطش والظلم والارهاب قد فرضته على أهل جبل عامل طوال مدة حياته، ارتفع بعد مماته عام ١٨٠٤، ورغم أن والياً جديداً عيّن على عكا هو سليمان باشا، إلا أن حرب العصابات في جبل عامل لم تتوقف، بل اتسعت وعمّت جميع أنحاء البلاد، وشملت سلطة الثوار عكا وصفد، فصاروا يفرضون الضرائب والرسوم ويعاقبون المتمردين على أوامرهم، وقد قيّض للعامليين، في هذه الفترة، زعيم قوي قادر وذو نفوذ، كأبيه، هو الشيخ فارس بن ناصيف النصار، الذي قاد الثورة ضد الوالي الجديد، وكان هذا «سلس القيادة ليّن العريكة» بعكس الجزار سلفه، فقرّر أن وسيلة التودّد واللين مع الثوار العامليين أجدى من البطش والارهاب، فتوسط لديهم الأمير بشيراً الثاني الشهابي، وكان هذا سياسياً قديراً ومحنكاً، استطاع، بدهائه وقدرته السياسية، أن يتوصّل مع الثوار إلى شروط للصلح تنهي الثورة، وقد وقّع على هذه الشروط، في بيت الدين، كل من جرجس باز مدبر الأمير ومعتمده، وحسن الشيت معتمد الشيخ فارس النصار، وهي تتلخص بما يلي:

١ - العفو عن جميع الثائرين.

٢ - إعادة اقليم الشومر إلى جبل عامل، وكان قد سلخ عنه بعد وقعة يارون عام ١٧٨١.

٣ - أن لا يكون لموضفي الدولة سلطة على الجبل، وأن يرجع أهله، في حل خلافاتهم، إلى عميدهم الشيخ فارس (النصار) الذي يمثلهم تجاه الحكومة، وبه تحصر الاتصالات، وعليه تعود المسؤولية[٣٣].

وقد وافق والي عكا سليمان باشا، وراغب أفندي، معتمد الباب العالي، على هذه الاتفاقية، فكانت موافقتهما اعترافاً صريحاً بنوع من الحكم الذاتي لجبل عامل، وهو الأمر الذي حرم منه هذا الجبل طوال مدة حكم الجزار، وقد اتخذ الشيخ فارس النصار بلدة (الزرارية) مقراً له، فبنى فيها داراً للرئاسة على نفقة الدولة.

وظلت هذه المعاهدة قائمة حتى ولاية عبدالله باشا الذي خلف سليمان باشا على عكا، وفي عام ١٨٢١، عقد عبدالله باشا، مع مشايخ جبل عامل، اتفاقاً جديداً أعاد إليهم، بموجبه، حكم بلادهم كما كان في السابق، وكان العامليون أوفياء للوالي المذكور، فخاضوا معه القتال ضد درويش باشا والي دمشق في معركتي المزة وجسر بنات يعقوب، وظل هذا الاتفاق قائماً بين عبدالله باشا وجبل عامل حتى عام ١٨٣٢، العام الذي احتل فيه ابراهيم باشا بلاد الشام، فدخل جبل عامل في الحكم المصري الذي ألحقه بالإمارة الشهابية، وكان قد تولاها الأمير بشير الثاني، فكان إلحاقه بهذه الإمارة أحد أهم أسباب اشتراك العامليين بالثورة التي قامت، فيما بعد، في بلاد الشام، ضد المصريين والشهابيين معاً، وذلك للنزاع البعيد الجذور الذي كان قائماً بين العامليين والشهابيين.

ثار العامليون على المصريين وحلفائهم الشهابيين، فكان ذلك أول مرة في تاريخهم يتحالفون فيها مع العثمانيين الذين طالما حارب العامليون ولاتهم وثاروا عليهم، وولّى الأمير بشير حفيده الأمير مجيداً (ابن الأمير قاسم) حكم جبل عامل فبطش هذا بالعامليين ونكل بهم وسجن رجالهم وحقّر علماءهم، واتخذ سياسة العنف والشدة سبيلاً لمعاملتهم بدلاً من اللين والمسايرة، فقاد ثورة العامليين عليه واحد من زعمائهم هو الشيخ حسين بن شبيب (بن فارس

الناصيف) وأخوه محمد علي[٣٤]، وقد استمر العامليون في ثورتهم هذه ضد الشهابيين وحلفائهم المصريين طوال ثلاث سنوات (١٨٣٦ - ١٨٣٩) كانوا، خلالها، يهاجمون مراكز الحكومة ويطردون عمالها، ولم يتمكن الأمير مجيد الشهابي من إخماد هذه الثورة، فأخذ ينكّل بأهالي الثوار وأقربائهم وذويهم، مما اضطر عدداً من وجهاء الجبل وزعمائه إلى التدخل لوضع حد لهذه الثورة، بشرط الحفاظ على كرامة زعيميها وحياتهما، إلا انهما أبيا ذلك وفضّلا مغادرة البلاد إلى حوران وضواحي دمشق، ولكن مرضاً ألمّ بأحدهما الشيخ حسين فظل في منزله بقرية «ياطر» حيث قبض عليه واقتيد إلى المشنقة مع واحد من أتباعه، أما أخوه محمد علي، فقد فرّ إلى خارج البلاد ولم يعد إليها طوال حياته.

ولكن لم تكن تلك نهاية الثورة ضد الحكم المصري والشهابي في جبل عامل، فقد حمل لواءها من جديد، وفي عام ١٨٤٠، واحد من أشهر زعماء آل الصغير بعد ناصيف النصار، هو حمد البك المحمود، الذي أعلن الثورة في وقت كانت الدول الكبرى قد اتفقت فيما بينها على انتزاع بلاد الشام من محمد علي وإعادتها إلى حكم السلطنة، وتحركت الجيوش العثمانية براً، تساندها أساطيل الدول الكبرى بحراً، لتنفيذ هذا الاتفاق، ووصلت طلائع الجيش العثماني إلى حلب، كما أبرّت الجيوش المتحالفة على طول الساحل الشامي كله، عندها انطلق حمد البك بثورته من جبل عامل، فقاتل الأمير مجيداً الشهابي، حليف المصريين، عند «جسر القعقعية»، وهزمه، ثم تابع تقدمه مع فرقته شمالاً حتى وصل بها إلى حمص، حيث اتصل بالجيش العثماني المرابط هناك، فانضم إليه واشترك معه في محاربة المصريين، مظهراً من البطولة ما أكسبه ثناء القائد العثماني عزت باشا واعجابه،

فعينه حاكماً لجبل عامل ومنحه لقب شيخ مشايخ بلاد بشارة، وعهد إليه بمطاردة الجيش المصري في الجنوب، فعاد حمد البك ليقاتل فلول هذا الجيش في رميش ووادي الجش وشفا عمرو واستولى على صفد وطبريا والناصرة[٣٥]، وما أن استقر الحكم العثماني في جبل عامل من جديد حتى ثبّت حمد البك في منصبه كحاكم عام لهذا الجبل[٣٦]، وظل كذلك حتى وفاته عام ١٨٥٢، حيث خلفه في الحكم رجل يدعى علي بك الأسعد الذي توفي عام ١٨٦٥، فكان آخر الحكام الإقطاعيين الذين تولوا حكم جبل عامل في هذه الفترة، إذ حكمت الدولة العثمانية، بعد هذا التاريخ، بلاد عاملة، حكماً مباشراً، فانتهت بذلك حياة جبل عامل السياسية، وزال الحكم الإقطاعي المحلي من البلاد.

أما عن التنظيم والتجنيد والتعبئة عند العامليين في هذه الفترة، فلم يكن ذلك مختلفاً عما كان عليه في الفترة السابقة، أي في العهد المعني، وقد سبق أن تحدثنا عن ذلك في الجزء الأول[٣٧]، وبالإضافة إلى ما سبق أن قدّمناه في هذا المجال، فقد قدّم لنا بعض القناصل الفرنسيين معلومات مهمةً ومفيدة عن الوضع العسكري للعامليين في ذلك الحين، إذ وصف قنصل فرنسا بصيدا، «شفالييه دي توليس Chevalier de Taulès» في رسالة منه إلى «الدوق ديغويون Duc D'Aiguillon» بتاريخ ٣٠ نيسان ١٧٧٢، المقاتل العاملي بأنه «لم يكن معتاداً أبداً على البقاء طويلاً في ساحة القتال، أو على خوض الحرب بعيداً عن موطنه»، وذلك في مجال الحديث عن حصار علي بك الكبير والشيخ ضاهر العمر ليافا في العام نفسه، إذ ترك معظم العامليين - كما يروي القنصل الفرنسي في الرسالة نفسها - ساحة القتال وعادوا إلى قراهم، ليشيعوا ان «يافا حصن لا يؤخذ»[٣٨].

ولكن ذلك لا ينفي ما قدّمه العامليون من معونة عسكرية للشيخ ضاهر العمر وحلفائه المصريين في أثناء تحالفهم معه، إذ يذكر هذا القنصل، في مذكرة بعث بها إلى حكومته بتاريخ أول أيار عام ١٧٧٢، انه، في أثناء مهاجمة الأمير يوسف الشهابي وحلفائه العثمانيين لصيدا، في العام نفسه، بقصد تخليصها من يدي ضاهر العمر وحليفه علي بك، كان العامليون على أهبة الاستعداد لأن يقدموا، لمساعدة حلفائهم الصفديين والمصريين، جيشاً يراوح عديده بين ٣ و٤ آلاف مقاتل[٣٩]، وقد بقي هذا الجيش في بقعة التجمع، على مقربة من ساحة القتال، بناء لأوامر الشيخ ضاهر نفسه.

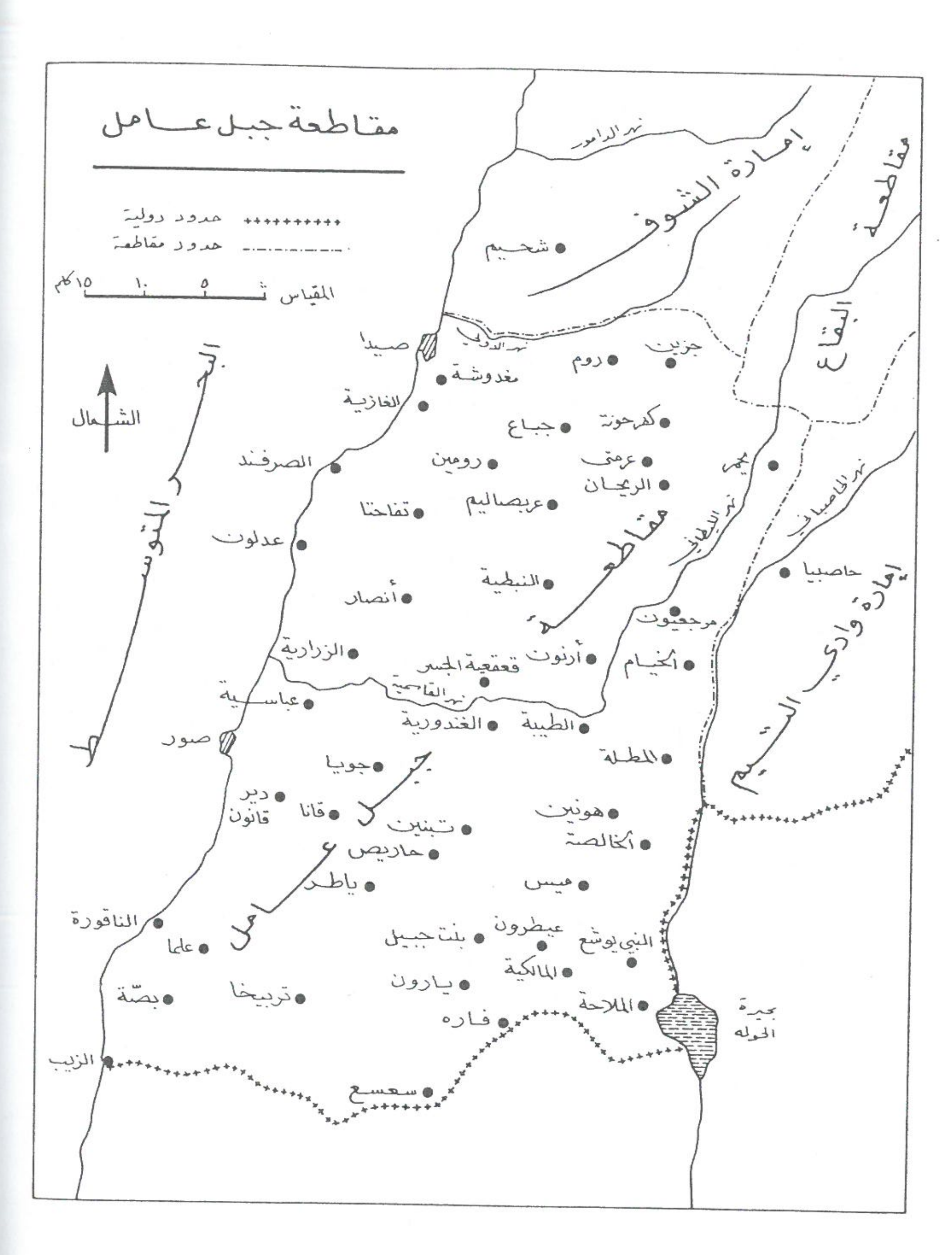
ويذكر القنصل الفرنسي «دي توليس» نفسه، في مذكرة رفعها إلى حكومته بتاريخ ٢ أيار ١٧٧٢، ان الشيخ ناصيف النصار، شيخ مشايخ جبل عامل، قد اشترك مع قواته، إلى جانب الشيخ ضاهر العمر، في حصار نابلس، في العام نفسه، دون أن يحدّد عدد القوات التي اشترك بها الشيخ العاملي في هذا الحصار[٤٠]، كما يقدم، في رسالة بعث بها إلى الدوق ديغويون بتاريخ ٢ حزيران ١٧٧٢، شهادةً جديدةً لصالح المقاتلين العامليين، منوهاً بشجاعتهم، فيقول: «يستطيع المتاولة أن يقدّموا بين ٥ و٦ آلاف مقاتل، وقد تلقوا الأوامر، في جميع قراهم، بأن يكونوا على أهبة الاستعداد للسير إلى قتال العدو. إنهم شجعان، وانتصاراتهم الأولى، بالإضافة إلى القيادة التي تعودوها منذ عام - وفي هذا إشارة واضحة للشيخ ناصيف - أعطتهم ثقة بالنفس هي، بالتالي، قيمة الشجاعة». إلا أنه يعود فيقول: «إنهم ليسوا سوى فلاحين مسلحين لا يستطيعون ترك أرضهم طويلاً»[٤١]، وفي ذلك تأكيد لما سبق أن أورده، في رسالة سابقة، بأنهم غير معتادين على القتال بعيداً عن مواطنهم.

وقد أيّد «دي توليس» في شهادته الجيدة عن المقاتلين العامليين، قنصل فرنسي آخر بصيدا هو «تايتبوت Taitbout»، وذلك عام ١٨٠٦، أي بعد مرور أكثر من ثلاثين عاماً على ما ذكره سلفه «دي توليس»، فقد وصف «تايتبوت» المقاتلين العامليين، في معرض إجابته عن بعض الأسئلة المتعلقة بأوضاع الطوائف في هذه البلاد، بأنهم «جنود جيدون»[٤٢].

أما عن عدد القوات التي كان يمكن لمشايخ جبل عام أن يعبئوها للقتال، فلم يصلنا عنه إلا القليل، إذ بينما يذكر الشاعر والرحالة الفرنسي «لامارتين» أن العامليين قدّموا لضاهر العمر، عام ١٧٦٠، نحو عشرة آلاف مقاتل[٤٣]، وانهم كانوا أحد أهم العوامل في انتصاراته، فاحتلوا، في ذلك الحين، صور، «وقاتلوا الدروز بشجاعة فأوقعوا بجيش الأمير يوسف الشهّابي - هزيمة كاملة، وكان هذا الجيش من ٢٥ ألف مقاتل، بينما كانوا - أي العامليون - خمسماية فقط»[٤٤]، وأن تخليهم عن الشيخ ضاهر العمر «كان سبباً لخسارته وموته»[٤٥]، نجد القنصل الفرنسي «دي توليس» يتحدث، في مذكرة بعث بها إلى حكومته بتاريخ ٢٧ حزيران ١٧٧٢، عن العامليين وجيشهم، فيقول: «يستطيع كل شيخ من مشايخ بني عاملة أن يعدّ، تحت السلاح، من ٢٥٠ إلى ٨٠٠ مقاتل، وهؤلاء المشايخ، مجتمعين، يمكن أن يعدّوا جيشاً من ٢٥٠٠ خيّال و٣٥٠٠ راجل»[٤٦] أي ما مجموعه ٦ آلاف مقاتل، وهو يختلف كثيراً عن الرقم الذي أعطاه «لامارتين»، إلا أنه يظل، في نظرنا، أقرب إلى الصواب، وهو أقصى ما كان باستطاعة العامليين أن يجمعوا في ذلك الحين، حتى انه، في العام ١٨٢١، وعندما قرّر عبدالله باشا، والي عكا، أن يعيد إلى المشايخ العامليين حكم بلادهم، بعد أن كان قد طردهم الجزار منها، طلب إليهم أن يضعوا، تحت السلاح، وبصورة دائمة «ألفين نفر خيل

وزلم عسكر مقيمين إلى أي وقت لزموا للوزير»[٤٧]، وقد وافق المشايخ العامليون على ذلك، وابتدأوا «في تدبير خيل وسلاح»[٤٨].

وقد حاول المؤرخان، آل صفا والشيخ أحمد رضا، تحديد الشخصية العسكرية العاملية في عهود الإقطاع، إلا أنهما وقعا، كثيراً من الأحيان، في المبالغة[٤٩]، ورغم ذلك، وبعيداً عن الأسلوب العاطفي والأدبي الذي تحدث به هذان المؤرخان عن تلك الشخصية، فإن ما يمكن استنتاجه، في هذا المجال، هو أن العاملي كان، في تلك الفترة من تاريخه، مقاتلاً بفطرته، إلا انه كان يفتقر دائماً إلى الفن العسكري المنظم، فظل، بسبب ذلك، يعتمد على شجاعته وبسالته أكثر من اعتماده على أسلوب قتالي تكتي محدّد، أللهم سوى أسلوب «الكر والفر» الذي كان سائداً في ذلك الحين، باستثناء ما كان يأتي «بداهة» و«دون أدنى حساب» باعتبار أن التكتيك العسكري هو «فن القتال، أو فن إدارة المعركة بشكل يضمن للقائد احراز النصر»[٥٠].



حواشي الفصل الأول

(١) أنظر الفصل الأول من الباب الأول: وقعة المزيرعة ١٦٩٨.

(٢) يزبك، أوراق لبنانية، الجزء السادس، السنة الثانية، حزيران ١٩٥٦ ص ٢٧٧، (رسالة من أحد مدبري الرهبنة اللبنانية المارونية إلى رئيسه العام في روما، أخذت عن مخطوطة بعنوان «سجل اللبودي» ص ٥٩ - ٦٠، في مكتبة الرهبان الحلبيين الموارنة بروما).

(٣) أنظر الفصل الأول من الباب الأول: وقعة النبطية ١٧٠٨.

(٤) أنظر الفصل الثاني من الباب الأول: وقعة يارون ١٧٣٤.

(٥) أنظر الفصل الثاني من الباب الأول: وقعة أنصار ١٧٤٣.

(٦) - Ismaïl, Doc. diplomatique et consulaires, T2. p. 7.

(٧) أنظر الفصل الثاني من الباب الأول: - الأمير ملحم وجبل عام: وقعة جباع الحلاوة ١٧٤٩.

(٨) - Ismaïl, Op. cit. T2. p. 240.

(٩) أنظر الفصل الرابع من الباب الأول: وقعة صيدا الأولى (تشرين الأول ١٧٧١).

(١٠) - Ismaïl, Op. cit. T2. p. 169.

(١١) ال صفا، تاريخ جبل عامل، ص ١١٨، وآل فقيه، جبل عامل في التاريخ، ج ٢ : ٩٤ - ٩٦. ويذكر آل فقيه، وكذلك آل صفا، ان الشيخ ناصيف أعاد للشيخ ضاهر فرسه، وكانت تسمى «البرصاء أو البريصة، تصغير برصاء» قائلاً: «لا حاجة لنا بالبريصة بعد أن رجعت لنا البصيصة» ويقصد قرية «البص» التي كان الشيخ ضاهر قد احتلها فاستعادها الشيخ ناصيف بعد هذه الوقعة. ويذكر آل فقيه، نقلاً عن الشيخ علي السبيتي، انه، أي الشيخ ناصيف قد «اركب» الشيخ ضاهر، على فرسه «بيده» (آل فقيه، المرجع السابق، ج ٢ : ٩٥).

(١٢) آل فقيه، م. ن. ج ٢ : ٩٥.

(١٣) آل صفا، المرجع السابق، ص ١٢١.

(١٤) - Ismaïl, Op. cit. T2. p. 151.

(١٥) آل صفا، المرجع السابق، ص ١٢٣.

(١٦) آل فقيه، المرجع السابق، ج ٢ : ١٠٧.

(١٧) آل صفا، المرجع السابق، ص ١٢٣.

(١٨) آل فقيه، المرجع السابق، ج ٢ : ١٠٦ – ١٠٨، وآل صفا، المرجع السابق، ص ١٢٢ – ١٢٤، وانظر، لذلك، رسالة المسيو دراغون، النائب التجاري الفرنسي لصيدا، إلى الدوق ديفويون وزير الدولة الفرنسية، بتاريخ ٩ تشرين الثاني ١٧٧١. - (Ismaïl, Op. cit. T2. p. 190)

(١٩) الرسالة نفسها أعلاه. - (Ibid, pp. 191 - 193)

وانظر، لذلك، آل فقيه، المرجع السابق، ج ٢ : ١٠٨.

(٢٠) يذكر دراغون في رسالته المشار إليها أعلاه، انه يتوقع أن يصبح جيش الأمير يوسف، بعد انضمام خاله الأمير اسماعيل إليه، نحو أربعين ألف مقاتل، معظمهم من المشاة. - (Ismaïl, Op. cit. T2. p. 193)

وفي ذلك، ولا شك، مبالغة واضحة بقوة الأمير.

(٢١) رسالة دراغون نفسها - (Ibid, p. 195)

(٢٢) أنظر الفصل الرابع من الباب الأول: وقعة كفر رمان – النبطية (٢٠ تشرين الأول ١٧٧١).

(٢٣) أنظر رسالة دراغون المشار إليها أعلاه. - (Ismaïl, Op. cit. pp. 195 - 196)

ويرى بعض المؤرخين ان رجال الشيخ علي جنبلاط الذين كانوا في عداد جيش الأمير يوسف لم ترقهم هذه الحرب، فانكفأوا، مما أدّى إلى تضعضع صفوف جيش الأمير ثم هزيمته. ويذكر «دراغون» في رسالته المشار إليها أعلاه، ان الشيخ علي جنبلاط، الذي كان قد بقي مع ثلة من رجاله في صيدا لحماية واليها، علم بالهزيمة التي مني بها جيش الأمير، فقرّر مغادرة المدينة في اليوم التالي للمعركة (٢١ تشرين الأول) مع رجاله، وبرفقته الوالي.

- (Ibid, p. 196).

(٢٤) أنظر الفصل الرابع من الباب الأول: وقعة صيدا الثانية أو وقعة سهل الغازية (١٢ حزيران ١٧٧٢).

(٢٥) أنظر وقعة سهل الغازية المشار إليها أعلاه.

(٢٦) - Ismaïl, Op. cit, T2. p. 385.

(٢٧) آل صفا، المرجع السابق، ص ١٣٧، وآل فقيه، المرجع السابق، ج ٢ : ١٥٥.

(٢٨) - Ismaïl, Op. cit, T2. p. 385.

(٢٩) رسالة ارازي نفسها. (Ibid) -

وانظر: آل صفا، المرجع السابق، ص ١٣٧، وآل فقيه، المرجع السابق، ج ٢ : ١٥٤ – ١٥٦، وكرامة، بطرس، مصادر تاريخية، ص ٦٨.

(٣٠) - Ismaïl, Op. cit. T2. p. 385.

(٣١) الزين، أحمد عارف، مجلة العرفان، مجلد ٤٣، سنة ١٩٥٦، ص ٥ نقلاً عن مخطوطة للمؤرخ العاملي الشيخ علي السبيتي.

(٣٢) آل صفا، المرجع السابق، ص ١٣٩.

(٣٣) آل صفا، م. ن. ص ١٤١.

(٣٤) أنظر الفصل السابع من الباب الثاني: - دور الأمير بشير في قمع حركات التمرد في عكار وبعلبك وحوران وعجلون وبلاد بشارة (١٨٣٩).

(٣٥) آل صفا، المرجع السابق، ص ١٥٠ – ١٥١.

(٣٦) م. ن. ص ١٥٦.

(٣٧) أنظر الجزء الأول، الإمارة المعنية، وقد شرحنا ذلك بالتفصيل ولا نرى ضرورة للعودة إليه في هذا الجزء.

(٣٨) - Ismaïl, Op. cit. T2. p. 205.

(٣٩) - Ibid, p. 210.

(٤٠) - Ibid, p. 212.

(٤١) - Ibid, p. 225.

(٤٢) - Ibid, T3. p. 52.

(٤٣) - Lamartine, Voyage en orient, VI p. 466.

(٤٤) - Ibid, pp. 466 - 467.

ولا شك في أن لامارتين يعني بهذه الهزيمة وقعة كفر رمان – النبطية (١٧٧١) وقد سبق ذكرها، ونرى أن هناك مبالغة واضحة في تقدير عديد جيش الأمير يوسف.

(٤٥) - Ibid.

(٤٦) - Ismaïl, Op. cit. T2 pp. 253 - 254.

(٤٧) الشهابي، تاريخه، طبعة الجامعة اللبنانية ببيروت، قسم ٣ : ٧١٠.

(٤٨) م. ن. ص. ن.

(٤٩) أنظر الجزء الأول، الإمارة المعنية.

(٥٠) هذا البحث عن جبل عامل هو جزء من محاضرة بعنوان «جبل عامل في عهد الإمارتين المعنية والشهابية ١٥١٦ - ١٨٤٢ ألقيت في المجلس الثقافي للبنان الجنوبي ببيروت عام ١٩٧٩، وقد ضم إلى الكتاب بعد أن أجريت عليه التعديلات الملائمة، فاقتضى التنويه.

الفصل الثاني

إمارة وادي التيم

عرّف الرحالة الفرنسي دي لاروك «De La Roque» (الذي زار هذه البلاد خلال عامي ١٦٨٨ - ١٦٨٩)، إمارة وادي التيم، بأنها «من أعمال دمشق، وهي الحد الشرقي لبلاد الدروز»[١]، يضاف إلى ذلك أن هذه الإمارة قسمت، في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني، إلى إمارتين هما: وادي التيم الأعلى وقاعدته راشيا، ووادي التيم الأسفل وقاعدته حاصبيا، وتولّى أمراء شهابيون كلاً من هاتين الإمارتين[٢]، وقد حافظ وادي التيم على هذا التقسيم، وظل الشهابيون يتوارثون حكم الإمارتين المذكورتين في حاصبيا وراشيا، حتى آخر عهد الشهابيين بإمارة الشوف.

إلا أن علاقة شهابيي وادي التيم بأنسبائهم الشهابيين في إمارة الشوف كانت تراوح بين التحالف والتخاصم، وفقاً للظروف، وغالباً ما حرص شهابيو وادي التيم على إقامة علاقات تحالف مع شهابيي الشوف، دون أن يتّحدوا بهم في أي حال.

ومهما يكن من أمر، فقد كانت تحكم علاقة حاصبيا وراشيا بأمراء دير القمر ثم بيت الدين ما كان يقوم بين إمارتي وادي التيم من علاقات ودّ أو عداء، فكان إذا ما تخاصم أميرا حاصبيا وراشيا، وغالباً ما كانا يتخاصمان، بل ويتحاربان، سرعان ما يتحالف أحدهما مع أنسبائه أمراء الشوف، بينما يتحالف الآخر مع خصومهم.

وقد أدّى هذا الانقسام في إمارة وادي التيم إلى ضعف في القوة العسكرية للإمارة بمجموعها، ثم إلى ضعف في القوة العسكرية لكل من إمارتي حاصبيا وراشيا، بالنسبة إلى ما يحيط بهما من مقاطعات مثل البقاع وجبل عامل وإمارة الشوف، وهذا ما جعل كلاً منهما تنزع دوماً للتطلع إلى حليف قوي تستنصره وتستند إليه.

١ - إمارة حاصبيا:

توفي الأمير موسى أمير حاصبيا ووالد الأمير حيدر (جد الشهابيين حكام إمارة الشوف) عام ١٦٩٣، فخلفه في الإمارة الأمير نجم الشهابي الذي تعهّد بأن يقوم بتربية ابن سلفه الأمير موسى أي الأمير حيدر، وكان من حسن طالع هذا الأخير أن اختارته السلطنة ليكون أميراً على الشوف خلفاً لجده لأمه الأمير أحمد المعني، المتوفي عام ١٦٩٧، على أن يقوم نسيبه الأمير بشير، أمير راشيا، بشؤون الوصاية على هذه الإمارة، ريثما يبلغ الأمير حيدر سن الرشد، كما مرّ معنا[٣].

وتآمر الأميران نجم وحيدر على الأمير بشير الذي كان في ضيافة أمير حاصبيا، فسقياه السم لكي يموت إثر ذلك في صفد، ويتسلم الأمير حيدر إمارة الشوف عام ١٧٠٦، وكان هذا التآمر سبيلاً لتحالف وطيد بين أميري حاصبيا والشوف طوال مدة ولايتهما، كما كان سبيلاً لخصومة قوية نشأت بين الأمير سيد أحمد أمير راشيا، والأمير نجم أمير حاصبيا، وكان الأمير سيد أحمد قد تولّى راشيا خلفاً لوالده الأمير منصور الذي كان قد تسلم الإمارة من عمه الأمير بشير إثر تسلم هذا الأخير لإمارة الشوف عام ١٦٩٨.

وكان الأمير منصور، ابن أخي الأمير بشير الأول، وخلفه في إمارة راشيا، قد توفي عن ولدين هما: سيد أحمد، وأحمد، وقد تسلم سيد أحمد امارة راشيا خلفاً لوالده، ودبت الضغينة بين الأميرين: نجم أمير حاصبيا، وسيد أحمد أمير راشيا، بسبب اقدام الأمير نجم ونسيبه الأمير حيدر على قتل الأمير بشير، ثم بين الأميرين حيدر ونجم من جهة، والأمير سيد أحمد من جهة أخرى، وتآمر أميرا الشوف وحاصبيا على اغتيال أميري راشيا سيد أحمد وأخيه، واتفقا على أن يدعو الأمير نجم الأمير سيد أحمد إلى حاصبيا ويغتاله فيها، بينما يدعو الأمير حيدر الأمير أحمد إلى دير القمر ويغتاله بدوره فيها، وبينما هلك الأمير أحمد على يد أمير الشوف بدير القمر، استطاع أخوه الأمير سيد أحمد أن يكتشف مؤامرة أمير حاصبيا عليه ويفلت من يديه ويعود سالماً إلى راشيا[٤].

وكانت اقطاعتا مرجعيون والحولة[٥] في عهدة أمير حاصبيا الذي كان يلتزمهما باستمرار، فتغنيه اقطاعة مرجعيون بمحصولها الوفير، وتحميه إقطاعة الحولة بقلعتها الشهيرة «بانياس». وهاجم مشايخ جبل عامل اقطاعة مرجعيون عام ١٧٤٤، فجرى قتال بينهم وبين أمير حاصبيا، الأمير نجم، وحليفه الأمير ملحم أمير الشوف (وكان قد خلف والده الأمير حيدر في الإمارة) فانهزم رجال الأمير ملحم والأمير نجم بعد أن خسروا نحو ثلاثماية رجل، وأحرق رجال جبل عامل جميع قرى مرجعيون[٦].

وقد ظل الأمير نجم أميراً على حاصبيا حتى عام ١٧٦٠ حيث توفي عن عمر يناهز الثمانين عاماً، وعن ثلاثة أولاد هم: سليمان واسماعيل وبشير، فخلفه في الإمارة ابنه الأكبر سليمان، إلا أن خلافاً دبّ بين الأمير الجديد وأخويه، فاسترضاهما بأن أقطعهما «الحولة» فاستوطناها، وسكنا قلعة «بانياس» بعد أن رمماها وجددا ما تهدم من بنائها، وأخذا يعملان على توطيد

حكميهما في تلك الإقطاعة مما جعل أخاهما الأمير سليمان يرتاب في نواياهما ويعقد العزم على طردهما من تلك الإقطاعة، فهاجمهما في بانياس وحاصرهما في قلعتها حتى خرجا منها، فاستولى عليها وهدم ما كانا قد جدداه فيها[٧].

وجرت، في العام نفسه (١٧٦٠) المصالحة بين الإخوة الثلاثة على يد الأمير قاسم الشهابي الذي كان مقيماً في بشامون، فعاد الأمير اسماعيل إلى حاصبيا بعد أن كان سبقه إليها أخوه الأمير بشير، ولم تمضِ فترة وجيزة من العام نفسه، حتى تآمر الاخوان اسماعيل وبشير على أخيهما سليمان فقتلاه، وتولى اسماعيل الإمارة بدلاً منه، ثم اقطع أخاه بشيراً بعض المزارع والقرى وضمه إليه[٨].

واستقل الأمير اسماعيل بإمارة حاصبيا، والتفت إلى إقطاعة الحولة فرمّم قلعة بانياس وأعاد بناء ما سبق أن هدّمه أخوه منها، ثم سكن فيها، فهاجمه عثمان باشا الصادق الكرجي والي دمشق عام ١٧٦٤، وانتزع القلعة منه بعد أن قبض عليه ولم يفرج عنه إلا بعد أن أخذ منه مالاً، ثم هدم القلعة ونهب محتوياتها، أما هو (الأمير اسماعيل) فقد عاد إلى حاصبيا ليستقر فيها. وفي حاصبيا قويت شوكة الأمير اسماعيل وكبر اسمه وكثر ماله من خلال حكمه لإقطاعة مرجعيون الغنية الخصبة من جهة، ومن خلال تحالفه مع الشيخ ضاهر العمر والعامليين من جهة أخرى، إلا أنه سرعان ما فصم هذا التحالف بسبب الاعتداءات المتكرّرة التي كان العامليون يقومون بها على إقطاعة مرجعيون طمعاً بها من جهة وكرهاً للأمير يوسف، أمير الشوف، وابن أخت الأمير اسماعيل، من جهة أخرى، (وكان الأمير يوسف قد تولى هذه الإمارة عام ١٧٧١). وتحالف الأمير اسماعيل مع الأمير يوسف المذكور، وقاتلا معاً الحلف

العمري العاملي في معركة ضارية جرت في كفر رمان - النبطية في العام نفسه (١٧٧١)، حيث هزم فيها الأمير يوسف الشهابي هزيمة نكراء، ولم ينقذه إلاّ تدخّل خاله، الأمير إسماعيل، في المعركة[٩].

وفي العام ١٧٧٤ وعلى أثر القتال الذي نشب بين علي بك المصري وقائده محمد بك أبو الذهب، والتجاء علي بك إلى الشيخ ضاهر العمر بفلسطين، حشد ضاهر العمر الجيوش من الصفديين ومتاولة جبل عامل لمؤازرة علي بك، واستنجد بالأمير اسماعيل أمير حاصبيا «فحضر إليه بجمع من الفرسان» إلا أن ضاهر العمر وصل إلى ساحة القتال بعد فوات الأوان، حيث كان أبو الذهب قد نال من علي بك وهزمه وأسره بعد أن جرح في المعركة، فعاد ضاهر بجيوشه إلى دياره وتفرق الجند إلى ديارهم[١٠].

وفي العام ١٧٨١ طلب الأمير سيد أحمد من محمد باشا العظم والي دمشق أن يوليه وادي التيم والبقاع فولاه، فجاء برجاله، ومعظمهم من الجنبلاطيين، من قب الياس إلى راشيا، لاحتلالها، ونهض أميرها للقائه وصدّه عنها، والتقى الجيشان في الضهر الأحمر، ودارت بين الفريقين معركة انتهت بهزيمة الأمير محمد أمير راشيا، واستولى الأمير سيد أحمد على الإمارة واستقر براشيا، وبعد ذلك أراد التوجّه إلى حاصبيا للاستيلاء عليها، ولما علم الأمير اسماعيل بذلك كتب إلى محمد باشا العظم يعلمه بالأمر، وكان ذا حظوة عنده، ويلتمس منه كف يد الأمير سيد أحمد عن حاصبيا، فأجابه الوالي إلى طلبه وأمر الأمير سيد أحمد بالتراجع وعدم مهاجمة حاصبيا، فأذعن الأمير للأمر وعاد إلى راشيا حيث ولّى عليها من قبله الأمير موسى ابن الأمير منصور، وقفل عائداً برجاله، ومعه المشايخ الجنبلاطيين، إلى قب الياس بالبقاع[١١].

وكما كانت إقطاعة مرجعيون التابعة، أصلاً، لولاية صيدا، مثار خلاف واقتتال بين الأمير اسماعيل ومشايخ جبل عامل، فقد كانت كذلك، عام ١٧٨٣، مثار خلاف واقتتال بينه وبين ابن أخته الأمير يوسف أمير الشوف، إذ أقدم الجزار، والي صيدا حينذاك، على انتزاعها من الأمير اسماعيل وتسليمها إلى الأمير يوسف، وكانت هذه الإقطاعة تؤمن للأمير اسماعيل ما يحتاجه من أرزاق وأموال، فقصد دير القمر والتمس من ابن أخته أن يتركها له، لأنها مورد رزقه الوحيد والأمثل، ولكن الأمير يوسف رفض ذلك وأصرّ على تنفيذ أوامر الجزار واستلام الإقطاعة المذكورة، فعاد الأمير اسماعيل إلى حاصبيا غاضباً، وسعى لإقناع الجزار بأن يولّيه على إمارة الشوف بدلاً من ابن أخته الأمير يوسف، وكان الجزار مشهوراً بحبّه للمال حتى انه كان يبيع الإمارة، أية إمارة، لمن يدفع أكثر، وأغراه الأمير اسماعيل بالمال، فرضي أن يقلده إمارة الشوف شرط أن يشرك معه أميراً شهابياً آخر، وكتب الأمير اسماعيل إلى الأمير سيد أحمد، أخي الأمير يوسف، يعرض عليه مشاركته في حكم إمارة الشوف بدلاً من الأمير يوسف فوافق[١٢]، وأحسّ الأمير يوسف باللعبة التي يلعبها الجزار ضدّه فأخذ يستعد لمواجهة حاسمة بينه وبين خصومه، وأرسل مفارز من رجال البلاد لحماية الثغور، وجرت مجابهة دامية بين جند الجزار ورجال الأمير يوسف قرب جزين (في أيار ١٧٨٤) كان من نتائجها انهزام عسكر الجزار[١٣]، مما جعل الجزار يعلن خلع الأمير يوسف عن الإمارة وتولية الأميرين اسماعيل وسيد أحمد مكانه، وبدأت المواجهة الجدية بين الفريقين: الجزار وحليفيه الأميرين اسماعيل وسيد أحمد من جهة، والأمير يوسف وحلفائه من العامليين الذين سبق أن فرّوا من وجه الجزار، إلى عكار، ثم أتوا ليقاتلوا ضدّه إلى جانب الأمير يوسف، من جهة أخرى، ولكن كسب الجولة

الأولى لم تكن تعني كسب الحرب أبداً، إذ انه ما أن اتجهت قوات الجزار وحلفائه نحو الجبل حتى كان أكابر البلاد وزعماؤها يتخلون عن الأمير الحاكم وينضمون إلى خصومه، فأسقط في يد الأمير يوسف، وغادر البلاد إلى جبل لبنان، بينما استقر الحاكمان الجديدان بدير القمر، شريكين في حكم البلاد وإدارتها.

ولكن لم يطل الأمر بالجزار حتى رضي عن الأمير يوسف وأعاده إلى إمارته، وكان الناس قد انفضوا من حول الأميرين الحاكمين، فعجزا عن جباية الأموال المترتبة عليهما، وعاد الأمير يوسف إلى إمارة الشوف حاكماً، ففرّ الأمير اسماعيل إلى بسكنتا، وفرّ الأمير سيد أحمد إلى حوران، واستطاع الأمير يوسف أن يقبض على الأمير اسماعيل فزجّه في السجن حتى توفي فيه عام ١٧٨٥، كما استطاع، بعد ذلك بفترة وجيزة، أن يقبض على أخيه الأمير سيد أحمد، وكان قد عاد من حوران إلى البقاع، فاقتاده إليه وسمل عينيه[١٤].

وكان على حاصبيا، في ذلك الحين، الأمير بشير أخو الأمير اسماعيل، كما كان على راشيا الأمير قاسم ابن الأمير فارس الشهابي الملقب بالكبير، فأرسل الأمير يوسف إلى حاصبيا الأمير أسعد ابن الأمير سليمان (أخي الأمير اسماعيل وحاكم حاصبيا سابقاً) الذي استولى عليها بلا قتال، بينما فرّ الأمير بشير هارباً، كما أرسل إلى راشيا أميرها السابق الأمير محمداً الذي استطاع أن يقبض على الأمير قاسم، ويستولي على الإمارة بلا قتال كذلك[١٥].

إلا أن الجزار لم يلبث أن خلع الأمير أسعد عن حاصبيا وولّى عليها الأمير علي بن اسماعيل بدلاً منه[١٦]، فسار الأمير علي إلى حاصبيا ومعه ابن عمه الأمير يوسف ابن الأمير فارس الكبير، وزودهما الجزار بجيش لطرد الأمير

أسعد الذي ما أن علم بتوجّه جند الجزار نحوه حتى هرب من البلدة واستولى الأمير علي على حاصبيا بلا قتال.

ولم يكن الأمير علي قد نسي ما لحق بوالده من ظلم على يد الأمير يوسف فقرّر التقرب من الجزار ومحالفته لكي يتمكن من محاربة خصمه اللدود، وتمّ له ذلك بالفعل، ووقعت بين الأميرين معارك عديدة كانت نتيجتها هزيمة مخزية لجيش الأمير يوسف في كل من وقعتي سهل القرعون وقب الياس عام ١٧٨٨[١٧].

وما أن توالت الهزائم على الأمير يوسف، سواء على يد الأمير علي أمير حاصبيا، أم على يد جند الجزار، عند ثغور الجبل، بين جباع وجزين، حتى أسقط في يده ودب اليأس في قلبه، فقرّر التنازل عن الإمارة لقريبه الأمير بشير الذي لقب فيما بعد ببشير الثاني الكبير، فكان أول عمل قام به الأمير هو أنه أعاد الأمير أسعد ابن الأمير سليمان إلى إمارة حاصبيا (١٧٨٩) وأرفقه بجيش من عنده للاستيلاء عليها، وكان أميرها الأمير علي قد توفي في العام نفسه وتولاها بدلاً منه ابن عمه الأمير يوسف فارس الكبير[١٨]، فما أن علم الأمير يوسف بتوجّه الأمير أسعد نحوه على رأس جيش من رجال الشوف حتى فرّ هارباً إلى دمشق ليحتمي بواليها ابراهيم باشا الذي ما فتئ أن قبض من الأمير أسعد رشوةً لقتله فقتله[١٩].

ورأى الأمير أسعد أن في تحالفه مع الجزار مصلحة له، فتحالف معه، وكانت الثورة قد اندلعت ضد الأمير بشير أمير الشوف في المتن (عام ١٧٩٠) فانطلق عسكر الجزار ومعهم الأمير أسعد أمير حاصبيا ورجاله، والأمير حسن أخو الأمير بشير، وأنصاره من أهل الشوف، انطلقوا جميعاً إلى البقاع (حزيران ١٧٩٠) ومنها إلى المتن، وجرت معارك عنيفة بين المتحالفين

(الجزار وأمير حاصبيا وأمير الشوف) من جهة، وبين الثائرين من أهالي المتن، وعلى رأسهم الأميران حيدر ملحم وقعدان محمد ملحم الشهابيان من جهة أخرى، وما لبث أن انضم قسم كبير من أهالي الشوف مثل النكديين وأهالي الغرب والجرد والشحار ودير القمر، إلى الثائرين، وتقابل الفريقان في السعديات وصحراء الشويفات وحاصبيا وبعبدا وشحيم وغريفة وعانوت وعينبال[٢٠]، وكانت الثورة على حكم الأمير بشير قد عمّت البلاد بأسرها، فهزم وحلفاؤه في معظم هذه المعارك (١٧٩٠ - ١٧٩١)، وانتهى الأمر بالأمير بشير إلى اعتزال الحكم وتسليمه للأميرين الثائرين حيدر وقعدان[٢١].

وما أن عاد الأمير بشير إلى الحكم عام ١٧٩٥ واستتب الأمر له في إمارة الشوف عام ١٧٩٦[٢٢]، حتى عاد الجزار يناور ممالئاً أبناء الأمير يوسف، ويعدهم من جديد بإمارة الشوف، وكان الأمير قاسم الذي خلف الأمير أسعد على حاصبيا قد مالأ الجزار بدوره ومال إليه، فاتصل الأمير بشير بالباب العالي واستطاع الحصول على مؤازرته لتوطيد حكمه في البلاد، وأرسل إليه عبدالله باشا والي دمشق جيشاً بقيادة المنلا اسماعيل لكي يثبته في الحكم، فسار هذا الجيش إلى الخريزات حيث التقى بحليف الأمير الشيخ بشير جنبلاط، وساروا جميعاً إلى حاصبيا ففرّ منها حاكمها الأمير قاسم إلى عكا، ولكن ذلك كله لم يزد الجزار إلا حنقاً على الأمير وغضباً عليه، فخلعه عن الإمارة وولّى عليها (عام ١٧٩٩) إبني الأمير يوسف، حسين وسعد الدين، دون أن يكترث بأوامر الباب العالي وتوجهاته المؤيّدة للأمير، عندها قرّر الأمير مغادرة البلاد حيث توجّه إلى غزة، لمواجهة «الصدر الأعظم»[٢٣].

وعاد الأمير قاسم إلى حكم حاصبيا بعد مغادرة الأمير بشير للبلاد، وأقام معه فيها الأمير عباس أسعد الذي ما لبث أن طمع بإمارة الشوف فبدأ

يسعى مع الجزار للحصول عليها، ونالها فعلاً (عام ١٨٠١) إلا أن عودة الأمير بشير إلى البلاد وقتاله لاستعادة الإمارة واحتلاله لعاصمتها دير القمر، كل ذلك جعل الجزار يذعن للواقع الجديد فيعيد الأمير بشيراً إلى إمارته بالشوف، (عام ١٨٠٣) بينما انسحب الأمير عباس أسعد إلى حاصبيا ليتسلمها من قبل الجزار، إلا أنه لم يلبث أن طرد منها، في العام نفسه، على يد الأمير قاسم الذي تولّى حكمها من جديد[٢٤].

وكانت وفاة الجزار في العام التالي (١٨٠٤) مخرجاً ملائماً لمشاكل الأمير بشير، إذ تحرّر من القيود التي كان يقيّده بها هذا الوالي المشاكس الطماع والمناور، وخلا له الحكم في الشوف وجبل لبنان، وجاءه العامليون المهجرون إلى ديار عكار بسبب الجزار يطلبون منه إعادتهم إلى ديارهم وتسليم حكمها إلى مشايخهم، وتمّ تحالف بين أهالي وادي التيم (أمراء حاصبيا وراشيا) وأهالي الشوف وأهالي جبل عامل، واجتمع العامليون والتيميون في مرجعيون على أن يتقدموا نحو جبل عامل ليوطدوا حكم العامليين فيها، وفرّ رجال الدولة من قرى جبل عامل المتاخمة لمرجعيون ولجأوا إلى صور، إلا أن متسلم حوران (محمد علي بن الونّة) تحرّك لنجدتهم، وكان قد حضر إلى عكا بعد موت الجزار مباشرة، وجرت معارك بين التيميين والعامليين من جهة وعسكر الدولة من الارناؤوط بقيادة الدالي باش، من جهة أخرى، وهزم التيميون والعامليون بعد أن خسروا نحو ثلاثمائة قتيل، أكثرهم من أهل وادي التيم[٢٥]، وأسر من شهابيي حاصبيا وراشيا كل من الأمراء سليم وقاسم وحسن[٢٦].

وفي العام ١٨٢٠ استعاد درويش باشا والي دمشق وصايته على وادي التيم فولّى الأمير أفندي (الشهابي) «على كامل حكومة التزام وادي التيم الفوقا

والتحتا»[٢٧]، مما أثار غضب أمير الشوف الذي كان يرى في وادي التيم إمارة شهابية تخضع، ولو معنوياً، لسلطانه. يضاف إلى ذلك أن رجال باشا دمشق أخذوا يضيقون على الملاكين من رعايا الأمير المقيمين بالبقاع[٢٨]، فثارت الحرب بين الفريقين، وكان الأمير أفندي أمير وادي التيم المعين من قبل درويش باشا قد أظهر انحيازاً للأمير بشير، فخُلع عن الإمارة، بسبب ذلك، وتسلّم الأمير منصور وادي التيم الفوقا (راشيا) والأمير فارس ابن الأمير سيد أحمد وادي التيم التحتا (حاصبيا)، فأرسل الأمير بشير الأمير أفندي ومعه ألف من رجال من الشوف لطرد الأميرين المذكورين من حاصبيا وراشيا[٢٩]، وجرت بين الفريقين وقعتان في راشيا (الأولى في شباط والثانية في آذار ١٨٢٢)، وقد هُزم الأميران منصور وفارس، حليفا دمشق، في هاتين الوقعتين. وحاول عبدالله باشا، والي عكا، التدخل في البدء، لإصلاح ذات البين، بين الأمير ووالي دمشق، إلا أنه ما لبث أن انحاز إلى حليفه الأمير بشير، ونشبت بين الفريقين معركة دامية في المزة (أيار ١٨٢٢) هزم في نهايتها والي دمشق، وفرض عبدالله باشا والأمير بشير عليه شروطاً أهمها أن «حكم وادي التيم الفوقا والتحتا، يكون حاكمها الذي يختاره الأمير من آل شهاب الذين بتلك البلاد»[٣٠].

ولكن الباب العالي، الذي لم يستطع الوقوف على الحياد بين المتقاتلين، رغب في وضع حد لطموح والي عكا وحليفه أمير الشوف، فأعلن وقوفه بحزم إلى جانب والي دمشق وأمدّه بالجند، وولاه على عكا وطرابلس بالإضافة إلى دمشق، فأصدر درويش باشا فرماناً بعزل الأمير بشير عن إمارة الشوف، وولّى عليها الأمير عباس أسعد، فغادر الأمير بشير البلاد إلى مصر في آب من العام ١٨٢٢، وتولّى الأمير عباس أسعد حكم إمارة الشوف بدلاً منه، إلا أن الأمير بشيراً لم يلبث أن عاد إلى الإمارة عام ١٨٢٣ بوساطة من صديقه محمد علي

باشا حاكم مصر[٣١]. وفي هذه الأثناء، حاول الأمير حسن الشهابي، وكان مقيماً بحاصبيا، أن يحصل على حكم حاصبيا، وقصد، لأجل ذلك، دمشق، وزاد في العطاء لواليها درويش باشا الذي أقرّه على تلك الإمارة، ورحل عن حاصبيا أميرها الأمير سعد الدين واخوته أولاد الأمير علي، كما رحل عنها الأمير سيد أحمد ابن الأمير قاسم والأمير سليم ابن الأمير عثمان، واستقروا جميعهم بدير القمر[٣٢]، إلا أنه، في العام ١٨٢٤، عزل درويش باشا عن دمشق وتولاها بدلاً منه صالح باشا الذي ما لبث أن أعاد الأمير سعد الدين إلى حكم حاصبيا كما أعاد إليها باقي الأمراء الذين غادروها عندما تولاها الأمير حسن، وفي شهر رجب من العام ١٢٤٠هـ (شباط ١٨٢٤) غدر الأمير سعد الدين واخوته وحلفاؤه من أنسبائه الشهابيين بالأمير حسن وأخيه الأمير حسين وقتلوهما[٣٣]، واستقر الحكم للأمير سعد الدين على تلك الإمارة.

وخلف الأمير سعد الدين على حاصبيا الأمير أسعد ابن الأمير حمود الشهابي، وكان الأمير حسن أخو الأمير أسعد قد غدر بأبيه وعمه الأمير حيدر وقتلهما وفرّ هارباً إلى دمشق، ولكنه سرعان ما وقع بيدي أخيه الأمير أسعد الذي ما لبث أن قتله ضارباً عرض الحائط بوساطة الأمير بشير للعفو عنه، وغضب الأمير بشير لذلك وعزم على الانتقام من الأمير أسعد الذي فرّ إلى طرابلس، فأرسل الأمير في أثره رجالاً قبضوا عليه واقتادوه إليه في بيت الدين، وخشي الأمراء الشهابيون أن يقدم الأمير بشير على قتله فتوسطوا للعفو عنه، فعفا الأمير عنه وأعاده إلى حاصبيا[٣٤] وكان ذلك عام ١٨٢٩.

سقطت بلاد الشام بيد ابراهيم باشا عام ١٨٣٢، وأصبح الأمير الشهابي، أمير الشوف، وحليف القائد المصري، الشريك الوحيد من أهالي البلاد في

الحكم، فأطلق ابراهيم باشا يد حليفه في حكم إمارة الشوف خصوصاً، وفي الشؤون الإدارية لبلاد الشام عموماً، ولكن لم يطل الأمر بإبراهيم باشا حتى نشبت ضده ثورة عارمة في كل من صفد وطرابلس وعكار وبلاد النصيرية عام ١٨٣٤، ثم ثار الدروز على الحكم المصري في حوران ووادي التيم عام ١٨٣٨، وراح الأمير يساند حليفه المصري في قمع هذه الثورات وإخمادها ويشارك، بالرجال والسلاح، في القتال ضد أهالي البلاد الثائرين، وتمكن الحليفان من إخماد الثورة في البلاد، إلا أن ذلك لم يكن إلا لفترة وجيزة، حيث عادت الثورة فاندلعت من جديد بإيحاء من الدول الأوروبية المتحالفة مع السلطان ضد محمد علي وحليفه الأمير بشير، وأسقط في يد الحليفين اللذين خسرا الجولة الأخيرة عام ١٨٤٠، فغادر ابراهيم باشا بجيوشه بلاد الشام، وغادر الأمير بشير هذه البلاد لاجئاً إلى جزيرة مالطة[٣٥].

وقد أسهمت إمارة حاصبيا، بدروزها، بقسط وافر من الثورة على الأمير وحليفه المصري، ولم يتمكن الأمراء الشهابيون المتحالفون مع أمير الشوف من الوقوف في وجه هذه الثورة وإخمادها، ولم يكن ذلك ممكناً لولا تدخل الأمير بشير وابراهيم باشا بما لديهما من قوى، عام ١٨٣٨[٣٦]، إلا أن ذلك لم يعد ممكناً عام ١٨٤٠ حيث خسر المتحالفان كل أوراقهما في اللعبة الأخيرة.

٢ - إمارة راشيا:

كان الأمير حسين أمير راشيا قد تزوج من أخت الأمير أحمد آخر الأمراء المعنيين، فأنجبت له ولدين هما: علي وبشير، ولما توفي الأمير حسين عام ١٦٦٠ خلفه في حكم راشيا ابنه الأكبر الأمير علي الذي توفي بدوره عام ١٦٨٢ مخلفاً ولداً صغير السن اسمه منصور، فخلفه في حكم الإمارة أخوه الأمير بشير.

وعندما انقرضت سلالة المعنيين بوفاة الأمير أحمد بلا عقب عام ١٦٩٧، اختارت السلطنة ابن أخته الأمير بشيراً وصياً على الأمير حيدر الشهابي، من حاصبيا، وقد اختير حيدر خلفاً للأمير المعني المتوفى لكونه حفيده، أي ابن ابنته، ولكنه لم يكن قد أصبح بعد أهلاً للحكم نظراً لصغر سنه.

وانتقل الأمير بشير، أو بشير الأول كما عرف بعد ذلك، إلى دير القمر عاصمة إمارة الشوف، وتسلّم حكم تلك الإمارة عام ١٦٩٨، مخلفاً على حكم راشيا ابن أخيه الأمير منصوراً ابن الأمير علي، إلا أن هذا الأمير لم يمكث في الحكم سوى بضع سنوات توفي بعدها (عام ١٧٠٣) مخلفاً ولدين هما: سيد أحمد وأحمد، فتسلم حكم راشيا بعده ابنه الأمير سيد أحمد[٣٧].

وفي العام ١٧٢٣ تعرّض الأمير سيد أحمد أمير راشيا، وأخوه الأمير أحمد، ولدا الأمير منصور، إلى مؤامرة لاغتيالهما معاً على يد الأمير حيدر ملحم أمير الشوف والأمير نجم أمير حاصبيا، فقتل الأمير أحمد ونجا أخوه الأمير سيد أحمد كما سبق أن ذكرنا[٣٨].

وظل الأمير سيد أحمد في حكم راشيا حتى عام ١٧٦١ حيث توفي، فخلفه في الإمارة ولده الأمير منصور[٣٩]، وفي هذه الأثناء كان يتقاسم الحكم في إمارة الشوف، الأميران أحمد ومنصور، أبنا الأمير حيدر، وقد ظلا يتقاسمانه منذ عام ١٧٥٤ وحتى عام ١٧٦٣ حيث استقل به الأمير منصور (١٧٦٣ - ١٧٧١) دون أخيه أحمد، وما أن حلّ الأمير منصور حاكماً بدير القمر حتى فرّ منها الأمير يوسف وأنصاره من آل نكد (الشيخ كليب والشيخ خطار) لأنهم كانوا من أنصار الأمير أحمد، فتوجهوا جميعاً إلى راشيا ونزلوا في حمى أميرها الأمير منصور، عندها استولى الأمير منصور حيدر أمير الشوف على أملاكهم وعقاراتهم، وقد تمّت المصالحة بعد ذلك بين الأمير يوسف وعمه الأمير

منصور على يد الشيخ علي جنبلاط الذي أعاد الأمير يوسف إلى كنف عمه بدير القمر[٤٠].

وفي العام ١٧٧١ تولى الأمير يوسف إمارة الشوف خلفاً لعمه الأمير منصور، وجرى قتال ببر الياس في العام ١٧٧٣ بين الأمير يوسف وأخيه الأمير سيد أحمد متسلم البقاع من جهة، وبين والي دمشق من جهة أخرى، هزم على أثره والي دمشق، وأعاد الأمير يوسف أخاه إلى مقره بقب الياس حيث كان قد رمّم قلعتها وجهّزها بالسلاح والرجال. وسولت للأمير سيد أحمد نفسه أن يخرج عن طاعة أخيه أمير الشوف، واستمال إليه الأمير منصوراً أمير راشيا وبعض زعماء إمارة الشوف المناوئين لأخيه، فعزم الأمير يوسف (عام ١٧٧٤) على طرد أخيه من البقاع، وحاصر القلعة شهراً كاملاً حتى أخرج أخاه منها، ثم هدم قسماً منها، وعاد إلى دير القمر[٤١].

ولكن الأمير يوسف ظل حاقداً على أمير راشيا الأمير منصور لانحيازه إلى أخيه الأمير سيد أحمد في حربهما، فتذرع بمختلف الذرائع والحجج لكي ينال منه، ومنها ادعاؤه بأن مالاً متوجبٌ على الأمير منصور للمشايخ النكديين، ثم أرسل عمه الأمير حسيناً لاستيفاء هذا المال من أمير راشيا، وصادف أن أقام الأمير حسين عند الأمير منصور مدة شهرين توفي في نهايتهما، مما أفسح في المجال أمام الأمير يوسف للانتقام، وأرسل «كتيبة» من رجاله إلى راشيا لتحصيل المال المذكور، فكتب الأمير منصور إلى الشيخ سعد الخوري مدبر الأمير يوسف يطلب وساطته لمصالحته مع الأمير، فكان له ذلك، «واصطلح الحال على خمسة عشر ألف قرش يدفعها الأمير منصور»، ولكن الأمير يوسف لم يكتف بهذا القدر من الانتقام، بل استقبل الأمير محمداً، أخا الأمير منصور، وكان قد ثار على أخيه مطالباً إياه بحصة في الإرث والحكم،

وحرّضه على الثورة ضد أخيه، ثم تظاهر بالتوسط لمصالحتهما، فارضاً على الأمير منصور اقتسام الإمارة بينه وبين أخيه، وكان ذلك عام ١٧٧٤[٤٢]، إلا انه، بعد ثلاثة أعوام فقط، وفي العام ١٧٧٧، حصلت منازعة بين الأخوين على الإمارة، فاستنجد الأمير محمد بالأمير يوسف الذي أمده بعسكر من أهل البلاد وبعثه إلى راشيا لإزاحة أخيه من الحكم، ففرّ الأمير منصور هارباً إلى دمشق ملتجئا إلى واليها محمد باشا العظم الذي ما لبث أن قبل رشوة من الأمير محمد فزجّ الأمير منصوراً في قلعة قرب حمص، ثم أمر بقتله بناء لرغبة أخيه، وبنصيحة من الأمير يوسف نفسه، وكان للأمير منصور ولدان هما: موسى وأسعد اللذان، ما أن علما بمقتل أبيهما بتحريض من عمهما، حتى فرّا هاربين ولجآ إلى الأمير يوسف الذي «أصلح أمرهما مع عمهما وأرجعهما إلى راشيا»[٤٣].

إلا أنه، في العام ١٧٨١، نشب القتال من جديد بين الأمير سيد أحمد متسلم البقاع وبين أخيه الأمير يوسف، وذلك بسبب طمع الأمير سيد أحمد بإمارة الشوف، واستنجد الأمير يوسف بالجزار، وكان أخوه سيد أحمد قد احتل دير القمر، فأنجده الجزار بعسكر وفير وسار الأمير يوسف بالجيش وقاتل أخاه وأنصاره عند قرية «علمان» فهزمه[٤٤]، وفرّ الأمير سيد أحمد من دير القمر إلى قب الياس بالبقاع حيث اتصل بمحمد باشا العظم والي دمشق وطلب منه أن يوليه بلاد وادي التيم بالإضافة إلى البقاع فأجابه إلى طلبه.

وسار الأمير سيد أحمد من قب الياس على رأس جيش من جند والي دمشق وقصد راشيا لاحتلالها، فلقيه أميرها محمد عند «الظهر الأحمر» ودار بين الفريقين قتال شديد انتهى بهزيمة الأمير محمد، ودخل الأمير سيد أحمد راشيا واحتلها، ثم قرّر بعدها التوجّه لاحتلال حاصبيا، إلا أن أميرها اسماعيل

أسرع في الكتابة إلى والي دمشق ملتمساً منه إصدار الأمر إلى الأمير سيد أحمد بالعدول عن قصده، فلبّى والي دمشق طلب الأمير اسماعيل، وعاد الأمير سيد أحمد إلى قب الياس بالبقاع بعد أن ولّى على راشيا الأمير موسى ابن الأمير منصور. ولكن فرحة الانتصار لم تستمر طويلاً عند الأمير سيد أحمد، إذ هاجمه أخوه الأمير يوسف وعسكر الجزار، وهزموه في وقعة جرت بصحراء قب الياس، في العام نفسه، ثم حاصروا قلعة قب الياس حيث تحصن، فانفض معظم رجاله من حوله، وعاد جند دمشق إلى ديارهم، ثم اتفق واليا دمشق وعكا على هدم القلعة، أما الأمير سيد أحمد فغادر البلاد لاجئاً إلى المتن، وأعاد الأمير يوسف الأمير محمداً إلى إمارته براشيا، ففرّ منها ابنا أخيه الأميران موسى وأسعد لانحيازهما إلى الأمير سيد أحمد، ولجآ إلى الأمير اسماعيل أمير حاصبيا الذي سعى لمصالحتهما مع عمهما، وتظاهر الأمير محمد بقبول الوساطة وسمح للأميرين بالعودة إلى راشيا، إلا أنه لم يلبث أن ألقى القبض عليهما فقتل الأمير موسى وسمل عيني الأمير أسعد[٤٥].

واستقر حكم راشيا للأمير محمد، بعد ذلك، حتى عام ١٧٨٤، حين اضطر إلى مغادرة إمارته خوفاً من الأمير اسماعيل أمير حاصبيا الذي أغار على راشيا واحتلها ونصّب عليها أميراً من قبله هو الأمير قاسم ابن الأمير فارس الكبير، وكان الأمير اسماعيل قد احتل دير القمر وطرد الأمير يوسف منها، فلجأ الأميران محمد ويوسف إلى الجزار الذي أمدهما بعسكر من عنده وعادا ليطردا الأمير اسماعيل من دير القمر والأمير قاسم من راشيا[٤٦]، إلا أن الأمير محمداً انقلب على حليفه الأمير يوسف عام ١٧٨٩ حين دبّ الخلاف بين هذا الأخير والجزار، إذ استمال الجزار إليه الأمير محمداً الذي شاركه في حملته على البقاع لرفع يد الأمير يوسف عنها[٤٧].

وتولى إمارة راشيا بعد الأمير محمد، الأمير أفندي الشهابي الذي أقدم عام ١٧٩٩ على الغدر بابن عمه الأمير بشير، وهو غير الأمير بشير أمير الشوف، فقتله وضبط حارته وأرزاقه براشيا، ثم تزوج من امرأته[٤٨]، وظل الأمير أفندي حاكماً على هذه الإمارة حتى عام ١٨٢١. وكان عبدالله باشا والي عكا قد أثقل كاهل الأمير بشير بالضرائب فآثر الأمير الاستقالة ورحل عن بيت الدين مع عائلته، فعيّن بدلاً منه كلاً من الأميرين حسن علي وسلمان سيد أحمد، وكتب إلى الأمير أفندي أمير راشيا وإلى أمراء حاصبيا يمنعهم من استقبال الأمير بشير، في ديارهم، وكان الأمير أفندي معروفاً بانحيازه إلى الأمير بشير، فكتب عبدالله باشا إلى درويش آغا قائمقام الشام ومتسلمها يطلب منه عزل الأمير أفندي عن الإمارة وتسليمها إلى ابن عمه الأمير منصور المقيم معه (وكان والي دمشق درويش باشا غائباً عن المدينة)، فلبّى درويش آغا طلبه وعزل الأمير أفندي وعيّن بدلاً منه الأمير منصوراً على راشيا، أما الأمير أفندي فالتحق بالأمير بشير ورحل معه إلى حوران[٤٩]، ولكن لم يلبث أن عاد درويش باشا إلى دمشق وأعاد الأمير أفندي أميراً على «كامل حكومة التزام وادي التيم الفوقا والتحتا»[٥٠]، وكان الأمير أفندي جنبلاطياً بينما كان الأمير منصور يزبكياً، فوجّه درويش باشا مع الأمير أفندي عسكراً من جند دمشق، ولما وصل إلى حاصبيا تحالف مع أمرائها وصار الاتفاق أن «يبقوا كما كانوا متصرفين في وادي التيم التحتا بأرزاقهم وناسهم ويكون الحكم والتصرف باسم الأمير أفندي حسب أمر الوزير»[٥١] وفي هذه الأثناء كان عبدالله باشا والي عكا قد رضي عن الأمير بشير فأعاده في العام نفسه (١٨٢١) إلى إمارة الشوف[٥٢].

وكان الأمير أفندي لا يزال ميالا للأمير بشير، وكان خلافاً قد وقع بين عبدالله باشا والي عكا ودرويش باشا والي دمشق، فانحاز الأمير أفندي إلى

جانب الأمير بشير، بينما انحاز الأمير منصور، الذي كان لا يزال في راشيا، إلى والي دمشق، فأمر عبدالله باشا الأمير بشيراً أن يجهّز الأمير أفندي بعسكر من بلاد الشوف، كما أمر جنده من الهوارة والدالاتية الموجودين في مرجعيون بمساندة الأمير أفندي، وأن ينطلقوا، جميعاً، لطرد الأمير منصور من راشيا.

وفي شهر جمادى الثانية ١٢٣٧هـ الموافق لشهر شباط عام ١٨٢٢ انطلق الأمير أفندي من حاصبيا، بألف من رجال الشوف، ومعه الجنبلاطيون بقيادة الشيخ قاسم جنبلاط، ومشايخ ال نكد، فالتقوا بعسكر والي عكا الآتي من مرجعيون، وساروا جميعاً إلى جزين فراشيا، حيث كان الأمير منصور ومعه حلفاؤه اليزبكيون وأربعماية من خيّالة دمشق بانتظار الأمير أفندي وهم مستعدون للقتال، ثم حضر الأمير فارس ابن الأمير سيد أحمد، إلى راشيا، ومعه عسكر من دمشق، وقد ولاّه درويش باشا على إمارة حاصبيا، فانضم إلى الأمير منصور استعداداً لمجابهة الأمير أفندي وحلفائه، وجرت بين الفريقين وقعة هزم فيها الأمير منصور وحلفاؤه، وطاردهم عسكر الأمير أفندي إلى أسفل راشيا حيث «قتلوا منهم ثمانية عشر قتيلاً وقبضوا على عشرين أسيراً وكسبوا منهم سبعة وأربعين رأساً من الخيل»[٥٤]، ولكن هذه الوقعة لم تكن حاسمة مما استدعى تدخلاً مباشراً من قبل الأمير بشير أمير الشوف لمصلحة الأمير أفندي، فقاد الجيش بنفسه ومعه الشيخ بشير جنبلاط، وانطلق إلى ساحة القتال على رأس أربعة الاف مقاتل بينما كان لدى الأمير منصور نحو ألفي مقاتل فقط، وجرت الوقعة الثانية في آذار من العام نفسه (١٨٢٢) فهزم الأمير منصور هزيمة نكراء حيث حاصره الأمير بشير ببلدة راشيا ثم طرده منها واستولى عليها ونصّب عليها الأمير أفندي حاكماً من قبل عبدالله باشا والي عكا، وعاد إلى مقرّه ببيت الدين[٥٥].

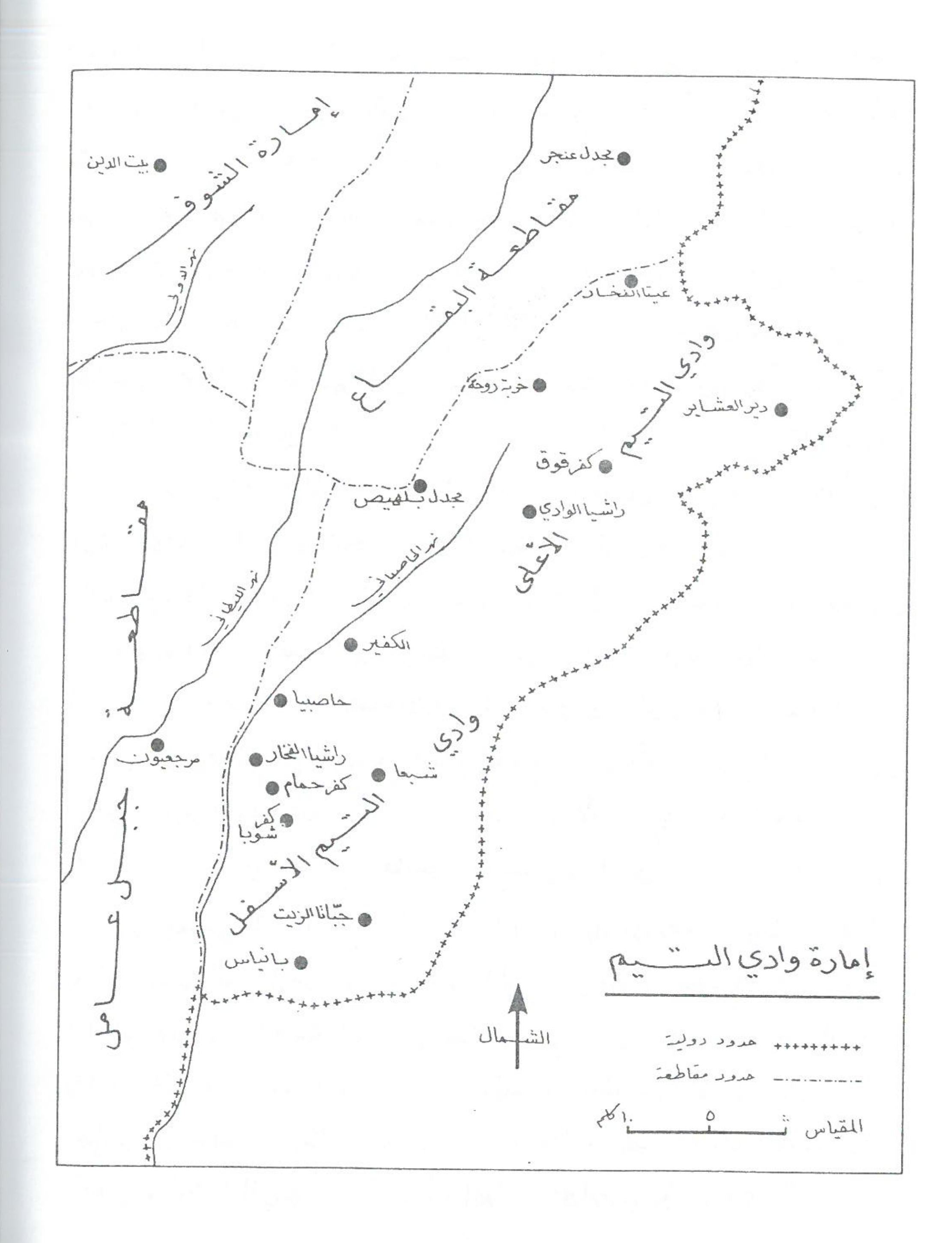
وفي العام نفسه، غضب الباب العالي على عبدالله باشا فعزله عن الولاية وعهد بها إلى درويش باشا الذي قاد جيشاً إلى عكا لطرد الوالي المعزول منها، ولكنه عاد خائباً بعد أن حاصرها خمسة أشهر دون جدوى، فكان أول عمل قام به بعد عودته هو إجراء مصالحة شاملة بين أمراء وادي التيم، إذ قسم إمارة راشيا بين الأميرين أفندي ومنصور «لكل منهما قرايا معلومة»، وأما راشيا نفسها فإنه قسّمها مناصفة، شرط أن لا يقطنها أي منهما، وهكذا فقد أقام الأمير أفندي بعين عطا ثم انتقل إلى بكيفا، أما الأمير منصور فإنه أقام بقرية الظهر الأحمر، وأما إمارة حاصبيا مع بلاد الحولة التابعة لها فقد قسمها بين الأمراء حسن بديعة وسعد الدين وسليم الشهابيين، لكل منهما الثلث[٥٦].

وفي العام ١٨٣٧ غدر الأمير أفندي بابن عمه الأمير منصور فقتله وتفرد بحكم راشيا مما أثار غضب الأمير بشير عليه، فحضر إلى حاصبيا ملتمساً «رضى» أمرائها، عندها توجّه الأمير سعد الدين أمير حاصبيا إلى الشوف حيث «استعطف خاطر» الأمير بشير على الأمير أفندي فعفا عنه[٥٧].

وشاركت راشيا بثورة الدروز في حوران ووادي التيم على الحكم المصري عام ١٢٥٤هـ (١٨٣٨م)، واشتهر منها شبلي آغا العريان الذي قاد ثورة الدروز في كل من راشيا وحاصبيا وسعسع ومجدل شمس وكبّد المصريين وحلفاءهم الشهابيين، في حروبه ضدهم، خسائر فادحة[٥٨]، وقد ثار دروز وادي التيم على المصريين في هذا العام (١٨٣٨) تلبية لنداء اخوانهم الثوار في حوران واللجاة، فتجمع لديهم في وادي التيم نحو سبعماية ثائر[٥٩]، وقيل إن عددهم في حاصبيا وراشيا قد تجاوز الخمسة آلاف[٦٠] وقيل سبعة آلاف[٦١]، وقد استطاعوا أن يقضّوا مضاجع الجيش المصري ويشغلوه في تحركاته التموينية خصوصاً، وأن يهدّدوا خطوط مواصلاته، كما استطاعوا، ذات يوم من العام

نفسه (١٨٣٨)، أن يستولوا، عند سعسع، على قافلة من الذخائر، مرسلة من عكا إلى الجيش المصري الذي يقاتل الثوار في حوران، فأرسلت حكومة دمشق إلى وادي التيم حملة عسكرية بقيادة الأمير سعد الدين أمير حاصبيا لم يلبث أن انضم إليها الأمير محمود خليل حفيد الأمير بشير الثاني أمير الشوف، وقامت هذه الحملة بالانتقام من بعض قرى اقليم البلان الذي كان فيما مضى (حتى عام ١٨١٠) تابعاً لإمارة راشيا، وقبضت على عدد من زعماء الدروز في حاصبيا وأرسلتهم مقيدين إلى دمشق، وهب شبلي آغا العريان مع مفرزة من الثوار للانتقام من الأمير سعد الدين الشهابي أمير حاصبيا وحليف المصريين، وانحاز إليه كل من الأميرين الشهابيين بشير وعلي من أمراء راشيا، وهاجم العريان حاصبيا، فاعتصم سعد الدين ورجاله والأمير محمود بالسراي، فأقام العريان عليهم حصاراً شديداً[٦٢]، ودارت رحى الحرب بين الفريقين، وحاول شبلي العريان دخول السراي فلم يتمكن من ذلك، وقد خسر في الهجوم بعض رجاله، كما قتل من المحصورين الأمير محمد شقيق الأمير سعد الدين. وعلم العريان، في أثناء الحصار، أن الأمير خليلاً الشهابي ابن الأمير بشير قادم بجيشه لفك الحصار عن الأمير سعد الدين وانقاذ ابنه الأمير محمود، فانسحب من حاصبيا وانضم إلى الثائرين في حوران[٦٣].

والجدير بالذكر أن شبلي آغا العريان الذي بدأ ثورته في راشيا عام ١٨٣٨ بقتل حاكمها المعين من قبل ابراهيم باشا، سبق أن كان عام ١٨٣٥ قائداً من قبل ابراهيم باشا نفسه لألف من خيّالة الهوارة[٦٤]، وانتهى أمره، بعد الثورة، بالاستسلام إلى القائد المصري الذي عيّنه «ضابطاً على ثلاثماية فارس»[٦٥]، وخاض إلى جانبه معركة «نزيب» الشهيرة، إلا أنه ترك المعسكر المصري في أواخر تشرين الثاني عام ١٨٤٠ والتحق بالسلطة العثمانية ببيروت[٦٦].



حواشي الفصل الثاني

(١) - De La Roque, Voyage de Syrie et du Mont-Liban, T1. p. 229.

(٢) أنظر الجزء الأول: الإمارة المعنية، الباب الثاني، الفصل السابع، إمارة وادي التيم.

(٣) أنظر المدخل إلى البحث: الشهابيون خلفاء المعنيين في إمارة الشوف.

(٤) الشهابي، تاريخه، طبعة الجامعة اللبنانية، قسم ١ : ١٧ - ١٨.

(٥) كانت إقطاعة مرجعيون تابعة لولاية صيدا، أما إقطاعة الحولة فكانت تابعة لدمشق (الزين، علي، فصول من تاريخ الشيعة في لبنان، ص ٥٤، و - (Ismaïl, Documents diplomatiques et consulaires, T3. p. 158).

(٦) الشهابي، المصدر السابق، قسم ١ : ٣٤.

(٧) م. ن. قسم ١ : ٥٣.

(٨) م. ن. قسم ١ : ٥٣ - ٥٤.

(٩) أنظر الفصل الرابع من الباب الأول: وقعة كفر رمان - النبطية.

(١٠) الشهابي، المصدر السابق، قسم ١ : ١٠٩ - ١١٠.

(١١) م. ن. قسم ١ : ١٣١.

(١٢) أنظر الفصل الرابع من الباب الأول: صراع الأمراء الشهابيين على إمارة الشوف.

(١٣) أنظر الفصل الرابع من الباب الأول: وقعة جزين ١٧٨٤.

(١٤) أنظر الفصل الرابع من الباب الأول: صراع الأمراء الشهابيين على إمارة الشوف.

(١٥) الشهابي، المصدر السابق، قسم ١ : ١٤٠.

(١٦) م. ن. قسم ١ : ١٤٣. وقد تمّ ذلك خلال ولاية الجزار على دمشق عام ١٧٨٥ - ١٧٨٦ (أنظر الفصل الرابع من الباب الأول: صراع الأمراء الشهابيين على إمارة الشوف).

(١٧) أنظر الفصل الرابع من الباب الأول: وقعة كامد اللوز، وقعة سهل القرعون، وقعة قب الياس (١٧٨٨) بين الأمير يوسف أمير الشوف والأمير علي، أمير حاصبيا.

(١٨) الشهابي، المصدر السابق، قسم ١ : ١٤٩.

(١٩) م. ن.، قسم ١ : ١٥٠.

(٢٠) أنظر الفصل الخامس من الباب الثاني: معارك الأمير بشير.

(٢١) أنظر تفصيل ذلك في الفصل الخامس من الباب الثاني: معارك الأمير بشير.

(٢٢) بعد معارك عنيفة ضد أولاد الأمير يوسف وحلفائهم عام ١٧٩٥ - ١٧٩٦، أنظر الفصل الخامس من الباب الثاني: معارك الأمير بشير.

(٢٣) أنظر الفصل الخامس من الباب الثاني: معارك الأمير بشير.

(٢٤) الشهابي، المصدر السابق، قسم ٢ : ٤٠٣ - ٤٠٤.

(٢٥) م. ن. قسم ٢ : ٤١٣.

(٢٦) م. ن. ص. ن.

(٢٧) م. ن. قسم ٣ : ٦٧٤.

(٢٨) أنظر الفصل الخامس من الباب الثاني: معارك الأمير بشير (قتال الأمير ضد درويش باشا والي دمشق ١٨٢١ - ١٨٢٢).

(٢٩) الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٦٩٩ - ٧٠٠.

(٣٠) م. ن. قسم ٣ : ٦٩٨ و ٧٠٠ - 715.

(٣١) أنظر الفصل الخامس من الباب الثاني.

(٣٢) ويذكر مشاقة أن حكام حاصبيا في العام ١٨٢١ كانوا ثلاثة أولاد الثلاثة اخوة وهم: الأمير سيد أحمد ابن الأمير قاسم كبير اخوته، والأمير سليم ابن الأمير عثمان والأمير سعد الدين ابن الأمير علي أصغر اخوته، وكان الأمير سعد الدين أكبر سناً من الأمير سليم وأرشد منه، أما الأمير سيد أحمد فكان بسيطاً للغاية ومتديناً جداً، وقد ترك هؤلاء الأمراء مع عائلاتهم حاصبيا وتوجهوا عند الأمير عباس بدير القمر فأنزلهم في سراياها (مشاقة، منتخبات، ص ٨٩).

(٣٣) الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٧٧٥ - ٧٧٦.

(٣٤) م. ن. قسم ٣ : ٧٩٦.

(٣٥) أنظر الفصل السابع من الباب الثاني: دور الأمير في إخماد الثورات ضد الحكم المصري في بلاد الشام.

(٣٦) أنظر الفصل السابع من الباب الثاني.

(٣٧) الشهابي، المصدر السابق، قسم ١ : ٣ - ٧، والشدياق، أخبار الأعيان، ج ١ : ٤٤ - ٤٦.

(٣٨) أنظر مطلع البحث (إمارة حاصبيا).

(٣٩) الشهابي، المصدر السابق، قسم ١ : ٥٥.

(٤٠) م. ن. قسم ١ : ٦٠.

(٤١) أنظر الفصل الرابع من الباب الأول: الأمير يوسف ووالي دمشق.

(٤٢) الشهابي، المصدر السابق، قسم ١ : ١٠٤ - ١٠٥.

(٤٣) م. ن. قسم ١ : ١٢١.

(٤٤) أنظر الفصل الرابع من الباب الأول: حروب الأمير يوسف الداخلية وحروب الحدود.

(٤٥) الشهابي، المصدر السابق، قسم ١ : ١٣١ - ١٣٣.

(٤٦) م. ن. قسم ١ : ١٤٠.

(٤٧) م. ن. قسم ١ : ١٤٣ - ١٤٥.

(٤٨) م. ن. قسم ١ : ١٩٦.

(٤٩) م. ن. قسم ٣ : ٦٦٩.

(٥٠) م. ن. قسم ٣ : ٦٧٤، ويذكر «مارتان» قنصل فرنسا بصيدا، في تقرير له عن الأحداث التي جرت بالبلاد (ما بين ١٤ أيار و٩ حزيران ١٨٢١) فيقول: «كان الأمير أفندي من الأسرة الشهابية حاكماً على دائرة راشيا... وبما أنه رحل مع الأمير بشير عن البلاد، فقد أقدم متسلم دمشق، في غياب الباشا، على تسمية الأمير منصور، ابن عم الأمير أفندي، حاكماً على حاصبيا، وذلك بطلب من عبدالله باشا، ولكن ما أن عاد باشا دمشق حتى أبطل قرار المتسلم وأعاد الأمير أفندي إلى مركزه، أما الأمير منصور فإنه، بعد أن خلع عن الإمارة، مرّ اليوم بهذه المدينة، في طريقه إلى عكا ليطلب حماية عبدالله باشا».

- (Ismaïl, Op. cit. T3. p. 163).

(٥١) الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٦٧٥.

(٥٢) أنظر الفصل الأول من الباب الثاني: الأمير بشير (حياته السياسية).

(٥٣) الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٦٩٩.

(٥٤) م. ن. قسم ٣ : ٧٠٠، وانظر تفصيل هذه الوقعة في الفصل الخامس من الباب الثاني: معارك الأمير بشير (وقعة راشيا الأولى).

(٥٥) م. ن. قسم ٣ : ٧٠٢ - ٧٠٧، وانظر تفصيل هذه الوقعة في الفصل الخامس من الباب الثاني: معارك الأمير بشير (وقعة راشيا الثانية)، وانظر كذلك، رواية هذه الوقعة على لسان حسن آغا العبد وهو من قادة الجند في جيش درويش باشا والي دمشق، وقد شهد الوقعة بنفسه. (حسن آغا العبد، تاريخه، ص ١٧٤ - ١٧٨).

ويروي مشاقة تفاصيل القتال هذه بشكل آخر إذ يذكر أن الأمير أفندي كان مقيماً براشيا وأن الأمير منصوراً وحلفاءه اليزبكيين جاؤوا إليها بأمر من والي دمشق لاحتلالها وتنصيب الأمير منصور أميراً عليها «وبوصول عسكر دمشق مع الأمير منصور هاجموا راشيا بالبارود، فدافعهم رجال لبنان ورجال الأمير أفندي» (مشاقة، منتخبات، ص ٨٥ - ٨٦) إلا أننا لا نقر هذه الرواية نظراً لتناقضها مع سياق البحث بكامله.

(٥٦) مشاقة، م. ن. ص ٩٢ - ٩٣. وكان درويش باشا قد عيّن، قبل ذهابه إلى عكا، الأمير منصوراً حاكماً على راشيا (وكان الأمير أفندي قد غادرها بعد هزيمة الأمير بشير أمير الشوف ومغادرته البلاد إلى مصر)، كما عيّن الشيخ علي العماد حاكما على مرجعيون، والأميرين حسن وحسين بديعة الشهابيين حاكمين على حاصبيا (مشاقة، م. ن. ص ٨٩).

(٥٧) مشاقة، م. ن. ص ١٠٦.

(٥٨) رسالة اللواء أحمد بك قائد مدرعي الفارديا صادرة عن مجدل شمس ومؤرخة في ١٦ محرم ١٢٥٤ (آذار ١٨٣٨)، رستم، المحفوظات الملكية، مجلد ٣ : ٣٨٢، وثيقة رقم ٥٣٨٩.

(٥٩) ذكر كونتي Conti نائب القنصل الفرنسي بصيدا، في رسالة منه إلى ألكس ديفال، القنصل الفرنسي ببيروت، بتاريخ ١٨ حزيران ١٨٣٨، أن «سبعماية رجل من اللجاة، وعلى رأسهم درزي يسمى شبلي العريان، أتوا إلى راشيا، وبعد أن قتلوا حاكمها، فرضوا السخرة على كل من رفض الانضمام إليهم».

- (Ismaïl, Op. cit. T5. p. 388).

(٦٠) أكّد القنصل الفرنسي ببيروت ألكس ديفال Alex Deval في رسالة منه إلى وزير الخارجية الفرنسية الكونت موليه Molé بتاريخ ٢٦ حزيران ١٨٣٨، أن عدد الثائرين في حاصبيا وراشيا، في ذلك الحين، قد تجاوز الخمسة آلاف رجل. ولهذا، فإن ابراهيم باشا قد أتى بنفسه على رأس جيش لمهاجمة هؤلاء الثائرين، وقد أحرق قريتين، في طريقه، إلا أن الدروز هاجموه وصدوا طليعة جيشه، ولكنه تمكن، بعد ذلك، من ضرب الثائرين وسحقهم ففرّوا تاركين خلفهم ١٦٠٠ قتيل، وقتل واحد من زعمائهم، وقيل إن قائدهم شبلي العريان قد جرح... ثم إن ابراهيم باشا وضع «مصير أهل راشيا التي تعتبر عاصمة الدروز، بين أيدي جنوده الغاضبين، ثم أحرق، بعد ذلك، هذه البلدة» (من رسالة للقنصل الفرنسي ألكس ديفال بتاريخ ٣٠ حزيران ١٨٣٨). - (Ibid, pp. 390 - 392).

(٦١) ضمّن القنصل الفرنسي ألكس ديفال، رسالته المشار إليها أعلاه (حاشية ٦٠) والمؤرخة في ٣٠ حزيران ١٨٣٨، معلومات من «كونتي» نائب القنصل الفرنسي بصيدا، مؤرخة في ٢٨ منه، يقدر فيها عدد الثائرين براشيا بنحو ٧ آلاف رجل. (Ibid, p. 393) -

(٦٢) ذكر كونتي في رسالته المشار إليها أعلاه (حاشية ٥٩)، والمؤرخة في ١٨ حزيران ١٨٣٨ ان الثوار الدروز «موجودون الآن في حاصبيا، وهم يحاصرون الأمير محموداً لأنه رفض تسليمهم حاكمها الذي يعدّون له المصير نفسه الذي أعدّوه لحاكم راشيا». (Ibid, p. 389) -

(٦٣) أبو عز الدين، ابراهيم باشا في سوريا، ص ٢٠٦ - ٢٠٧، ومشاقة، منتخبات، ص ١٢٤، ويذكر مشاقة تفصيلاً لهذا القتال فيقول: «الأمير محمد أخو الأمير سعد الدين كان يحارب من الجهة الجنوبية جهة داره مع بعض الأمراء ويحمي باب السرايا من الجهة الغربية، وأخوه الأمير بشير يحمي الجهة الشمالية لأن داره فيها ومعه بعض الأمراء، وأما الجهة الشرقية ومنها دار الأمير سعد الدين هي المقابلة لمراكز الاخصام كان فيها جبرائيل مشاقة وبعض أتباع الأمير. واشتد القتال والهجومات كانت متواصلة ويخرج منها رجال للمدافعة وبارود السرايا الشرقي يحميها إلى أن قتل كثيرين من جماعة العريان، وأما من جماعة الأمير فلم يقتل سوى أخيه الأمير محمد برصاص أصاب دماغه». (مشاقة، م. ن. ص ١٢٤).

(٦٤) المعلوف، دواني القطوف، ص ٢٩٨، حاشية (١).

(٦٥) مشاقة، المصدر السابق، ص ١٢٤ و١٣٠.

(٦٦) م. ن. ص ١٥٧، و Ismaïl, Op. cit, T6. p. 246.

الفصل الثالث

مقاطعة البقاع

كانت مقاطعة البقاع تتضمن اقطاعة مهمة حكمها الأمراء الحرفوشيون طوال العهدين المعني والشهابي هي «بعلبك»، أما مقاطعة البقاع بكاملها، فكان يعود حكمها، في هذين العهدين، إلى ولاة دمشق الذين كانوا يعينون عليها حكاماً ومتسلمين من قبلهم، وغالباً ما كان المعنيون، ومن بعدهم الشهابيون، يطمعون في التزامها، نظراً لكثرة المزارع والقرى والممتلكات التي كانت لرعاياهم من أهالي الجبل فيها[١].

ففي عام ١٦٩٨، أي عام انتقال السلطة في إمارة الشوف من المعنيين إلى الشهابيين، كان على بعلبك أمير من آل حرفوش هو «الأمير حسين الحرفوش» الذي حكم تلك البلاد نحو ربع قرن من الزمن، حيث قتل في أثناء ثورة أهالي بعلبك عليه عام ١٧٢٤، فخلفه ابنه الأمير اسماعيل الذي لم يمكث في الحكم طويلاً، إذ خلفه في الإمارة، الأمير حيدر الحرفوش «وكان هذا الأمير عاتياً، فهجر كثيرون المدينة - بعلبك - والبلاد لثقل وطأة الأمراء عليهم»[٢].

وفي عام ١٧٤٨ تولى حكم البقاع الأمير ملحم الشهابي، أمير الشوف، بأمر من والي دمشق أسعد باشا العظم، فولى الأمير ملحم عليها أخويه الأميرين أحمد ومنصوراً، ولكن هذين الأميرين لم يتمكنا من دفع الأموال المترتبة عليهما لوالي دمشق لقاء ولايتهما على البقاع، مما اضطر هذا الأخير إلى تجييش الجيوش، في العام نفسه، والانتقال بها إلى البقاع، لطرد الأميرين الشهابيين منها، ولكن الأمير ملحماً انتصر لأخويه، ووقعت بين الفريقين

معركة في صحراء بر الياس، انتهت بهزيمة أسعد باشا وعودته إلى دمشق خائباً(٣).

وكان الحرفوشيون قد انقسموا فيما بينهم، فمنهم من انضم إلى والي دمشق ضد الأمير الشهابي، مثل الأمير حيدر الحرفوش الذي كان أميراً على بلاد بعلبك قبل تولية الأمير ملحم على البقاع، ومنهم من حالف الأمير الشهابي وقاتل إلى جانبه مثل الأمير حسين أخي الأمير حيدر، وهكذا، فما أن انتصر الأمير ملحم في معركته على والي دمشق حتى أرسل عسكراً من عنده إلى بعلبك، فطرد الأمير حيدر منها وسلمها إلى حليفه الأمير حسين(٤)، الذي ظل في الحكم حتى عام ١٧٥١ حيث قتل على يد أخيه الأمير حيدر الذي عاد فتولى حكم بعلبك بدلاً منه(٥).

توفي الأمير حيدر الحرفوش عام ١٧٧٤ فخلفه في الحكم أخوه الأمير مصطفى، ولكن الأمير درويش ابن الأمير حيدر رفض أن يعترف بالإمارة لعمه، وسعى إلى الأمير يوسف أمير الشوف، وكان قد تسلم حكم البقاع عام ١٧٧١، يطلب مؤازرته لاستعادة الإمارة من عمه باعتباره الوريث الشرعي لها من أبيه، ولما لم يلب الأمير يوسف طلبه سعى إلى عكا حيث توسط الشيخ ضاهر العمر لهذه الغاية، فأجابه الشيخ ضاهر إلى طلبه، وتمّ الاتفاق على أن يقتسم الأميران مصطفى ودرويش حكم بلاد بعلبك(٦).

غير أن خلافاً وقع بين الأمير مصطفى وأخيه الأمير محمد عام ١٧٨٢، سعى، على أثره، الأمير محمد للحصول على إمارة بعلبك، فقصد الأمير يوسف الشهابي بدير القمر، وطلب مؤازرته لإزاحة أخيه عن الحكم وتوليته مكانه، فلبى الأمير يوسف طلبه، وأوفد معه، إلى البقاع، جيشاً من خمسة آلاف رجل(٧) بقيادة ابني عمه الأميرين بشير قاسم وحيدر أحمد الشهابيين، وما أن علم

الأمير مصطفى بقدوم هذا الجيش إلى بلاده حتى فرّ منها إلى حمص، وتولى الأمير محمد الحرفوش حكم بعلبك بدلاً منه.

ولكن حكم الأمير محمد لم يستمر طويلاً، إذ ما لبث أن تمكن أخوه الأمير مصطفى من اقناع محمد باشا العظم والي دمشق بمؤازرته لعودته إلى الحكم، فأرسل معه جيشاً لطرد أخيه الأمير محمد، وتمّ له ذلك، فتسلم حكم بعلبك من جديد، بينما فرّ الأمير محمد لاجئاً إلى الأمير يوسف الشهابي الذي أسكَنه قرية المجدل بجرود المتن، وظل في كنفه حتى عام ١٧٨٦ حيث توفي عنده بدير القمر ودفن في مدافن الشهابيين(٨).

واستمر الأمير مصطفى بعد ذلك حاكماً على بعلبك، وتحالف مع الأمير يوسف الشهابي، أمير الشوف، إلا أنه، بعد سنة واحدة من حكمه أي عام ١٧٨٤، ضج الناس من ظلمه وتعسفه، وكان قد تولى على دمشق درويش باشا ابن عثمان باشا الصادق، فأرسل إليه عسكراً من عنده ألقوا القبض عليه وعلى اخوته الستة وساقوهم جميعاً إلى دمشق حيث مات ثلاثة منهم، ومن بينهم الأمير مصطفى، شنقاً(٩) على يد الوالي الذي عيّن على بعلبك حاكماً من قبله هو سليم آغا.

وكان الأمير جهجاه الحرفوش ابن الأمير مصطفى قد تمكن من الفرار من وجه عسكر دمشق، فلجأ إلى إحدى قبائل العرب المناصرة له حيث اختفى فترة من الزمن، ثم عاد يسعى من جديد للحصول على إمارة أبيه، وكان والي دمشق قد استبدل بحاكم بعلبك سليم آغا حاكماً آخر هو محمد آغا، واستطاع الأمير جهجاه أن يجمع حوله عدداً كبيراً من أنصاره حيث دهم بهم بعلبك، ذات ليلة من عام ١٧٨٦، فدخلوها خلسة وقاتلوا محمد آغا ورجاله، فهزم محمد آغا إلى دمشق، وحكم الأمير جهجاه البلاد.

وفي عام ١٧٨٧، زحف المنلا اسماعيل على البقاع بجيش من ولاية دمشق بلغ عديده نحو ألف ومايتي خيّال[١٠]، لطرد الأمير جهجاه من بعلبك، فلقيه جهجاه وأخوه سلطان، وقد حشدا لقتاله عدداً غفيراً من رجالهما من أهالي البقاع، ودارت بين الفريقين معركة انتهت بهزيمة عسكر الوالي، وباستتباب الحكم للأمير جهجاه، الذي ما لبث أن تحالف عام ١٧٨٨ مع الأمير يوسف الشهابي أمير الشوف، وكان قد التزم البقاع من الجزار والي دمشق في ذلك الحين، إلا أن الجزار أمر، في العام نفسه (١٧٨٨)، برفع يد الأمير يوسف عن البقاع، فقاتله الأمير يوسف وحليفه الأمير جهجاه وانتصرا على حليفيه أميري راشيا وحاصبيا في معركة قرب كامد اللوز بالبقاع[١١].

وفي عام ١٧٨٩ كان الأمير بشير الثاني قد تسلم الحكم في إمارة الشوف، وكان الأمير جهجاه الحرفوش لا يزال حاكماً على بعلبك، فخرج على الأمير جهجاه ابن عمه الأمير قاسم ابن الأمير حيدر الحرفوش، وقصد الأمير بشيراً طالباً مؤازرته لكي يتولى بعلبك بدلاً من ابن عمه جهجاه، ووافقه الأمير بشير على ذلك وأرفقه بعسكر إلى البقاع كي يطرد جهجاه ويتولى الحكم مكانه، ولكن جهجاه كان قد أعدّ للحرب عدّتها، فما أن وصل عسكر الأمير بشير مع الأمير قاسم الحرفوش إلى جوار بعلبك حتى كان الأمير جهجاه ورجاله بانتظارهم، ودارت بين الفريقين معركة انتهت بهزيمة الأمير قاسم وجيشه من رجال الأمير بشير، وأخذ الأمير جهجاه منهم «جملة سلاح وخيل»، كما أسر أحد أمرائهم «الأمير مراد ابن الأمير شديد اللمع» ثم عاد فأطلق سراحه[١٢]. ولكن الأمير قاسماً لم ييأس فأعاد الكرة وعاد للقتال من جديد «بعسكر من الدروز ومن بلاد بعلبك» وفاجأ ابن عمه الأمير جهجاه على مداخل مدينة بعلبك، فخرج جهجاه إليه، وتقابل الرجلان في وسط

الجند، ولكن رصاصة أصابت من الأمير قاسم مقتلاً، فتفرق رجاله وعاد الأمير جهجاه إلى بعلبك ليستمر في حكم البلاد بأمان، منذ عام ١٧٩٠[١٣].
وكان ابراهيم باشا والي دمشق قد عيّن عام ١٧٨٩ متسلماً من قبله على البقاع هو ابراهيم آغا، ثم استبدله في العام التالي ١٧٩٠ بحاكم آخر يدعى أحمد بن عمردبوس[١٤]. ويظهر أن متسلم البقاع لم يكن ليؤثر بشيء على حكم الأمير جهجاه لبعلبك الذي استمر حتى عام ١٧٩٤ حيث زاد، على ما يبدو، طغيان الأمير جهجاه تجاه الرعية، وخصوصاً تجاه أقربائه المقربين من والي دمشق، فقتل ابن عمه الأمير داود ابن الأمير عمر الحرفوش، وسمل أعين اخوته[١٥]، مما دفع بوالي دمشق لأن يجيش ضده جيشاً ويزحف به نحو البقاع، وما أن وصل هذا الجيش إلى «رأس بعلبك» حتى فرّ الأمير جهجاه هارباً بينما دخل جيش دمشق مدينة بعلبك وأحرق بعض منازلها[١٦] وعاد إلى بلاده، بينما عاد الأمير جهجاه إلى بعلبك من جديد.

أمام هذه الأوضاع، كان لا بد للأمير الحرفوشي من حليف قوي يستند إليه في مواجهة تقلبات الولاة في دمشق، وكان اسم الأمير بشير الشهابي قد بدأ بالظهور، ونجمه قد بدأ باللمعان، فحالفه الأمير جهجاه، ولم يتوانَ عن مناصرته في الساعات الحرجة من حكمه، ولما عاد الأمير بشير من الزبداني عن طريق بعلبك عام ١٧٩٩ قاصداً عكار ومنها طرابلس حيث استقل مركباً إلى غزة فعريش مصر[١٧] «قدم له الأمير جهجاه الذخاير»[١٨] وجهّز رجاله بما يحتاجون إليه في سفرهم من زاد لهم وعلف لخيولهم.

ولكن لم يلبث أن دبّ الخلاف بين الأخوين جهجاه وسلطان على حكم بعلبك، ففي العام ١٨٠٦ ظهرت النفرة بين الأميرين، وأيدت أغلبية الشعب الأمير سلطان لما لقيه الناس من ظلم الأمير جهجاه وتعسفه، فترك الأخير

البلاد ونزح بأهله إلى عكار، وظل فيها إلى أن أصلح الأمير بشير بين الأخوين وأعاد الأمير جهجاه إلى الحكم عام ١٨٠٧[١٩].

ولم يستمر تفاهم الأخوين طويلاً، إذ انه، في عام ١٨٠٩، قصد الأمير سلطان والي دمشق كنج يوسف باشا وطلب منه توليته على بعلبك مكان أخيه، على أن يدفع له، مقابل ذلك، ثلاثماية كيس[٢٠]، فقبل الوالي، وأرفق الأمير سلطان بعسكر من عنده إلى بعلبك لطرد أخيه الأمير جهجاه منها، وما أن علم الأمير جهجاه بذلك حتى استنفر رجاله وأرسل أهله إلى عكار، ومشى بجيشه إلى الكرك حيث لبث ينتظر أخاه وجيشه من جند دمشق، ودارت بين الفريقين معركة في «الكرك» (في شهر نيسان عام ١٨٠٩) انتهت بهزيمة الأمير جهجاه ومقتل ثلاثة من رجاله، فانتقل إلى زحلة حيث أقام فيها، وكان الأمير بشير يعطف على الأمير جهجاه ويأنس إليه، فتوسط له مع كنج يوسف باشا لكي يبقيه في إمارته، ووعد كنج يوسف الأمير بشيراً بذلك، إلا أن الأمير جهجاه لم يثق بوعد والي دمشق، فغادر زحلة إلى عكار، واستتب حكم بعلبك بعد ذلك للأمير سلطان، بينما أرسل كنج يوسف إلى البقاع حاكماً جديداً[٢١].

ولكن الأمير سلطان لم يستمر في حكم بعلبك طويلاً، إذ سرعان ما بدأ الأمير جهجاه يسعى للعودة إلى الحكم، فعاد إلى البلاد في مطلع العام التالي (١٨١٠) وتصالح مع أخيه، وأقام في كنفه، ولكن سلطان أساء معاملة جهجاه، ويظهر انه قرّر سراً، اغتياله، ولاحظ جهجاه ذلك ففرّ منه إلى حماه، ولجأ إلى المنلا اسماعيل الذي كفله عند والي دمشق بناء لوساطة من الأمير بشير الثاني، وقبل كنج يوسف باشا كفالة المنلا اسماعيل لجهجاه، ووعد بإعادته إلى الحكم لقاء ماية ألف قرش تدفع حالا إلى خزينة الولاية، إلا أنه نكث بوعده

مدعياً انه لا يستطيع نقض تعهده للأمير سلطان، وبقي جهجاه عند المنلا اسماعيل ينتظر تغير الأحوال لصالحه[٢٢].

وفي العام نفسه (١٨١٠) تسلم والي صيدا سليمان باشا، صديق الأمير بشير وحليفه، ولاية دمشق، بدلاً من كنج يوسف باشا، وذلك بالإضافة إلى ولايته على صيدا، فكان أول عمل قام به هو إرضاء حليفه الأمير بشير وإعادة الأمير جهجاه إلى حكم بلاد بعلبك، على أن يكون الأمير خليل ابن الأمير بشير الشهابي حاكماً على بلاد البقاع كلها[٢٣].

ولكن الصراع على الحكم عاد من جديد بين الأخوين جهجاه وسلطان، وكان هذا الأخير قد ترك البلاد منذ أن تسلم أخوه الحكم (عام ١٨١٠) ولجأ إلى حلفاء له في عكار (عبود بك الأسعد ابن عم علي بك الأسعد حاكم عكار) دون أن يتوانى عن السعي للعودة إلى الإمارة، فاغتنم فرصة وصول سليمان باشا (والي دمشق وصيدا) إلى حماة عام ١٨١٢، وعرض عليه إعادته إلى حكم بعلبك مكان أخيه على أن يدفع له ضعفي ما دفع أخاه، أي مايتي ألف قرش[٢٤]، ولكن والي دمشق رفض ذلك في البدء نزولاً عند رغبة صديقه الأمير بشير، إلا أنه عاد فقبل عرضه وولاه على بعلبك، واصحبه بجند من عنده لطرد الأمير جهجاه من البلاد، ففرّ الأمير جهجاه بعياله إلى «الضنية» ودخل الأمير سلطان بعلبك حاكماً[٢٥].

ولكن الأمير سلطان كان ظالماً في حكمه، إذ انه جمع من الرعية أموالاً أميرية مضاعفة، مما جعل الناس يتذمرون منه ويشكونه إلى الوالي، كما شكاه رعايا الجبل المقيمون في مزارعهم بالبقاع إلى أميرهم (الأمير بشير)، وهكذا، ما أن مرّ عام واحد على تسلمه الحكم في بعلبك، حتى قرّر سليمان باشا والي دمشق عزله عنه وإعادة الأمير جهجاه إلى حكم البلاد، وكان ذلك عام

١٨١٣ إذ أصطحب الوالي جهجاه بجند من عنده إلى بعلبك لطرد أخيه الأمير سلطان منها، وكان هذا الأخير قد شعر بتغير الأحوال ضده فحاول الهرب طالباً اللجوء عند بعض حلفائه العرب، إلا أن جند الوالي تمكنوا من القبض عليه وسوقه إلى دمشق حيث بقي في السجن فترة من الزمن أفرج بعدها عنه وعاد إلى بعلبك ليتصالح مع أخيه[٢٦].

واستتب الحكم بعد ذلك للأمير جهجاه حتى وفاته عام ١٨١٧، حيث ضبط أخوه الأمير أمين متروكات أخيه المتوفى، ثم سار إلى دمشق والتمس من واليها صالح باشا، حكم بعلبك، فمنحه إياه، وعاد الأمير أمين إلى بعلبك ليطرد منها أخاه الأمير سلطان، ويحكم البلاد بمفرده[٢٧].

ولكن الأمير نصوحاً ابن الأمير جهجاه لم يطق أن يستأثر عمه بالحكم الذي كان لأبيه، فقرّر عام ١٨٢٠ أن يطالب به لنفسه، وقصد الأمير بشيراً أمير الشوف، يلتمس منه مساعدته لاسترداد حكم بعلبك من عمه، فأنجده الأمير وأرفقه بجيش من رجال الشوف بقيادة الأمير ملحم حيدر الشهابي، فلما علم الأمير أمين بذلك فرّ من البلاد لاجئا إلى المشايخ الحماديين في الهرمل حيث لجأ أخوه الأمير سلطان، ولحق بهما الأميران نصوح وملحم إلى بلاد الهرمل ففرا إلى بلاد عكار، عندها عاد الأمير نصوح إلى بعلبك ليحكم البلاد بعد أن تلقى براءة الحكم من والي دمشق نفسه، وعاد الأمير ملحم بجنده إلى الشوف[٢٨].

وما أن علم الأمير أمين بمغادرة جند الأمير الشهابي بلاد بعلبك حتى أغار عليها ليطرد ابن أخيه الأمير نصوحاً منها، ففرّ هذا الأخير إلى زحلة، واستقر الأمير أمين ببعلبك من جديد، ولكن إلى حين، إذ إن الحرب استمرت سجالاً بين الخصمين المتنافسين على الإمارة، ولكن، عندما وجد الأمير

نصوح انه لن يتمكن من إزاحة عمه عن الحكم، بسبب قوته أولاً، وبسبب ميل الناس إليه ثانياً، أتاه إلى بعلبك مستغفراً، فغفر له، في الظاهر، إلا أنه - أي الأمير أمين - أضمر له - أي للأمير نصوح - الشر والعدوان، وقد نفذ ذلك فعلاً عندما أوعز إلى حد اتباعه بمداهمة ابن أخيه الذي كان مقيماً في قرية «مجدلون» فخنقه وهو نائم[٢٩]، واستمر الأمير أمين في حكم بعلبك بعد ذلك حتى دخول القوات المصرية إلى بلاد الشام عام ١٨٣١، حيث فرّ بعياله من وجه هذه القوات، وتسلم حكم بعلبك أمير موال لابراهيم باشا هو الأمير جواد الحرفوش[٣٠].

أما البقاع، فقد ظل في عهدة الأمير الشهابي حتى عام ١٨٢١ حيث أعطى درويش باشا، والي دمشق، الحكم فيه إلى حسن آغا العبد[٣١]، ثم إلى محمد آغا بوزو (في تشرين الأول عام ١٨٢١)، إلا أن الأمير بشيراً وجّه، في العام نفسه (١٨٢١)، وبناء لأمر من عبدالله باشا والي عكا، ابنه الأمير خليلاً، بجيش من رجال الشوف، إلى البقاع، لطرد حاكمها المعين من قبل والي دمشق، فدهم الأمير خليل البقاع وأجبر حاكمها على الفرار إلى الشام، ونهب جنده القرى ثم عادوا إلى بلادهم ظافرين[٣٢]، بينما عاد الحاكم محمد آغا، بعد ذلك، إلى مركزه بالبقاع.

ولكن الأمير بشيراً لم يكن ليكتفي بذلك، بل ظل «يمخرق» في قرى البقاع دون أن يترك لهذا الحاكم فرصة للاستقرار في البلاد، وكان درويش باشا قد ألقى القبض على عدد من رعايا الأمير المقيمين بدمشق، مما أثار حفيظة الأمير وحليفه عبدالله باشا والي عكا، وجرت المفاوضات بين الأمير ودرويش باشا للتهدئة، فكانت شروط الأمير، فيما يختص بحكم البقاع وبلاد بعلبك، كما يلي:

« - يكون الحاكم على البقاع من قبل والي الشام من تحت أمر الأمير كما كان قديما ويرفع زود المطاليب المستجدة على رعايا البقاع.

« - حاكم بلاد بعلبك، يكون من الأمراء بيت الحرفوش الذي يختاره الأمير، لأجل رفع المظالم عن رعايا تلك البلاد من بيت الحرفوش»[٣٣].

وظل الصراع على البقاع مستمراً بين الأمير ووالي دمشق حتى عام ١٨٣١، حيث دان البقاع بكامله للأمير، إذ انه، ما أن استتب الأمر لابراهيم باشا المصري في بلاد الشام حتى وزّع المعسكرات في أرجائها المختلفة، ومنها البقاع، حيث بنى في بعلبك ثكنة كبيرة حشد فيها الجند والسلاح، وجعل من المدينة المذكورة مركزاً لتحشدات الجيوش، نظراً لموقعها الاستراتيجي المميز، وباعتبارها نقطة وسطاً بين أطراف تلك البلاد من جهاتها الأربع، أما جواد الحرفوش، أمير بلاد بعلبك، فقد حكم تلك البلاد باسم ابراهيم باشا، وبإشراف الأمير بشير الشهابي الذي فوّض إليه القائد المصري «إدارة مصلحة» بلاد الشام[٣٤]، فكانت مناسبة مثالية لكي يتمكن الأمير من السيطرة على البقاع، حلمه القديم وطموحه المزمن، وحاول الأمير أمين (الحرفوش) أن يستميل إليه الأمير بشيراً لكي يعود، بواسطته، إلى حكم بعلبك، وقصده إلى مقره ببيت الدين مقدماً الخضوع والطاعة وملتمساً رضى الأمير والباشا المصري، ووعده الأمير بإصلاح حاله مع القائد المصري، إلا أن حلفاء الأمير أمين لم يأمنوا جانب الأمير الشهابي فأثنوا الأمير أميناً عن قصده، وكانت خيّالة «الهنادي» التابعة لابراهيم باشا لا تزال تطارده في بلاد بعلبك بغية إلقاء القبض عليه وإنهاء تمرده، فطارده أربعماية من هؤلاء الخيّالة إلى «عين الوعول» شمال بعلبك، ولم يكن معه سوى ابنه الأمير «قبلان» واثني عشر خيالاً من أنصاره المقرّبين، ودهمه خيّالة الباشا في تلك الأرض الوعرة الصعبة

المسالك وأطبقوا عليه بخيولهم وسيوفهم إلا أنه تمكن من الإفلات، مع مرافقيه، وارتد سالكاً شعاب الجبل حيث لم يتمكن خيّالة الباشا من اللحاق به، فعادوا أدراجهم، أما هو فقد تابع سيره، مع ابنه الأمير قبلان، إلى الآستانة، حيث أقاما فيها إلى أن غادر ابراهيم باشا بلاد الشام[٣٥].

إلا انه، في العام ١٨٣٤، ألغى الأمير بشير استقلالية الأمراء الحرفوشيين في بلاد بعلبك، كما فعل مع أمراء وادي التيم بحاصبيا وراشيا، ورتّب لهم معاشاً[٣٦]، ثم عيّن ابراهيم باشا أحد أعوانه، أحمد آغا الدزدار، متسلماً على بعلبك بدلاً من الأمير جواد الحرفوش، الذي تمرّد عندئذ على الدولة المصرية وأخذ يحرّك الفتن ضدّها، وقد تجمّع لديه نحو خمسماية مقاتل[٣٧]، فطاردته قوات شريف باشا حاكم دمشق في نواحي يبرود، ودهمته قوّة من خيّالة الأكراد تعدّ نحو مايتي خيّال، ولم يكن معه سوى بعض أقربائه من الأمراء، وثلاثين خيّالاً من رجاله[٣٨]، ودار بين الفريقين قتال هزم على أثره الأمير جواد وفرّ نحو بلاد حمص حيث اختبأ فترة من الزمن، إلى أن دهمته عام ١٨٣٩ كتيبة من خيّالة الهنادي في منطقة يقال لها «الحريشة»، فملكت «جسر التل» القائم على العاصي، وسدّت في وجهه كل المسالك، إلا أنه رغم كل ذلك، استطاع أن يفلت من الطوق الذي أحاط به، ولكنه لم يجد بداً من الاستسلام، فقصد الأمير بشيراً لكي يستسلم على يديه ولكن بشيراً سلّمه إلى شريف باشا الذي «أماته شر ميتة»[٣٩].

وقد شرح الأمير بشير، في رسالة منه إلى محمد شريف باشا حاكم دمشق، مؤرّخة في غاية جمادى الأولى ١٢٥٥هـ (آب ١٨٣٩م) ظروف استسلام الأمير جواد فقال: «نعرض انه، ليلة تاريخه الجمعة نحو الساعة الواحدة من الليل فلم نشعر إلا والأمير جواد الحرفوش حضر لمحلنا وقيعاً متراميا، وحيث

أننا لا محل لنا ولا وقيع إلا هو رضى هذه الدولة السعيدة، فحالاً وضعناه تحت الترسيم لكي نوجهّه إلى أعتاب دولتكم ويكون الأمر به لسعادتكم وبعده سيصل محفوظاً، والآن لأجل إحاطة العلم السامي بذلك اقتضى تقديم هذه العريضة عجالة»[٤٠]. وقد رفع شريف باشا، فور ذلك، إفادة إلى ابراهيم باشا ينبئه بالأمر ويفيده بأنه «سيأمر بإعدام الأمير جواد لدى وصوله إلى دمشق امتثالاً للأمر السر عسكري السامي»[٤١]، مما يدل على أن أمر إعدام الأمير جواد الحرفوش قد صدر عن ابراهيم باشا نفسه وليس بمبادرة من حاكم دمشق أو بتوصية من الأمير بشير.

ولم يلبث أن استبدل ابراهيم باشا، بأحمد آغا الدزدار، خليل آغا وردة كحاكم لبعلبك، ثم الأمير حمد الحرفوش الذي ظل حاكماً لهذه البلاد حتى عام ١٨٤٠، عام خروج ابراهيم باشا من بلاد الشام[٤٢].

وفي هذه الأثناء انضم الأمير خنجر الحرفوش وأخوه الأمير سليمان إلى الأمير علي اللمعي قائد الثوار ضد الحكم المصري في المتن، ومعهما نحو أربعماية خيّال من رجالهما، حيث أخذوا، جميعاً، يطاردون فلول الجيش المصري المنسحب من البقاع[٤٣]، وجرت مناوشات متعددة بين الأمير خنجر ورجاله وبين الجنود المصريين في البقاع، ثم بينه وبين الأمير عبدالله الشهابي حليف ابراهيم باشا في غزير، حيث أسر على أثرها الأمير خنجر على يد الأمير عبدالله، ولكن أنصاره استطاعوا انقاذه من الأسر[٤٤]، فانضم بعد ذلك إلى القائد العثماني عزت باشا، ورافق عمر باشا النمساوي في قتاله ضد المصريين وحلفائهم الشهابيين، وظل في خدمة الدولة العثمانية حتى خروج ابراهيم باشا نهائياً من بلاد الشام، حيث كافأته الدولة بتوليته على بعلبك والبقاع في العام نفسه (١٨٤٠)، بعد هروب حمد الحرفوش منها[٤٥].

وكان من بين الذين ثاروا على الحكم المصري من آل حرفوش عام ١٨٤٠:

- الأمير محمد الذي «قاد فرقة مؤلفة من تسعماية من رجاله وسبعماية من رجال المعلقة، قرب زحلة، وهزم فرقة من الجنود المصريين الذي كانوا يواكبون ذخيرة للجيش المصري، فغنم الذخيرة وأسر أربعماية جندي»[٤٦].

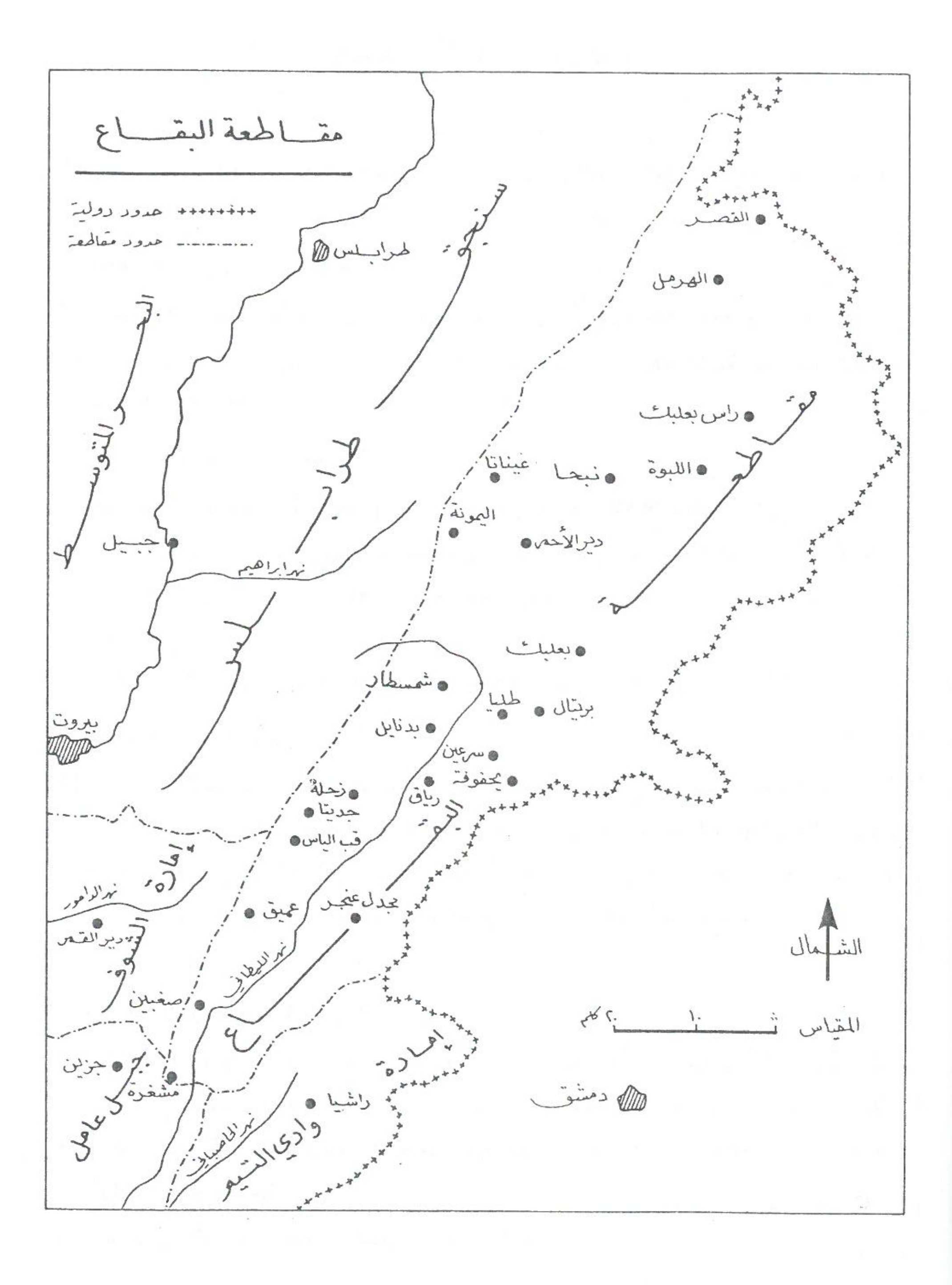
- والأمير محمود «الذي أغار (بتاريخ ٢٩ حزيران) على حصن قريب من بعلبك حيث كانت تقيم فرقة من الجيش المصري مؤلفة من أربعماية خيّال ومااية راجل، فدخل الموقع واستولى على خمسة مدافع فيه وأسر مايتي جندي، كما غنم عدداً من صناديق الذخيرة، ثم تابع تقدمه نحو بعلبك حيث وصلها عند غروب الشمس، وفي صباح اليوم التالي، ٣٠ حزيران، تمكّن من احتلالها، واستولى على مخازن الأسلحة والذخيرة فيها، كما أسر ثلاثماية جندي من حاميتها وكل المشاة الذين كانوا متمركزين فيها، أما الخيّالة المصريون فقد تمكّنوا من الهرب باتجاه زحلة حيث يوجد القائد المصري عثمان باشا، الذي، ما أن علم بالأمر، حتى أرسل نحو خمسماية خيّال لنجدة حامية بعلبك، ولكن فرقة الخيّالة هذه التقت بالهاربين في منتصف الطريق وقد لحق بهم الأمير محمود يطاردهم، فعادت أدراجها إلى زحلة بلا تنظيم. أما الأمير محمود، فإنه في اليوم نفسه (الثلاثاء ٣٠ حزيران) صادف قافلة مصرية من ثلاثماية جمل محملة ذخيرة ومواكبة بأربعماية خيال، متّجهة نحو حلب، فهاجمها إلا أن هؤلاء لم يقاوموا، فأخذ القافلة كلها»[٤٧].

وفي العام ١٨٤١ عاد الأمير أمين الحرفوش وابنه الأمير قبلان من الآستانة ومعهما أمر بتولي الحكم في بعلبك، إلا أن الأمير أميناً توفي فور وصوله إلى بيروت، وقصد ابنه الأمير قبلان دمشق ليطلب من واليها المصادقة

على الفرمان المعطى من الآستانة لأبيه بتولي بعلبك حيث يتولاها هو خلفاً له، ولكنه أصيب بعارض صحي جعله مجنوناً طوال ما تبقى من حياته حيث توفي وهو على هذه الحالة عام ١٨٦٤[٤٨].

وظل الأمير خنجر حاكماً على بعلبك والبقاع من قبل الدولة العثمانية حتى عام ١٨٤٢، حيث عزل عن الحكم وولي بدلاً منه على بعلبك الأمير حسين ابن الأمير قبلان الحرفوش، إلا أنه كان صغير السن فأقيم الأمير سعدون وصياً عليه إلى أن توفي هذا الأخير عام ١٨٤٣، فاستلم الأمير حمد زمام الحكم وظل فيه حتى عام ١٨٤٥، حيث احتدم الصراع على الحكم بينه وبين ابن عمه الأمير محمد الحرفوش، ودار بينهما قتال عنيف أدّى، في نهايته، إلى تجزئة بعلبك وشرق البقاع إلى اقطاعات صغيرة يحكمها هؤلاء الأمراء.

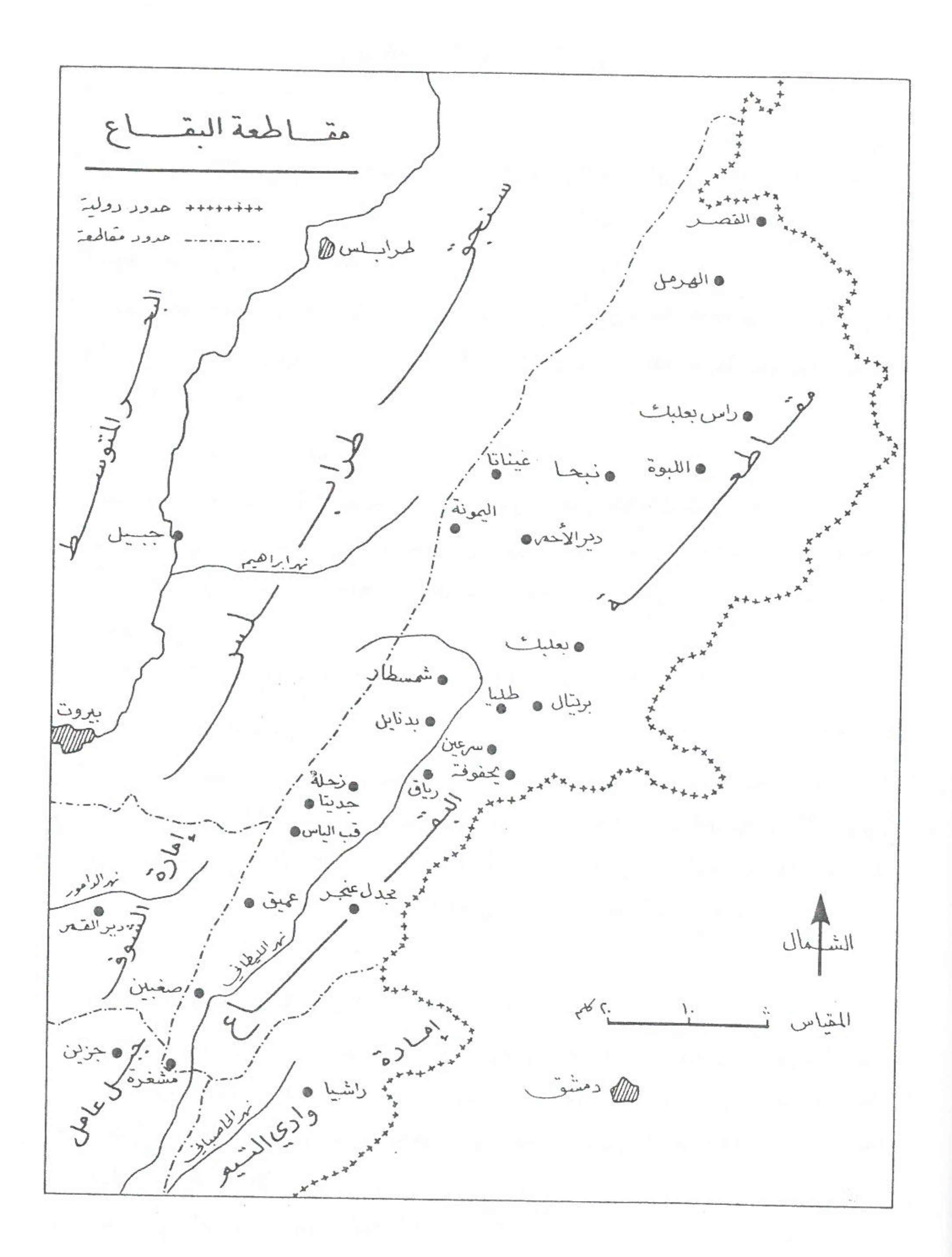
وفي العام ١٨٥٠ حاول الأمير محمد الخروج على الدولة العثمانية فقاد تمرداً ضد العثمانيين في البقاع، وجرت بينه وبينهم مناوشات عديدة أدّت إلى اضطهاد الحرفوشيين وقتل الكثير منهم وإلقاء القبض على عدد من زعمائهم. ثم ما لبث العثمانيون أن أعادوا تنظيم البلاد إدارياً فأنشأوا «لواء بعلبك وشرق البقاع» التابع لولاية دمشق، وجعلوا عليه حكاماً من قبلهم كان أولهم «تيمور باشا»، وكانت تلك مناسبة لمطاردة الحرفوشيين واضطهادهم والقضاء على ما تبقى من زعامتهم، وهكذا، وفي عام ١٨٦٦ انتهت، بشكل كامل، سلطة الحرفوشيين على بعلبك والبقاع، ولم يبق من هذه الأسرة إلا بعض أفرادها الذين أضحوا بلا سلطة ولا سند، موزّعين على بعض القرى المهملة من قرى البلاد التي حكموها طوال خمسة قرون[٤٩].



على الفرمان المعطى من الآستانة لأبيه بتولي بعلبك حيث يتولاها هو خلفاً له، ولكنه أصيب بعارض صحي جعله مجنوناً طوال ما تبقى من حياته حيث توفي وهو على هذه الحالة عام ١٨٦٤ (٤٨).

وظل الأمير خنجر حاكماً على بعلبك والبقاع من قبل الدولة العثمانية حتى عام ١٨٤٢، حيث عزل عن الحكم وولي بدلاً منه على بعلبك الأمير حسين ابن الأمير قبلان الحرفوش، إلا أنه كان صغير السن فأقيم الأمير سعدون وصياً عليه إلى أن توفي هذا الأخير عام ١٨٤٣، فاستلم الأمير حمد زمام الحكم وظل فيه حتى عام ١٨٤٥، حيث احتدم الصراع على الحكم بينه وبين ابن عمه الأمير محمد الحرفوش، ودار بينهما قتال عنيف أدّى، في نهايته، إلى تجزئة بعلبك وشرق البقاع إلى اقطاعات صغيرة يحكمها هؤلاء الأمراء.

وفي العام ١٨٥٠ حاول الأمير محمد الخروج على الدولة العثمانية فقاد تمرداً ضد العثمانيين في البقاع، وجرت بينه وبينهم مناوشات عديدة أدّت إلى اضطهاد الحرفوشيين وقتل الكثير منهم والقاء القبض على عدد من زعمائهم. ثم ما لبث العثمانيون أن أعادوا تنظيم البلاد إدارياً فأنشأوا «لواء بعلبك وشرق البقاع» التابع لولاية دمشق، وجعلوا عليه حكاماً من قبلهم كان أولهم «تيمور باشا»، وكانت تلك مناسبة لمطاردة الحرفوشيين واضطهادهم والقضاء على ما تبقى من زعامتهم، وهكذا، وفي عام ١٨٦٦ انتهت، بشكل كامل، سلطة الحرفوشيين على بعلبك والبقاع، ولم يبق من هذه الأسرة إلا بعض أفرادها الذين أضحوا بلا سلطة ولا سند، موزّعين على بعض القرى المهملة من قرى البلاد التي حكموها طوال خمسة قرون (٤٩).



حواشي الفصل الثالث

(١) أنظر الجزء الأول، الإمارة المعنية، الفصل الأول من الباب الأول: البقاع، وكانت «الهرمل» إقطاعة خاصة بمشايخ بيت حمادة، ومن أعمال طرابلس.

(٢) الوف، ميخائيل، تاريخ بعلبك، ص ٩٦.

(٣) أنظر الجزء الثاني: الفصل الثاني من الباب الأول (الأمير ملحم: وقعة بر الياس ١٧٤٨).

(٤) الشدياق، أخبار الأعيان، ج ٢ : ٣١٨ - ٣١٩، والشهابي، تاريخه، طبعة الجامعة اللبنانية، قسم ١ : ٣٧ - ٣٨.

(٥) الوف، المرجع السابق، ص ٩٧.

(٦) الشهابي، المصدر السابق، قسم ١ : ١٠٦، ويذكر دراغون Dragon النائب التجاري الفرنسي بصيدا، في رسالة منه إلى الدوق ديغويون، الوزير، أمين سر الدولة الفرنسية، بتاريخ ٣١ أيار ١٧٧١ ان «الصدر الأعظم قد منح الأمير يوسف بلاد بعلبك مكافأة له على خدماته الجيّدة».

- (Ismaïl, Documents diplomatiques et consulaires, T2. p. 176).

(٧) الوف، المرجع السابق، ص ٩٨.

(٨) الشهابي، المصدر السابق، قسم ١ : ١٢٤. ويذكر الشهابي أن الأمير محمداً التقى في حمص بعبدالله باشا العظم الذي كان والياً على دمشق، فطلب منه إعادته إلى الإمارة على أن يدفع له مبلغ ٢٥ ألف قرش فرفض عبدالله باشا طلبه، وانتظر الأمير محمد حتى تولى دمشق وال جديد هو محمد باشا العظم الذي أجابه إلى طلبه (م. ن. ص. ن.).

(٩) كرامة، مصادر تاريخيّة، ص ٨٠.

(١٠) الوف، المرجع السابق، ص ٩٩.

(١١) تولى الجزار ولاية دمشق عام ١٧٨٥ وعزل عنها عام ١٧٨٨ حيث تولاها ابراهيم باشا (الشهابي، المصدر السابق، قسم ١ : ١٤١ و١٤٥، وكرامة، المصدر السابق، ص ٨٤) وانظر، لمعركة كامد اللوز بين الأمير يوسف وأميري حاصبيا وراشيا، الجزء الثاني: الفصل الرابع من الباب الأول.

(١٢) الشهابي، المصدر السابق، قسم ١ : ١٥٠ - ١٥١.

(١٣) م. ن. قسم ١ : ١٥١. ويذكر ألوف ان الأمير بشيراً، عندما علم بهزيمة جيشه في بعلبك، جهّز جيشاً آخر لقتال الأمير جهجاه بقيادة الأمير حسن الشهابي، فدخل هذا الجيش بعلبك بعد أن أخلاها الأمير جهجاه، إلا أنه عاد فخرج منها نظراً لقلة الزاد (ألوف، المرجع السابق، ص ٩٩) إلا أن الشهابي، وكذلك الشدياق، لم يذكرا هذه الرواية التي لم يذكر ألوف مصدرها.

(١٤) الشهابي، المصدر السابق، قسم ١ : ١٤٩ و١٥٢، وكان والد هذا الأخير، عمر دبوس، اضاباشي عند الأمير ملحم ببيروت، وقد رحل بعد وفاة الأمير ملحم، مع ابنه أحمد، إلى دمشق (م. ن. قسم ١ : ١٥٢).

(١٥) م. ن. قسم ١ : ١٧٩.

(١٦) ألوف، المرجع السابق، ص ١٠٠.

(١٧) راجع الجزء الثاني: الفصل الأول من الباب الثاني (الأمير بشير الثاني الكبير: حياته السياسية).

(١٨) الشهابي، المصدر نفسه، قسم ١ : ٢٠١.

(١٩) ألوف، المصدر السابق، ص ١٠٠ - ١٠١.

(٢٠) الشهابي، المرجع السابق، قسم ٣ : ٥٤٢.

(٢١) م. ن. قسم ٣ : ٥٤٢ - ٥٤٤.

(٢٢) م. ن. قسم ٣ : ٥٦٠.

(٢٣) م. ن. قسم ٣ : ٥٨١.

(٢٤) م. ن. قسم ٣ : ٥٨١.

(٢٥) م. ن. ص. ن.

(٢٦) م. ن. قسم ٣ : ٥٨٦ - ٥٨٧ و٥٨٩ - ٥٩٠ و٥٩٤.

(٢٧) م. ن. قسم ٣ : ٦٣٣ - ٦٣٦.

(٢٨) الوف، المرجع السابق، ص ١٠١، والشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٦٣٣ و٦٣٦ و٦٩٣.

(٢٩) الوف، المرجع السابق، ص ١٠١ - ١٠٢، والشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٧٧٩.

(٣٠) الوف، المرجع السابق، ص ١٠٢.

(٣١) العبد، حسن آغا، تاريخه، ص ١٧٩. ويذكر «مارتان» Martin قنصل فرنسا بصيدا، في تقريره عن أحداث الجبل في الفترة ما بين ٧ نيسان و١٣ أيار ١٨٢١ ان «باشا دمشق كان قد أعطى الأمير بشيراً حكم ثلاث مقاطعات عائدة لولاية دمشق، وهي: البقاع، وحاصبيا، وحوران».

- (Ismaïl, op. cit.,T3. p. 158).

ويذكر، في رسالة أخرى منه، مؤرخة في ١٧ كانون الأول ١٨٢١، إلى البارون باسكييه Baron Pasquier وزير الخارجية الفرنسية، ما يعتبر تبريراً لحكم أمير الشوف وجبل لبنان على البقاع وهو أن «أهالي الجبل يمتلكون عدة ممتلكات في مقاطعة البقاع التابعة لبشالق دمشق». .(Ibid, p. 180) -

(٣٢) الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٦٩٤ – ٦٩٧.

(٣٣) م. ن. قسم ٣ : ٦٩٨، وانظر الشروط بكاملها في الفصل الخامس من الباب الثاني: معارك الأمير بشير (قتال الأمير ضمن تحالفاته الداخلية: ١٨٢١ – ١٨٢٢).

(٣٤) رستم، المحفوظات الملكية، مجلد ١ : ١٨٩ وثيقة رقم ٤٩٩.

(٣٥) ألوف، المرجع السابق، ص ١٠٢.

(٣٦) مشاقة، منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب، ص ١٢٣.

(٣٧) يذكر «بيريتييه Pérétié» قنصل فرنسا بطرابلس، في رسالة منه إلى المرشال «سولت» وزير الخارجية الفرنسية، بتاريخ ٧ حزيران ١٨٣٩، ان الأمير جواداً كان يتزعم عصابة من المتمردين يبلغ عددها خمسماية رجل.

- (Ismaïl, op. cit., T5. p. 421).

(٣٨) ألوف، المرجع السابق، ص ١٠٢.

(٣٩) ألوف، المرجع السابق، ص ١٠٢ – ١٠٣، ومشاقة، المصدر السابق، ص ١٣٨، ويذكر ألوف ان الأمير بشيراً كان يكره الأمير جواد الحرفوش فخانه وسلمه إلى شريف باشا (ص ١٠٣)، بينما يذكر مشاقة انه، عندما علم الأمير بشير بعزم شريف باشا على قتل الأمير جواد، وذلك عن طريق حفيده الأمير محمود الذي كان في دمشق، كتب إلى بحري بك يسأله «إذا لم يمكن العفو عنه – أي عن الأمير جواد – فأؤمل أن يبدل قصاصه بنوع غير القتل لكونه حضر بنفسه طايعاً» ولكن شريف باشا لم يأخذ برأي الأمير وأقدم على قتل الأمير جواد،

مما جعل الأمير يقلق من تصرفات الحكام المصريين التي «أوجعته» كثيراً «وأضعفت أمنيته بالمصريين، وصار يترقب منهم زوال نعمته كما أزالوا نعمة غيره» (ص ١٣٨). واننا نرى رأي مشاقة في عدم رغبة الأمير بشير بقتل الأمير جواد، وان كنا نرى انه – أي مشاقة – بالغ في تقدير نتائج هذا القتل على نظرة الأمير للمصريين.

(٤٠) رستم، المحفوظات، مجلد ٤ : ١٨٢، وثيقة رقم ٥٩٦٠.

(٤١) رسالة من محمد شريف باشا إلى ابراهيم باشا بتاريخ غرة جمادى الآخرة ١٢٥٥هـ (آب ١٨٣٩م)، (رستم. م. ن. مجلد ٤ : ١٨٢، وثيقة رقم ٥٩٦٠).

(٤٢) ألوف، المرجع السابق، ص ١٠٣.

(٤٣) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٦١، وألوف، المرجع السابق، ص ١٠٣ و

- (Ismaïl, op. cit., T6. p. 70).

(٤٤) ألوف، م. ن. ص ١٠٣ – ١٠٤.

وانظر أيضاً وقعة «وطا الجوز» التي هزم فيها الأمير خنجر على يد الأمير مجيد الشهابي وحلفائه المصريين عام ١٨٤٠ (الفصل السابع من الباب الثاني: معارك الأمير بشير في ظل الحكم المصري لبلاد الشام – دور الأمير في مقاومة الثورة العامة على الحكم المصري في بلاد الشام، والفصل التاسع من الباب نفسه: الأمير بشير الثالث).

(٤٥) ألوف، م. ن. ص ١٠٤، ويذكر الشدياق ان خنجراً رافق عمر باشا النمساوي إلى بيت شباب عام ١٨٤٠ حيث وزّعا الأسلحة على أهلها (المرجع السابق، ج ٢ : ٤٦٩).

(٤٦) رسالة بوريه Bourée قنصل فرنسا ببيروت، إلى تيير Thiers رئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية الفرنسية، بتاريخ ١٦ حزيران ١٨٤٠. .(Ismaïl, op. cit., T6. p. 66) -

(٤٧) رسالة أخرى من بوريه إلى تيير بتاريخ ٣ تموز ١٨٤٠، تروي أحداث الثورة في البقاع في خلال يومي ٢٩ و٣٠ حزيران. .(Ibid. p. 88) -

(٤٨) ألوف، المرجع السابق، ص ١٠٤ – ١٠٥.

(٤٩) م. ن. ص ١٠٦ – ١٠٧، والمعلوف، دواني القطوف، ص ١٥٥، حاشية (٤) وانظر، الجزء الأول، الإمارة المعنية، الفصل الأول من الباب الأول (البقاع)، و: Salibi, Encyclopédie - de l'Islam, T111, p. 211, (Harfuh).

الفصل الرابع

سنجق طرابلس

كانت باشوية طرابلس، أو ولاية طرابلس، تمتد على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط غرباً، من حدود اللاذقية شمالاً، حتى نهر الكلب جنوباً، ويحدّها من الشرق سلسلة من الجبال تفصلها عن واد ضيّق يجري فيه نهر العاصي[١]، وقد أنشئت عام ١٥٧٩ من خمسة سناجق هي: حمص وحماة وجبلة والسلمية وطرابلس[٢]، وبلغ عدد سكانها عام ١٨١٢ = ٢٣٦٠٣٠ نسمة[٣]، وقيل إن هذا العدد قد بلغ، في العام نفسه: ٢٦٧٤٩٠ نسمة[٤]، وكانت أهم اقطاعاتها: اللاذقية، وصافيتا، وعكار، وجزيرة أرواد، وطرطوس، والضنية، والمنية، وجبة بشري، والزاوية، والكورتان السفلى والعليا، والبترون، وجبيل، وطرابلس، والقلمون[٥].

أما سنجق طرابلس فكان يتألف من بلاد جبيل والبترون وجبة بشري والكورتين السفلى والعليا والزاوية والضنية وعكار والحصن وصافيتا، وقد سبق أن تحدثنا عن هذا السنجق في الجزء الأول من الموسوعة[٦].

ويذكر أوغست أندريه أنه، في مطلع القرن التاسع عشر، كان حكام صافيتا من آل زكار، وهم مشايخ، وحكام عكار من آل الأسعد (أو المرعب) وعبود والقدور، وهم (بكوات)، وحكام الضنية من آل رعد[٧]، أما حكام باقي الإقطاعات فكانوا إما مقدمين من أهل البلاد يعينهم الباشا (جبة بشري)، أو أمراء شهابيين على الغالب (في بلاد جبيل والبترون)، أو زعماء من أهل البلاد (كما في الزاوية والكورة والحصن).

وكما كان للباشوية (أو الولاية) وال يتولاها بفرمان سلطاني، كان لمدينة طرابلس متسلم يحكمها، وكان لقلعتها محافظ أو (دزدار) تناط به حمايتها، وكان الباشا، أو الوالي، هو الذي يعيّن متسلم المدينة أو محافظ القلعة، عاماً بعد عام[٨]. ورغم أن «فولني» قدّر عدد سكان طرابلس عام ١٧٨٤ بما يراوح بين ٤ و٥ آلاف نسمة[٩]، فإن أوغست أندريه في مذكراته عام ١٨١٢ قد قدّر عدد سكان هذه المدينة بـ ١٤٢٠٠ نسمة، ملاحظاً أن فيها ١٣٠٠ من الإنكشارية (من الاورطتين ٣٦ و٦٧) وماية من حرس الشواطئ[١٠]، بينما قدّر ألفونس غيز، قنصل فرنسا بطرابلس، عدد سكان هذه المدنية بـ ١٤٩٠٠ نسمة ملاحظاً أن فيها ١٢٠٠ جندي انكشاري وماية من حرس الشواطئ[١١].

ومع انتقال إمارة الشوف من المعنيين إلى الشهابيين (عام ١٦٩٨) كانت إمارة طرابلس بيد آل المطرجي، إذ تسلمها قبلان باشا المطرجي عام ١٦٩٨ ثم ما لبث أن سلّمها إلى أخيه ارسلان عام ١٧٠٠، بينما انتقل هو (أي قبلان باشا) إلى ولاية صيدا (أو عكا)[١٢]، إلا أنه، بدخول القرن الثامن عشر، وبالتحديد في ١٧٠٣، بدأ يتناوب على ولاية طرابلس ولاة معظمهم من أصل شامي، ومن أسرة شامية معروفة هي آل العظم، وقد ظلوا يتناوبونها حتى آخر القرن الثامن عشر[١٣].

ويبدو ان هذا القرن قد مرّ على طرابلس دون أحداث مهمة تذكر، مما جعل من الصعب معرفة المتسلمين الذين حكموا هذه المدينة، بالتالي، طوال القرن المذكور، وان كان قد سهل حصر الولاة الذين تولوا باشوية طرابلس، كما ذكرنا. وباستثناء الوقعة التي جرت بين الأمير يوسف الشهابي أمير الشوف وبين محمد باشا ابن عثمان باشا الصادق الكرجي (والي دمشق وطرابلس) وحلفائه المشايخ الحماديين، في أميون عام ١٧٦٩[١٤]، يمكن

القول إن تبدل الحكام في ولاية طرابلس كان عملاً روتينياً تقوم به السلطنة بلا عناء.

مصطفى آغا بربر متسلم طرابلس:

إلا انه، في أواخر القرن الثامن عشر، وبالتحديد في العام ١٧٩١، تسلم طرابلس، في عهد واليها أحمد باشا الجزار[١٥]، رجل فذ استطاع أن يترك بصماته على هذه المدينة، وبالتالي على سنجق طرابلس بكامله، طوال نحو نصف قرن من الزمن، هذا الرجل هو مصطفى آغا بربر[١٦].

برزت شخصية مصطفى آغا بربر متسلم طرابلس على سواه من متسلمي الإقطاعات في السنجق، منذ أن تسلم الحكم في المدينة، إذ كان «على جانب من الشجاعة والإقدام والفراسة»[١٧]، كما كان طموحاً، عنيداً في تشبثه بطموحه، وكان يحكم أكبر مدينة من مدن السنجق، بل عاصمته، وهي طرابلس، كما كان يمتد حكمه إلى قلعتها في غالب الأحيان، لذا قضى معظم سني حكمه في صراع مستمر مع جيرانه الطامعين بانتزاع حكم المدينة من يديه.

ففي العام ١٨٠١ طمع علي بك الأسعد، متسلم عكار، بحكم طرابلس، فطلب ذلك من عبدالله باشا العظم والي دمشق الذي منحه متسلمية المدينة، إلا أنه - أي علي بك الأسعد - لم يقدر أن ينتزعها من مصطفى آغا بربر الذي كان قد تسلم قلعة طرابلس بالإضافة إلى المدينة، وظل حاكماً للمدينة وقلعتها رغم إرادة والي دمشق[١٨].

وفي العام ١٨٠٣ سار عبدالله باشا العظم والي دمشق بجيشه إلى طرابلس لمعاقبة مصطفى آغا بربر وطرده من المدينة، وذلك لأن بربر كان قد

«تملك المدينة والقلعة وعصي على الدولة وقتل مصطفى آغا ابن الدلبة وطرد ابراهيم سلطان»[19]، وما أن أوقع عبدالله باشا الحصار على المدينة حتى تحصّن بربر في القلعة ثم أرسل إلى الجزار يستنجده، فأنجده الجزار بجند وذخائر عن طريق البحر، ولكن عسكر دمشق المحاصِر للقلعة والمدينة استطاع أن يحتل الميناء ويُبطل انزال جند الجزار بعد أن قتل منهم عدداً كبيراً، وحاول الجزار مرة أخرى أن يسعف حليفه بَربر بمدد عن طريق البحر ففشل للمرة الثانية، وغرق للجزار ثماني قطع بما فيها من جند وذخائر[20]، وفي هذه الأثناء، تمكن الجزار من الحصول على ولايتي طرابلس ودمشق بالإضافة إلى عكا فسار بجيشه إلى دمشق لاحتلالها وطرد عبدالله باشا منها، وما أن علم عبدالله باشا بذلك حتى فكّ الحصار عن طرابلس ورجع مسرعاً إلى دمشق، فالتقى بجيش الجزار قرب حماة ودارت بين الجيشين معركة ضارية انتهَت بهزيمة الجزار وقتل عدد كبير من جنده، ولكن ما أن وصل عبدالله باشا إلى ضواحي دمشق حتى أحسّ أن معظم جنده قد خانه وانفك عنه فهرب، مع نفرٍ قليلٍ من رجاله، نحو بغداد[21].

وما أن دهم الموت الجزار في العام ١٨٠٤، وأنعمت الدولة على ابراهيم باشا بولايات صيدا ودمشق وطرابلس (أيلول ١٨٠٤)، وكان مصطفى بربر لا يزال متسلماً على مدينة طرابلس، حتى أرسل الوالي الجديد ابراهيم آغا سلطان متسلماً على المدينة (تشرين الأول ١٨٠٤)، ولكنه لم يتمكن من دخولها بسبب مناعة دفاع بربر عنها، ورغم أن ابراهيم آغا كان معزّزاً بأعداد كبيرة من رجال الأمير بشير الشهابي أمير الشوف (بقيادة أخيه الأمير حسن وجرجس باز مدبر الأمير، والشيخ بشير جنبلاط حليف الأمير) ومن رجال الأمير سلطان الحرفوش أخي الأمير جهجاه الحرفوش أمير بعلبك، إلا أنه، ما

أن وصل بعسكره هذا إلى ضواحي بلدة «المنية» شمال طرابلس، حتى تحقق من استحالة التغلب على بربر، «فرجع جرجس باز إلى جبيل والأمير حسن إلى محله، ورجع الأمير سلطان إلى بعلبك والشيخ بشير والجميع كل توجه إلى مكانه»[22]. وتمّ، بعد ذلك، اتفاق بين جرجس باز (مدبر الأمير بشير) وبربر على أن يتسلم الأول بلاد جبيل لقاء دفعه ميري تلك البلاد إلى بربر[23].

وهكذا نرى أن مصطفى آغا بربر قد استطاع، بقوته، أن يحافظ على مركزه كمتسلم لمدينة طرابلس ومحافظ لقلعتها، بل استطاع أن يمد نفوذه إلى عدد غير قليل من اقطاعات السنجق، فيخلع، عام ١٨٠٧، على الأمير حسن الشهابي أخي الأمير بشير حكم بلاد جبيل[24]، يضاف إلى ذلك أن موت الجزار حرّر بربر من سطوة الباشا الوحيد الذي كان يخشاه، فهو لم يعترف بوصاية العديد من الولاة الذين خلفوا الجزار على طرابلس، خصوصاً أن معظمهم بقي بعيداً عن الولاية وعاصمتها، مما أتاح لبربر كثيراً من حرية التصرف في حكم المدينة. وكما كان بربر بالنسبة إلى الولاة، كان كذلك بالنسبة إلى الباب العالي، فهو لم يكن في خانة الطائعين الخانعين للسلطنة ولا في خانة المتمردين عليها، إذ هو يطيع الأوامر التي لا تتناقض مع قناعاته، ويدفع الضرائب المترتبة على متسلميته بلا تردّد، إلا أنه يهدّد بالتوقف عن ذلك إذا لم تستجب السلطنة إلى طموحه[25]... إن مصطفى بربر هو نسخة فظة عن الجزار نفسه[26]، هكذا يقول «ألفونس غيز» قنصل فرنسا بطرابلس في تلك الفترة، إلا أننا نجد في هذا القول مبالغة كبيرة، خصوصاً عندما نعلم أن القنصل المذكور وبربر كانا على خلاف. ويعزو غيز هذا الخلاف إلى تقاربه الملحوظ مع باشا طرابلس، عدو بربر، كما يصفه غيز[27]، مما يجعل رجلاً مسؤولاً مثل بربر، يرسل إلى القنصل، بواسطة الترجمان، كلاماً مثل «إن مصطفى بربر لا يعترف بالسلطان

ولا بباشا طرابلس ولا بشيخ الإسلام ولا بأية سلطة في المدينة، ولا بأمبراطورية فرنسا ولا بأية قوة، وأقل من ذلك بالقنصل...» وهذا الكلام مأخوذ عن سجلات القنصلية الفرنسية بطرابلس[٢٨]. ويضيف غيز عن بربر: «هذا الرجل الفظ وغير الجدير بأية مدنية، أراد بي دائماً سوءاً، إما لأنني لم أكن ألتمس الحظوة له لدى الباب العالي، أو لأنني لم أبادر إلى زيارته، عكس العادة، الزيارة الأولى»[٢٩].

ولكن ذلك لم يستمر طويلاً، إذ دبّ الخلاف بين كنج يوسف باشا والي دمشق وطرابلس، وبربر متسلم طرابلس عام ١٨٠٧، وذلك عندما طلب الوالي من بربر الحضور إلى مقابلته والمثول أمامه بدمشق، فرفض بربر وأبى الامتثال لأوامر الوالي المذكور، مما أثار حنق الوالي وغضبه على بربر، واغتنم خصوم بربر في الإقطاعات الشمالية، أمثال علي بك الأسعد متسلم عكار واخوته وأبناء عمومته، هذه الفرصة، فأوغروا صدر الوالي على بربر وشجعوه لكي يهاجم طرابلس ويطرد بربر منها، بينما اتصل بربر بالأمير بشير أمير الشوف «وشرح له ما توقع (وقع) من أصحاب المقاطعات وما أبدوه نحوه من الحقد الزايد»[٣٠]، مستنجداً به لكي يتوسط بينه وبين والي دمشق، وقد تمّ له ذلك على يد الأمير الشهابي.

١ - القتال بين بربر وكنج يوسف باشا والي دمشق وحصار طرابلس (١٨٠٨ - ١٨٠٩):

إلا أنه في العام التالي ١٨٠٨، أقدم كنج يوسف باشا على مهاجمة طرابلس وحصارها، بعد أن أنذر بربر بوجوب تسليمها وتسليم القلعة بناء لأوامر السلطنة، ولكن بربر الذي وافق على تسليم المدينة «إلى أي من كان» رفض أن

يسلم القلعة أو أن يخرج منها «لأن بها حافظ حياتي»[٣١]، وحاول الوالي إغراء بعض عملائه الموجودين في القلعة لعلهم يتمكنون من قتل بربر إلا أنه لم يوفق في ذلك، فأحكم عندها الحصار على المدينة والقلعة، وجرى بينه وبين عسكر الارناؤوط، من جند بربر الذي يحمي المدينة، قتال شديد تمكن جند بربر من جرائه منع جند دمشق من دخول المدينة أو اقتحام أسوارها.

وطالت مدّة الحصار، وعمل كنج يوسف باشا ليل نهار، مجرباً كل الوسائل، لعله يتمكن من اختراق الأسوار، أو ثني المدافعين عن صمودهم، إلا أنه لم يفلح، فقد شنّ جنده هجمات عديدة على حامية المدينة المدافعة عنها، إلا انهم ردّوا على أعقابهم بعد أن قتل الكثير منهم. واستقدم كنج يوسف باشا، من لدن سليمان باشا والي صيدا، لغّامين لكي يصنعوا له ألغاماً يفجّر بواسطتها أسوار المدينة والقلعة بقصد اختراقها، ولكن هؤلاء لم يوفّقوا كذلك في دك أسوار المدينة والقلعة، تارة لجهلهم وطوراً لتمكن بربر من إبطال مفعول ألغامهم، فقد حفر هؤلاء اللغامون للغم الأول «طلع فيه حجر» ثم حفروا للثاني «فطلع فيه ماء» وحفروا للثالث «فعلم بربر ووضع فوقه ماء» وأبطله، عندها ترك اللغامون طرابلس وعادوا إلى عكا[٣٢].

حتى ان قنصل فرنسا حاول أن يساعد الوالي على احتلال المدينة، فأرسل إليه مدفعيين متمرّسين برمي المدفعية، كي يفتحوا في أسوار المدينة والقلعة ثغرات يدخل منها الجنود المهاجمون، واستقدم الوالي مدافع كبيرة من جزيرة أرواد ركّزها خلف تلال من التراب وبدأ يقصف بها القلعة، ولكن بربر رد على مدفعية الوالي بمدفعية مضادة فهدم بعض المتاريس وعطّل بعض المدافع.

واستمر الوالي في محاولته لقصف القلعة بالمدفعية، فكان كلما ينصب مدفعاً يضربه بربر بمدفع مقابل فيعطله، وكلما ينصب متراساً يقصفه بربر

بالمدفعية فيهدمه، وحاول بعض رجاله اقتحام الأسوار فقصفهم بربر بالمدافع ورماهم برصاص البنادق فقتل عدداً كبيراً منهم، كما قتل قائدهم الدرويش علي دالبياش الكبير «وكان على رأس عسكر الوزير وعليه الاتكال والتدبير»، وحاول الوالي أن يقيم متاريس عند «قبة النصر» مقابل المدينة، بناء لنصيحة من حليفه علي بك الأسعد، فأقام متاريس كبيرة وعظيمة، إلا أن بربر هدمها كلها بمدافعه الكثيرة وقتل اثنين من ضباط الوالي العاملين على هذه المدافع[٣٣].

بعد كل هذه المحاولات، يئس الوالي من إمكان احتلال طرابلس وقلعتها «ورجع في الملام على علي بك الأسعد لأنه هو الذي كان سبب قيامه من الشام»، وحاول علي بك الأسعد اقناع الأمير بشير والشيخ بشير جنبلاط لعلهما يقيمان الحصار على بربر بينما يعود الوالي إلى دمشق، ولكن الأمير والشيخ اعتذرا عن ذلك «لأن الأمير لا يمكنه مفارقة بلاده» عارضين تقديم الجند اسعافاً للوالي إذا رغب بذلك[٣٤].

وعهد الوالي إلى علي بك الأسعد متابعة الحصار بعد أن خلع عليه متسلمية المدينة وعزم على العودة إلى دمشق، إلا أن بعض المدافع، التي كانت قد نصبت على تل من الرمل قرب الميناء ومقابل القلعة، كانت قد تمكنت من إصابة ثلاثة من أبراجها فهدمتها، ثم أصابت أحد جدرانها فهدمته أيضاً، ما شجع الوالي على البقاء، فعدل عن العودة إلى دمشق وقام «مواضباً بذاته في استعمال آلات الحصار»[٣٥].

واستمر الحصار حتى آخر يوم من شهر كانون الثاني عام ١٨٠٩، وكان قد طال كثيراً، وبدأ بربر ورجاله يفتقرون إلى الزاد والذخيرة، وأيقن بربر أن الوالي لن يبرح أسوار المدينة إلا بعد سقوطها بيده، وكان قد أرسل إلى سليمان

باشا والي صيدا يتوسطه لكي يجد مخرجاً لائقاً له تجاه والي دمشق، وكان ذلك ما يريده سليمان باشا نفسه، وكذلك كنج يوسف باشا الذي أتعبه الحصار وأضنكه، فأصبح راغباً في «خروج بربر من القلعة على أي حال كان»، وتمّ الاتفاق على أن يخرج بربر بماله وعياله من القلعة ويسير إلى عكا عن طريق البحر «وان يكون مؤمّناً على حاله من الغدر»، وهكذا خرج بربر من القلعة مع من كانوا محاصَرين معه «وكانوا نحو ألفين من نساء ورجال»، وتسلم كنج يوسف باشا القلعة والمدينة في الشهر نفسه (كانون الثاني ١٨٠٩) ووضع عليهما علي بك الأسعد متسلماً من قبله، بينما أبرّ بربر وعياله في صيدا، فأبقى عياله فيها، وذهب هو إلى عكا ليقدّم الشكر والطاعة إلى سليمان باشا[٣٦].

وقد أفاض ألفونس غيز Alphonse Guys، قنصل فرنسا بطرابلس في تلك الفترة، في رسائله وتقاريره إلى وزارة الخارجية الفرنسية، في الحديث عن القتال الذي جرى بين حامية طرابلس بقيادة بربر والجيش المحاصِر للمدينة بقيادة كنج يوسف باشا والي الشام، ورغم أن رسائل هذا القنصل كانت مليئة بالكراهية والعداء لبربر، فإنها تظل تقدم لنا مادة غنية بالمعلومات المحسوسة والمرئية عن هذا الحصار، وفيما يلي بعض ما يهم المؤرّخ لهذه الأحداث منها:

١ - في رسالة بتاريخ ٢٣ آب ١٨٠٨، ذكر غيز انه، في الثامن عشر من هذا الشهر، سقطت مدينة طرابلس بأيدي خيّالة كنج يوسف باشا، أما القلعة فلا تزال صامدة حتى الآن... وجاء في الرسالة نفسها أن الباشا اعترف بضرورة الحصول على مدفعية غير تلك المدافع الصغيرة التي بحوزته، كي يقصف بها قلعة طرابلس، وقد حصل عليها من جزيرة أرواد... أما جيش الباشا الذي يحاصِر القلعة فهو مؤلف من ألفي رجل من خيّالة الدالاتية، و٤

آلاف من مشاة السكمان والمغاربة والأرناؤوط، ومن أهل عكار، وبعض الطرابلسيين، وحاشية الباشا، ويقدّر عديد هذا الجيش بكامله بنحو ٧ آلاف رجل. وقد دخل هذا الجيش المدينة فجراً، بعد أن توزع إلى أربع كتائب احتلت مختلف أحياء المدينة، ثم توزعت في داخلها إلى فصائل أخذت تحطم أبواب المنازل المهجورة من سكانها وتنهبها، ولم تحصل إلا مناوشات بسيطة بين جند الباشا وبعض الأرناؤوط والطرابلسيين المتمركزين في منازل تقع على مرتفعات تحت القلعة تماماً، أما القلعة فلم يصدر عنها أي اطلاق نار... ولكن مدفعية بربر ما لبثت أن بدأت بإسماع أصواتها، إلا أنها كانت دون فعالية تذكر...

وقدّر «غيز» في رسالته هذه عدد الرجال الذين يحملون السلاح في القلعة بأربعماية رجل، عدا النساء والأطفال والشيوخ الذين لجأوا إلى القلعة عند دخول جند الباشا إلى المدينة، كما ان فيها الكثير من المؤن والذخائر والأمتعة الثمينة... وأما السلاح، فقدّر غيز أن في القلعة نحو أربعين مدفعاً من مختلف العيارات... وهذا ما حدا بالباشا لأن يطلب من القنصل الفرنسي تزويده بعدد من المدفعيين الفرنسيين لكي يساعدوه في التعجيل بسقوط القلعة، وقد سعى القنصل إلى تلبية طلب الباشا(٣٧).

٢ - وفي رسالة بتاريخ ٥ أيلول ١٨٠٨، ذكر غيز انه استطاع أن يستقدم، من قبرص، أحد عشر مدفعياً بأمرة نقيب قديم في جيش البر هو النقيب روسي Rossi، وان الباشا سرّ كثيراً بهؤلاء المدفعيين الفرنسيين ولم يتردّد في منحهم كل ما طلبوه مقابل خدمتهم في جيشه... وهكذا أصبح النقيب «روسي» قائد بطارية مدفعية في جيش الباشا الذي يحاصر طرابلس، وهي بإمرة الباشا شخصياً، وتحوز على ثقته، وقد ركّزت على تلة مشرفة على القلعة وخصّصت

لحمايتها، وحدة من الجيش، بإمرة علي بك الأسعد «الذي له أكبر مصلحة باستسلام القلعة»(٣٨).

٣ - وفي رسالة بتاريخ ٤ تشرين الأول ١٨٠٨، ذكر غيز أن مدفعيي الباشا تركوا مراكزهم الواقعة على تلة مشرفة على القلعة، وذلك لأنهم كانوا معرضين لنيرانها، وحفروا خنادق لهم في السهل على هضاب رملية وعلى مدى مدفعيتهم، حيث تمكنهم مراكزهم الجديدة من الرمي على القلعة رماية جانبية... وتبدو جدران القلعة مزروعة بآثار القذائف، ومع ذلك فإن بربر يعرف جيداً عدم جدوى قذائفه، أما مدفعية الباشا فقد أعطت المثل بجودة التسديد والرمي، حتى تمكنت من فتح ثغرة في حصن صغير من حصون القلعة... وما أن رأى الباشا قسماً مهماً من ذلك الحصن يسقط، حتى بادر إلى مكافأة طاقم المدافع التي نفذت ذلك الرمي وصاح «أنا اليوم باشا طرابلس». هذا وقد تلقى الباشا، من الباب العالي، ذخائر حربية ومدافع وهواوين وعدداً كبيراً من المدفعيين، ويبدو أن الغاية من إرسال كل هذه الأعتدة والأسلحة هو الاستعداد لحملة قريبة على الوهابيين(٣٩).

٤ - وفي رسالة بتاريخ ١٨ تشرين الأول ١٨٠٨، ذكر غيز انه، ما أن علم سليمان باشا، والي صيدا، بنجاح بطاريات كنج يوسف باشا، بدك حصون قلعة طرابلس، حتى أرسل إليه إحدى سفنه الحربية حاملة ما يراوح بين ٧٠٠ و٨٠٠ قذيفة، كما ان الباشا استحصل على عدد من القذائف من اللاذقية، مجاناً... وجاء في الرسالة نفسها ان النقيب «روسي» لم يكن مرتاحاً لوجود بطاريته قريبة جداً من القلعة، بينما نجد أن مدفعيي الباشا قد وضعوا مدفعاً في خرائب السراي على مسافة قريبة من القلعة، وقد كان لهذا المدفع فعالية كبيرة، وتابع القنصل: «إن الإرادة الضعيفة لهذا الضابط المدفعي، وخصوصاً بتعجيله

بالذهاب، أثارت في نفسي الشكوك نحو... وقد لفت البعض انتباهي إلى النقود الذهبية (Séquins) التي يصرفها روسي (Rossi)، مع علمي انه أتى من قبرص بلا نقود اطلاقاً، وانه، حسب معرفتي، لم يتلق من حسابه لدى الباشا، نقداً، إلا الجزء اليسير، بينما قبض الباقي حوالات مصرفية. إن الأرناؤوط يقولون علناً اليوم إن روسي قد قبض مالاً من مصطفى آغا (وقد سبق أن حدثتكم عن انه منّهم، عند العامة، بعلاقة علنية مع بربر)... ويمكن أن يكون روسي قد أقام علاقات خاصة مع مصطفى آغا بواسطة اثنين من طاقم مدفعيته يتكلمان اللغة الايبيرية»... وقد زار علي بك الأسعد الأمير بشير الشهابي أمير الشوف الذي هبّ لاستقباله عند نهر الكلب، وتحدث الرجلان، في هذه المناسبة، بقدوم «الدروز» إلى طرابلس والالتحاق بمواقع الباشا أو الإسهام في تدابير المراقبة، ولكن الأمير بشيراً، الذي يخشى سقوط بربر، «يغازل الباشا الذي لن يدّخر وسعاً ليفتك به، ذات يوم»(٤٠).

٥ - وفي رسالة بتاريخ ٢٧ تشرين الأول ١٨٠٨، ذكر غيز ان باشا دمشق وطرابلس دخل طرابلس في اليوم الثاني من رمضان ١٥٢٤هـ (٢٢ تشرين الأول ١٨٠٨) بابهة وفخار، «وقد لحظنا للباشا، الذي دهش لهذه الخسة، ان بربر لا يريد باشا ولا قنصلاً»، ورغم كل الموانع والعراقيل، فقد ثابرت مدفعية الباشا على قصف القلعة حتى دمّرتها من جانبيها الشرقي والشمالي... وقد تلقى الباشا ذخائر كثيرة من حمص ومن جميع حكامه القريبين من طرابلس، أما بربر، فلم يعد لديه سوى مدفعين، لذا، فهو يرمي، أحياناً، بالرصاص على البطارية، حيث يوجد الباشا باستمرار، ... وقد قرّر الباشا أن يعبئ جميع اقطاعييه القريبين منه، وهذا ما يؤمن له ما يراوح بين ألفين وثلاثة آلاف رجل يمكنهم أن يسهموا في إسقاط القلعة، وقد لوحظ أن «الدروز» لم يكونوا معنيين

بهذا القرار «كما علمنا، من بعض المصادر، ان الباشا يفكّر، بعد أن ينتهي من بربر، ان يعيد الأمير بشيراً إلى داخل الحدود القديمة لإمارته». وذكر غيز، في حاشية الرسالة، ان هدنة وقعت بين الباشا والقلعة التي طلبت الاستسلام، ولكنه تأكد بعد ذلك ان الباشا لم يرضخ لأي طلب من طلبات بربر، وعادت المدفعية تعمل من جديد(٤١).

٦ - وفي رسالة بتاريخ ١٠ تشرين الثاني ١٨٠٨، تحدث غيز عن المفاوضات التي كانت تجري بين بربر والباشا في أثناء الحصار، فقال إنه كان لدى بربر اقتراحات لم تكن مقبولة من الباشا... وان الباشا قد قابل تلك الاقتراحات بوعود إلى بربر، إذا ما استسلم، «أن يخلع عليه، وان يأخذه إلى دمشق مع وعد بأن يلتمس له العفو ويعيده متسلماً على طرابلس»، وضمان هذه الوعود، ولا شك «كلمة الوزير وقسمه»، ولكن بربر ردّ على ذلك باقتراحات لم يقبلها الوزير، بل أغضبته، فأقفل باب المفاوضات، وقرّر مغادرة طرابلس مع كامل جيشه تقريباً، تاركا إلى علي بك الأسعد أمر الاستمرار في محاصرة القلعة...

وشغل هذا القرار الناس أياماً، ولكن حدث ذات يوم أن وصل الباشا إلى تحت أسوار القلعة ليعطي بعض التوجيهات لجنده، فسمع، في داخل القلعة، أصوات فرح وصراخاً بشتائم مقذعة ضد شخصه، فاستشاط غضباً، ورجع فورا إلى مقره، واستدعى إليه جميع قادته، وأعطى أمراً معاكساً بالبقاء على الحصار، ثم أقسم، بأغلظ الإيمان، انه لن يبرح طرابلس ولو أزهقت نفسه، إلا بعد أن يسقط بربر... وعادت المدافع تسمع من جديد، واستؤنف القتال، وتسلم الباشا كميات أخرى جديدة من الذخائر من حمص، وكرّر أوامره بتعبئة الجند من كل مكان، وأكد الباشا على الهدف الأهم لحملته وهو ضرورة إنهاء بربر(٤٢).

٧ - وفي رسالة بتاريخ ٢٢ تشرين الثاني ١٨٠٨، ذكر غيز أن «الحرارة التي تابع بها الباشا الحصار، والنشاط الذي أعطى به الأوامر إلى جميع اقطاعييه لكي يجمعوا الذخائر من كل نوع، يجعلان المرء يظن أن الوزير، عندما اعتمد هذا الأسلوب، في الاعلان عن عزمه على الرحيل ثم العودة عنه، إنما أراد التأكد من استعدادات جيشه، أو انه أراد مفاجأة أحد ما في الداخل، بالتحريض على بعض الخطوات الخاطئة»... ورغم ان يوسف باشا لم يكن مغلول اليد تجاه جنده الذين كانوا يقبضون رواتبهم بدقة متناهية قلما يوجد مثلها عند الشرقيين، فإن كثيراً منهم كان يقبض من الجهتين المتقاتلتين، فيعيشون حياة بورجوازية نادرة المثال، باستثناء أن يطلقوا عند أول الليل، بعض رصاصات من بنادقهم، من كوى معدة لهذا الغرض في منازل مجاورة للقلعة... حتى ان مصطفى آغا - الذي سبق ذكره - ولكي ينفي عنه التهمة العامة بأنه أول من يقبض من بربر، قام، منذ أيام، مع نحو ماية من رجاله الشجعان، بانقضاض خاطف على مراكز قلة من الجند الأرناؤوط التابعين لبربر، والمتمركزين في خندق أمام باب القلعة، وقد انكفأ هؤلاء إلى الداخل فوراً، ثم اشتعلت القلعة بالرصاص... لقد كان الباشا يعرف، من تقارير تصل إليه، ان كل قادته، باستثناء واحد هو اسماعيل آغا، كانوا يقبضون من بربر... لقد كان الصراع بين بربر والباشا واضح الأبعاد، وقد فهم الطرابلسيون أبعاده وعبّروا عن ذلك بموقفهم الحيادي من كلا المتصارعين، فوضع بربر مهترئ وغير مستقر، والباشا لا يخسر شيئاً ما دام يجدّد قواته على هواه، ويقولون: «إن الباشا يتأخر في احتلال القلعة إلا أنه يهدمها كل يوم، وان بربر ينتظر أن يربح قضيته إذا ما حالفه الحظ واضطر الوزير لأن يفك الحصار لسبب ما، أما نحن، فلن نتقدم أبداً»...(٤٣).

٨ - وفي رسالة بتاريخ ٦ كانون الأول ١٨٠٨، ذكر غيز أن بربر حاول مجدداً الحصول على عفو الباشا بأي ثمن، ولكن موقف الباشا كان سلبياً تجاهه. وقد استمر هرب الجند من القلعة، وزاد الباشا من اغراءاته للجند المحاصر في القلعة إذا هم خرجوا إليه، إلا انه استثنى بربر نفسه من أي تدبير رحيم... ولا يزال الباشا يتلقى الامدادات بالجند والذخائر من كل جهة. وجاء في هذه الرسالة ان القنصل تمكن من الوقوف على رسائل متبادلة بين باشا عكا والأمير بشير، يُظهر فيها الرجلان خطاً مغايراً لخط والي دمشق، ويتحدثان عن صمود بربر ويمدحان هذا الصمود الذي أطال أمد الحصار، ويعلق القنصل الفرنسي على ذلك بحديثه عن خشية الأمير وقلقه من نجاح والي دمشق(٤٤).

٩ - وفي رسالة بتاريخ ٢٢ كانون الأول ١٨٠٨، تحدث غيز عن محاولات الباشا لإغراء جند بربر من الأرناؤوط المدافعين عن القلعة للتخلي عن بربر والانضمام إليه... وقد حاول هؤلاء اخراج قائدهم المريض والمحتجز لدى بربر إلا انهم لم يفلحوا، وكانت نتيجة هذه المحاولة ان أهلك بربر ذلك القائد واثنين من مرافقيه، كما كانت نتيجتها عودة مصطفى آغا إلى الباشا وتخليه عن بربر، ربما لأنه لم يعد يقبض منه شيئاً. ويظهر أن الاتصالات لم تنقطع بين المحاصِرين والمدافعين، وان سعيد آغا أحد أكبر قادة الباشا هو الذي كان يشرف عليها ويديرها، وان المؤن التي كانت تصل إلى القلعة كانت تباع فيها بأسعار باهظة جداً، مما جعل الحياة صعبة في داخلها، لذا، كثر المنشقون عن بربر والفارّون من القلعة، وقد ذكر هؤلاء بعض المعلومات عن هوايات بربر وعن الاحتياطات التي يتّخذها لحماية نفسه، ومنها أن جنده لا يستطيعون مواجهته إلا زوجاً زوجاً وعزلاً من أي سلاح(٤٥).

١٠ - وفي رسالة بتاريخ ٢٦ كانون الأول ١٨٠٨ مذيلة بحاشية كتبت بتاريخ ٣ كانون الثاني ١٨٠٩، ذكر غيز أن بربر طلب مقابلة عبد الرزاق، وهو آغا القبقول في دمشق وقائد قلعتها، وكان قد وصل إلى طرابلس في كانون الأول مع حاشية من ماية شخص، ونال موافقة الباشا على ذهابه إلى القلعة لمقابلة بربر، إلا أنه - أي الباشا - رفض أي اقتراح يهدف إلى إبقاء أي منصب أو أية رتبة لبربر[٤٦].

١١ - وفي رسالة بتاريخ ٩ شباط ١٨٠٩، ذكر غيز أنه وصلت إلى طرابلس شخصية مرموقة مع حاشية كبيرة، وقد أوفدها سليمان باشا والي صيدا بغية اخراج بربر من القلعة وحمايته، وقد وصل هؤلاء المبعوثون إلى القلعة مصحوبين بضابطين من ضباط والي دمشق، واستقبلهم بربر عند مدخلها بإطلاق المدافع والرصاص وهو يظن أنه سوف يتمكن، بمساندتهم، من التمسك بالقلعة. لذلك، فإنه عندما فوتح بأنه طلب مساعدة باشا صيدا (أو عكا) للخروج من القلعة بحماية مبعوثيه أنكر ذلك، ورغم ان المبعوثين أثبتوا له ذلك بإبراز رسالته بهذا الصدد إلى باشا عكا، فإنه ظل على موقفه، مما حدا بالمبعوثين إلى الاستنكار الشديد والانسحاب باستياء بالغ... وكانت نتيجة ذلك أن أعلن سليمان باشا وقوفه إلى جانب كنج يوسف باشا والي دمشق، في حربه ضد بربر، وذلك بسبب رفض هذا الأخير قبول حمايته والانسحاب من القلعة. وهكذا، ما أن رأى بربر نفسه، في موقعه، وحيداً وضعيفاً، حتى بادر، بتاريخ ٣١ كانون الثاني (١٨٠٩)، إلى الاستسلام، ملتمساً حرية الخروج له ولمن يريد أن يلحق به، مع أمتعتهم، وخرج بربر، في صباح اليوم المذكور، من القلعة، مع خدمه وحاشيته، واستقلوا جميعاً مركباً وضعه بتصرفهم سليمان باشا والي عكا[٤٧].

وبعد مرور سبعة أشهر ونصف على خروج بربر من طرابلس، وبتاريخ ١٥ أيلول ١٨٠٩ كتب القنصل الفرنسي نفسه، في رسالة منه إلى الخارجية الفرنسية، يقول: «إن اسم بربر لا يزال على كل شفة ولسان في طرابلس، وذلك رغم الإدارة الحسنة والمعاملة اللطيفة والطبيعية التي يمارسها علي بك (الأسعد) - المتسلم الجديد للمدينة - والذي يتحلى بمزايا جمّة ويبدو قليل التطلب»[٤٨]. أما القلعة التي غادرها بربر بأسى، فقد ظلت بعده، طوال عام كامل، وحتى كانون الثاني عام ١٨١٠، «مقفلة دوماً بعناية، وقائدها ضابط بشناقي بسيط. أما متسلم المدينة، علي بك (الأسعد) فليس له أية سلطة على القسم الذي هو باسم بربر، والذي هو، في الواقع، لباشا عكا»[٤٩]. وقد دخل علي بك المدينة تتقدمه طلائع خاصة به، وزحفت المدينة بأسرها لاستقباله عند دخوله إليها «أما القلعة نفسها... فلم تحيِّه بطلقة واحدة»[٥٠].

ولكن بربر ما لبث أن عاد متسلماً على طرابلس - دون القلعة - في العام التالي (١٨١٠)[٥١]، وذلك بعد أن عُزل كنج يوسف باشا عن ولايتي دمشق وطرابلس وفرّ من دمشق، بعد قتال مرير مع سليمان باشا الذي تسلم هاتين الولايتين بالإضافة إلى ولايته على صيدا[٥٢].

٢ - حملة بربر على بلاد المرقب، (١٨١١):

وفي العام ١٨١١ أمر سليمان باشا بربر أن يسير على رأس فرقة من جند الباشوية لتأديب النصيرية الذين تمرّدوا في بلاد المرقب، فسار بربر على رأس تلك الفرقة ونزل ببلاد النصيرية، وأعمل في قراها حرقاً ونهباً طوال أربعة أشهر، إلا أنه لم يتمكن من القضاء على المتمردين بسبب وعورة المسالك واشتداد البرد وغزارة الأمطار، مما جعله يستنجد بسليمان باشا



قلعة طرابلس

الذي أنجده بمتسلم حماة، وقد جاءه بألفي مقاتل لم يتمكنوا، بدورهم، من إخماد الثورة، بل غرق عدد كبير منهم في أنهر تلك البلاد «وذهبت أثقالهم وأحمالهم ورجعوا إلى حماة بسوء حال». وثابر مصطفى آغا بربر مع فرقته على التصدي للمتمردين في تلك البلاد حتى تمكن من اخضاعهم، واستسلمت له منطقة «قرداحا» التي كانت متمردة، ثم عاد إلى اللاذقية ومنها إلى طرابلس(٥٣).

٣ - حملة بربر على اللاذقية (١٨١٦):

وفي العام ١٨١٦ أمر سليمان باشا بربر بأن يتوجّه بعسكره إلى اللاذقية لتأديب فئة من العصاة أقدمت على قتل أحد الأطباء الانكليز، فسار بربر مع فرقة من الجند إلى تلك الناحية، وجرى بينه وبين النصيرية المتمردين هناك قتال انتهى بالقضاء على تمرّدهم بعد أن قتل عدداً كبيراً منهم، ثم أحرق قراهم ومزروعاتهم وقطع أشجارها وسبى نساءهم وأولادهم، وقد استمرت هذه الحملة خمسة أشهر عاد بعدها بربر إلى طرابلس وعاد جند الباشا إلى عكا(٥٤).

وفي العام ١٨١٩(٥٥) توفي سليمان باشا وخلفه على ولايتي طرابلس وصيدا، وعلى اللاذقية ولواءي غزة والرملة، عبدالله باشا ابن علي باشا الخزندار، فكان أول عمل قام به هو عزل بربر عن متسلمية طرابلس وتسليمها إلى علي بك الأسعد متسلم عكار، فخرج بربر من طرابلس وأقام في قرية «ايعال» حيث كان قد بنى داراً فخمة، ولكن علي بك الأسعد لم يرغب بترك بربر مطمئناً في قريته، فكتب إلى عبدالله باشا يشكو إليه سوء سلوك بربر زاعماً انه «يخربط في الايالة»، فأصدر عبدالله باشا أمراً بالقبض على بربر، وما أن علم

بربر بذلك حتى فرّ من ايعال إلى جهة «جبة بشري» حيث اتصل بالأمير بشير متوسلاً إليه أن يصلح أمره لدى عبدالله باشا، وبالفعل، توسط الأمير بشير لبربر لدى عبدالله باشا الذي صفح عنه وأعاده إلى متسلمية طرابلس في مطلع العام ١٨٢١، وقد انحاز بربر إلى عبدالله باشا في حربه ضد والي دمشق عام ١٨٢١، فسار، في شباط من هذا العام، على رأس جيش إلى عكا، ووصلها في أواخر آذار، بعد أن احتل بلدة «جبيل»(٥٦)، ثم عاد بعدها إلى طرابلس ليستمر في حكمها باسم عبدالله باشا والي صيدا، في الوقت الذي كان درويش باشا والي دمشق قد أعطى حكم اللاذقية وطرابلس إلى حليفه علي بك الأسعد، ولكن علي بك الذي دخل اللاذقية في ١١ حزيران ١٨٢٢ بثمانماية خيّال، وتركها في ١٤ منه، ليعود إلى بلاده عكار، حيث كان عليه أن ينتظر مساعدة عسكرية من درويش باشا تمكنه من دخول طرابلس التي ما فتئ بربر يحصنها ويعزّزها بالأعتدة والأسلحة والذخائر والمؤن، ويحصّن قلعتها، تحسباً لأي هجوم من قبل علي بك، إلا أنه، في الوقت ذاته، كان يحاول التوسط مع والي دمشق لكي يترك له حكم القلعة، وكان قد أرسل كاتبه لهذه الغاية إلى دمشق، إلا أنه لم يوفق في ذلك، مما اضطره لإخلاء القلعة عند صدور الأمر إليه بذلك، وفي العام نفسه(٥٧)، كما سنرى.

ولكن عبدالله باشا لم يستمر طويلاً في ولايته على طرابلس وصيدا، إذ انه، على أثر الصراع المسلح الذي جرى بينه وبين درويش باشا والي دمشق (١٨٢١ - ١٨٢٢)، انحاز الباب العالي إلى جانب درويش باشا، فأصدر فرماناً بعزل عبدالله باشا عن الولايتين المذكورتين وولى عليهما درويش باشا، ثم أرسل مصطفى باشا والي حلب على رأس جيش لنجدته(٥٨)، فعزل درويش باشا بربر عن طرابلس وقلعتها وأمره بتسليمها إلى علي بك الأسعد، ولكن بربر أبى

ذلك فحاصره درويش باشا طوال ثلاثة أشهر حتى نفذت الأقوات والذخائر من المدينة وضجّ الأهالي، فانسحب بربر من المدينة واعتصم بالقلعة مع رجاله وعياله، بينما احتل علي بك الأسعد البلدة، وظل بربر معتصماً في القلعة مدّة شهر كامل وهو يسعى للصلح مع درويش باشا الذي قبل سعيه وأرسل إليه حسين آغا الشركسي أمين جمرك بيروت، فأخرجه من القلعة مع عائلته ورجاله آمنين وسلمها إلى علي بك الأسعد، أما بربر فقد أمره درويش باشا بالإقامة ببيروت فامتثل(٥٩).

ولم يلبث أن تمكن محمد علي باشا عزيز مصر من إقناع الباب العالي بالعفو عن عبدالله باشا وإعادته إلى ولايته بصيدا (وعكا)، وقد تمّ له ذلك في العام نفسه (١٨٢٢)، أما طرابلس قد أعطيت ولايتها إلى حسين آغا الشركسي الذي سبق أن أخرج بربر من القلعة، وذلك بعد أن رقي إلى مرتبة الباشوية، إلا أن حسين باشا الشركسي لم يلبث أن توفي في العام نفسه، فخلفه في ولاية طرابلس محمد باشا الذي قتل في اللاذقية لاتهامه بالميل إلى مذهب النصيرية، فتولى طرابلس بعده عام ١٨٢٤ سليمان باشا العظم الذي لم يلبث أن توفي في العام نفسه فأنعمت الدولية العلية على متسلم طرابلس علي بك الأسعد بمرتبة الباشوية وخلعت عليه ولاية طرابلس(٦٠).

إلا أنه، بعد عامين فقط، أي في العام ١٨٢٦، حضرت أوامر بعزل علي باشا الأسعد عن ولاية طرابلس ونقله إلى مدينة علايا، وتسليم ولاية طرابلس إلى أمين باشا، وأصله من الغزّ الذين سكنوا مصر قديماً، وكان قد نجا، بأعجوبة، من المكيدة التي كان محمد علي باشا قد دبّرها لكبار هؤلاء القوم في قلعته بالقاهرة، عام ١٧٨٨، ففتك بهم جميعاً، إلا هو، فقد تمكن من النجاة

والهرب إلى الآستانة حيث ترقى في مراتب الدولة[٦١]، أما بربر آغا، فقد استقر في بلدة الشويفات، بأمر من والي صيدا نفسه، ولكن أمين باشا لم يستقر طويلاً في ولايته على طرابلس، إذ لم يلبث أن عزل عنها عام ١٨٢٧ وعيّن عبدالله باشا والياً عليها، بالإضافة إلى ولايته على صيدا.

وفي أيلول في العام نفسه (١٨٢٧) استقل بربر أحد مراكب محمد علي باشا التي كانت ترسو في ميناء بيروت، وانطلق إلى مصر حيث التجأ إلى عزيزها، وظل فيها إلى أن عاد إلى بلاد الشام مع حملة ابراهيم باشا على هذه البلاد عام ١٨٣١[٦٢]، وشارك في حصار القائد المصري لعكا، ثم أعاده ابراهيم باشا، في العام نفسه (١٨٣١) إلى متسلمية طرابلس، بعد أن أصحبه بثمانماية نفر من النظام وأمره بأن يضع منهم ماية بصور وأخرى بصيدا ومايتين ببيروت، وأن يصطحب الباقي وهو ٤٠٠ نفر، معه إلى طرابلس، وفي أوائل كانون الأول عام ١٨٣١ سافر مصطفى آغا بربر إلى طرابلس متسلماً على المدينة من قبل القائد المصري ابراهيم باشا[٦٣]، فمرّ بصور وترك فيها ماية جندي، ثم مرّ بصيدا وترك فيها ماية آخرين، ووصل إلى بيروت في ١٩ منه، ومعه ستماية جندي نظامي، فترك فيها مايتي جندي، وفي ٢١ منه أكمل طريقه إلى طرابلس ومعه أربعماية جندي فوصلها في أواخر العام، وكان قد كتب إلى حكام صور وصيدا وبيروت واللاذقية رسائل يبلغهم فيها ان ابراهيم باشا قد ثبتهم في مناصبهم، ويوصيهم بالأوروبيين خيراً[٦٤].

٤ - بربر وعثمان باشا قائد الحملة العثمانية على طرابلس (١٨٣٢):

ما أن علمت السلطنة باحتلال ابراهيم باشا لطرابلس حتى عيّنت عثمان باشا والياً عليها ثم أمرته باحتلالها وطرد الحامية المصرية منها، وكان هو باللاذقية، فانتقل منها إلى حلب حيث جهّز جيشاً من «بضعة آلاف غير نظامي» قدّرهم الشدياق بأربعة آلاف من «أرناؤوط وهوارا وغيرهم»[٦٥]، وقد ذكر «جوريل Jorelle» القائم بأعمال القنصلية الفرنسية ببيروت، أن عدد الجند الذين كانوا مع عثمان باشا بطرطوس هو سبعماية جندي، وأن نحواً من أربعة آلاف إلى خمسة من أهالي الجبال (ويقصد عكار وصافيتا) سوف يلتحقون به ليقاتلوا أعداءهم الطرابلسيين وخصوصاً مصطفى آغا بربر. وأن طلائع جيش عثمان باشا كانت، في ٢٥ آذار ١٨٣٢، قد وصلت إلى نهر البارد شمال طرابلس، وان عثمان باشا لن يهاجم طرابلس قبل أن يلتحق به باشا حلب بنحو اثني عشر ألف مقاتل، وأن عديد الجيش الذي يأمل عثمان باشا أن يكون بقيادته قبل الهجوم على طرابلس هو ما يقارب الـ٢٤ ألفاً، مقابل خمسة آلاف أو ستة هم عديد الحامية الطرابلسية، هذه الحامية التي لا يفتأ العديد من الجنود النظاميين المصريين فيها يهربون يومياً، بأسلحتهم وأمتعتهم، إلى معسكر الجيش العثماني، مما لن يدع بيد مصطفى آغا بربر والحامية المصرية بطرابلس قوّة تذكر للمقاومة[٦٦]. ولما علم بربر بتقدم عثمان باشا بجيشه نحو طرابلس أرسل يستنجد بابراهيم باشا الذي أنجده بالأمير خليل الشهابي على رأس ألف مقاتل من رجال الشوف، بالإضافة إلى الالاي الثامن عشر المصري بقيادة ادريس بك، حتى أصبح عديد حامية طرابلس نحو ستة آلاف مقاتل، وما أن وصل عثمان باشا بجيشه إلى «المنية» حتى أرسل طلائع ذلك الجيش لتستكشف مواقع الحامية الطرابلسية حول أسوار المدينة، ودارت بين الفريقين، في آخر آذار عام ١٨٣٢، معارك حامية الوطيس[٦٧]، وما أن سمع ابراهيم باشا بأنباء تلك المعارك حتى سار على رأس جيش قدّر بعشرة آلاف رجل متوجهاً نحو

طرابلس لمساعدة حاميتها، ولكن ما أن علم عثمان باشا بقدوم القائد المصري لمحاربته على رأس جيش بهذا القدر حتى آثر الانسحاب مخلفاً، في ميدان القتال، عدداً كبيراً من القتلى والجرحى، وفي معسكره بالمنية، قدراً كبيراً من الذخائر والمؤن. ولما وصل ابراهيم باشا إلى طرابلس، (في ٥ نيسان) أمر بإحضار مخلفات عثمان باشا في معسكره، ثم جدّ في مطاردته نحو حمص[٦٨].

وبقي بربر بعد ذلك متسلماً على طرابلس من قبل ابراهيم باشا، وحدث أن جرى تمرد على الحكم المصري في صافيتا وطرابلس عام ١٨٣٤، فسحق بربر التمرد في طرابلس إلا أنه لم يتمكن من سحقه في صافيتا، حيث قتل الشعب متسلمها من قبل الحاكم المصري، فوجهت القيادة المصرية أصابع الاتهام إلى بربر بأنه هو المحرّض على هذا التمرد، وأرسل ابراهيم باشا الأمير خليلاً الشهابي لمعاونة سليم بك القائد المصري في تلك المنطقة، على إخماد التمرد والقضاء على المتمردين، فألقى القائدان الشهابي والمصري القبض على نحو خمسة وعشرين من زعماء طرابلس وأعيانها بتهمة التحريض على الاضطراب والفتنة، وعلى بعض زعماء الضنية وعكار مثل أسعد بك المرعب وأسعد بك الشديد، وخشي بربر أن يتهم بالعمل ضد الحكم المصري فتوجّه إلى بيت الدين حيث اجتمع بالأمير بشير الشهابي مظهراً براءته من أية تهمة، ثم عاد إلى قريته «أيعال» حيث انزوى فيها بعيداً عن أي نشاط سياسي، إلى أن وافته المنية، فجأة، في مطلع نيسان عام ١٨٣٥[٦٩].

أما الأمير خليل، فبعد أن أسهم، مع سليم بك، في القضاء على التمرد، عاد إلى بلاده بسبب مرض ألم به[٧٠].

وظل سنجق طرابلس، بعد ذلك، في عهدة الحكم المصري، حتى عام ١٨٤٠، عندما ثارت معظم المقاطعات الشامية على هذا الحكم، ومنها بعض اقطاعات هذا السنجق مثل كسروان وجبيل والكورة والضنية وجبة بشري وسواها، حيث تزعم أبو سمرا غانم الثوار في هذه المناطق، وأخذ يهاجم الجيش المصري، فجرت بينه وبين المصريين مناوشات عديدة في إيعال وفي مناطق أخرى من البلاد[٧١].

وما أن خرج المصريون من بلاد الشام عام ١٨٤١ حتى عاد سنجق طرابلس إلى عهدة الدولة العثمانية، ضمن ولاية طرابلس، وبعيداً عن نظام القائمقاميتين. ثم أصبحت طرابلس، عام ١٨٦٤، سنجقاً ضمن ولاية كبرى هي «ولاية سوريا» التي أنشئت في العام نفسه، إذ شملت هذه الولاية ثماني سناجق (أو متصرفيات) كان سنجق طرابلس واحداً منها، وقد شمل أقضية طرابلس وعكار وصافيتا والحصن[٧٢].

بالإضافة إلى ما سبق، كانت باشوية طرابلس، وكذلك سنجق طرابلس، وأحياناً كل اقطاعة من اقطاعات هذا السنجق (كإقطاعة عكار مثلاً) تتبع في الشؤون العسكرية، وخصوصاً في شؤون التعبئة والتجنيد، الأساليب التي كان يتبعها اقطاعيو تلك العهود، والتي سبق وتحدّثنا عنها كثيراً في العهدين المعني والشهابي، باستثناء ما وجد من الجند النظامي في هذه المقاطعات، والذين كانوا يتبعون، عادة، للباشا أو المتسلم، فهؤلاء كانوا يخضعون لأنظمة الجيش المعمول بها في السلطنة، ففي طرابلس، مثلاً، كان يوجد، عام ١٨١٢، من الجند النظامي، حوالي ١٢٠٠ (أو ١٣٠٠) جندي انكشاري مع ماية من حرس الشواطئ[٧٣]، وكان باشا طرابلس، عام ١٨٧٤، يتعهد، بشكل مستمر، «نحو خمسماية خيّال... وبعض الرماة المغاربة»[٧٤].

أما مدينة طرابلس نفسها، فلم تتطور قوتها الذاتية العسكرية، في الفترة التي نحن بصددها (١٦٩٨ - ١٨٤٠)، إلا في عهد مصطفى آغا بربر، إذ انه، قبل ذلك، لم تكن طرابلس «مدينة حرب» بل كانت، كما قال عنها ڤولني عام ١٧٨٤، كاللاذقية «بلا مدافع، ولا أسوار، ولا جند، إذ يستطيع مركب واحد مسلح أن يحتلها»[٧٥]، أما في عهد بربر فقد كانت قلعتها منيعة الأسوار زاخرة بالجند والمدافع والذخائر، وبأسلحة ذلك العصر على اختلافها، الأمر الذي جعلها تصمد في وجه حصار والي دمشق أكثر من خمسة أشهر، بالإضافة إلى أن بربر اقتنى غليونين مسلحين (galiottes) محاولاً بواسطتهما أن يحمي شواطئ مدينته[٧٦].

سنجق طرابلس

حدود دولية

حدود مقاطعة

المقياس ٠ ١٠ ٢٠ كلم

الشمال

حواشي الفصل الرابع

(١) اتفق كل من الرحالة الفرنسي ڤولني Volney (الذي زار هذه البلاد خلال عامي ١٧٨٤ و١٧٨٥) وأوغست اندريا (الذي وضع مذكراته عن باشوية طرابلس في العام١٨١٢) على التحديد الجغرافي نفسه لهذه الباشوية، أنظر: - Volney, voyage, p. 281 et

- Ismaïl, Documents diplomatiques et consulaires, T4, p. 351 (Mémoire d'Auguste Andréa sur le Pachalik de Tripoli - Tripoli, fin Mars 1812).

(٢) أنظر الجزء الأول، الإمارة المعنية، الفصل السابع من الباب الثاني (سنجق طرابلس).

(٣) قدم ألفونس غيز، قنصل فرنسا بطرابلس، هذا الرقم لعدد سكان الباشوية المذكورة، في رسالته إلى المركيز دي لاتور موبورغ De Latour Maubourg القائم بأعمال السفارة الفرنسية في الآستانة، بتاريخ ١٩ آذار ١٨١٢، وقد وزّع سكان هذه الباشوية على الشكل التالي:

– اللاذقية وجوارها ٦٨١٣٠ نسمة، صافيتا ٤٠ ألفاً، عكار ٢٠ ألفاً، جزيرة أرواد ٢ ألفان، طرطوس ٤ آلاف، الضنية ٦ آلاف، المنية ٣ آلاف، القسم من جبل لبنان التابع لباشوية طرابلس، بما فيه الكورتان السفلى والعليا: ٦٠ ألفاً، طرابلس والقلمون والأديرة والمنازل المتفرقة: ١٤٩٠٠ نسمة.

- (Ismaïl, Op. cit. T4, p. 341).

(٤) قدّم هذا الرقم أوغست أندريا في مذكراته المشار إليها أعلاه (Ibid, p. 380) وقد وزّع قسماً من هؤلاء السكان على الشكل التالي: طرطوس ٢ ألفا نسمة، أرواد (لم يذكر عدد سكانها)، صافيتا ٤٠ ألفاً، عكار ٣٠ ألفاً، قبيلة الجش التي تخيم بين صافيتا وعكار ١٥٠٠ نسمة، إقطاعة الشهرا (؟) Chahra ٢ ألفا نسمة، الضنية ٥ آلاف، المنية ألف نسمة، جبة بشري ١٠ آلاف، الزاوية ٧ آلاف، الكورة بقسميها ٨ آلاف، البترون وجبيل ٢٥ ألف نسمة (Ibid, pp. 374 - 376)، كما قدر عدد سكان مدينة اللاذقية بما يراوح بين ٥ و٦ آلاف نسمة (Ibid, p. 378)، فيكون مجموع ما قدّره نحو ١٣٧٠٠٠ نسمة، أما الباقي وهو أكثر من ١٣٠ ألف نسمة، فلم يذكر صاحب المذكرات كيفية توزيعه على بلدان الباشوية.

(٥) رسالة ألفونس غيز المذكورة أعلاه. (Ibid, p. 341) -

ومذكرات أوغست أندريا المذكورة أعلاه أيضاً. (Ibid, pp. 374 - 376) -

(٦) أنظر الجزء الأول، الإمارة المعنية، الفصل الأول من الباب الأول، والفصل السابع من الباب الثاني (سنجق طرابلس).

(٧) مذكرات أوغست أندريا الآنفة الذكر. (Ismail, op. cit, pp. 374 - 376) -

(٨) رسالة ألفونس غيز الآنفة الذكر. (Ibid, p. 340) -

(٩) Volney, Op. cit. p. 284. -

(١٠) مذكرات أوغست أندريا أعلاه. (Ismaïl, Op. cit, T4, p. 367) -

(١١) رسالة ألفونس غيز أعلاه. (Ibid, p. 339) -

والجدير بالذكر أن كلاً من أوغست أندريا وألفونس غيز قد أدخلا عدد جند الانكشارية وحرس الشواطئ في تقديرهما لعدد سكان المدينة.

(١٢) الشهابي، تاريخه، طبعة الجامعة اللبنانية، قسم ١ : ٦ و٧، والزين، تاريخ طرابلس ص ٢٠٢.

(١٣) الجزء الأول، الإمارة المعنية، الفصل الأول من الباب الأول (سنجق طرابلس)، والزين، المرجع السابق، ص ٢٠٢ – ٢٠٤ و

- Ismaïl, op. cit., T1. Annexe N° VII.

(١٤) أنظر الجزء الثاني: الفصل الرابع من الباب الأول (الأمير يوسف وجبل لبنان: وقعة أميون ١٧٦٩).

(١٥) تسلم الجزار ولاية طرابلس لمدة عام واحد (١٧٩٧ – ١٧٩٨).

(١٦) أنظر نبذة عن حياته في الجزء الأول، الفصل الأول من الباب الأول (سنجق طرابلس).

(١٧) يني، جورج، تاريخ سوريا، ص ٤١٢.

(١٨) الشهابي، حيدر أحمد، المصدر السابق، قسم ٢ : ٣٦١.

(١٩) م. ن. قسم ٢ : ٤٠٤، ويذكر أن ابراهيم آغا سلطان كان متسلماً للمدينة ومحافظاً على قلعتها قبل بربر، إلا أن بربر، الذي جاء ليتسلم المدينة بأمر من الجزار والي طرابلس آنذاك (١٧٩٨)، أنذر ابراهيم آغا بالخروج منها فخرج بعد أن سلم مقاليد الأمور فيها إلى مصطفى آغا الدلبة قائد الفرقة الانكشارية التي كانت تحمي القلعة، وفي عام ١٨٠١ دهم بربر القلعة ليلاً برجاله فقتل مصطفى ورجال الحامية جميعاً وعددهم ثلاثون

رجـلاً، واحتل القلعة (الشهـابي، م. ن. قسم ٢ : ٣٦١، والزين، تاريـخ طرابلس، ص ٢١٦ - ٢١٨).

(٢٠) الشهابي، م. ن.، قسم ٢ : ٤٠٥.

(٢١) م. ن. ص. ن.

(٢٢) م. ن. قسم ٢ : ٤٢٥.

(٢٣) م. ن. قسم ٢ : ٤٢٦.

(٢٤) م. ن. قسم ٢ : ٥١٥.

(٢٥) من تقرير لألفونس غيز، مفوض العلاقات التجارية في الامبراطورية الفرنسية في طرابلس بسوريا، جواباً على الأسئلة الموجهة إليه من قبل وزير الخارجية الفرنسية، التقرير مؤرخ في أول أيلول ١٨٠٦.

- (Ismaïl, op. cit., 4, pp. 99 - 100).

(٢٦) من رسالة لألفونس غيز إلى تاليران وزير الخارجية الفرنسية، بتاريخ ٢ أيلول ١٨٠٧.

- Ibid, p. 124.

(٢٧) رسالة غيز إلى الكونت دي شامباني Champagny وزير الخارجية الفرنسية، بتاريخ ٢٧ كانون الثاني ١٨٠٨. .(Ibid, p. 137) -

(٢٨) مقتطفات من سجلات القنصلية الفرنسية بطرابلس، .(Ibid, p. 141) -

(٢٩) رسالة غيز إلى الكونت دي شامباني وزير الخارجية الفرنسية، بتاريخ ٢٦ كانون الأول ١٨٠٨.

- (Ibid, p. 195).

(٣٠) الشهابي المصدر السابق. قسم ٢ : ٥٢٩، وانظر: .Ismaïl, Doc. T4, p. 123 -

(٣١) الشهابي، م. ن. قسم ٢ : ٥٣٥.

(٣٢) م. ن. قسم ٢: ٥٣٧.

(٣٣) م. ن. قسم ٢: ٥٣٨.

(٣٤) م. ن. ص. ن.

(٣٥) م. ن. ص. ن.

(٣٦) م. ن. قسم ٢ : ٥٣٩ - ٥٤٠.

(٣٧) - Ismaïl, op. cit., T4, pp. 155, 156, 157, 159, 161 et 162.

(٣٨) - Ibid, pp. 163, et 164.

(٣٩) - Ibid, pp. 169, 170, et 172.

(٤٠) - Ibid, pp. 173, 174, et 175.

(٤١) - Ibid, pp. 177, 179, et 180.

(٤٢) - Ibid, pp. 181, 182, 183, et 184.

(٤٣) - Ibid, pp. 185, 186, 187, et 188.

(٤٤) - Ibid, pp. 189, et 190.

(٤٥) - Ibid, pp. 191, et 192.

(٤٦) - Ibid, pp. 193, et 197.

(٤٧) - Ibid, pp. 200, et 201.

(٤٨) - Ibid, p. 239.

(٤٩) رسالة القنصل الفرنسي نفسه إلى الكونت دي شامبانيي وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ ٥ كانون الثاني ١٨١٠. .(Ibid, p. 251) -

(٥٠) رسالة القنصل الفرنسي نفسه إلى الكونت دي شامبانيي وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ ٢٦ شباط ١٨١٠.

(٥١) أنظر وصفاً لعودة بربر إلى طرابلس في رسالة لغيز بتاريخ ٣ أيلول ١٨١٠. .(Ibid, pp. 264 - 265) -

(٥٢) أنظر الفصل الخامس من الباب الثاني: قتال الأمير بشير ضمن تحالفاته الداخلية، وقعة دمشق، آب ١٨١٠.

(٥٣) الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٥٧٣.

(٥٤) م. ن. قسم ٣ : ٦٣٠، ويني، المرجع السابق، ص ٤١٦، وقد ذكر يني أن هجوم بربر على اللاذقية حصل في مرحلتين، الأولى بعد مقتل الطبيب الانكليزي، وقد هاجمها بعسكر الباشا وقتل من كبارها سبعين رجلاً «وحشا رؤوسهم تبناً وبعث بها إلى الوزير»، والثانية بعد

أن رفض أهلها دفع الأموال المترتبة عليهم فهاجمهم بالعسكر وقتل منهم خمسة وأربعين رجلاً (م. ن. ص. ن.)، إلا أن يني لم يأت على ذلك مصدر روايته هذه.

(٥٥) الشهابي، م. ن.، قسم ٣ : ٦٤٥ والشدياق، أخبار الأعيان، ج ٢: ٣٩٧، إلا أن ريفان Ruffin قنصل فرنسا بصيدا، ذكر، في رسالة منه إلى الدوق دي ريشيليو، وزير الخارجية الفرنسية، بتاريخ ٤ أيار ١٨١٧، أن عبدالله باشا «ابن كيخيا حاكم عكا» قد عيّن والياً على ولاية طرابلس، إلا أنه سيظل والياً بالإسم، ولن يتمكن من الذهاب إلى عاصمة ولايته، وذلك لأن بربر سيظل دائماً المتسلم والحاكم لهذه المدينة كالسابق. - (Ismaïl, op. cit., T3, p. 133).

(٥٦) الشهابي، م. ن.، قسم ٣ : ٧١٠ – ٧١١ و Ismaïl, op. cit., T3 pp. 145, 151, 152. إلا أننا لم نأخذ بالتواريخ التي اعتمدها الشهابي لعودة بربر إلى متسلمية طرابلس، إذ يشير إلى أن بربر عاد فتسلم طرابلس في نيسان عام ١٨٢٢ (ص ٧١١) ولكن «مارتان» قنصل فرنسا بصيدا، ذكر في تقريرين إلى وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ ٣ شباط و٢٩ آذار ١٨٢١، أن بربر كان متسلماً لطرابلس في هذا العام وأنه سار على رأس جيش إلى عكا لمساعدة واليها في حربه ضد والي دمشق. (Ismaïl, Ibid). -

(٥٧) رسالة رينولت Reynault قنصل فرنسا بطرابلس، إلى الفيكونت دي مونتمورنسي Montmorency وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ ١٦ حزيران ١٨٢٢. - (Ismaïl Op. cit. T5, pp. 39 - 40).

ورسالته بتاريخ أول تشرين الأول من العام نفسه. (Ibid, pp. 45 - 46). -

(٥٨) انحاز الأمير بشير الشهابي أمير الشوف إلى عبدالله باشا في هذا الصراع، أنظر الفصل الخامس من الباب الثاني: قتال الأمير ضمن تحالفاته الداخلية (قتاله ضد درويش باشا والي دمشق، ١٨٢١ – ١٨٢٢).

(٥٩) يني، المرجع السابق، ص ٤١٧ – ٤١٨.

(٦٠) م. ن. ص ٤١٨، والشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٧٥٦ – ٧٥٧ و٧٦٣، والشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٣٣، ويذكر الشدياق تعيين علي باشا المرعب (الأسعد) والياً على طرابلس، في أحداث العام ١٨٢٥.

(٦١) الشهابي، م. ن. قسم ٣ : ٧٨٥ – ٧٨٦.

(٦٢) م. ن. قسم ٣ : ٧٨٩.

(٦٣) م. ن. قسم ٣ : ٨٢١ و٨٢٦.

(٦٤) رسالة جوريل Jorelle القائم بأعمال القنصلية الفرنسية ببيروت إلى الكونت سيباستياني وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ ٢١ كانون الأول ١٨٣١. - (Ismaïl, op. cit., T5, pp. 183 - 184).

(٦٥) رستم، المحفوظات الملكية، مجلد ١ : ١٩٨ – ٢٠٠، والشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٤٥.

(٦٦) رسالة جوريل إلى الكونت سيباستياني وزير الخارجية الفرنسية، بتاريخ ٢٥ آذار ١٨٣٢.
- (Ismaïl, Op. cit. T5, pp. 210 - 211).

(٦٧) أنظر تفصيلاً لهذه المعارك عند:
- الشهابي، المصدر السابق، قسم ٣ : ٨٤٠ – ٨٤٣.
- والشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٤٥ – ٤٤٦.
- ورستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ١ : ٦٩ – ٧٠.
- وفي الفصل السابع من الباب الثاني من هذا الجزء: معارك الأمير بشير في ظل الحكم المصري لبلاد الشام (دور الأمير في الدفاع عن طرابلس).

(٦٨) رستم، بشير بين السلطان والعزيز، قسم ١ : ٧٠ و Ismaïl, Doc. T5, p. 223 وانظر كذلك: الفصل السابع من الباب الثاني من هذا الجزء.

(٦٩) رسائل هنري غيز القنصل الفرنسي ببيروت إلى الكونت دي ريني Comte De Rigny وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ ٤ تموز و٤ آب ١٨٣٤ وبتاريخ ٩ نيسان ١٨٣٥.
- (Ismaïl, Op. cit. T5, pp. 294, 299 et 321).

(٧٠) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢ : ٤٥١ – ٤٥٢.

(٧١) م. ن. ج ٢ : ٤٦٠ – ٤٦١.

(٧٢) رستم، لبنان في عهد المتصرفية، ص ٢١٣، وانظر: الجزء الأول، الإمارة المعنية، الفصل الأول من الباب الأول (سنجق طرابلس).

(٧٣) - Ismaïl, op. cit., T4, pp. 339 et 367.

(٧٤) - Volney, Op. cit. p. 281.

(٧٥) - Ibid, p. 284.

(٧٦) - Ismaïl, Op. cit. T4, p. 153.

الخاتمة

المسار التاريخي العام للإمارة الشهابية: تقييم واستنتاج

أولاً - تقييم:

لم يكن المعنيون، أمراء الشوف، بحاجة إلى أن يقتطعوا لأنفسهم، إقطاعات خاصة بهم، فكل الإمارة إقطاعة لهم، ذلك أنهم كانوا من أسرة متجذرة في الإمارة أصيلة فيها، فمنذ عهد الأمير فخر الدين المعني الأول وحتى عهد حفيده الشهير فخر الدين المعني الثاني الكبير، تمكّن هؤلاء الأمراء من السيطرة على الإمارة سيطرة تامة، ومن تحجيم الحزب «اليمني» المنافس لهم، بل إنهم تمكنوا، في عهد أبرزهم وأشهرهم، فخر الدين الثاني، من بسط نفوذهم بشكل تام على بقعة أكبر بكثير من تلك التي كانت تقع ضمن حدود إمارتهم، ورغم تبدل موازين القوى بعد فخر الدين الثاني، ظل الأمراء المعنيون في إمارة الشوف أسياداً على الإمارة كلها، بلا منافس، وقد سبق أن فصّلنا ذلك كله في الجزء الأول «الإمارة المعنية».

وإذا كان الأمراء المعنيون قد اضطروا، وخصوصاً فخر الدين الثاني منهم، وبسبب خصومتهم مع الباب العالي، إلى إقامة تحالفات داخلية وخارجية مع قوى متعددة، ومتباينة بعض الأحيان، فإنهم ظلوا محتفظين بخصوصية إمارتهم المعنية، بل إنهم، في مغالاتهم بهذه الخصوصية، منحوها شكلاً خاصاً متميزاً بين مختلف الإمارات والمقاطعات التي عرفت في بلاد الشام في ذلك الحين.

الخاتمة

المسار التاريخي العام للإمارة الشهابية: تقييم واستنتاج

أولاً - تقييم:

لم يكن المعنيون، أمراء الشوف، بحاجة إلى أن يقتطعوا لأنفسهم، إقطاعات خاصة بهم، فكل الإمارة إقطاعة لهم، ذلك أنهم كانوا من أسرة متجذرة في الإمارة أصيلة فيها، فمنذ عهد الأمير فخر الدين المعني الأول وحتى عهد حفيده الشهير فخر الدين المعني الثاني الكبير، تمكّن هؤلاء الأمراء من السيطرة على الإمارة سيطرة تامة، ومن تحجيم الحزب «اليمني» المنافس لهم، بل إنهم تمكنوا، في عهد أبرزهم وأشهرهم، فخر الدين الثاني، من بسط نفوذهم بشكل تام على بقعة أكبر بكثير من تلك التي كانت تقع ضمن حدود إمارتهم، ورغم تبدل موازين القوى بعد فخر الدين الثاني، ظل الأمراء المعنيون في إمارة الشوف أسياداً على الإمارة كلها، بلا منافس، وقد سبق أن فصّلنا ذلك كله في الجزء الأول «الإمارة المعنية».

وإذا كان الأمراء المعنيون قد اضطروا، وخصوصاً فخر الدين الثاني منهم، وبسبب خصومتهم مع الباب العالي، إلى إقامة تحالفات داخلية وخارجية مع قوى متعددة، ومتباينة بعض الأحيان، فإنهم ظلوا محتفظين بخصوصية إمارتهم المعنية، بل إنهم، في مغالاتهم بهذه الخصوصية، منحوها شكلاً خاصاً متميزاً بين مختلف الإمارات والمقاطعات التي عرفت في بلاد الشام في ذلك الحين.

ولكن الأمر لم يكن على هذه الحال في العهد الشهابي، بل كان على نقيضه تماماً، فالأمراء الشهابيون، خلفاء المعنيين في إمارة الشوف، قد أتي بهم من بلاد بعيدة «من وادي التيم» ليتولّوا الإمارة على شعب ليس شعبهم، وفي إمارة لم تكن لهم أصلاً. وإذا افترضنا جدلاً ان علاقة النسب بينهم وبين أسلافهم المعنيين هي التي قادتهم إلى الحكم في هذه الإمارة، فإن هذه العلاقة لم تكن لتوفر لهم القاعدة الشعبية الضرورية للنجاح[1].

من هنا، بدأ الأمراء الشهابيين يسعون لاتخاذ تدابير تؤمن لهم استقرار الحكم وديمومته، كما تؤمن لهم سيطرة تامة على الإمارة التي انتدبوا لحكمها. وللوصول إلى ذلك، سلك هؤلاء الأمراء سبلاً ثلاثة:

١ - القيام بضربة عسكرية قاضية لخصومهم مما يؤمن لهم السيطرة على الإمارة سيطرة تامة.

٢ - إجراء تعديلات جذرية في هيكلية الحكم وفي إدارة الإقطاعات في الإمارة مما يؤمن لهم الحماية والاستقرار في الحكم.

٣ - التطلع إلى سند قوي يعضدهم ويشد أزرهم ويؤمن لهم، بالتحالف معه، ديمومة الحكم في الإمارة.

وهكذا لم يتردّد الأمير حيدر، ثاني الأمراء الشهابيين (١٧٠٦ - ١٧٢٩) من أن يحسم الأمر مع خصومه اليمنيين (وكان الشهابيون قيسيين) حسماً نهائياً، في وقعة عيندارة (عام ١٧١١)، فيقضي على الحزب اليمني المناوئ قضاءً مبرماً، الأمر الذي أتاح له تحقيق السيطرة العسكرية التامة على الإمارة (وعلى ما هو أبعد من حدود الإمارة كما سبق أن شرحنا في حينه)[2]، وإجراء التغييرات الجذرية اللازمة في هيكلية الحكم وفي إدارة الإقطاعات الواقعة تحت سلطته، وذلك بتركيز حلفائه الموثوقين في هذه الإقطاعات، إلا أنه، رغم كل ثقته بهؤلاء الحلفاء، آثر أن يحتفظ لنفسه بإقطاعة تكون تابعة له شخصياً،

وتشكّل له حماية مباشرة من الخصم والحليف معاً، بخلاف ما جرى عليه الأمر عند أسلافه المعنيين[3].

لقد كانت وقعة عيندارة حداً فاصلاً ومصيرياً في تاريخ الإمارة الشهابية، فهي التي حققت لهذه الإمارة، في أول عهدها، ونتيجة الحسم العسكري الذي حققته، والتغييرات الجذرية التي نتجت عنها، مطلبين أساسيين كان لا بد منهما لتركيز الحكم الشهابي وهما: السيطرة التامة على الإمارة، وحماية الحكم واستقراره. بقي المطلب الأخير والأهم للأمراء الشهابيين، وهو ديمومة الحكم في الإمارة، وقد رأى الشهابيون في أهل جبل لبنان (جبة بشري وكسروان) الحليف الذي يمكن أن يحقق لهم هذه الغاية ويؤمن لهم هذا المطلب، خصوصاً إذا كان الخصوم من داخل الإمارة نفسها، فاختاروا التقرب من أهل هذا الجبل وممالأتهم والتحالف معهم، وغالوا في ذلك إلى حد أن أخذوا يقربونهم إليهم ويدخلونهم في حاشيتهم ويختارون مدبريهم وأمناء سرهم من بينهم، كما فعل أولهم الأمير بشير الأول (١٦٩٨ - ١٧٠٦) وجرى مجراه من خلفه من الأمراء الشهابيين[4]، ثم صاروا يلجأوا إليهم كلما ألمّت بهم هزيمة في عقر دارهم، في الشوف.

إلا أن الحدث الأهم والأكثر تأثيراً في المسار التاريخي العام للإمارة الشهابية هو تنصر الشهابيين أمراء الشوف[5].

بدأ تنصر الشهابيين أمراء الشوف في مطلع العهد الشهابي، بتنصر أرملة الأمير بشير الأول مع ابنها وابنتيها عام ١٧٠٧ على يد أبو ناصيف مدبر الأمير، واستمر في العهود المتتالية مع من خلفه من الأمراء الشهابيين حتى عهد الأمير بشير الثاني الكبير الذي كان يشجع، خفية، تنصر غير المسيحيين، إلى درجة أن محمد علي باشا، حليفه، أثار هذا الأمر في رسالة منه إلى أحد

أعوانه في بلاد الشام، معتبراً أن هذا الأمر «خطير يجب تلافيه» مما اضطر الأمير بشيراً إلى التنصل من ذلك وتبرئة نفسه منه[٦].

ولكن أبرز ما في عملية التنصر هذه هو أنها كانت تحولاً من مذهب السنّة (مذهب الأسرة الشهابية)، إلى مذهب الموارنة، وأن هذا المذهب سوف يصبح بعد ستة عقود من الزمن (١٧٠٧ – ١٧٧١) ومنذ عهد الأمير يوسف، مذهب الأسرة الحاكمة في إمارة الشوف، ومن ثم مذهب الأسر الحاكمة في الجمهورية اللبنانية، وسيظل كذلك حتى يومنا هذا. ففي العام ١٧٥٤ تنصر أبناء الأمير ملحم، وكان أهمهم الأمير يوسف الذي تسلم حكم إمارة الشوف عام ١٧٧١، فكان أول أمير ماروني من أصل سني يحكم إمارة درزية، ولأسباب سبق أن شرحناها[٧]، كان هذا الأمير ذا أثر فعّال وحاسم في توطيد حكم الموارنة في كل من الشوف وبلاد جبيل (حيث كان يحكم قبل تسلمه إمارة الشوف)، حتى أنه قاد، في أول عام من حكمه لهذه الإمارة، أي عام ١٧٧١، جيشاً من الموارنة، للقضاء على الشيعة الحمادية في كسروان وبلاد جبيل، حيث أخرجهم منها وأورث اقطاعهم وأملاكهم للاقطاعيين الموارنة[٨].

لقد استطاع الأمير يوسف، بدهائه وحنكته وطموحه، أن يجمع تحت حكمه، كلاً من الدروز سكان جبل الشوف، والموارنة سكان جبل لبنان دون أن يوحدهما، وذلك قبل أن تتمكن الدول الكبرى من جمعهما، بعد الأحداث الطائفية عام ١٨٦٠، فيما سمي يومذاك «بمتصرفية جبل لبنان».

وإذا كان الأمير بشير الثاني الكبير الذي خلف الأمير يوسف عام ١٧٨٨، لم يتمكن من اجتذاب مشاعر أبناء طائفته الموارنة[٩] من أهل جبل لبنان، بسبب طغيانه ومكائده ومؤامراته من جهة، وبسبب تحالفه المصيري مع محمد علي باشا من جهة أخرى، فإنه كذلك، وللأسباب عينها، لم يتمكن من اجتذاب مشاعر الدروز، رعاياه في الشوف، فهو قد حارب زعيمهم الشيخ بشير جنبلاط

(١٨٢٤ – ١٨٢٥) وهزمه وقضى عليه وعلى أنصاره وحلفائه في حرب مدمّرة حاسمة، ثم عاد فحاربهم إلى جانب حلفائه المصريين مراراً خلال الحكم المصري لبلاد الشام (١٨٣١ – ١٨٤٠)، كما انه لم يتوان عن تحريض الطائفتين احداهما على الأخرى[١٠] تركيزاً لسلطته وخدمة لمصلحته الشخصية، فكان أن خسر الدروز دون أن يربح الموارنة؛ إلا أن أهم ما اقترفه من جراء سياسته هذه، هو أنه أسهم، بعد سلفه الأمير يوسف، في إقامة شرخ كبير بين الطائفتين الكبريين في جبلي الدروز ولبنان، ما لبث أن انفجر صراعاً في عهد خلفه الأمير بشير الثالث (١٨٤٠ – ١٨٤٢)، وقد أدى هذا الصراع إلى إنشاء كيانين طائفيين هما «القائمقاميتان» الدرزية والنصرانية.

ثانياً - استنتاج:

كان الأمير منصور (١٧٦٣ – ١٧٧١) آخر الأمراء المسلمين لجبل الشوف، فقد اعتزل هذا الأمير الحكم لعجزه وكبر سنه، فولي الإمارة بدلاً منه ابن أخيه الأمير يوسف، ومنذ ذلك الحين انتقلت الإمارة إلى يد الموارنة بانتقالها إلى الأمير يوسف، الذي سوف يلقى، طوال مدة إمارته، دعماً وتأييداً كبيرين من الإكليروس الماروني، كما ان انتقال الإمارة من أمير مسلم إلى أمير ماروني سوف يعتبره الكثيرون «انعطافاً في تطور لبنان»، وسيكون هذا الحدث تاريخياً ومصيرياً وحاسماً في تاريخ المنطقة كلها[١٢]؛ فرغم العلاقة الوثيقة التي كانت قائمة بين المعنيين أمراء الشوف، وخصوصاً الأمير فخر الدين الثاني المعني، وبين الموارنة في جبل لبنان، فإن التمايز بين الجبلين ظل واضحاً وصريحاً طوال حكم هؤلاء الأمراء ومن خلفهم من الشهابيين المسلمين، ولكن ما أن تسلم الأمير يوسف الحكم حتى زالت الحدود بينهما،

ورغم القطيعة الكاملة بينهما طوال عهد القائمقاميتين (١٨٤٢ - ١٨٦١) فقد عادا ليجتمعا في ظل المتصرفية (عام ١٨٦١).

يتبين من مجمل البحث، ومن سياق الأحداث التي جرت طوال حكم الأمراء الشهابيين الموارنة في الشوف، أن هناك خطأً واحداً تبعه المسار التاريخي العام للإمارة الشهابية، بدءاً بحركة تنصير الشهابيين في إمارة الشوف وفق المذهب الماروني، منذ عام ١٧٠٧، مروراً ببدء الحكم الماروني لهذه الإمارة مع الأمير يوسف الشهابي عام ١٧٧١، فالأمير بشير الثاني الكبير عام ١٧٨٨، فالأمير بشير الثالث آخر الأمراء الشهابيين عام ١٨٤٠.

ويبدو أن الخط الذي اتبعه هذا المسار التاريخي لم يتغير ولم يتوقف عند سقوط الإمارة الشهابية عام ١٨٤٢، بل استمر بعدها متخبطاً ومهتزاً عبر صيغ كيانية طائفية ظهرت تارة تقسيمية وطوراً توحيدية، إلا أنها فشلت جميعها، وسبب ذلك أنها قامت على أسس طائفية لا يمكن أن تؤدّي إلا إلى الفشل، وهذه الصيغ هي:

- **الأولى:** تقسيمية، وقد فشلت نهائياً، وهي صيغة القائمقاميتين، الدرزية والنصرانية عام ١٨٤٢.
- **والثانية:** توحيدية، وقد فشلت نهائياً كذلك، وهي صيغة المتصرفية عام ١٨٦١.
- **والثالثة:** توحيدية أيضاً، وهي صيغة دولة لبنان الكبير عام ١٩٢٠، ثم الجمهورية اللبنانية الأولى عام ١٩٢٦، ثم الجمهورية اللبنانية الثانية عام ١٩٤٣، ثم الجمهورية اللبنانية الثالثة عام ١٩٩٠، وقد أظهرت هذه الصيغة عجزها التام عن استيعاب المتغيرات الفكرية والديموغرافية والاجتماعية في المجتمع اللبناني الحديث، وهي متغيرات مصيرية وحاسمة ومتقدمة على الصيغة نفسها، أقل ما فيها أنها ترفض النظم الطائفية ولا ترضى بأقل من

مبادئ الديموقراطية والعدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص بديلاً عنها، بحيث تحل المساواة في المواطنة محل امتيازات الطوائف، لذا لا بد من أن تنهار هذه الصيغة بدورها، كما انهارت سابقاتها، إذ برهنت أنها غير قادرة على استيعاب هذه المتغيرات ووعيها والعمل بموجبها وفقاً لنواميس العصر الحديث.

إن الظروف الدولية التي فرضت هذه الصيغ الثلاث ظلت مقصّرة عن فهم مدى التطور الاجتماعي والسياسي ومدى الإحساس بمبادئ العدالة والمساواة ومفاهيم الديموقراطية لدى الطوائف التي احتوتها هذه الصيغ، لذا سرعان ما منيت هذه الصيغ بالفشل، وتفجرت كياناتها، من الداخل، تفجراً دموياً مريعاً.

وإذا كانت الصيغة الأخيرة التي ضمت المقاطعات الخمس (إمارة الشوف وإمارة البقاع وإمارة وادي التيم ومقاطعة جبل عامل وسنجقية طرابلس) والتي شكلت بمجموعها الوطن اللبناني الذي دعي «الوطن الفسيفساء» كما دعي تجاوزاً «سويسرا الشرق»؛ إذا كانت هذه الصيغة تمرّ اليوم في امتحان عسير، فذلك لأن النظام الطائفي الذي قامت عليه يحمل في أحشائه بذور خرابه وتفتيته وتدميره، وإذا كانت تركيبة هذا الوطن قد قامت على أسس التعايش بين الطوائف، فإن هذه الطوائف لم تقدّم، بممارساتها المتمادية، أي دليل على أن الصيغة التي اخترعها كل من مارك سايكس وفرانسوا جورج بيكو، هي صيغة ناجحة.

وفي اعتقادنا، إذا كان هناك من خلل في هذه الصيغة سوف يؤدي حتماً إلى فشلها وإسقاطها، فمما لا جدال فيه، أن الخلل الأكبر هو في تلك النفوس المريضة التي لم تدرك بعد أن وطناً يبنى على التمايز الطائفي هو جرح قابل للنزف في كل حين، وأن الوطن القادر القوي، هو الوطن الديموقراطي العلماني، الذي به نحلم، وإليه نتطلع.

حواشي الخاتمة

(١) أنظر رأينا في أسباب اختيار الشهابيين لخلافة المعنيين في إمارة الشوف، والنتائج السياسية والاجتماعية لهذا الاختيار، في الجزء الثاني: الفصل الرابع من الباب الأول (التطور الجغراسياسي للإمارة الشهابية في عهد الأمير يوسف).

(٢) بعد وقعة عيندارة استقر الحكم في الإمارة للأمير حيدر كما أقرت ولايته على جبل عامل وكسروان، أنظر الجزء الثاني: الفصل الأول من الباب الأول (النتائج السياسية لوقعة عيندارة).

(٣) أبقى الأمير حيدر تحت حكمه المباشر إقطاعة تضم بعقلين ونيحا وعماطور وبتلون وعيندارة.

(٤) أنظر الجزء الثاني: الفصل الرابع من الباب الأول (التطور الجغراسياسي للإمارة الشهابية في عهد الأمير يوسف) حيث نبين التأثير الكبير لمدبري الأمراء الشهابيين على القرارات التي كان هؤلاء الأمراء يتخذونها، كما نعدّد أسماء أبرز المدبرين في العهد الشهابي.

(٥) لقد بيّنا في فصل سابق أسباب تنصّر الشهابيي، أمراء الشوف، دون سواهم من أمراء المقاطعات في بلاد الشام، والنتائج السياسية والاجتماعية لهذا التنصر، أنظر: الجزء الثاني، الفصل الرابع من الباب الأول (التطور الجغراسياسي للإمارة الشهابية في عهد الأمير يوسف)، كما سبق أن تحدثنا، في فصل آخر، عن تنصر الشهابيين أمراء الشوف، أنظر: الجزء الثاني، الفصل الثاني من الباب الأول (أهم الأحداث الإجتماعية في عهد الأمير ملحم).

(٦) أنظر تحليلاً لهذا الموقف في الفصل الثامن من الباب الثاني (مجتمع الإمارة الشهابية في عهد الأمير بشير الثاني الكبير: التحولات الطائفية ذات التأثير السياسي).

(٧) أنظر: الجزء الثاني، الفصل الرابع من الباب الأول (التطور الجغراسياسي للإمارة الشهابية في عهد الأمير يوسف).

(٨) م. ن.

(٩) ولد الأمير بشير الثاني الكبير مارونياً إذ كان والده الأمير قاسم عمر قد تنصر عام ١٧٦٤.

(١٠) أنظر الفصل الثامن من الباب الثاني (مجتمع الإمارة الشهابية في عهد الأمير بشير الثاني الكبير: التحولات الطائفية ذات التأثير السياسي). وخصوصاً خطابه إلى «عساكر العيسوية» الذي يحرّضهم فيه على أقرانهم «طائفة الدروز الخاينة الكافرة».

(١١) ولد الأمير بشير الثالث مارونياً إذ كان والده الأمير قاسم ملحم قد تنصر عام ١٧٥٤.

(١٢) أنظر: الجزء الثاني، الفصل الثاني من الباب الأول (أهم الأحداث الاجتماعية في عهد الأمير ملحم: تنصّر الشهابيين أمراء الشوف).

المصادر والمراجع (الجزءان ٢ و٣)

أولاً - المصادر والمراجع العربية

١ - الكتب:

- أبو شقرا، يوسف خطار، **الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية**، رواية حسين غضبان أبو شقرا، تأليف يوسف خطار أبو شقرا، تحقيق عارف أبو شقرا. بيروت، مطبعة الاتحاد ١٩٥٢.
- أبو صالح، عباس، ومكارم، سامي، **تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربي**، بيروت، منشورات المجلس الدرزي للبحوث والإنماء، لا. ت.
- أبو عز الدين، سليمان، **ابراهيم باشا في سوريا**. بيروت، المطبعة العلمية، ١٩٢٩.
- الأسود، ابراهيم، **تنوير الأذهان في تاريخ لبنان**. بيروت، مطبعة القديس جرجيوس ١٩٢٥.
- آل صفا، محمد جابر، **تاريخ جبل عامل**. بيروت، دار متن اللغة، لا. ت.
- آل فقيه، محمد تقي، **جبل عامل في التاريخ**. المطبعة العلمية، ١٩٤٦.
- الأمين، محسن، **خطط جبل عامل**. ط. ١. بيروت مطبعة الانصاف، ١٩٦١.
- أنطونيوس، جورج، **يقظة العرب**. ط. ٢. تعريب ناصر الدين الأسد وإحسان عباس. بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٦.
- باز، رستم، **مذكرات رستم باز**، تحقيق فؤاد افرام البستاني، ط. ٢، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٦٨.
- البعلبكي، مخايل ألوف، **تاريخ بعلبك**. ط. ٤. بيروت، المطبعة الأدبية، ١٩٢٦.

- بولس، جواد، **تاريخ لبنان**، نقله إلى العربية جورج الحاج، بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٧٢.
- بولس، جواد، **لبنان والبلدان المجاورة، ط. ٢**، بيروت، منشورات مؤسسة بدران وشركاه للطباعة والنشر، ١٩٧٣.
- الترك، نقولا، **ديوان المعلم نقولا الترك**، تحقيق فؤاد أفرام البستاني، بيروت، منشورات المديرية العامة للآثار، ١٩٤٩.
- الجبرتي، عبد الرحمن، **تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ٣ أجزاء، دار الجيل، بيروت، لا. ت.
- الحتوني، منصور، **نبذة تاريخية عن المقاطعة الكسروانية. ط. ٢**، نشرها يوسف ابراهيم يزبك ١٩٥٦.
- حتي، فيليب، **تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين**: ترجمة كمال الصليبي، بيروت، دار الثقافة ١٩٧٢.
- حتي، فيليب، **تاريخ العرب المطول. ط. ٤**، بيروت، دار الكشاف للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٦٥.
- حتي، فيليب، **لبنان في التاريخ**. بيروت، نيويورك، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٥٩.
- الحصري، ساطع، **البلاد العربية والدولة العثمانية، ط. ٣**، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٥.
- حقي، اسماعيل، لبنان، **مباحث علمية واجتماعية**، (الكتاب الذي نشرته لجنة من الأدباء بهمة اسماعيل حقي بك متصرف جبل لبنان سنة ١٩١٨) تحقيق فؤاد أفرام البستاني، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٧٠.
- الحكيم، يوسف، **بيروت ولبنان في عهد آل عثمان**. بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٤.

- الحكيم، يوسف، **سورية والعهد العثماني**. بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٦.
- الخازن، فيليب وفريد. (**معرّب**) مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سورية ولبنان من سنة ١٨٤٠ إلى ١٩١٠ تعريب فيليب وفريد الخازن، جونية، مطبعة الصبر ١٩١٠.
- الخازن، نسيب وهيبه، والحلبي، بولس مسعد، **الأصول التاريخية**، مجموعة وثائق تنشر للمرة الأولى، بيروت، مطبعة صفير، ١٩٥٦ - ١٩٥٨.
- خاطر، لحد، **بين أمير وراهب**، زحلة، ١٩٧٠.
- خوري، أميل، واسماعيل، عادل، **السياسة الدولية في الشرق العربي**، بيروت، دار النشر للسياسة والتاريخ، ١٩٦٠ - ١٩٦١.
- خوري، منير، **صيدا عبر حقب التاريخ**، بيروت، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر، ١٩٦٦.
- الدبس، يوسف، **تاريخ سوريا الدنيوي والديني**، بيروت، المطبعة العمومية الكاثوليكية، ١٨٩٣ - ١٩٠٥.
- الدبس، يوسف، **الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل**، بيروت، المطبعة العمومية الكاثوليكية ١٩٠٥.
- الدمشقي، ميخائيل، **تاريخ حوادث الشام ولبنان، ط. ١**، دمشق، دار قتيبة، ١٩٨١.
- الدويهي، اسطفان، **تاريخ الأزمنة**، ١٠٩٥ - ١٦٩٩م، مجلة المشرق، السنة الرابعة والأربعون، ١٩٥٠.
- الدويهي، اسطفان، **تاريخ الطائفة المارونية**، بيروت، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ١٨٩٠.
- رستم، أسد، **الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا**، بيروت، الجامعة الأميركية، منشورات كلية العلوم والآداب ١٩٢٩.

- رستم، أسد، **بشير بين السلطان والعزيز**، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٦٦.
- رستم، أسد، **لبنان في عهد المتصرفية**، بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٧٣.
- رستم، أسد، **المحفوظات الملكية المصرية**، بيان بوثائق الشام وما يساعد على فهمها ويوضح مقاصدها، بيروت، الجامعة الأميركية، ١٩٤٠.
- روبنسون، أدوار، **يوميات في لبنان**، فصول اختارها وترجمها عن الانكليزية، أسد شيخاني، بيروت، دار المكشوف، ١٩٤٩.
- الزين، أحمد عارف، **تاريخ صيدا**، صيدا، مطبعة العرفان، ١٩١٣.
- الزين، سميح وجيه، **تاريخ طرابلس**. بيروت، دار الأندلس للطباعة والنشر، ١٩٦٩.
- الزين، علي، **فصول من تاريخ الشيعة في لبنان**، بيروت، دار القلم للنشر، ١٩٧٩.
- الزين، علي، **للبحث عن تاريخنا في لبنان**. ط. ١، ١٩٧٣.
- الزين، علي، **مع التاريخ العاملي**. صيدا، مطبعة العرفان، ١٩٥٤.
- سالم، عبد العزيز، **دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي**، بيروت، جامعة بيروت العربية، ١٩٧٠.
- سالم، عبد العزيز، **طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي**. مصر، دار المعارف، ١٩٦٧.
- سويد، ياسين، **التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الإمارتين**، الجزء الأول، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠، والجزء الثاني، المؤسّسة نفسها، ١٩٨٥.
- الشدياق، طنوس، **أخبار الأعيان في جبل لبنان**، تحقيق رستم والبستاني، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٧٠.
- الشهابي، الأمير حيدر أحمد، **تاريخ الأمير حيدر أحمد الشهابي**، كتاب الغرر الحسان في تاريخ حوادث الأزمان، مصر، مطبعة السلام، ١٩٠٠.

- الشهابي، الأمير حيدر أحمد، **لبنان في عهد الأمراء الشهابيين** (الجزء الثاني والثالث من كتاب الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان)، تحقيق رستم والبستاني، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٦٩.
- صفير، بطرس، **الأمير بشير الشهابي**، بيروت، دار الطباعة والنشر اللبنانية، ١٩٥٠.
- الصليبي، كمال، **تاريخ لبنان الحديث**، بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٦٩.
- ضاهر، مسعود، **الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية ١٦٩٧ - ١٨٦١**، بيروت، معهد الإنماء العربي، ١٩٨١.
- طربين، أحمد، **أزمة الحكم في لبنان منذ سقوط الأسرة الشهابية**. ط. ١، دمشق، ١٩٦٦.
- العبد، حسن آغا، **تاريخ حسن آغا العبد**، حوادث سنة ١١٨٦ - ١٢٤١هـ، تحقيق يوسف جميل نعيسه، دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٧٩.
- العطار، نادر، **تاريخ سوريا في العصور الحديثة**. لا. ن.، لا. ت.
- كرامة، روفائيل، **مصادر تاريخية لحوادث سوريا ولبنان** (١٧٤٥ - ١٨٠٠) مذكرات سنوية وضعها الأب روفائيل كرامة وعني بنشرها وتحقيقها المطران باسيليوس قطان، بيروت، ١٩٢٩.
- كرد علي، محمد، **خطط الشام**. دمشق، مطبعة الترقي، ١٩٢٥ - ١٩٢٧.
- مختار، محمد، **كتاب التوفيقات الإلهية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية والقبطية من سنة ٧٥١ إلى ١٥٠٠هـ**، تأليف اللواء محمد مختار باشا، دراسة وتحقيق وتكملة محمد عمارة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠.
- مزهر، يوسف، **تاريخ لبنان العام**، بيروت، لا. ن. لا. ت.

- مشاقة، ميخائيل، **مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان في عهد آل عثمان.** منشئاه ملحم خليل عبده واندراوس شخاشيري، طبع بمصر سنة ١٩٠٨.
- مشاقة، ميخائيل، **منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب**: تحقيق أسد رستم وصبحي أبو شقرا. بيروت، وزارة التربية الوطنية، مديرية الآثار، ١٩٥٥.
- مصطفى، صالح لمعي، **مساجد بيروت**. بيروت، جامعة بيروت العربية، كلية الهندسة المعمارية، ١٩٧٨.
- المعلوف، عيسى اسكندر، **تاريخ الأمير بشير الشهابي الكبير**، مطبعة زحلة الفتاة، ١٩١٤.
- المعلوف، عيسى اسكندر، **تاريخ مدينة زحلة**. زحلة، مطبعة زحلة الفتاة، ١٩١١.
- المعلوف، عيسى اسكندر، **دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف**، بعبدا، المطبعة العثمانية ١٩٠٧ - ١٩٠٨.
- هشي، سليم (محقق)، **تاريخ الأمراء الشهابيين بقلم أحد أمرائهم من وادي التيم**، تحقيق سليم هشي، بيروت، منشورات المديرية العام للآثار، ١٩٧١.
- يني، جرجي، **تاريخ سوريا**، بيروت، المطبعة الأدبية، ١٨٨١.

٢ - المعاجم والموسوعات:

- البستاني، بطرس، **محيط المحيط**، قاموس مطول للغة العربية، بيروت ١٨٧٠.

٣ - الجلات والصحف:

- **الأبحاث (مجلة)** رئيس التحرير: سعيد حمادة، صادرة عن الجامعة الأميركية ببيروت، العدد ١ السنة ١٢ آذار ١٩٥٩، دار الكتاب، بيروت، ١٩٥٩.
- **أوراق لبنانية، (مجلة)** يوسف ابراهيم يزبك، سنوات ١٩٥٥ - ١٩٥٧، بيروت (٣ مجلدات).

- **العرفان، (مجلة)** أحمد عارف الزين، صيدا، مطبعة العرفان.
  ج ٥ /١٩١٩/
  ج ٨ /١٩٢٨/
  ج ٢٦ /١٩٣٥/
  ج ٢٧ /١٩٣٧/
  ج ٣٤ /١٩٤٧/
  ج ٤٣ /١٩٥٦/
- **مجلة المجمع العلمي العربي**، المجمع العلمي العربي بدمشق، مجلد رقم ٢٠ عدد ك ٢ وشباط ١٩٤٥. مطبعة الترقي بدمشق، ١٩٤٥.
- **المشرق (مجلة)** بإدارة آباء جامعة القديس يوسف ببيروت، المطبعة الكاثوليكية، بيروت.
  ج ١٨ /١٩٢٠/
  ج ٢٢ /١٩٤٢/
  ج ٤٦ /١٩٥٢/
- **المقتطف (مجلة)** لمنشئيها يعقوب صروف وفارس نمر، المجلد ٢٨ (١٩٠٣) والمجلد ٢٩ (١٩٠٤) والمجلد ٣٠ (١٩٠٥) والمجلد ٣١ (١٩٠٦) والمجلد ٦٧ (١٩٢٥).
- **النهار (جريدة)** تاريخ ١٩٧٨/٨/١ ص ٨: محمد علي باشا في بلاد الشام، إعداد المجلس الدرزي للبحوث والإنماء، ١٩٧٨.

٤ - المخطوطات:

- المعلوف، عيسى اسكندر، **ابراهيم باشا المصري والدروز**، نسخة مخطوطة، بيروت، مكتبة يافث، الجامعة الأميركية، لا. ت. A U B. MS. 956. 91. M 26 iA.

ثانياً – المصادر والمراجع الأجنبية

BIBLOGRAPHIE

1 - EN LANGUE FRANÇAISE:

1 - Les ouvrages:

AOUAD, Ibrahim: **Le droit privé des Maronites au temps des Emirs Chéhab**, Paris, Geuthner, n.d.

BARTHOU, Louis: **Lamartine orateur**, Paris, Hachette, 1916.

BOULOS, Jawad : **Les Peuples et civilisations du Proche-Orient,** Ed. Mouton et Co. Paris - La Haye, 1968.

BOURON, Narcisse: **Les Druzes**, Paris, Ed. Berger - Levrault, 1930.

CHEVALLIER, Dominique: **La Société du Mont-Liban**, Paris, Geuthner, 1971.

CHIBLI, Michel: **Une histoire du Liban, à l'époque des Émirs**, Beyrouth, 1955.

DAHDAH, Nagib: **Evolution historique du Liban**, 3° éd. Beyrouth, Librairie du Liban, 1968.

DE LA ROQUE: **Voyage de Syrie et du Mont-Liban**, Paris, 1722.

DE ST PIERRE, Puget: **Histoire des Druses**, Paris, Cailleau Librairie, 1763.

DE TOTT, (Baron): **Mémoires sur les Turcs et les Tartars**, Amsterdam, 1784.

DIB, Pierre: **L'Eglise Maronite**, Ed. La Sagesse, Archevêché maronite de Beyrouth, 1962.

DUCROT, A.: **Le Liban et l'expédition Française en Syrie 1860 - 1861**. Documents inédits du Général Ducrot par P. Camille de Rochemonteix, Paris, 1921.

ENKIRI, Gabriel: **Le règne de Béchir II**. Ministère de l'information, Beyrouth, n. d.

GUYS, Henri: **Relation d'un séjour de plusieurs années à Beyrouth et dans le Liban**, Paris, Librairie française et étrangère, 1847.

HAJJAR, Joseph: **L'Europe et les destinées du Proche-Orient**. Ed. Bloud & Gay (Belgique), 1970.

HICHI, Salim: **Sheikh Béchir Joumblat et son temps**, Beyrouth, 1972. (Thèse de Doctorat d'Etat).

ISMAIL, Adel: **Histoire du Liban du XVIIe s. à nos jours**, Paris, Librairie orientale et américaine. T1 (1955) et T IV (1958).

ISMAIL, Adel: **Le Liban. Documents diplomatiques et consulaires**, Edition des œuvres politiques et historiques, Beyrouth, 1975.

JOUPLAIN (Paul Noujaim): **La question du Liban**, Paris, Librairie nouvelle de droit et de jurisprudence, 1908.

LAMARTINE, Alphonse de: **Voyage en Orient**. Paris, Hachette, 1910 - 1911.

LAMMENS, Henri: **La Syrie**. Beyrouth, Imp. Catholique, 1921.

LAMOUCHE, Léon: **Histoire de la Turquie depuis les origines jusqu'à nos jours**, Paris, Payot, 1934.

MALHERBE, Raoul (De): **L'Orient 1718 - 1846**, Ed. Gide et Cie, 1846.

NANTET, Jacques: **Histoire du Liban**, Paris, Les éditions de minuit, 1963.

POUJOULAT, Baptistin: (1809 - 1864) Joint auteur Michaud, Joseph François.

(1767 - 1839): Correspondance d'Orient 1830 - 1831 par: M. Michaud, M. Poujoulat, Paris, Ducollet, 1833 - 1835.

RABBAT, Edmond: **La formation historique du Liban politique et constitutionnel**. Beyrouth, Publications de l'Université Libanaise, 1973.

RISTELHUEBER, René: **La France en Syrie au XVIIe siècle**. Extrait des Etudes, Août 1915. Beyrouth, Bibliothèque orientale, Côte 7/B5, Carton 1.

RISTELHUEBER, René: **Les traditions françaises au Liban**. 2° éd. Paris, Librairie Alcon, 1925.

SOUEID, Yassine: **Les forces armées dans les Müqata'as libanais à l'époque Ma'anite, Thèse pour le Doctorat de 3° cycle, université Lyon II, Lyon, 1977.**

SOUEID, Yassine: **Les forces armées dans les Müqata'as libanais à l'époque des chéhab.**

Thèse pour le Doctorat d'Etat, Université de la Sorbonne, Paris, 1924.

THOUMIN, Richard, L.: **Histoire de la Syrie**, Paris, Ed. Desclée, De Broumer et Cie. 1929.

TOUMA, Toufic: **Paysans et institutions féodales chez les Druses et les Maronites au Liban du XVIIe siècle à 1914**, Beyrouth, Publications de l'Université libanaise, 1971.

VOLNEY (Constantine - François Chassebœuf): **Voyage en Egypte et en Syrie, Ed.** Mouton et Cie. Paris, La Haye, 1959.

WEYGAND, Maxime: **Histoire militaire de Mahomet Aly et de ses fils**, Paris, Imprimerie nationale, 1936.

2 - LES ENCYCLOPÉDIES:

Encyclopédie de l'Islam: Nouvelle édition par B. Lewis. V. L. Ménage, CH. Pellat et J. Schacht. Paris, Ed. GP. Maisonneuve et Larose. S.A. 1966.

II - EN LANGUE ANGLAISE

CARNE, John: **Syria, the Holy land, Asia Minor**, London, 1836.

CHURCHILL, Charles Henri: **Mount Lebanon, A ten years residence from 1842 - 1852**, 2nd édition, London, 1853.

MAUNDRELL, Henri: **A Journey from Aleppo to Jerusalem**. London, Cornhill, 1769.

NOAHSON, Coleman: **The Lebanese army code**. Beirut, 1952. AUB, Thesis 99.

POLIAK, A.N.: **Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon. 1250 - 1900.**

London, Royal Asiatic Society, 1939.

الوثائق

وثيقة رقم (١)

(من البطريرك اسطفانوس بطرس* الى الملك لويس الرابع عشر)

Doc. n° 8. وثيقة رقم (٨)

Lettre du Patriarche des Maronites du Mont Liban au Roy du 1er octobre 1698.

يتشرف بلثم انامل حضرة فخر الملوك واجلهم سلطان فرنسا
المظفر

الى جناب العالي سلطان السيد الاجل ملك الملوك فخر الملة المسيحيه المظفر
زاد فخره وابد نصره

وبعد في ابرك الاوقات واشرف الساعات ورد مرسوم جلالتكم الى ولدنا عبدكم الشيخ
حصن ابن الخازن حاكم كسروان بانعم بنعمة من كرمكم ازقتوا قنصلية بيروت عن
قنصلية صيدا وانعمتم بها عليه ليكون من جملة عبيد بابكم ويهتم في قضا مصالح
الطايفة الفرنساويه وناشر بنوارتها في هذه الايالات وبهذه النعمة شرفتم عبيد
الملة المارونية التي من الزمان القديم خاضعة لسنن الكنيسة الرومانية ومستظلة
تحت حماية الملة الفرنساويه ولم تزل في جميع صلواتها ليلاً ونهارًا تتخشع لاجل انتصاركم واخذ
بلدانكم وبالزايد الان في تشرفكم لعبدكم الشيخ حصن المفوض امره عليها وله الاهتمام
والعناية على رفع شان البيعه الارثدوكسيه وعلى نشو الكنايس وحماية جميع الرهبان الملتجو
اليها في هذا الجانب حتى ولو كانوا تحت عبودية الامم الغريبه لله الحمد وفي نظركم الجليل دين
السيد المسيح حي مزهر في كسروان تحت حكمه نوف عن كل اقطار الشرق اسال
الحق سبحانه وتعالى ان يخلد ايامكم في السعد مثل النسور ويمد تخوم سياستكم الحي
البراري والبحور ان رسمتم لا تخلوا عبيدكم من حسن عنايتكم لان انا وعبدكم
الشيخ حصن والطايفه باسرها طايرين في اجناحكم الحليم ومستظلين تحت كنفكم
العميم وبركة هذا الكرسي الرسولي الانطاكي تبهج حياتكم المنيفه وتسبح سادا تنا
الملوك اولادكم المنصورين بالنعم الشريفه وتحرس ملككم من كل آفة وبليه سماويه
وارضيه وبعد تقبيل اياديكم السعيده حرر في جبل لبنان في اوايل تشرين الاول
من شهور سنة الف وستماية وثمانيه وتسعين مسيحيه

عبدكم الحقير استفانوس
بطرس الماروني بطريرك انطاكيه

* هو البطريرك اسطفانوس الدويهي (وهو الـ ١١١ بعد هامة الرسل والـ ١٤ من بطاركة دير قنوبين) تسلم سدة البطريركية عام ١٦٧٠ وشغلها حتى وفاته في ٣ أيار عام ١٧٠٤.

وثيقة رقم (٢)

(من متروبوليت قبرص إلى الملك لويس الرابع عشر)

Doc. n° 9

Ele ... 33.

يشرف بلثم انامل ايادي الشريفه ايادي ملك الملوك حضرة السلطان فرنسا المنصور
الي جناب حضرة سيد الاسياد وملك الملوك صاحب السعادة فخر النصاري سلطان فرانسا
ادام الله عزه وقوته بالسعادة علي مدا السنين والدهور والازمنه والشهور آمين يارب
العالمين ؟
وردت الي عبدكم مشرفتكم وتذكروا فيها انكم انعمتم وثم فوضتم لاميرنا حصن
الخازن عبدكم بقنصلية بيروت وقد فرقتموها عن قنصلية صيدا فانها كانت تبعها
وامرتم لقنصل صيدا وطرابلس وحلب ولقاصدكم الذي في مدينة القسطنطينية ان
يبذلوا مجهودهم في عون النصاري وخاصة في مسعدة طايفتنا وذلك من الغير
العظيمة التي عندكم في النصاري وخاصة في مسعدة طايفتنا الله يديم السعادة
ويابد دولتكم ويقهر اعداكم قدامكم نسال من انعامكم الفايضة تفوضوا اليه جميع
ما يخص الي القنصليه كمثل جميع قناصلكم وترسلوا له بيرقكم حتي اذا جمع رجاله
يبقا يحمله قدامهم ولازلتم دايمين الي دهر الداهرين امين
حرر سنه الف ستماية ثمانية وتسعين اول يوم من تشرين الاول ؟

قطروس
مطروبوليته
دقوبرس

وثيقة رقم (٣)

(من متروبوليت قبرص الى المركيز دي تورسي)

Doc. n° 10

يشرف بلثم انامل ايادي حضرة السيد الشريف وزير ملك الملوك سلطان فرنسا

[illegible]

الي حضرة السيد الشريف النايب المنيف وثاني حضرة ملك الملوك ملك
فرنسا السيد المعروف بطيرشي ادامه الله وابقاه وهناه ولا اشقاه

وصلت مشرفتكم وتذكروا لنا ان حضرة صاحب السعادة سلطان النصاري
المومنين انعم علي اميرنا الامير حصن في قنصلية بيروت وفرزها عن قنصلية صيدا
واوهبها له الله يديمكم ويديم لنا حضرة السلطان الكريم الذي يفوق بانعامه علي
كل كريم نسال جودتكم ان العطيه تكون كامله ودايمه وتكون بجال كل قناصل
صاحب السعادة وتدوم ما دام الامير حصن واولاده بادوا الطاعة لحضرة سلطان
فرنسا ولاولاده تكون لهم القنصليه وطالبين ان يرسل بيرقاً من عنده حتي ان يحملوه
قدامهم لما يخرجوا للسفر وذلك لبيان الود والمحبه ولانتشار اسمه ولعظم عزة حضرة
السلطان يخرج اموالاً جزيله ويقتل رجالاً كثيرة حتي يملك مملكه صغيره وها هو
يصير له عزية بين امم غريبه ويملك طايفه ليست بصغيرة ويصير منها اذا شرف
وذلك بشي جزي بقنصليه وعلاوتها بيرق وذلك يكون لعزية السلطان اكثر
من عزية الامير حصن ولا تواخذونا في كثرة الكلام والدعا ويكون حسن نظركم علي
ابن عمنا الشرياق يوحنا حامل المودة حرر سنة الف ستمايه ثمانيه وتسعين
اول يوم من تشرين الاول

وثيقة رقم (٤)

(من الشيخ حصن الخازن الى الملك لويس الرابع عشر)

DOC. nº 11

يتشرف بلثم انامل حضرة سلطان ملك الملوك المفخم دام عزه آمين

اقبل الايادي مع ارکاب حضرة سلطان ملك الملوك المفخم مع اهدا الدعا الى جنابكم
الجليل بدوام البقا والعلو والارتقا وبلغكم في الدارين امانيكم آمين يارب العالمين وبعد
في ابرك الاوقات وصل الي عبدكم امر الشريف ومكتوب منيف وقبلناهم ورفعناهم على راسي
ورسمتم تجعلوني في قنصلية بيروت جملكم مالك الكل في الدارين وصرت ملزوم ابذل مجهودي في
خدمة سعادتكم وفي قضا مصالح التجار الفرنساويه الذين يتوجهون الى هذه الاسكله وبسبب
عبدكم بين الامم الغريبه يرجى بان تمدوه بشي من فضلكم يقيم ناموسه فيه اكون التجار الذين
يترددون الى هذه الاسكله ما يدخل منهم الا قرش ونصف على المورود على مشوق الحرير
لا غير فحامل العبوديه ابني حنا ينهي الى سعادتكم عن مجاهدتي في هذه النواحي لاجل انتشار
الديانة المسيحيه والتكاليف التي تصير عليّ في كل وقت وحين فان رسمتم تنظروا الى عبدكم
بالنظر السعيد وفي عين الحلم وتمدوه بالذي تفضل احسانكم على ساير القناصل ولا تواخذ
بالتهجم يكون ماله ملجا غير بابكم والعبد ما يطلب الامن مولاه وكم مرة اتقصد اني بنفسي
اتوجه الى تقبيل اركابكم السعيده الا ان الوقت والدهر ما يسمح لي بذلك يكون المومنين
في هذه البلدان كالخراف بين الذياب وكالورد بين الشوك وان شا الله تعالى بحسن
نيتكم النظر علينا تمضي امورنا على اهون حال ودايمًا يكون مستعد انا والشعب
الماروني في استخدام بابكم وطايفتكم المعدن الحلم وفي الدعا لجنابكم في النصر والسعود
الى يوم الخلود باقي ودمتم في امان الله تعالى وحفظ عنايته الازليه على الدوام والدعا

عبدكم
حصن
الخازن

حرر في شهر تشرين الاول
سنة ثمانيه وتسعين
والستمايه والف

وثيقة رقم (٥)

(من متروبوليت قبرص الى الكونت دي بونشارترين)

DOC. nº 12.

23.

البركة الالهيه والنعمة السماويه تكون حالّة على السيد الشريف بن شرطون يازجي
حضرة السلطان المعظم سلطان فرنسا بركة الرب ثانيًا وثالثًا تحل عليك وعلى اهل
بيتك وعلى جميع تصرفاتك اولًا مزيد الاشواق الى رؤياكم بكل خير وعافيه وبعده نعلم محبتك
ان ارسلنا مكاتيب الى حضرة سلطان فرنسا والى حضرة الوزير طورسي انه صاحب السعاده
سلطان فرنسا انعم الى حضرة اميرنا الامير حصن بقنصلية بيروت والان طالبين
منه ان يكمل جودته وعامله بها بما يعامل ساير القناصل اعني بعلوفتها وثم يرسل
له بيرقًا من عنده حتى يرتفع شان السلطان اذا حملوه قدامهم لما يجتمعوا ويكون
لهم العز والكرامه وهذا امر جزئي وخفيف ويصير من اشواق السلطان طايفة
ليست بصغيرة واذا حاج الامر يكون له موضعًا ومقاتل ومن يمشي قدامه ويحميه
لان قاتل الارض كابرها والغريب اعمى ولو كان بصير والفهيم مثلكم ما يعطا طول
شرح قصدنا على محبتكم بذلك حتى بعقولكم تلبقوا تفهموا حضرة السلطان ويكون
حسن نظركم على ابن عمنا الشرياق يوحنا حامل المودة وبعد البركة والسلام
كتبت سنه ... اول سوتا بتشرين الاول

وثيقة رقم (٦)

(من الشيخ حصن الخازن الى الكونت دي بونشارترين)

Doc. nº 13

يصل ان شا الله تعالى الي يد حضرة بن شرطرن الوزير المكرم

الي جناب حضرة المدبر الجمهور صاحب الهمم الوزير بن شرطرن المكرم حفظه الله تعالى امين

بعد اهدا تحيات صافيات وغرر تسليمات وافيات تخص بها حضرة الموما اليه اسبغ الله تعالى جزيل النعم عليه وكان الله حافظه ولا كان عليه بشفاعة الست الطاهرا النقيه ومار يوحنا كوكب البريه امين وبعد وصل مكتوبكم المحرر في ثاني يوم من شهر تموز سنه سبعه وتسعين وستمايه بعد الف صحبة الكولير حنا مرمغون وفهمنا المضمون وحمدنا الله تعالى على طيب اوقاتكم وانهم لنا الاحسان والخيرات الذي صارله من حضرتكم فسال الله تعالى ان يجازيكم عنا بكل مليح ورسمتم على ان حضرة الملك الملوك دام عزه على راسي انه كرامًا لي فرد تنصليت صيدا عن بيروت وجعل القنصلية المذكورة هي الى سعادته الدعا الذي ما خيب مرادي وفي الحين نبهت على اهلي وناسي واتباعي في جبل لبنان من طايفة الموارني وغيرهم من المسيحيه على انهم يقيموا الدعا في الكنايس والديورة ان الله يقبل الدعا ويديم لنا حضرة الملك الملوك زمانًا طويل ونزيد نعلمكم ان التجار الذي تورد الي بيروت قلال في موسم الحرير يجوا ويعطوا على الماية قرش ونصف وعطام جزوي لان المعواق قليل فان رسمتم واصل تابعنا حنا ابن الخوري يكون نظركم عليه وكاتبين عرض حال تقدموه الي بين يداي الملك المفخم المعظم دام عزه امين وان رسم يجعل على شبره تكون ببيت القناصل طرابلس وصيدا بعلايف لان لهم الف قرش والف ثلث واني مترجي من جنابه ومن حسناته العميمه ان يكون لي ازيد من ذلك بكون اني منادي باسمه واقف قرص في جبل لبنان بين ام غريبه وهم يريدوا عطلي والحق سبحانه وتعالى ويصفاوت نية الملك المعظم علي وانا قبال الجميع ولاكن ارجا من الاحسان لجل علايف الاونه وفوضت امري الي حضرتكم وكلما تروه لايق من قيام الناموس تفعلوه والامر الي الله تعالى وثم حضرتكم ولا تخلونا من همتكم الكامله ولا يصير مواخذه لاني ما كتبت الا على سيرة البلاد باقي عمركم باقي والدعا ٥

حرر في اول شهر تشرين الاول سنه ثمانيه وتسعين وستمايه والف ٥ ٥ ٥

تكون عنايتكم في طلوع ختم الشريف الذي فيه الثلاث زنابق حتى نتشرف فيه ولاجل قضا الغراض والدعا

محبكم مخلصكم
حصن
الخازن

وثيقة رقم (٧)

(من الشيخ حصن الخازن الى المركيز دي تورسي)

Doc. nº 14 وثيقة رقم (١٤)

يصل ان شا الله تعالى الي يد حضرة موسي داتورسي صاحب الديوان المكرم ٥

الي حضرة السيد المفخم موسي داتورسي المكرم حفظه الله تعالى آمين

بعد اهدا تحيات صافيات واعز تسليمات وافيات يخص بها حضرة الموما اليه كان الله معه ولا كان عليه آمين وبعد وصل مكتوبكم عن يد الكولير حنا مرمغون المحرر في ثاني يوم من شهر تموز سنه سبعه وتسعين وستمايه والف ورسمتم ان حضرة الملك ازولي قنصلية بيروت عن صيدا وانعم علي بفضله فالحال مني جرا الدعا الي سعادته الذي ما خيب املي وفي الحين نبهت على اهلي وناسي واتباعي في جبل لبنان من طايفة الموارنه وغيرهم من المسيحيه على انهم يقيموا الدعا في الكنايس القرا والديورا ان الله يقبل الدعا ويديم لنا حضرة مولانا الملك الملوك صاحب غيرة المسيحية زمانًا طويل ونزيد نعلمكم ان من حين وصل حنا وانها لنا الاحسان الذي برال من حضرتكم الله يجازيكم على كل ما ترد وكان غاية مرادي اني اتوجه لتقبيل اياري حضرة تاج راسي الملك ولاكن اشغال الدهر تمنعني عن المسير اطلب من الله ان قبل مماتي يكون لي حظ بما ذكرت فلزم ان وجهنا اشي حنا انه يقبل الايادي الشريفه ومع الركاب السعيد فان رسمتم يكون نظركم الكريم معه وتدخلوا وتعرضوا امرنا بين يدين سعادته فانه راسم الكون تنصل بشواب قناصل طرابلس وصيدا وحلب والمذكورين صار لهم قسم علايف في كل شام الف قرش والف ثلث والبعض منهم ازيد وعن ما يحده على الماية المتجر قرش ونصف ولاكن دوت لطيف يكون ان التجار ما تلقي الا موسم الحرير وارجا من احسانه العميم علي ان يكون لي ازيد من ذلك يكون اني منادي باسمه واقف قرص في جبل لبنان بين امم غريبه وهم يريدوا عطلي والحق سبحانه وتعالى ويصفاوت نية حضرة الملك المعظم علي وانا قبال الجميع ولاكن ارجا الاحسان لجل علايف الاونه وفوضت امري الي الله وحضرتكم وكلما تروه لايق من قيام الناموس تفعلوه والامر الي الله تعالى وثم حضرة مولاي الملك الملوك صاحب القدرة والعظم تكون عنايتكم الكامله فيما ذكرنا ولا يصير مواخذه ما كتبنا الا على سيرة البلاد باقي عمركم باقي والدعا ٥

محبكم
حصن
الخازن

حرر في اول شهر تشرين الاول سنه ثمانيه وتسعين وستمايه والف

وثيقة رقم (٨)

(من البطريرك اسطفانوس بطرس الى كل سامع وناظر)

— Archives Nationales - Paris (Archives de la Marine, Dossier Cote B7, 218 - Marine).

وثيقة رقم (٩)

(من البطريرك اسطفانوس بطرس الى الملك لويس الرابع عشر)

٩

وهذا الدير ما زال ابدًا محل لغناصلكم وتجاركم ولبقية الافرنج الذين يقصدون هذه البلاد
بسبب زيارة ام تجارة وان كان هكذا بيرسم خاطركم الشريف توكلوا تنصب
طرابلس في ثبات الامر وهو يكون دعوجينا عند الباشا والجيكم عند السلطان
وفي ذلك ايها الملك العظيم المظفر بالنصرة خلدتوا اسمكم الشريف بين جميع الطوايف
والامم وسندتوا الملتنا القاتوليقية في هذا الجانب الذي بسبب تشتيت اولادها بردت
وانهزت والذي بيرفع شان الايمان ليس هو باقل من الذي ينصبه وتصيروا لنا ابًا
ثانيًا افضل من الاول الذي اتانا الي البلاد وانتم تكونوا اولدتمونا للراحة ؟
ثم نعلمكم ولي نعمتنا واجل فخرنا ان من مدة عشر سنين وانوف عن ذلك ارتمى كرسي
تحت ديون محصورة بسبب الضنك والحروب التي صارت في هذا الجانب وبسبب
الفقرا والمساكين الذين يومي يلتجون اليه ونحن جاهدنا جهدًا بليغًا حتي نوفيها الا انه ما
امكننا ذلك فلكن ازدادت علينا وما نعرف كيف نعمل والي من نلتجي الا الي سعادة
الملكيه ومراحمكم العميمة انكم اكرامًا لله ولستنا مريم التي نحن في هيبتها تمدونا
في احسانكم وتسعفونا في صدقاتكم ونحن ما لنا باب نقرع فيه الا بابكم ولا احد قادر
ان ينجينا دون عكم القاهر العظيم واذا ناظرتمونا بعين الرحمة تكونوا بالحقيقة
قد انقذتمونا من شدايد وبلايا عظيمة وانقذتوا ايضًا طايفتنا ودين القاتوليقي في هذا
الجانب ؟
وحتي نبلغ مقصودنا وننال من مراحمكم العميمة قد ارسلنا ولدنا العزيز الخوري اليا
بازجي في هذه العبودية ليخبر سعادتكم بجميع مصايبنا ونرجي حضرة اجنابكم
فيه غاية التوصية وتجعلوا نظركم الشريف عليه وتشملوه بعينايا احسانكم لانه
عبدكم داعي لكم بالبقا والارتقا واذا حلمتم علينا بالمكاتيب وكتبتم الي استنبول
وصار نصيب انه يتوجه فيها توصوا فيه الجيكم وقناصلكم وخدام بابكم وتنعموا
في وظيفة ما من قبلكم ليتشرف بها ويصير تحت حمايتكم ملتجي تحت اكنافكم
الي الابد حتي لا يتعرض لاخذ ولا يلتحق به ضرر خاصة انه رايح شكواي على ظلم
الجانب ومالة من محاميه الا هو وتكم وسطوتكم ومهما فعلتم معه يكون متصل بنا
وبعد تقبيل اياديكم الف تقبيل ودمتم في امان الله وحفظه سعيدين على ارغام
الاعداء دايمين منتصرين الي ممر الايام والسنين ؟
حرر في قنوبين في ... من اذار سنة الف وسبعماية ... مسيحية

عبد سعادتكم وداعيكم
اسطفانوس
فطروس فطريركا
دانطيوكيا محيلا



وثيقة رقم (١٠)

(من البطريرك اسطفانوس بطرس الى الكونت دي بونشارترين)

Doc. n° 17 — وثيقة رقم (١٧)

يتشرف بانامل حضرة اجل الامرا وافخر الوزرا بنت شيطرين الوزير المعظم دام ...

En carchouny — caractère syriaque

Lettre du Patriarche des Maronites au ... de Pontchartrain du 2? mars 1700 ...

اسطفانوس
فطروس فطريرك
دانطيوكيا محيلا

7

لحضرة اجناب عز الاكابر واجل الامرا السيد العالي الكوكب المتلالي بنت شطرين
الوزير الكبيري العالمي المشيري دام عزه وابقاه آمين ؟
خلع عليه الله تعالي نعمة الجناب العالي الوزيري الاجلي عز الامرا المومنين سيد الرعايا
المسيحيين نصرة الغزات والمجاهدين زعيم الجيوش المنصورة مقدم العساكر المبرورة
ممهد الدولة المخلدة كهف الملة المجيدة لا زال دايم النعما مرتقيًا الي العليا مستمد
التصرف في الاصدار والاعادة والابدا صدرت هذه المكاتبة الي المجلس العالي نهدي اليه
سلامًا طاب ذكره وعز نشره وبركات وايمات ودعوات خالصات وتوضح
لعلمه الكريم ان من زيادة الظلم والضنك الذي حاقنا في هذه السنين وبسبب الجور
والاضطهاد الذي لحق طايفتنا التزمنا التزامًا كليًا نرتمي بخشوع متواتر علي اقدام
ولي النعم سلطان الافرنجة دام عزه ونشكي له عوزنا لان ما لنا رجا ولا نجا الا منه ولا اميد
غيره قادرانه يمد ذراع رحمته ويشتلنا بانه ينعم علينا نحن عبيده في مكاتيب الي استنبول
والي الجيه الكاين هناك يبرزوا لنا امور شريفة مخلدة في دفع الظلم عن جبة بشراي وترفع
عن طرابلس وتكون تبع الشام لمحل النبي كما كانت سابقًا ويعود مالها علي ما هو محرر
في الدفترخانه وكرمينا يكون معافًا علي حيسه ونكون اجمعين تحت حماية الالجي وقناصله
هذا الجانب وطالبين امرًا من سعادته يسعفنا في مراحمه وينظر الينا بصدقاته حتى نقوم
في حملتنا ونوفي جانب من الديون التي ارتكبتنا بسبب القهر الذي صار علينا والفقرا والمساكين
الذين يومي يلتجون الي هذا الكرسي ونحن كاتبين لاجنابكم لتعرفكم في حالنا وتكونوا لنا
دعوجين امام سعادته لان ميقن عوزنا نحن عبيدكم ان في هذا الباب العالي ما فوق بركم جود ومن
غير عنايتكم ما يمكن يصير شي لانكم ابنوب جميع النعم وناموسكم وغيرتكم وافرة علي جميع
النصاري والزاير علي الغربا والمظلومين وانتم ما وضعكم الحق سبحانه وتعالي العارف في الخفيات
والاتيات في هذا الباب الكبيري وجلسكم علي الكرسي الوزيري الا لحسنة الفقرا والمظلومين
فالمرجوا الان من جلكم تكونوا سعفتنا عند حضرة السلطان في جميع امورنا وتلاطفونا ...

P/665

عنايتكم وتشملونا بنظركم يبقالكم الثواب عند الوهاب والمدحة عند جميع العباد وتكونوا
الزمتمونا وهذه الطايفة التا توليقيه الرومانيه تدعي لكم ليلاً ونهارًا برفع شانك
بدوام حياتكم بارتقا عزكم وتخليد خلافتكم الى يوم الميزان والواصل الى تقبيل اياديكم عبد
ولدنا الخوري الياس يا رجينا تجعلوا نظركم عليه يكون تحت كنف حمايتكم ولا يحتاز احد
غير جميل اجنابكم واذا صار نصيب واتوجه في مكاتيب الى استنبول تكلفوا خاطركم
توصوا للايلجي وللقناصل ولجميع خدام وعبيد هذا الباب العالي ومهما فعلتم معه
يكون متصلاً بنا ودمتم في امان الله وحفظه ناجيين الى الابد سعيدين
حرر بدير قنوبين في ٢٤ كب من شهر اذار سنة ١٦٩٨ ربان ١٦٩٨ تحل

عبدكم وداعي لكم
اسطفان بطرك انطاكيه

وثيقة رقم (١١)

(من البطريرك الماروني الى الملك لويس الرابع عشر)

Doc. no 18

[illegible]

39.

يتشرف بلثم انامل حضرة السلطان الجليل سلطان فرنسا المظفر دام نصره
الى الباب الاعظم والدستور الافخم الذايع فخره والدايم ظفره سند البيعة المسيحيه
والاجل بين الملوك في الحروب والاضمانيه لويس المعظم ملك فرنسا ونوررا ادام الله
المعروض بعد الدعا المفروض الى جنابكم الجليل هو ان عبيد بابكم الملة المارونية القاطنين
في جبل لبنان الذين في كل الامصار الشرقيه ما زالوا ابدًا معتصمين وحرم
الكنيسه الرومانية ويدعون لجنابكم العالي في جميع قرابينهم وصلواتهم الليليه والنهاريه
وبسبب انهم معتقلين تحت عبودية الملل الغريبه يسالون جلالتكم تشملوهم بحسن
النظر الكريم وتجبروهم بمشترفته الى الايلجي الذي من طرف سعادتكم في المدينة القسطنطينيه
يبرزلهم خطًا شريف بان دير قنوبين الذي بالقرب من مدينة طرابلوس الشام يكون
تحت جناح عنايتكم السعيده لكونه مقر كرسي البطريرك الانطاكي وكما ان بلد
هذا المقام المقدس كان بعناية تاودوسيوس الكبير ملك الروم كذلك تكون صيانته
في الامان والاضمان بهمتكم العاليه لان المال الذي كان مرتب عليه سابقًا الى باشة طرابلوس
كان مايتين قرش وفي اول ارتقاينا الى درجة البطركيه اوصلوه الى الاربعماية قرش
ولم يزالوا عام بعد عام يزيدوه ظلمًا وتبريح كان هذا البلاد الذي نحن فيه كان او
مالهم اربعة الاف قرش ثم اوصلوه الى سبعة الاف ولم يزالوا يزيدوه على خاطرهم لكونه
تحت الضمان فاذا تفضلتم واخذتم هذا الكرسي على كيسكم وجبرتوه بالذي ينا سب
حلمكم العميم يبقا لسعادتكم الاجر ولنا الي مدا الدهور وانا عبدكم الحقير اسال الحق
سبحانه وتعالى يسبغكم في بركاته الالهيه جسدًا وروحًا ويخلد دولتكم في
الفرح الهنا ويحفظ حضرة اولادكم الملوك المفخمين بدوام العز والبقا ويامن
بلدانكم ويقهر من يشناكم حرر بدير قنوبين مقام الكرسي الانطاكي في اواخر تموز
المبارك سنة الف وسبعماية من العبد الداعي سطفانوس بطروس
البطريرك الانطاكي

وثيقة رقم (١٢)

(من البطريرك الماروني الى الملك لويس الرابع عشر)

Doc. nº 19

يتشرف بانامل فخر السلاطين سند النصاري المومنين سلطان الافرنجه المظفر
بالنصر دام عزه آمين

الي اجناب عظمة السلطان فخر الدين والايمان دام عزه ونضرة الرحمان
سلطان السلاطين سند النصاري اجمعين سلطان الافرنجه ابّد سعادته وخلّد تخته
وخلافته آمين بحق رب العالمين

اما المعروض من بعد الدعا المفروض علي مسامع ولي نعمتنا واجل فخرنا وسعدنا
فهو ان حامل ورقة العبوديه عبد سعادتكم والداعي بدوام حياتكم ولدنا الشيخ ابو يوسف
رزق هو ماروني قاتوليقي خاضع طايع لكنيستنا ومن اكابر طايفتنا المارونيه وهو ا
شقيقاً للمرحوم الشيخ يونس الذي من جور الظلام وخوف الكفار وحتي يخلص
اولاد والقاصرين وتوابعه وقرايبه بعدد كبير اضطر انه يجحد دينه علي وجه
الحكام وكان سبب قبضهم من الاسلام انهم كانوا هم كبروا بالزايد بالدولة والارزاق
في القوة والاتفاق في هذا الجانب زود عن الملة المحمديه فلكن المذكور عندما سهل الله امره
وظفر بيته واولاده وجميع اهله بعد الاربعين يوم عن ما كان جري له هرب ليلاً الي
الجبال واجاء لمساعدته الي عندنا واستقر في خطيته بوموقا عزيز واقفه من صميم القلب
واستقبل القانون برضاه واختياره ثم ان ابرز اموره شريفه وحج منيفه من الباب
الاعلي بان جحوده كان غير ثابت ونزل بنفسه الي مدينة طرابلوس واستقر جهراً في
الديانة المسيحيه وما زال كذلك مدة خمس سنين فلاجل ذلك انقلبت عليه الاسلام
واصحاب الولايه لانه بوجههم نادا في دين القاتوليقي وجحد دين المحمدي فقبضوا عليه
وحبسوه واهانوه بانه يعود الي دينهم فما امكن ذلك ثم بعثوا عرضا عليه شروط
وتعاليق ارزاق واموال وفضايل ونعم من قبل السلطان للجميع كان جوابه ان ما يمكن انه
يبدل الحق بالباطل وكرامة الزايل بخسر الابدي وحتي انه يخلص من عذاب ساعه يقع في
نار ابدي فلما عجزت عنه الاسلام قضوا عليه في الموت علي الخازوق امام جميع الامم والشعوب
علي تلّه فاستقبل بذلك بفرح وسرور ومات وهو مقرّ في دين المسيح جهراً باكيا
علي ما كان جرا منه وحامداً شاكراً انه صار اهلا لهذا العذاب لاجل دين سيده ومعه
ايضاً اتعلقوا علي اخوه الشيخ رزق الواصل الي تقبيل اقدامكم فاحبس واتعذب وعندما
عجزوا عن اسلامه خسروه جملة الاثاث واوقفوا جميع رزقه ورزق اخوه وبيوتهم واثاثهم
وكل شي يستقفوا علي وجه الارض الذي كانوا في كل عام يستفيدوا منهم جملة الاثاث عند ذلك
اخرجوه من الحبس واذ لم يكون بقا له شيا ولا قدرة يقوم في اعياله ولا في تربية اولاد
واولاد اخوه يونس المرحوم جملتهم نحو خمسة عشر نفس واغلبهم بنات بل انسبقوا
ذاتهم وارتكبهم دين الناس فاضطر انه يقصد اصحاب الجوده ويقرع في ابواب الرحمه

والكرم وخاصة في باب حلمكم العميم فارتمي علينا حتي حررنا له هذه العبوديه
لاجنابكم العاليه وما ابينا عن ذلك لانه من الاكابر طايفتنا وله تعب قدامنا
واذا عاد الي حاله لازم ينفعنا فالمرجوا من حلمكم الغريزي ومراحمكم العميمه تقبلوا
دعا بي انا عبدكم وتشملوا المذكور بنظركم الشريف حتي انه يقدر يخلص اعياله واولاد
اخيه الينا ما القاصرين من ايادي الاسلام ويرمم طايفته ويعاود الي حاله والامر
في حنيتكم ايها السلطان العالي والمظفر بالنصر هو كبير وان شا الله غير خايب
ودمتم مسعدين وعلي ارقاب الاعدا داعسين موفقين
حرر بدير قنوبين في اب المبارك بتسع ايام خلت منه سنة الف وسبعمايه ربانيه

عبد سعادتكم والداعي لاجنابكم
اسطفانوس فطروس فطريركا
دانطيوكيا محيلا

وثيقة رقم (١٣)

(من الكونت دي بونشارترين الى البطريرك الماروني)

Lettre de Monseigneur de Pontchartrain au Patriarche des Maronites du 3 novembre 1700.

Doc. no 20 36 وثيقة رقم (٢٠)

21

Monsieur

J'ay leu au Roy la lettre que vous avez écrite à Sa Ma.té au mois d'aoust dernier pour demander sa protection pour le monastere de Canobin ou vous residez. Elle m'a ordonné de mander à M. de Feriol son Ambassadeur à la Porte d'interposer ses offices auprès du G. V. pour vous faire donner tous les secours que vous pouvez justement demander contre les vexations dont vous vous plaignez. Je luy envoye à cet effet copie de vostre lettre, mais afin qu'il soit mieux instruit, vous pouvez vous addresser à luy, et luy expliquer ce dont vous avez besoin. Vous jugez bien qu'il ne convient point au Roy de charger ses Officiers de prendre à ferme du Bacha de Tripoly les droits qu'il exige des Monasteres et du pays ou vous estes establi, ce que ce seroit dans la suitte une occasion d'avanie pour la nation françoise, dont le commerce pourroit en souffrir. Je suis.

Monsieur

Vostre tres humble et tres affectionné serviteur

A Fontainebleau le 3 novembre 1700.

Pontchartrain

ملاحظة: إن الرسائل الثلاث (من ١٣ إلى ١٥ ضمناً) هي رسائل فرنسية، عرّبت في المحفوظات الفرنسية، وقد حرصنا على وضع نص الرسالة باللغة الأصليّة (الفرنسية) وكذلك تعريبها الذي عثرنا عليه في المحفوظات، رغم ان هذا التعريب ليس مطابقاً تماماً للأصل الفرنسي.

الى

يصل ان شاء الله تعالى الى الاب المكرم والبطرك المحترم بطرس البطرك الانطاكي المتمكن في دير قنوبين عمره الله وانفعنا الرب ببركات صلواته امين

ايها الاب المكرم بعد السلام على جنابك وجنابه من يلوذ بك فليكن في مقر علمك الى باني قريت على ضيف الملك المعظم المكتوب الذي راسلته به بتاريخ شهر آب من هذه السنة وانت تستغيث فيه بحمايته الملوكية على دير قنوبين عمره الله الذي انت ساكن فيه بناءً على ذلك فانه قد امرني بتحرير مكتوب من عنده الى حضرة رسوله في باب السلطان العثماني ليتوسط بشفاعته عند الوزير الاعظم حتى يمدوك بانواع الامداد الواجب فيه عدلاً ضد الظلم الذي انت شاكي به ولاجل ذلك فاني ارسلت الى الايلجي المذكور بنسخة مكتوبك الذي كتبته حتى يكون خطه عليه واضح وابين فان احببت سلّه بما تريد واشرح له حاجتك وغرضك بايجازه ويقضيه على حسب الطاقة والامكان وفي ظني انه ليس بلايق لضيفي المنصور ان يستضمن من باشة طرابلس بامر غيره باستضمان من باشة طرابلس التكاليف التي بها الديوره والبلاد الذي انت فيه ساكنا ربما يكون في الزمان الاتي سبباً للعوانيات ونوا بها على طايفة الفرنسا وبين ويرجع بحواله ضرراً ونقصاناً للتجار وانا ايها الاب المكرم اسالك من الرب البركة امين من المحب المخلص تحريراً بمدينة فونتين بلو في ثالث شهر كانون الثاني سنة ١٧٠٠ بونشارترين

الوزير بفرانسا

المسمى بموسو فريول

كل ولدحاك

ملاحظة: في النص الفرنسي (٣ تشرين الثاني)

(أنظر النص الفرنسي للرسالة)

وثيقة رقم (١٤)

(من الكونت دي بونشارترين الى متروبوليت قبرص)

Doc. no 21

وثيقة رقم (٢١)

Monsieur

J'ay receu la lettre que vous m'avez escrit le 1er octobre 1698 laquelle m'a esté remise par le sr Jean Baptiste. ce rendu compte au Empereur mon Maistre de celle de l'Emir Husseine Cazin, qui demande 4m ℔ d'appointements pour le Consulat de Barut, Sa Majesté n'a pas estimé juste de les luy accorder parce qu'il n'a prétendu en jouir que de la mesme manière que les Emirs Abou noufel et Abou Canson qui n'en auroient point receu seulement la retribution des marchands qui negocieroient a Barut, et que la Chambre du Commerce qui paye ces sortes de depenses est tellement surchargée a cause des differents mouvements de guerre et de paix qu'il y a eu depuis peu, en qui recommenceront peut estre encore si bientost qu'il faudroit faire des impositions sur les marchands, ce qui les fatiguerait trop. en attendant que les conjonctures soient assez favorables pour faire quelque grace a l'Emir sur ce sujet; Mr de Feriol Ambassadeur de France a Constantinople a ordre de luy donner en attendant toutes les secours qui depend de luy

Je suis

Monsieur

a Versailles le 29 decembre 1700

Vostre tres humble et tres affné serviteur Ponchartrain

19.

الى الاب حضرة الاب المكرم والمطران المحترم بطرس المطروبوليت بقبرس متعنا الله ببركته

ايها الاب المكرم بعد السلام على جنابك قدسك وجنابه من بلوزيك نعلمكم في معرفتكم الشريفة بانه قد ورد علينا مشرفتك التي كاتبتنا بها بتاريخ تشرين الاول ١٦٩٨ على يد حاملها الشرياق يوحنا ابن الخوري واني قريت على ضيفي السلطان المعظم نصره الله مكتوب الامير حصن خازن وما يطلب فيه من الاربعة الاف تلث علوفتا على قنصلية بيروت فانه نصره الله لم يستصوب ان يحسن اليه بذلك كونه لم يطلب تلك القنصلية كما كانا يتصرفا بها الامير ابو نوفل والامير قنصو ولا كان لهما علوفه بل كانوا ياخذوا ما كان يعطوه التجار المتسببين في اسكلة بيروت والسبب في امتناع ضيفي نصره الله ذلك خصوصاً لان الاوطة المخصوصة للتجارة التي توفي امثال ذلك الخرج عليها حمل بسبب الحركات المختلفة الواقعة في هذه الايام من الكون والصلح ولعل تعود تبتدي ايضا عن قريب فلذلك كان يجب علينا نرمي التكاليف على التجار ويكون ذلك ثقيلاً عليهم وبعدما يكون الزمان موافق للاحسان على الامير المذكور بشي من الايراد فانه نصره الله بعث الى رسولي الساكن في القسطنطينيه امراً موكداً حتى يمده ويمد له المعاونه بجميع ما يجي من يده من الامداد والسلام على جناب قدسكم من محب الصادق حقاً وصفيكم الخالص صدق

حرر بوارصاليه في ٢٩ كانون الاول ١٧٠٠

من المحب المخلص
الفقير بونشارترين
الوزير بوبا ترنجه

حالا

وثيقة رقم (١٥)

(من الكونت دي بونشارترين الى الشيخ حصن الخازن)

وثيقة رقم (٢٢)

20

a Versailles le 29 decembre 1700

Illustre et Magnifique Seigneur. J'ay receu la lettre que vous m'avez escritte le [illegible] octobre 1698 et presenté à l'Empereur mon Maistre celle que vous m'adressez pour sa majesté. Comme elle vous a accordé le Consulat de Barut de la mesme maniere que le possedoient vos ayeulz Abou Noufel et Abou Canson qui ne jouissoient d'aucuns appointements mais seulement des retributions que les marchands qui alloient dans ce port leur payoient, Elle n'a pas estimé juste de charger la chambre du Commerce d'une augmentation de dépence aussy forte que celle des appointements que vous demandez, d'autant plus qu'il y a eu trop peu de temps que la paix est faitte, et estant peut estre dans la conjoncture presente preste à se rompre, tous ces mouvements qui interrompent le commerce et le troublent, obligent à le menager avec toutte l'application possible. Lorsque des temps plus favorables permettront de vous donner quelques secours d'argent, Je le proposeray volontiers à sa Majesté; en attendant Elle reitere ses ordres à Mr. de Feriol son Ambassadeur à Constantinople de vous aider et la nation Maronite de vostre dependance en tout ce qu'il pourra. J'ay fait remettre au sieur diacre Jean Baptiste le seau Royal que vous demandez. Je suis

Vostre tres affectionné amy

Pontchartrain

21

Lettre de M. de Pontchartrain à l'Emir Hassan Cazin maronite consul de France à Barut le 29 dec. 1700

حصن خازن

الى الامير المكرم محبنا العزيز [illegible] سلمك الله و رعاك وحفظك

سلام ارق من النسيم والطف من الحياة على القلب السليم اما بعد فقد وصلنا كتابك [illegible] تشرين الاول [illegible] وعرضت [illegible] لسيدي السلطان نصره الله [illegible] وشفتك التي كتبت بعثتها الى مقامه العالي [illegible] وكان نصره الله احسن اليك بقنصلية بيروت على طريق حسب ما كان اجدادك ابو نوفل وابو قنصوه متصرفين عليها ولا كان لهما علايف بل كانوا [illegible] بما يعطوه التجار الواردين الى بيروت من الرسوم [illegible] على ذلك فانه نصره الله [illegible] صوابا [illegible] ذلك الخرج الجديد [illegible] على اوطة التجارة ذلك الخرج الجديد [illegible] العلوفة التي انت طالبها [illegible] ثقيلا عليها و [illegible] في هذه الايام التي [illegible] الصلحة بين الملوك ولعلها [illegible] قريبا حسب [illegible] الصدد [illegible] والتقدير الرباني فجميع تلك الحركات [illegible] الصالحة والمعاونة بين الملوك [illegible] لكسر التجارة وانقطاعها عن البلاد [illegible] فهي ايضا سببا الزمنا الكل على حفظها ورعايتها وان شاء الله تعالى ان يلطف [illegible] بزمان موافق حتى يهدي [illegible] الدينار [illegible] عليه بسرور قلب و [illegible] ان يكون ذلك فانه نصره الله [illegible] امرا مؤكدا مكررا [illegible] الى رسوله الساكن بمدينة قسطنطينية المسمى [illegible] ان يمد [illegible] جميع الطايفة المارونية اهل [illegible] بسائر [illegible] الامراد ودا [illegible] قد اوضعنا بيد الشماس يوحنا ابن الخوري الختم الشريف الملكي الذي طلبته منا والسلام [illegible]

من المحب المخلص

بونشارترين

الوزير بالفرنجي

تحريرا بالقصر السلطاني وارساليه في ٢٩ شهر كانون الاول سنة ١٧٠٠ مسيحية والسلام